الحلقة الأولى

عزيزى يحيى

أكتب لك رسالتى هذه وأنا هادئ تماما، على عكس ما توقعت .بل إن هناك بهجة عميقة تعترينى، وما كنت أحسبنى أبتهج. كنت أظن أنى سأضطرب وأخاف من هول العواقب، أنا الذى لم أدخل فى صدام بحياتى كلها. كنت أتمنى لو لم يحدث أى من الأمور التى حدثت، مع أنى فكرت فى الأمر عشرات المرات، من كل الجوانب التى استطعت تبيُّنها، ووصلت إلى قناعة تامة بحكمة قرارى هذا .تمنيت لو سارت حياتى فى طريقها المعتاد. لكنى، مثلما يقول كل المضطرين لاتخاذ قرار يكرهونه، لم يكن أمامى إلا الاختيار من بين البدائل المتاحة .تمنيت لو استطعت إضافة خيارات أخرى، لكنى لا أستطيع. والمفاجأة أنى لم أعد أكره قرارى، بل على العكس.

لم يبقَ أمامى سوى أربع وعشرين ساعة لأكتب هذه الرسالة التى قد تكون الأخيرة. وكنت أظن هذا الوقت كافٍ لأكتب لك كل ما أردت، لكنى أدرك الآن أن الوقت لن يسعفنى.

كان ينبغى البدء قبل الآن، ربما بثلاثة أيام، لكن لم يكن ذلك ممكنا، من الناحية الأمنية.

لذا سأدخل فى الموضوع مباشرة دون استرسال. وأطلب منك منذ الآن أن تعذرنى، فالوقت قليل، ولدىّ أشياء كثيرة أقولها لك، ورغم أنى فكرت طويلا فى ما سأسطره حين أشرع فى الكتابة، وصغته فى ذهنى عشرات المرات، فإن الأفكار تتزاحم الآن فى رأسى .ستجد رسالتى مشوشة بعض الشىء، ومؤكد أنى سأكرر بعض الأشياء، وأطيل حين تظن أن علىّ الإيجاز وأوجز حيث تنبغى الإطالة. سامحنى. لو كان الوقت يسمح لكنت راجعت هذا الخطاب بعد إنهائه وشذبته كى يصبح نصا متماسكا منمَّقًا كما اعتدت أن أفعل. لكن لم يعد هناك وقت لأى من هذا، سأقول ما لدىّ بغض النظر عن الطريقة التى سيبدو عليها الكلام. ولندخل فى صلب الموضوع.

اليوم هو العشرون من أكتوبر 2020، وحين تصل إليك رسالتى هذه، بعد يومين بالضبط من الآن، سأكون سجينا أو جثة.

إما سيقولون لك إن أباك مات بطلا، وإما ستقرأ فى الجرائد نبأ خيانتى الكبرى والقبض علىّ.

أنا الذى شاهدت بأم عينى صنوف الخيانة كلها، سيرموننى بدائهم وينسلون، كما فعلوا من قبل، عشرات المرات. لم أحاول منعهم من قبل، لكنى لن أدعهم يفلتون بفعلتهم هذه المرة. لا، ليس هذه المرة. هذه غضبتى، غضبة عمر بأكمله. غضبة قد تكون الأخيرة، لكنى لن أضيعها سدى. أخذت احتياطاتى، وعزمت أن لا ألعب دور الضحية. وهذه الرسالة، قد تكون طوق نجاتى الأخير إن فشلت كل الاحتياطات الأخرى. فاحرص عليها، فقد تكون هى الفارق بين الخيانة والبطولة، بين النصر والهزيمة.

إن قُتلت فى اليومين القادمين، لأى سبب كان، فستكون أنت ورسالتى هذه آخر وسيلة لإنقاذ سمعتى وإنقاذك أنت والباقين من كارثة محققة .فاقرأ جيدا .ولا تتعجل، سأشرح لك القصة كلها. سأبدأ من البداية وأشرح لك كل شىء. وحتى لو لم يقتلونى، أريدك أن تسمع الحكاية منى قبل أن تسمعها من الآخرين .أريد أن أشرح لك ما حدث قبل أن يشوهوا صورتى أمامك. وهذه مسؤوليتى إزاءك كأب ستحمل اسمه رغما عنك ما حييت، وتقترن سيرتك بسيرته شئت أم أبيت .وأهم من ذلك، تتصل دواخل نفسك به وبصورته وبما فعل. ومن ثم وجب علىّ التفسير.

ومن باب الاحتياط أيضا، ولأنى لست متأكدا من نجاتى من هذه المغامرة، لأنهم لا يعرفون حدودا ولا يتوقفون عند شيء، فإنى أريد أن أقول لك الآن كل ما أردت قوله لك فى سنواتك القادمة. سأفعل إذن ما لم نفعله معا من قبل، أنت الذى تبلغ عامك العشرين بعد أسابيع قليلة، وهو أن أحدثك كصديق، من رجل لرجل. سأقص عليك أشياء يُذهِلك سماعها، خصوصا منى أنا، وبعضها سيزعجك .سأحدثك عن مشاعر ربما لم يخطر لك أنى أمر بها، وعن أمك، وآخرين من عائلتنا ومن أصدقائنا المقربين. كنت أفضل أن أقول لك هذه الأشياء واحدة واحدة، وأنت تنتقل من عتبة إلى عتبة فى مشوار الرجولة الطويل. لا يحب الرجل منا سماع النصائح، خصوصا من أبيه، لكن الأب الذكى الصبور يجد دوما طريقا لتسريب النصائح لابنه، واحدة واحدة ومع الوقت. مضطر أنا إلى القفز فوق كل هذا، ومضطر إلى أن أقول لك كل ما أريد دفعة واحدة وأنت فى خطوتك الأولى نحو الرجولة.

لن يعجبك معظم ما أقوله فى هذا الشأن، ولك الحق. ستبحث لنفسك عن طريقك الخاص، بل وقد تحاول إثبات خطأ آرائى، ولك الحق. كل ما أطلبه منك أن لا تحارب هذه الآراء. ضعها فى محفظتك، كصورة قديمة لى، ومن وقت إلى آخر، لنقُل فى عيد ميلادى أو ميلادك، أخرجها وانظر إليها من جديد وفكر فى جدواها وصحتها مرة أخرى. هذه هى الطريقة التى قد تبقى لنا لأكون أباك فى سنواتك الكثيرة القادمة. سأحدثك إذن كأن هذه محادثتنا الأخيرة، وكلى أمل وتصميم أن لا تكون كذلك. لكنى أفعل هذا من باب الاحتياط، فلا أريد إن قتلونى أن أتركك دون أب، ولو فى صورة رسالة.

سأقص عليك قصصى دون حواجز، كأصدقاء. وتذكر، إن أزعجك بعض كلامى، أنى أحبك، كأنك أنا. وأنى حين أنظر إليك أراك كأنى أنا أعيد تشكيله بطريقة أخرى. فنحن فى نهاية الأمر رفقاء سلة الجينات التى نتقاسم معظمها، كأنها سحابة تضمنا نحن الاثنين، أحيانا تصير أنا وأحيانا تصير أنت .وتأكد أنى أحب طريقتك المختلفة عنى كما أحب طريقتى، وأنى أحب فيك تمسكك بهذا الاختلاف ويملأ قلبى اطمئنان وحب وأنا أرقبك تبحث عن نفسك لطريقك الخاص .أنت أنا الآخر. ويوما ما ستشعر مثلى بالضبط، وأنت ترقب ابنك يكبر.

سأحكى لك أشياءً عنى وعن أمك، أريدك أن تقرأها وتحاول فهمها كرجل، لا كطفل ينظر إلى والديه. سأحكى لك عن عمك وعمتك، ولا أدرى إن كنت تتذكرهما، وعن نساء عرفتهن، وأصدقاء سيذهلك أنهم كانوا أصدقاء أبيك .وسأحكى لك عن جدك وجدتك. وعن نور، تلك الشمس المشرقة التى تعرفها لكنك لا تعرفها، والتى ستراها كثيرا إن نجوتُ من مغامرتى هذه وإن لم أنجُ. سأحكى لك عنها كى تراها جيدا عندما تراها. وسأوصيك خيرا بكل هؤلاء، أن تبقى على ود من بقى حيا منهم وأن تزور قبور من مات وتقرأ له الفاتحة، ولو مرة كل عام .ستريك هذه الرسالة وجها لا أحسبك قد رأيته فى من قبل أو حتى تخيلت وجوده .أنا الهادئ دوما، الصامت معظم الوقت، المنفرج الأسارير دون ابتسام، الذى لا يشعر أحد بوجوده كأنه شبح شفاف، سترى نسخة جِدَّ مختلفة لأبيك.

سأتوقف عن الاسترسال وأنتقل فورا إلى ما أريد قوله، لكنى أذكّرك مرة أخرى أن تبلغ كلمتى هذه للعالم إن أصابنى مكروه. انشر هذا الخطاب، دون حذف أو إعادة صياغة أو ترتيب. انشره كما هو، لأن ما فعلته لن يكون له معنى إن لم يعلم الناس به وبالأسباب التى حدت بى إلى فعله. إن حاكمونى فسيكون لدىّ فرصة لفضحهم وشرح ما سيسمُّونه خيانتى للوطن. أما إن قتلونى فسيكون ذلك محاولة منهم لإخفاء القصة بأكملها، وسيقع على عاتقك حينها فضح ما جرى .كل ما عليك فعله هو وضع هذه الرسالة على الإنترنت. أمامى أربع وعشرون ساعة كى أكتبها، وعند بدء الهجوم مباشرة سأرسلها، فى تمام الرابعة صباحا .وستصل إليك بعدها بأربع وعشرين ساعة أخرى تكون خلالها قد نسخَت نفسها مرارا فى نقاط آمنة بحيث لا يمكن لأحد محوها. لن يفلتوا هذه المرة.

أكتب لك من بحر الصين الجنوبى، من فوق متن سفينة شحن تجارية بريئة المظهر، نشقّ عباب البحر فى هدوء شديد عائدين إلى مصر. يُفترض أن نبلغ ميناء النصر الجديد بعد خمسة عشر يوما نحن والشحنة النووية التى نحملها وسط آلاف الحاويات التجارية. بمجرد وصولنا سيتم توزيع هذه الشحنة على الصواريخ التى تنتظرها، وإطلاقها على قيادة قوات الاحتلال فى العريش وشرم الشيخ ونخل والمراكز السكانية الكبرى داخل إسرائيل، وعلى القوات الأمريكية المنتشرة فى الأحساء وغرب إيران. هذا هو الحل النووى النهائى الذى توصل إليه الرئيس القطان بعد فشل كل الحلول الأخرى.

لا أحد يعلم بمحتوى شحنتنا هذه غير ستة أشخاص، رجل صينى واثنين من كوريا الشمالية، والرئيس القطان واللواء المنيسى وأنا. أو هكذا يُفترض .لكن الحقيقة أن هذه السفينة الهادئة قليلة العمال والركاب ستجتاحها فرقة كاملة من البحرية الأمريكية فى الرابعة من صباح الغد، أى بعد أربع وعشرين ساعة بالضبط. الحقيقة أيضا أنى -أنا المترجم الصامت الذى لم يأخذ فى عمره موقفا حادا- أنا من أبلغهم.

الحلقة الثانية

كانت فى مثل سنِّى وقتها.. ذات ابتسامة مضيئة ووجه مستدير يحيطه شعر أسود قصير.. حين تقرأ يتهدل على عينيها حتى يغطيهما..وحين ترفع رأسها وترانى تلمع عيناها الضيقتان بنظرة تشع لؤما بريئا

أنا المترجم الرئاسى، الموثوق به، الذى قضى عمره فى ردهات القصور، على متن الطائرات الرسمية، أو فى قاعات محظور الدخول إليها، جالسا بين مقعدين، يستمع ويترجم لشاغرَيهما ما يقوله كلٌ للآخر دون أن يكون له أن يقول .أنا الذى سمع الكثير ورأى الكثير، منذ التحقت بهذا القصر الأسطورى وأنا شابٌ فى مثل عمرك وحتى صار حماى رئيسا. كم سنة؟ التحقت بالخدمة فى أثناء حرب تحرير الكويت، فى بداية 1991، ونحن نقترب الآن من نهاية 2020، أى قرابة ثلاثين عاما. ثلاثون عاما لم أتكلم دون أن يُطلب منى الكلام. شاهد صامت على عائلة ممتدة من المؤامرات والصفقات والخيانات والفتن. شهدتُ طرد الرئيس من القصر عند اندلاع الثورة الأولى، وشهدت الحكم العسكرى، ونجوت بأعجوبة من الموت فى أثناء اقتحام القصر الرئاسى وإحراقه فى الثورة الثانية، وشهدت الاحتلال والتفاوض والتخاذل، وخيبة الأمل. وكنت دوما شاهدا صامتا، مرآة لما يقوله الرئيس وضيوفه. وحين قررت الخروج عن صمت ثلاثين سنة، لم أجد أمامى سوى الخيانة طريقا.

سيهاجمون السفينة عند الفجر. هذا ما اتفقنا عليه. أنا الذى أبلغتهم بالصفقة المرعبة، وبخطِ سيرنا، وبتفاصيل السفينة وأماكن الشحنة وأكوادها .فى البداية ذهلوا وظنُّوا أنى جُننت أو أخدعهم. لكنى أثبتُ لهم بما لا يدع مجالا للشك أن هذا الجنون حقيقة. وتتبعوا من خلالى تطور الصفقة حتى أمس، حين قطعنا الاتصالات الإلكترونية بالعالم الخارجى ودخلنا فى صمت لاسلكى كامل. لا يوجد مصريون هنا غيرى أنا واللواء المنيسى .الباقون طاقم السفينة التجارية وعمال شحن آسيويون. حين وضعنا خطة نقل الشحنة فضّلنا أن لا نأتى بمصريين غيرنا حفاظا على السرية. وبالطبع لم نضع حراسا مسلحين لتفادى الشبهات. ثم ما جدوى الحراس فى مواجهة سلاح البحرية؟ أقول وضعنا الخطة لأنى شاركت فى هذا. كما شاركت فى الاتفاق على خطة البحرية الأمريكية للاستيلاء على السفينة. تقتضى الخطة عدم إطلاق النار على أحد :سيهبطون فى الظلام من طائراتهم ويقبضون علينا جميعا، يصادرون الشحنة النووية ثم يقطرون السفينة إلى أقرب قاعدة بحرية أمريكية ويسلموننا بعدها -وأمام الكاميرات- للسلطات المصرية.

لا يعلم أمر الشحنة ومكانها وخط سيرها سوانا أنا واللواء المنيسى والرئيس القطان. حتى الرجل الصينى الذى لعب دور الوسيط مع الكوريين مصدر الشحنة لا يعلم أين ذهبنا بها منذ تَسلّمناها. استقلّ الطائرة إلى مصر مع مرافق مصرى لا يعرف شيئا من أمر العملية سوى ضرورة مرافقة هذا الرجل الصينى الهامّ حتى مطار القاهرة، وبلغنا أمس أنه وصل وينتظرنا هناك. طاقم السفينة يعلم أننا نصاحب شحنة هامّة، ووافق على بعض الاحتياطات مقابل الأموال التى تلقوها، لكنهم لا يعلمون كنه الشحنة.

رتبنا عمليات النقل والشحن عن طريق حلقات منفصلة لا يعرف بعضها بعضا ولا تعرف من أمر العملية نفسها شيئا. وبالتالى، حين تهبط طائرات البحرية الأمريكية على رؤوسنا فى الفجر، لن يكون هناك شك لدى اللواء المنيسى أنى أنا الذى أفشيت السر. قد يتردد الرئيس فى تحديد من منّا الخائن، لكنه سيتذكر ولا ريب معارضتى للفكرة ومحاولاتى الخجول لثنيه عن تنفيذها. على العموم أنا لا أنوى الإنكار. ومثلما رفضت عرض الأمريكان بتوفير ملاذ آمن لى (قالوا إنه سيكون على البحر إن شئت!) فإنى سأرفض أى مساومة مع القطان .سأعترف علنا بما فعلت، وساعتها لن يكون أمامه إلا محاكمتى، أنا زوج ابنته، بتهمة الخيانة العظمى. وستكون هذه نهايته ونهاية حكمه التعس. أعدك بهذا.

ولكن ماذا لو وقع اشتباك؟ ماذا لو كان لدى اللواء المنيسى تعليمات من رئيسه بأن لا يترك الشحنة إلا ميتا، أنا وهو؟ أو لو وقع لى «حادث أليم »بعد تسليمنا للسلطات المصرية؟ ماذا لو تغابت القوة المهاجمة كعادة القوات المهاجمة وبدأت فى إطلاق النار فى كل الاتجاه مثلما كانوا يفعلون فى الأفلام القديمة؟ فى أى من هذه الحالات، ستكون هذه الرسالة بين يديك، تشرح تفاصيل خيانتى وأسبابها وملابساتها، وتكون مهمتك هى قراءتها، والتفكر فيها، ونقلها للناس.

هى قصة طويلة، وسأقصها عليك بكل التفاصيل التى أستطيع ذكرها، فقد يكون هذا آخر ما يصلك منى. لدى أربع وعشرون ساعة، سأملؤها بقصصى ولن أنام .سأبدأ قصتى من حيث سأنهيها، من العاصمة الصينية بكين. وسيكون حاضرا معى فى لحظة البداية، لسخرية القدر، تقريبا نفس الأشخاص الذين سينهونها معى.
كنا فى عام 1989 وأنا تقريبا فى مثل عمرك، على وشك التخرج فى الجامعة. وكنت فى بكين مع جدك رحمة الله عليه، العميد شكرى فؤاد الذى كان فى العام الأخير من خدمته بالصين كملحق عسكرى. انتقلنا جميعا معه، جدّتك عزيزة وعمك عمر وعمتك صفية، حين بدأ عمله هناك قبلها بثلاث سنوات. ظلّ ثلاثتنا مقيّدين بالجامعة بمصر، عمر بالسنة الأخيرة بكلية الحقوق وصفية بالسنة الثالثة بكلية التجارة، وأنا بالسنة الأولى بقسم الفلسفة بآداب القاهرة .ولأنها كليات نظرية فقد دبّر لنا الوالد تفاهما مع الجامعة يسمح لنا بالغياب طوال السنة الدراسية والعودة لأداء امتحانات آخر العام .وبالتالى كان لدينا كثير من الوقت فى بكين. عمك عمر كان قلوقا بطبعه، ولم يحتمل الفراغ الكبير والغربة عن كل شيء خصوصا أن اللغة الإنجليزية لم تكن وقتها منتشرة فى الصين. وانتهى به الأمر بأن عاد إلى مصر وعاش بالمدينة الجامعية حتى تَخرّج، ثم وافق أبى أخيرا على إقامته ببيتنا بمدينة نصر وحده حتى عدنا. صفية قضت الوقت الكثير المتاح مع أمى رحمها الله، بين العناية بالبيت الكبير والإشراف على حفلات الاستقبال العديدة التى يقيمها الوالد، ومساعدتها على «التصرف» لإطعام الضيوف الذين يأتى أبى بهم إلى البيت دون سابق إنذار، وبين اكتشاف أماكن التسوق الأفضل والأرخص فى متاهات بكين.

أما أنا فقد قضيت هذا الوقت فى تعلم اللغة الصينية .لِمَ؟ بلا سبب واضح. كنت بارعا فى اللغات، ورغم تعليمى الحكومى فقد أتقنت الإنجليزية بشكل لافت. ولأنى كنت أحب الفلسفة وأدرسها، فقد فكرت فى تعلم اللغة الصينية كى أقرأ الفلسفة الصينية بما أنى أعيش فى بكين. فكرة ساذجة طبعا، لكن هكذا نفكر ونحن فى السابعة عشرة، إن كنت تذكر! المهم أنى أقنعت أبى وسجّلنى فى مدرسة تعطى دروسا مكثفة للأجانب.
وبرعت فى هذه اللغة الصعبة بشكل لفت أنظار الجميع، حتى إنى صرت قادرا على القراءة والكتابة والحديث بشكل معقول فى عام ونصف. ولم أتوقف، بل تابعت الدراسة طوال الوقت حتى صرت، بلا مبالغة، طلقا فيها كأهل البلد بنهاية السنة الثالثة، حين بدأت سلسلة الأحداث التى ستقودنى إلى هذه السفينة القاتلة.

نجاحى فى اللغة الصينية جعلنى محطّ فخر أبى وأمى وأختى بشكل لم أعهده من قبل. غمرنى هذا الفخر بشعور بالحنان والدفء والاطمئنان لا مثيل له، وما زال يراودنى كلما ذكرتهم. استغرب الجميع، خصوصا أصدقاء أبى وزملاءه، من نبوغى فى تعلم اللغة، وتطوعوا بتفسيراتٍ ما أنزل الله بها من سلطان، من عقل المراهق الذى يلتقط اللغات بشكل خاص، إلى الذاكرة البصرية التى تصور الحروف. وصحيح أنى موهوب فى اللغات بشكل عام، ويشهد على ذلك تعلمى للفرنسية وإتقانى لها بعد عودتى إلى مصر، ولكن الحقيقة أن سبب إتقانى للغة الصينية، وإتقانها بهذه السرعة الصاروخية، أبسط بكثير من هذه التفسيرات وأحلى، واسمه «داو مينج.»

داو مينج كانت فى مثل سنِّى وقتها. ذات ابتسامة مضيئة ووجه مستدير يحيطه شعر أسود قصير. حين تقرأ يتهدل على عينيها حتى يغطيهما .وحين ترفع رأسها وترانى تلمع عيناها الضيقتان بنظرة تشع لؤما بريئا، ثم تغطى فمها بيدها وتشيح بوجهها كأنما خجلا. أين أنتِ الآن أيتها الدربُ المضىء؟

التقيتها فى معهد تعليم اللغة الصينية للأجانب، حيث تدرّس كجزء من برنامج للخدمة العامة يتعين على الشباب الجامعى المرور به .ورغم حداثة سنِّها، أو ربما بسبب ذلك، فقد كانت شديدة الصرامة معنا. حتى سألتها فى مرة بعد الدرس عن جامعة بكين التى تدرس بها، استرسلت فى الرد حتى جاء عامل التنظيف وقال لها شيئا لم أفهمه، وساعتها رأيت لأول مرة ابتسامتها المضيئة تلك وحركة تغطية فمها بيدها. أعجبتنى. وأنت تعرف كيف تعجبنا البنات ونحن فى السابعة عشرة. سألتها عما قاله الرجل فقالت إنه يطردنا لأننا تأخرنا. لم أفهم ما المضحك فى ذلك، ولم أكن بعد قد علمت أن هذه طريقتها فى التعامل مع كل ما يفاجئها. مشيت معها حتى محطة الأوتوبيس .سألتنى عن معنى اسمى فقلت مُحرَجا «الشخص المرتفع». ضحكت وهى تهزّ رأسها وصمتت. فسألتها عن معنى اسمها هى فقالت «الدرب المضيء». ثم صمتنا وبدأت أشعر بحرج شديد وفشل وندم أنى حدثتها. سألتنى كيف أدرس بمصر إن كنت موجودا بالصين طوال العام فشرحت لها وهى تهز رأسها. وعندما قلت إنى أدرس الفلسفة وقفت وسألت فى دهشة: «الفلسفة؟! أنت تدرس الفلسفة؟!» قلت: «نعم»، فأضافت ببساطة شديدة أنها هى أيضا تدرس الفلسفة، ثم ضحكت ووضعت كفها على فمها وأشاحت بعينيها ناحية الأرض واستأنفت السير.

وهكذا، فى هذه اللحظة، ونحن سائران نحو محطة الأوتوبيس، هى تنظر بعيدا وأنا أحدّق إلى شعرها، قررت أنى أحب داو مينج.

الحلقة الثالثة

كانت فى مثل سنِّى وقتها.. ذات ابتسامة مضيئة ووجه مستدير يحيطه شعر أسود قصير.. حين سألتك مرتين أو ثلاثا إن كنت قد صادقت فتاة أو أحببت، واعتراك خجل وغمغمت بالنفى.

غير أنك حدثتنى بعد ذلك عن فتيات أحببتهن وأنت أصغر سنا

كان اسمها داو مينج.

وحين قبّلتنى أول مرة شعرت وكأن الجنة قد هبطت علىّ .ظللت بعدها جالسا دون حراك، ساهما أنظر إلى وجهها القريب من وجهى. لم تضحك ساعتها أو تُشِح بوجهها، ولم تغطِ فمها بيدها. فقبّلتُها ثانية مطولا، أنا الذى لم أكن أعرف عن القبل غير ما رأيته فى الأفلام. بالكاد ثمانية عشر عاما، أى أصغر منك الآن بعامين. ماذا عنك أنت؟ سألتك مرتين أو ثلاثا إن كنت قد صادقت فتاة أو أحببت، واعتراك خجل وغمغمت بالنفى. غير أنك حدثتنى بعد ذلك عن فتيات أحببتهن وأنت أصغر سنا. حين كنت فى السادسة عشرة حدثتنى عن تلك التى أحببتها فى المدرسة الإعدادية، وذكرت لى منذ شهور شيئا عن تلك التى أحببتها فى المرحلة الثانوية. لم تواتِك الجرأة قطّ أن تحدثنى عن حبٍّ حالَ وقوعِه. حاولت أن أعطيك بعض النصائح، وأذكر أنك استمعت إلى متظاهرا بعدم الاهتمام. لم تردّ، فقط استمعت، ولم أضغط عليك، لكنى أريد أن أقول لك الآن: حين تقع فى غرام فتاة قبّلها على الفور ولا تنتظر. لا شيء يدعو إلى الانتظار، ولا تخش شيئا، فسأدافع عنك من علٍ. واعلم أن كل الناس مثلك، تحب وترغب فى وصال من تحبه. لا تتوارَ، فكلنا يا صديقى نمر من هذا الباب.

أظن أن أبى كان يعرف بأمر داو مينج، وربما أمى. لكن لم يقُل أيهما شيئا عن الموضوع. كان سلوكى عاقلا بشكل عامّ: لا تأخير مبالَغ فيه خارج البيت، ولا مغامرات أو مشكلات. لم أدخن أو أكذب أو أسرق أو أتشاجر مع أقرانى، وكنت متفوقا فى دراستى بالجامعة بمصر. لكن موجات السعادة العارمة والبؤس الشديد لا بد أنها قد فضحت أمرى وتسببت فى ابتسامات غامضة من جانب أمى وهزّات رأس متبرمة من جانب أبى. وعلى كل حال، فقد كان لداو مينج أثر إيجابى لا يمكن لهم إنكاره، فقد تحول إتقانى المتزايد اللغة الصينية إلى مفتاح سحرى لأبواب بكين المغلقة عادة أمام الغرباء. تدريجيا بدأت آخذ أمى وصفية أختى إلى أسواق ومحالّ تبيع كنوزا بأسعار لم تصدقاها، وانبهرتا بحواراتى مع الباعة، وانبهر الباعة أكثر بهذا الأسمر النحيل الطويل الذى يتحدث مثلهم. كل هذا من صنع داو مينج، دليلى وملاكى الحارس .استدعانى أبى ذات مرة إلى مكتبه وسألنى بتردُّد إن كنت أستطيع مساعدتهم فى إجراء بعض المعاملات الإدارية والمالية مع مقاولين ومع السلطات المحلية .وقد كان، وتحولت إلى بطل شعبى صغير للمكتب العسكرى. ثم قدمنى أبى للسفير وهو يتعشى عندنا فاهتمّ بى اهتماما كبيرا وقال إنه سمع أنى آتى بمعجزات، ثم حذّرنى من نية أبى إلحاقى بكلية عسكرية بعد تخرُّجى. مال علىّ مبتسما -وأنا أتلعثم فى خجلي- واقترح علىّ تحضير نفسى بدلا من ذلك لاختبار القَبول بوزارة الخارجية. لكِ الله ياداو مينج: هل كانت تعلم أنها تحفر بيدها حفرة ستبتلعنا نحن الاثنين؟

لم يكن لدىّ من أحكى له عن داو مينج سوى صديقى عز الدين فكرى. نعم، هو هو عز الدين فكرى الذى تعرفه. سأخبرك بكل شيء فى حينه .زاملت عز الدين فى مدرسة «ابن لقمان» الإعدادية بالمنصورة، وتصادقنا من أول يوم، وظللنا نتقاسم المقعد الخشبى العريض وأوقات الفسح والمؤامرات والمعارك واللعب والكلام طوال أعوامنا الثلاثة بالمدرسة. ثم انتقلنا معا إلى الثانوية العسكرية الواقعة فى نفس الشارع، وقضينا سنوات تكويننا الأساسية معا، صباحا ومساء. كان عز الدين يتيما يعيش مع خالته، وهى نفسها بلا أهل فى المنصورة، هاجرت من الإسماعيلية أيام الحرب ولم تعُد إلى بلدها .حين أتى إلى بيتنا أول مرة أحبّته أمى على الفور، وعاملته -هى وصفية أختي -باعتباره فردا من العائلة. عمك عمر، الذى كان يعاملنى باعتبارى «الأخ الصغير»، بدا عليه بعض الضيق من هذا الوافد الغريب، أعتقد أنه غار من صداقتنا القوية ومن اهتمام

أمى به. وكان أبى فى تلك الفترة يغيب أياما طويلة فى الجيش (لم أكن أعلم أين هو، كلما سألته أو سألت أمى أين هو قالا :فى الجيش.(

أيا كان الأمر، بين المدرسة فى النهار والجلوس فى بيتنا أو التسكع على النيل فى المساء، تَفتَّحنا على العالم معا، وفتح كلانا قلبه للآخر وصرنا كأننا أخوان توأمان: على شكرى وعز الدين فكرى. كان حالما وهادئا مثلى، مشغولا بالأفكار والكتب وحال العالم أكثر مما هو مشغول بالأشياء التى يهتمّ بها المراهقون فى سننا، أو هكذا قررنا. ولكنه كان أكثر إقداما منى وأكثر قدرة على الصد والرد والمُحاجّة مع الكبار خصوصا المدرسين. ومن ثم تقاسمنا الأدوار: أنا أوقِر الملجأ المسائى ببيتنا، بطعامه ورعاية أمى وكتب أبى الغائب، وعز الدين يتولى الدفاع عنا والمناقشات مع المدرسين، وأحيانا مع أمى حين نتأخر أو نتغيب. وفى كل هذا صرنا لا يُرَى واحد منّا دون الآخر، ولا نفترق إلا على موعد للقاء. يعرف كل منا ما يدور فى عقل وقلب الآخر دون أن يتكلم، ويجرى كل منا إلى الآخر كى يخبره إن جد عليه شىء.

وحين رحلت مع عائلتى إلى القاهرة بعد الثانوية العامة، التحق عز الدين بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة وانتقل للإقامة بالمدينة الجامعية. حاولت إقناع أبى بأن يسمح له بالإقامة معنا بشقتنا الجديدة بمدينة نصر، إلا أنه رفض بدهشة وحزم. لم أجد مبررا أسوقه سوى أنى أعتبره أخى. ربت أبى على كتفى صامتا فصمتّ، وابتسمَت لى أمى معزّية. لكننا قضينا السنة الأولى نتسكع فى طرقات الجامعة معا، ونتسامر فى المساء مع طلبة الأقاليم المقيمين فى المدينة الجامعية مع عز الدين. ومن وقت إلى آخر كانت أمى تدعوه إلى عشاء أو غداء بالبيت عندنا، وأحيانا ترسل إليه طعاما معى نقتسمه بغرفته بالمدينة الجامعية. لم تطُل هذه الفترة الذهبية حيث انتقلت مع عائلتى بنهاية صيف العام الأول إلى بكين. ولم يعد بيننا سوى خطابات نتبادلها كل عدة أسابيع (لم تكن الإنترنت قد ظهرت بعد، إن كان يمكنك تصوُّر هذا الأمر). وصارت هذه الخطابات وسيلتى الوحيدة للتنفيس عما يعتمل بصدرى من مشاعر ومخاوف لصديقى الوحيد، أرسلت إليه صورا لى مع داو مينج، وكتبَت هى مرة له فقرة بالإنجليزية تحيه، ورد علينا معا بخطاب طويل وعاطفى. وافتقدته كثيرا حين أتى وقت القرارات الصعبة ولم تسعفنا الخطابات.

فى السنة الثانية صرت أقضى يومى كله معها. فى أوقات الفراغ نتسلل إلى المدينة المحرمة فى قلب بكين، اسما وفعلا، قبلتانا الأوليان تَبِعَتهما قُبَل أخرى كثيرة، وعناقات كأنها مسٌّ يأخذنا إلى عالم لا أحد فيه سوانا . لو لم تقبّلنى داو مينج لما قبّلتها أبدا ولقضيت سنواتى ببكين أهيم بها دون أن ألمسها، ترددا وخجلا. ولو لم تعانقنى لما ذاب خجلى، لكنه حين ذاب لم يبقَ شىء يمنعنى عن وصالها.

وَدَخَلْتُ فِي لَيْلَيْن.. فَرْعِكِ وَالدُّجَى/ وَالسُّكْرُ أغْرَانِي بِمَا أغْرَاكِ

فهمتُ قصد أمير الشعراء، وعرفت، فى هذه اللحظة، أن الوصال لا يشفى من الهوى، عكس ما كان يُشِيعه زملائى الأكثر مغامرة. لا تصدِّق ما يقوله هؤلاء، وتذكر أنك لا تعرف امرأة حقا ولا تعرف حقيقة مشاعرك نحوها حتى تمام الوصال.

حين لا نكون بالمدينة المحرّمة كنا بالجامعة نستمع إلى دروس الفلسفة .فى البداية كنت أفهم ثلث ما يقوله الأستاذ، ثم أخذَت النسبة تتحسن حتى العام الثالث حين صرت أفهم مُعظَم ما يُقال. كان هناك أساتذة أوضح من آخرين فى نطقهم، وطلبة كثيرون من الأقاليم الصينية البعيدة لا أفهم شيئا من أسئلتهم. لكن داو مينج كانت تراجع الدروس معى بعد المحاضرات وتشرح لى ما استغلق علىّ. بعض هذه الدروس قريب من الموادّ المقررة علىّ بجامعة القاهرة، وبعضها جديد مختلف تماما. لكن الأمر كله ساعدنى فى دراستى الرسمية، ونجحت بنتيجة جيدة لشخص غائب طوال العام. وأظن ذلك قد أسهم فى تغاضى والدىّ عمّا خمّناه.

ثم ظهر أحمد القطان.

فى هذا المساء عدت متأخرا قليلا، فى التاسعة أو شيئا من هذا القبيل، فوجدت البيت مزدحما بالضيوف وصفية أختى واقفة بجوار الباب تنتظرنى ثم قالت لى فى لوم إن أبانا يسأل عنى منذ ساعة. دخلت غرفتى لأصلح من هندامى وحالى فجاءت أمى مسرعة وقالت لى إن أبى عنده ضيوف مهمون من مصر يريدنى أن أسلّم عليهم. خرجت وتقدمت نحو الصالون الكبير. سمعت أصوات حديث بالعربية والصينية وضحكات وقرقعة أكواب وكؤوس فترددت. لمحنى أبى من آخر الصالون فنادانى. تقدمت بخجل وأنا أنظر إلى نقوش سجادة الأرضية التى أحفظها من كثرة ما حدقت إليها. وبطرف عينى لمحت، فى صدر الصالون، ضباطا كبارا، مصريين وصينيين. نظر إلىّ أبى الذى كان يرتدى بزّته العسكرية كاملة، وأشار لى بابتسامة رسمية أن أدخل.

وهكذا قابلت الرئيس القطان لأول مرة.

الحلقة الرابعة

عندها فهمَت داو مينج أن أمرا يجرى وأنى أخفيه عنها ..ظلت تحدق إلىّ بعينيها الضيقتين مرتابة لكنى صمدت ولم أفصح عن شيء عن صواريخى ولا عن مشروع تحويلى إلى مترجم رئاسى فى القاهرة

أحيانا أفكر أنى لو كنت ذهبت مع داو مينج إلى السينما مثلما اقترحت علىّ فى ذلك المساء لعدت إلى منزلى فى الثانية عشرة وما التقيت ضيوف أبى العسكريين ولا جرى أى مما جرى بعد ذلك. وأحيانا أظن أن كل ما جرى كان لا بد أن يحدث، سواء قابلت أحمد القطان هذا المساء فى صالون أبى أو قابلته فى مصر بعدها بشهر أو بسنة. فى كل الأحوال، تقدمت على السجادة السميكة وأنا أحاول السير بخطى ثابتة وسلمت على الضباط المصريين الزائرين ثم على الضباط الصينيين. قال أبى شيئا عن إتقانى اللغة الصينية فأبدى الجميع اهتماما زائفا من باب المجاملة كأنهم لا يصدِّقون. شعرت بالإهانة، ولما تَكلم المترجم الصينى بالعربية ليترجم للزوار شيئا قاله رئيس الوفد الصينى صححت له ترجمته. نظر إلىّ وهزّ رأسه بشدة فشرحت له بالصينية أين أخطأ. وكان هذا كافيا للفت انتباه المسؤول الصينى الذى سألنى -بالصينية- إن كنت أتحدث الصينية، ثم بدأ يتوغل معى فى الحديث تدريجيا. استغرقت المحادثة خمس دقائق كاملة صمت فيها الجالسون فى الصالون جميعا. أنهى المسؤول حديثه معى والانبهار يشع من عينيه، ثم قام واقفا وانحنى وسلم علىّ بيديه الاثنتين بحرارة شديدة. شكرته، والتفتُّ إلى أبى الذى كانت أوداجه قد انتفخت من الفخر والتأثر، ولمحت بطرف عينى نظرات الاهتمام لدى الضيوف الزائرين، فحييت الجميع برأسى وانسحبت بهدوء إلى غرفتى.

قرب منتصف الليل سمعت أصواتَ آخِر الضيوف وهم يغادرون، ثم جاء أبى بنفسه إلى غرفتى. دخل وسار حتى مقعدى، وقبّلنى على رأسى، ثم طلب منى الاستيقاظ مبكرا للذهاب معه إلى المكتب وحضور جلسة مفاوضات هامَّة مع الوفد الزائر، لأنهم يريدون أن يتأكدوا من دقة ما ينقله إليهم المترجم الصينى. وهكذا، بدأت سلسلة الأحداث التى ستقودنى حتى قمرة السفينة التى أكتب لك منها هذه الرسالة.

حدث كل شيء بسرعة بعد ذلك. حضرت فعلا مع أبى والوفد الزائر جلسات المفاوضات التى اتضح أنها لشراء صواريخ صينية. وكنت مبهورا بما يحدث حولى وبأنى أشارك فى ما اعتقدت وقتها أنه عمل حساس وخطير. نبه علىّ نائب رئيس الوفد، العميد أحمد القطان، أن لا أذكر حرفا مما سمعته لأحد، ولم يكن به حاجة إلى ذلك، فقد كنت من فرط انبهارى مستعدا لاعتبار كل ما دار سرّيّا، حتى حين سألتنى أمى فى المساء إن كنت قد أكلت شيئا طوال اليوم لم أردّ، ونظرت إلى أبى فى انتظار التعليمات. حضرت معهم هذه المناقشات لمدة أربعة أيام، لم أذهب فيها إلى لجامعة ولم أرَ داو مينج .وبعد رحيل الوفد قال لى أبى إن العميد القطان يعمل فى حرس الرئيس، وإنه قد وعده بتعيينى مترجما فى الرئاسة حين نعود إلى مصر وأتخرج من الجامعة فى العام التالى.

انتابتنى مشاعر متناقضة، فأنا لم أفكر يوما فى العمل بمكان فى مكانة وخطورة رئاسة الجمهورية، وبالقطع لم أكن أنوى العمل مترجما .كل ما أردته هو دراسة الفلسفة لأطول فترة ممكنة، ثم تدريسها بعد ذلك فى إحدى الثانويات. وكانت فكرة البقاء فى الصين تساورنى منذ شهور، وحدثتنى داو مينج عن منح دراسية للأجانب يمكننى الحصول على إحداها إن تحمس لى أى من أساتذة القسم الكبار. وبدا ذلك الحلم فى متناوَل اليد، خصوصا مع تمكُّنى الباهر من اللغة، أظل فى بكين، مع داو مينج، وأدرس الفلسفة الصينية. لكن تجربة الصواريخ التى مررت بها لتوِّى، وشعورى بأنى جزء من شيء خطير وشديد الأهمية، والتبجيل الذى أحاطتنى به صفية وأمى، وتعامل أبى معى كأنى زميل له، والاحترام الذى أظهره كل هؤلاء الضباط ببزّاتهم العسكرية المهيبة، وتخيُّل القصر الرئاسى والجلوس بالقرب من الرئيس -عند أذنه بالضبط-... كل ذلك كان له مفعول السحر.

حين التقيت داو مينج فى صباح اليوم التالى جرَت ناحيتى واحتضنتنى بشدة .قلقت لغيابى طوال الأيام الأربعة الماضية، لم يكن لديها تليفون فلم أستطع إخبارها. قلت لها إنى انشغلت فى ترجمة أشياء لأبى فى المكتب. لم أحب أن أكذب عليها ولكنى لم أكن لأفشى سر الصواريخ. غضبَت لاختفائى غير المبرر ولقلقها دون داعٍ علىّ، لكن غضبها تلاشى سريعا. أنا الذى ظللت مشتَّتا، وحتى زيارتنا للمدينة المحرمة لم تفلح فى القضاء على تشتتى .عندها فهمَت داو مينج أن أمرا يجرى، وأنى أخفيه عنها. ظلت تحدق إلىّ بعينيها الضيقتين مرتابة، لكنى صمدت ولم أفصح عن شيء عن صواريخى، ولا عن مشروع تحويلى إلى مترجم رئاسى فى القاهرة.

لكن كل ذلك تلاشى بعد عدة أسابيع من رحيل الوفد وعودتى إلى روتين الجامعة والمدينة المحرمة. وذات يوم جاءت داو مينج وهى متوهجة من السعادة وأخبرتنى بين أنفاسها المتقطعة من الركض أن رئيس القسم شخصيا سألها عنى وأشار إلى ضرورة استمرارى فى الدراسة ما دمت محبا للفلسفة الصينية إلى حد المواظبة على دروسها عامين دون أن أكون مضطرا إلى ذلك .ابتسمتُ مجاملا ومتسائلا عن أهمية هذا الكلام، فهزت رأسها فى لوم مؤكدة أن ذلك معناه منحة دراسية من التى حدثتنى عنها، وحثَّتنى على طلب موعد معه ومفاتحته فى الأمر. لكنى قبل أن أفاتحه هو فاتحت أمى، فشحب وجهها فورا وصمتت. صفية أعجبتها الفكرة، لكنها استبعدت موافقة الأب عليها، خصوصا فى ضوء الوظيفة التى تنتظرنى فى القاهرة. ظللت أسابيع مترددا فى مفاتحته فى الأمر، ورد فعل أمى ينبئ عمَّا يمكن أن يقوله أبى.

كتبت لعز الدين عن المعضلة، وجاء رده سريعا، يزن كل اختيار بمميزاته وعيوبه ويحاول الجمع بينهما، مقترحا أن أبدأ بوظيفة القاهرة وأؤجل المنحة عاما، وإن لم تعجبنى الوظيفة فى القصر الرئاسى أتركها وأعود إلى بكين .ماذا عن داو مينج؟ لم يقل شيئا. ذهبت لمقابلة البروفيسور للتأكد مما قالته داو مينج، وفعلا أكد لى إمكانية توفير هذه المنحة -التى يُشرف بنفسه على اختيار الحاصلين عليها- إن نجحت فى بعض اختبارات اللغة والفلسفة وحصلت على شهادة الليسانس من جامعتى هذا العام.

كان هذا عامنا الأخير فى بكين، والأسابيع يسحب بعضها بعضا سريعا، وكلما اقترب موعد عودتى السنوية لأداء الامتحانات زاد اضطرابى .كان يُفترض أن أسافر فى شهر أبريل مع صفية وأمى لنستعد للامتحانات ولا نعود، ويلحق بنا أبى فى نهاية شهر يوليو. ولكنى كلما اقترب الموعد ازداد تمسُّكى بالبقاء، وبداو مينج، وبأمل استكمال دراسة الفلسفة وتحضير الدكتوراه فيها بالصين .كأنى انشطرت نصفين، لا يستطيع أيهما المسير فى الاتجاه الذى يهفو إليه دون أن يمزق الآخر.

ماطلت قدر الإمكان، وغرقت أكثر فى ضوء دربى المضيء كأنما لأنسى القرار القاسى الذى يتعين علىّ اختياره. وحين أزفَ الوقت صارحتُ أمى بالحقيقة كاملة. تعاطفَت معى، طبعا، وأبدت تفهمها وأغدقت علىّ من حنانها، لكنها لم تُخفِ موقفها الرافض تماما لفكرة البقاء وإعداد الدكتوراه ببكين، حتى لو كانت منحة من الجامعة، وحتى لو كنت أول طالب مصرى يدرس الفلسفة الصينية هناك. أما حبى لداو مينج وتعلقى بها فهو أمر جميل، هكذا قالت، لكنها عواطف أول الشباب ودائما تمر. «لا أحد يتزوج حبه الأول إلا فى الأفلام، وحتى فى الأفلام لا يفعلون ذلك كثيرا». هكذا قالت، وكانت من الذكاء بحيث لم تسفّه من حبى لكون الفتاة صينية. لكنى كنت أشعر بهذا الأمر فى نظراتها، وترك أثرا فىّ لم أعترف لنفسى به وقتها. أنفقت أمى بقية وقتها فى الحديث عن الوظيفة التى تنتظرنى والمستقبل المرموق الذى ستكفله لى. عندما كانت تتحدث عن هذه الوظيفة كان وجهها كله يبتسم، كأنما أزاحت كل حديثى عن البقاء فى بكين باعتباره ترهات مقضيا عليها. وحين استجمعت شجاعتى وفاتحت أبى بشأن بقائى لإعداد الدكتوراه (ولم أجسر، مثلك، على ذكر حبى لداو مينج (كان رد فعله مماثلا لرد فعل أمى: استبعد الفكرة سريعا باعتبارها فكرة خرقاء، وأخذ يعدد مآثر الوظيفة التى تنتظرنى. كان حديث الأب عن هذه الوظيفة أكثر تأثيرا مما قالته الأم، بل ومما فكرت فيه أنا من قبل، فلأول مرة أرى أبى يبجّل عملا غير الجيش، ويرفعه إلى مصافٍّ ما يقوم به هو شخصيا،

بل إنه قال إن عملى فى الرئاسة سيكون أهمّ من عمله هو ومن أى شىء قام به حتى الآن. وشعرت أن هذه الكلمات حين قيلت قد حسمت الأمر داخلى، لكنى ظللت أقاوم، حتى بينى وبين نفسى.

كتبت إلى عز الدين مرة أخرى، لكن الوقت لم يسعفنى لأقرأ رده علىّ. لم تكن داو مينج تعلم بشىء من هذا، لا وظيفة الرئاسة ولا إجماع عائلتى على ضرورة سفرى. وكلما التقينا حدثتنى عن مشروعاتها لحياتى فى بكين كطالب، أخذتنى لرؤية المساكن الجامعية التى يُفترض أن أقيم بها، وأحضرت لى جدول دراسة طلبة الدكتوراه، ثم بدأت هى الأخرى تحضِّر لاستكمال دراستها العليا، وبعد ذلك بدأت تبحث عن مصدر نحصل منه على الكتب بالمجان، وهكذا. مع كل أسبوع يمر يتضح لى أنى لا محالة عائد إلى مصر، وتُمعِن داو مينج فى ترتيباتها لمستقبلنا المشترك فى جامعة بكين.

ثم جاء اليوم الذى تعين علىّ فيه أن أخبرها بالحقيقة، أننى سأرحل عائدا إلى مصر مع أهلى ولن أستطيع البقاء معها ومواصلة الدراسة مثلما خططنا. مر على هذا اليوم إحدى وثلاثون سنة تقريبا، وما زال قلبى يوجعنى حين أتذكره، وما زلت أشعر بالصغر والوضاعة بسبب خداعى لها طوال الأشهُر التى سبقته، وبألم وندم على جرحى لها ذلك اليوم، وما زلت أرى تعبير وجهها فى هذا اللقاء الأخير وأنا أسير مبتعدا وهى جالسة بلا حراك على مقعد خشبى بالجامعة، كأنها تحولت لتمثال من الزجاج، ينتظر التهشم.

راحت داو مينج.

الحلقة الخامسة

حين أبلغنى أبى بضرورة الحضور بالرئاسة فى التاسعة من صباح الأول من يناير، زغردت أمى.

أول مرة أراها تزغرد، هى التى تتعفف عن كل ما تَصِمُه بـ«شغل الناس الحَوَش»

قضيت الشهور الأولى بعد عودتى تائها. عُمَر أخى الذى استقبلنا فى المطار بدا أكثر حدّة. فى كل مرة ألتقيه أجده أكثر حدّة .مدينة نصر بدت أكثر ازدحاما بكثير، وبجوار عمارات الدفاع الجوى التى نسكنها تحولت الصحراء إلى غابات من الأبنية الخرسانية. ذهبت إلى المنصورة فور عودتى للقاء عز الدين، وأقنعت أمى بأن تتركنا نقيم معا فى شقتنا القديمة المغلقة حتى نهاية الامتحانات. كان قلبى منقبضا وأردت البعد عن كل ما يذكِّرنى بداو مينج وبكين كلها، بما فى ذلك أمى وأختى.

ولا أعلم كيف نجحت هذا العام، كنت أجلس طوال اليوم فى البيت مع عز الدين، صامتَين مُعظَم الوقت وأنا أحدق إلى كتبى، أقرأ فى الصفحة وبعد قليل أصادف عبارة تذكِّرنى بشيء ما، ثم أكتشف أنى قرأتها من قبل ونسيت .نخرج لنتنفس هواء نقىّ على شاطئ النيل علّه يصفى ذهنى ثم نعود. هالنى ما جرى للمنصورة من تغييرات، المدينة الصغيرة الهادئة التى تركتها نائمة فى حضن النيل تحولت إلى كابوس من السيارات والبشر والعمارات والباعة. من أين أتى كل هؤلاء؟ ثم أفكِّر فى بكين، وجامعتها، وداو مينج ومدينتها التى حرّمتها على نفسى بيدى. وأغرق فى التعاسة أكثر. لمت نفسى ونعتُّها بالضعف والجبن والخِسّة. أعود إلى البيت مع عز الدين، وأغلق على نفسى الحمام كيلا ترانى عينا عز الدين الفاحصتان الناقدتان، وأبكى بصمت، أحيانا لفترات طويلة حتى يأتى عز الدين ويدق علىّ الباب. المهمّ، لا أريد الإطالة فى كل هذا، لا بد أنك أنت أيضا قد مررت فى هذا. إن كنتَ قد تركتَ فتاتك مثلى فلا تقسُ على نفسك مثلما فعلتُ أنا، وإن كانت هى التى تركتك فلا تظنّ أنك غير أهل للحب. فقصص الحب الأولى دائما ما تنتهى بترك واحد للآخر، سيان من الذى يفعلها قبل الآخر. سيبدو لك كلامى قاسيا، مثلما بدا كلام أمى لى وقتها. لكن هذه هى الحقيقة، للأسف.

فى النهاية نجحت، وحصلت على الليسانس، وعاد أبى من بكين، وجاء بعده الأثاث الكثير الذى اشترته أمى بمعونة صفيّة، ولم يعد المنزل بمدينة نصر يتسع له. وبعد شهرين انتقلنا إلى شقة أخرى أكبر وأحدث فى شارع منشية الطيران، أمام بيت الرئيس عبد الناصر. وقال أبى ممازحا إن هذا البيت سيكون أقرب إلى الرئاسة عندما أبدأ عملى. غاص قلبى حين تذكرت ذلك، نعم، الرئاسة، حان وقت ذلك...ثم كان.

تحدث أبى مع العميد القطان فى منتصف يوليو ووعده خيرا .لكن فى أول أغسطس غزت قوات صدّام حسين الكويت وانقلبت الدنيا رأسا على عقب. أُلغِيَت إجازة أبى ومعها خطة التصييف فى جمصة. ولم يكن ذلك شرّا كله إذ أتاح لى فرصة قضاء أيام أخيرة بالمنصورة مع عز الدين الذى كان يتأهب للسفر إلى كندا لاستكمال دراسة العلوم السياسية وإعداد الدكتوراه فيها. حصل عز الدين على هذه المنحة بالصدفة، حين أخبره صديق له أن السفارة الكندية لديها عشر منح وتقبل طلبات الترشُّح من أى خرّيج. سحب الاستمارة فى اليوم قبل الأخير ولا أدرى بأى معجزة استطاع استكمال أوراقه كلها فى يوم واحد، لكن هكذا كان عز الدين حين يصمم على شيء: أحيانا يبدو كأنه قادر على تسخير الطبيعة نفسها لتحقيق هدفه. وقُبِلَ بالفعل، وها هو ذا يتأهب للسفر لخمس سنوات كاملة. كنت سعيدا له ولكن فى مكان ما بقلبى كان هناك غيرة. كيف أضعت الفرصة التى سنحت لى وعدت إلى هنا؟ وإلى ماذا؟ وها هو ذا صديقى الأقرب والوحيد، توأمى، مسافر لتحقيق ما كنت أطمع فيه وتخليت عنه بيدى. ولأول مرة أحسده أنه بلا عائلة، يتيم بلا أم تُذِيب مقاومته بحنانها أو أب يُذِيبها بصلابة منطقه. قضينا أيامه الأخيرة فى المنصورة كأننا نزور أطلال صِبانا، كورنيش النيل، المراكب الصغيرة التى تعبر النهر بنا، شاطئ طلخا الذى كان شبه مهجور ناحية مصنع السماد، فَلَنْكات السكة الحديد من المحطة حتى سندوب، شارع الثانوية حيث تقع مدرستانا، ومطعم «موافي» الذى أطعمَنا فولا وطعمية تكفى المسير لنهايات الجهات. كأننا نودِّع مدينتنا الخاصة، وفعلا لم نعد إلى المنصورة معا بعد ذلك أبدا.

فى منتصف سبتمبر عُيّن أبى رئيسا لفرع الملحقين العسكريين التابع للمخابرات الحربية، واختفى من البيت تماما. لم يكن لدىّ شيء أفعله سوى التسكع ومتابعة الأخبار والتأمل فى حماقة قرارى بالعودة. وفى أول أكتوبر ذهبت إلى مركز التجنيد لبدء «خدمتى العسكرية»، إلا أنهم تركونى أعود إلى البيت فى نفس اليوم، ولمدة أربعين يوما اقتصرت هذه الخدمة على ذهابى فى الصباح إلى مركز التجنيد لعدة ساعات أعود بعدها إلى البيت، حتى تم إلحاقى بفرع المخابرات الحربية. عبّرت عن امتعاضى من هذه «الكوسة «الواضحة، لكن أمى نهرتنى ونظر إلىّ أبى فى استخفاف المشغول بمصائب أكبر من أفكار المراهقين هذه. فى كل الأحوال لم يكن أمامى سبيل للاعتراض إذا تُتّخذ هذه القرارات دون سؤال المعنىّ. وهكذا، قضيت بقية العام بين بيتنا فى شارع الطيران وقيادة المخابرات الحربية فى طريق صلاح سالم حيث لا أفعل شيئا يُذكر. وفى منتصف ديسمبر أخبرنى أبى أنى سألحق بمكتب الفرع بالرئاسة فى أول يناير وأظل هناك حتى نهاية تجنيدى ثم يتمّ تعيينى رسميا مترجما. وقد كان.

حين أبلغنى أبى بضرورة الحضور بالرئاسة فى التاسعة من صباح الأول من يناير، زغردت أمى. أول مرة أراها تزغرد، هى التى تتعفف عن كل ما تَصِمُه بـ«شغل الناس الحَوَش». فى الصباح أغرقتنى صفية ابتساما ورافقتنى حتى الباب وربتت علىّ. خرجت وتوجهت فى زهو إلى القصر الرئاسى فى الميرغنى، المسمى بقصر «الاتحادية». لكنهم على الباب ضحكوا منى وأرسلونى إلى مكتب السكرتارية فى شارع الخليفة المأمون، الواقع على بعد خمس دقائق من منزلنا .المكتب لا يشبه فى شيء توقعاتك من الرئاسة، بل هو أقرب إلى مبنى أرشيف حكومى. تركنى الجندى أدخل دون السؤال عن أوراق تحقيق شخصية. صعدت عدة درجات من سُلّم مكسور الحوافّ، وتجولت فى ممرات فارغة أرضيتها من المشمع حتى وجدت من يدلّنى على مكتب الأستاذ مرتضى، مديرى الجديد. مثلما ترى، فإن تفاصيل هذه الأيام محفورة فى ذهنى كأنها حدثت أمس، لكنى سأعفيك منها، فلو قصصت عليك كل التفاصيل التى لدىّ لهبطَت علينا طائرات البحرية الأمريكية قبل أن أنهى ثلث الحكاية.

تَسلّمت العمل فى وسط هرج ومرج ظننته مؤقتا ومرتبطا بالحرب الوشيكة فى الخليج، ثم اكتشفت عبر السنوات أنها حالة دائمة. قضيت عدة أيام لا أفعل شيئا، بالمعنى الحرفى للكلمة، بل لم أجد فى البداية مكتبا، وظللت هائما فى الأروقة ومكاتب الآخرين. ثم استدعانى الأستاذ مرتضى مرة على عجل لترجمة ورقة باللغة الفرنسية، ودُهش لما قلت له إنى أتقن اللغتين الصينية والإنجليزية لا الفرنسية. رفع حاجبه فى دهشة ممزوجة بامتعاض وصرفنى بحركة من يده دون كلمة أخرى. قضيت أياما أخرى فى قراءة الجرائد والحديث مع زملائى. تعرفت إلى شابّ أكبر منى بثلاث أو أربع سنوات اسمه محمود بشير ...نعم، هو محمود بشير الذى اشتهر وسطع نجمه بعد ذلك. كان وقتها يعمل مع أحد »أمناء الرئاسة»، وهو مصطلح تفخيمى للعلاقات العامة والمراسم. محمود كان من وقتها منطلقا وصاخبا وجريئا واجتماعيا إلى أقصى حد .هو الذى جاء وقدم نفسه لى وأصرّ على اصطحابى فى نفس اليوم للغداء فى مطعم قريب، وفى اليوم التالى دعانى للخروج معه هو وأصدقائه مساء، وغمز بعينه أنهم ذاهبون إلى مكان سيعجبنى، وبالطبع جفلت منه واعتذرت وصرت أتحاشاه. فى أول أسبوعين قابلت كثيرين فى المكتب ممن لا بد أنك قد سمعت أو قرأت عنهم بعد ذلك، رأيت رئيس الديوان مرتين، وسكرتير الرئيس للمعلومات عدة مرات، وسكرتير الرئيس الخاص ووزير الخارجية ومدير المخابرات العامة مرة فى أثناء خروجهم من اجتماع بالمبنى. لكنى لم أرَ الرئيس، ولم أترجم كلمة واحدة.

وفى صبيحة الخامس عشر من يناير استدعانى الأستاذ مرتضى إلى مكتبه حيث وجدت عنده العميد القطان، بوجهه الأحمر الضاحك وشعره الأحمر الذى يُخفِى صلعة صغيرة ورقبته الغليظة المتهدلة قليلا. وقف عندما رآنى واحتضننى، وعلى الفور تغيرت معاملة الأستاذ مرتضى لى. طلب لى شايا فى حين سألنى القطان عن أحوال العمل، مضيفا فى مزاح نصفه جِدّ أنهم لا بد يعذبوننى ولا يعطوننى لا مكتبا ولا عملا. غمغمت بكلمات مرتبكة لم يكترث لها القطان المنطلق فى الحديث. وانتقل بسرعة من الحديث عن المكتب إلى الحديث عن الصين وأهميتها للوضع فى الخليج، ثم انتقل إلى الحديث عن الحرب القادمة والتحسر على ما يحدث.

لم يُتح لى أو للأستاذ مرتضى التعقيب على حديثه، فقد قام فور انتهائه من الكلام واستأذن منصرفا. وعدت أنا لما كنت فيه.

فى اليوم التالى استدعانى الأستاذ مرتضى وقال لى إن أحد العاملين قد نُقل، ومن ثَم شغر مكتبه فى آخر الممر بالطابق الثانى وطلب منى الانتقال إليه فورا وتجهيز نفسى للعمل. وبعد ساعتين أرسل إلىّ مجموعة خطابات طلب ترجمتها إلى الإنجليزية، وبعدها بساعة أرسل يستدعينى وأعطانى ثلاثة مقالات مقتطعة من صحف إنجليزية وأمريكية وطلب ترجمتها إلى العربية فورا وترْك الخطابات لوقت لاحق، منبها علىّ أن أترجم المقالات بلغة بسيطة لا تعقيد فيها. وهكذا بدأ عملى مترجِما بالقصر الرئاسى.

...

وفى اليوم التالى اندلعت حرب تحرير الكويت وتحطيم العراق.

الحلقة السادسة

مرت الحرب علىّ هكذا. الأستاذ مرتضى فى الصباح، ثم الترجمة العقيمة، ثم غداء بالمنزل حينا ومع محمود بشير الذى توثقت صلتى به أحيانا، ثم عودة إلى المكتب لمزيد من الترجمة العقيمة .

بينما كانت الطائرات تدكّ مدن العراق وتحرق أرتال الجنود المنسحبين على طريق الموت، كنت أترجم مقالات من الصحف الأجنبية .قضيت حرب الخليج كلها ترجمة مقالات. بعد يومين من بدء الحرب استدعانى الاستاذ مرتضى وسألنى ممتعضا عن سبب عدم مرورى عليه فى الصباح، فأجبته بأنى أذهب إلى مكتبى فى انتظار تكليفى بشىء. نظر إلىّ وهز رأسه متعجبا وسألنى كيف أجلس على مكتبى أنتظر وهناك حرب دائرة. وقبل أن أجيبه ناولنى ملفا به عدد من المقالات باللغة الإنجليزية مشيرا بيده لى أن أذهب. عند الظهيرة مرّ علىّ محمود بشير وسألنى لماذا لا أمرّ على الأستاذ مرتضى فى الصباح، فلما أجبته أنى آتى إلى مكتبى فى الصباح كما يُفترض فى الموظفين ضحك، وجلس أمامى على المكتب ناظرا فى عينَىّ وقال لى إنى «أبيض»، وإن هذا اللقاء الاجتماعى الصباحى هو محور دولاب العمل. بعدها بيومين اتصل بى العميد القطان ليطمئن على أحوالى، وضحك لما أخبرته بهذا الأمر مؤكدا ضرورة عدم الاكتفاء بزيارة الصباح هذه وإنما علىّ المرور على مكتب الأستاذ مرتضى من وقت إلى آخر، والسلام عليه، والدردشة حول أى موضوع، وفعل نفس الشىء مع بقية الطاقم. أضاف القطان نصائح أخرى فى ما بعد، من بينها ضرورة التعرف إلى سكرتير الرئيس للمعلومات لأنه يتحدث كثيرا للرئيس ويشرف على دورة المعلومات كلها فى المكتب، ومن ثم يمكنه إن وثق بى أن يضمّنى إلى الدائرة الأصغر بالمكتب .نفس الشىء بالنسبة إلى السكرتارية الخاصة التى تملك جدول الرئيس، وطبعا، سيد المكان، رئيس الديوان. بدا لى ذلك كله نفاقا لا لزوم له. ألستُ مترجما؟ لِمَ أحتاج إلى كل هذا كى أقوم بعملى؟ وعزمت بينى وبين نفسى على أن لا أفعل أيا من هذا. لقد عيّنونى بسبب كفاءتى، وهى فقط التى ستحدد مسارى. لن أزور أحدا أو أتملق أحدا.

لكنى واظبت على الذهاب إلى مكتب الأستاذ مرتضى فى الصباح، وإلا لما تذكرنى وما أعطانى شيئا أفعله. أذكر كيف كان مكتبه مهيبا من الداخل، وهو ضئيل الحجم جالس خلف المكتب الضخم، وخلفه صورة كبيرة للرئيس وعلم مصر، ينظر إلىّ بعينين متسائلتين من فوق نظارته كلما دخلت من الباب .يسألنى دائما أسئلة لا أتوقعها، وأرتبك فى محاولتى الإجابة عنها، ويقاطع ارتباكى إما بإشارة من يده كى أذهب أو أصمت وإما بسؤال آخر يشتتنى أكثر .حتى عندما يمزح، يجد وسيلة لوخزى. استجمعت شجاعتى ذات صباح وسألته إن كنت سأترجم شيئا من أو إلى اللغة الصينية. نظر إلىّ مطوّلا ثم سألنى إن كانت إنجليزيتى ضعيفة. غمغمت بأشياء عن التخصُّص واللغة الصينية فقاطعنى مناولا إياى ملفا يحتوى على المقالات اليومية.

كان التناقض صارخا -أو هكذا بدا لى- بين ما أراه على شاشات التليفزيون مساءً من أهوال الحرب وما أفعله طول اليوم، أنا المترجم بمكتب الرئيس .المقالات التى كنت أترجمها متنوعة، كلها مرتبطة بالوضع الدولى، لكن لا شىء منها يستحق اهتماما خاصا. يمكنك اليوم أن تترجم مثلها على الإنترنت إلى أى لغة فى ثوان. كنت أعمل اليوم كله لتحقيق ما يتم فى هذه الثوانى، وحتى فى ذلك الزمن بدا الأمر مضيعة للوقت. سألت الأستاذ مرتضى ماذا يحدث لهذه المقالات بعد ترجمتها، فأوضح لى أنها تدخل فى الملف الإعلامى. سألته أين يذهب الملف الإعلامى فلم يردّ. سألته إن كان يذهب إلى الرئيس فرمانى بنظرة من فوق نظارته لم أفهم مغزاها بالضبط، لكنها لم تكن مشجّعة. اقترحت عليه إضافة مقالات من الصحف الصينية فضحك ساخرا وطلب منى أن أترجم ما يعطيه لى وحسب. سألته إن كان هناك شىء آخر يمكننى فعله، فتنهد وسألنى فى تهكم: مثل ماذا؟ ظللت أحوم حول كونى قادرا على الترجمة الفورية، وربما يمكنهم الاستعانة بى فى المقابلات. توقف عما كان يفعله ونظر إلىّ فى استنكارِ مَن ضبطنى متلبسا بجرم. خلع نظارته ومسح بيده عينيه الضجرتين وطلب منى أن لا أتعجل، محذِرا إياى من الطموح الزائد. أوضحت بسرعة أنى لا أطمح إلى شىء لكنى أشعر بعدم فائدتى للمكتب، فأكمل تحذيره بأن أفعل ما يطلب منى، لا أكثر ولا أقل. وأن هفوة أخرى مثل هذه قد تقضى على وجودى فى المكتب .

ناولنى ملف المقالات فى صمت صارم ووضع نظارته على عينيه وعاد لقراءة ما كان بين يديه. وقفت ثانيتين محاولا تقرير ما إذا كان علىّ شرح الأمر أو استيضاحه، لكن انصرافه الكامل عنى أفهمنى أن وقتى قد انتهى. خرجت وأغلقت باب المكتب خلفى.

مرت الحرب علىّ هكذا. الأستاذ مرتضى فى الصباح، ثم الترجمة العقيمة، ثم غداء بالمنزل حينا ومع محمود بشير الذى توثقت صلتى به أحيانا، ثم عودة إلى المكتب لمزيد من الترجمة العقيمة. محمود اتفق معى أن ما نفعله عبث فى معظمه، وفى بعض الأيام وجدته ثائرا أكثر منى، لكنه رأى أننا فى هذا العمل كى نتعلم ونستفيد ولو لم يكُن لنا فائدة. لم يعجبنى هذا الكلام بالطبع؛ قد تنطبق وجهة النظر هذه على عمل خاص، أما العمل برئاسة الجمهورية، وفى زمن الحرب، فأمر آخر. حادثت أبى فى الموضوع ذات مساء فأبدى تفهُّما لمشاعرى، وحكى لى عن مشاعره المماثلة حين بدأ خدمته بالجيش بعد حرب 1967. حديث جدك لى هدّأ من إحباطى، وأعطانى أملا أن الأمور تتحسن مع الوقت. وساعدنى ذلك على مواصلة العمل. لكنى أقول لك اليوم إن ذلك كان خطأ، وإن الأمور لا تتحسن مع الوقت بل نحن الذين نعتاد سُوأها. فلا تكرر هذا الخطأ؛ اتبع صواب قلبك من البداية، فلا شيء فى هذه المكاتب سوى موت مقنّع .لكنى أقفز على الحكاية الآن. لنعُد حيث كنا.

مضى عامى الأول بالقصر الرئاسى على نفس المنوال. أمرّ فى الصباح على الأستاذ مرتضى الذى يناولنى ملف المقالات المختارة. أقضى النهار فى ترجمتها إلى العربية، ثم الإشراف على كتابتها بالآلة الكاتبة فى قسم النسخ. نعم، عاصرت هذه الآلات التاريخية المضحكة. ولا، لم أعاصر مطبعة جوتنبرج؛ كانت تلك قبل أيامى. ونعم كان الموظفون يكتبون بخط اليد ثم يعطون الأوراق لأناس كل عملهم هو تحويل المكتوب بخط اليد إلى حروف مطبوعة -لا تسألنى لم لا يكتب الموظفون مباشرة على الآلات الكاتبة- هكذا كانت الأمور . الأدهى أن الناسخين غالبا ما يُخطِئُون، ومن ثم يجب مراجعة ما ينسخونه وإعادته إليهم ليعيدوا نسخه مرة أو اثنتين على الأقل. يصبح الملف جاهزا، بمعجزة يومية، فى نحو الواحدة ظهرا لينضمّ إلى ما يُسَمَّى «ملف العرض» الذى -كما تَبيّن- يُرسَل إلى الرئيس فى تمام الثانية. هل يقرأ هذه المقالات؟ ربما. هل تفيده بشيء؟ لست أدرى. لكن فى كل الأحوال كانت هذه حدود مهمتى فى ذلك الوقت. وأيا كانت الاعتراضات التى تدور برأسى، فقد التزمت بالمهمة، وحرصت على اتقانها، وبرعت فيها حتى شهد لى الأستاذ مرتضى نفسه.

لم يكن لى حياة تُذكر خارج المكتب. أرسلت إلى داو مينج خطابا أُبدِى فيه ندمى على عدم مواجهتها بالحقيقة فى الأشهُر الأخيرة، وأطلب فيه الصفح، لكنها لم تردّ علىّ، فزاد قلبى انغلاقا. أما حياتنا الاجتماعية فى القاهرة فكانت محدودة؛ معظم أقربائنا يعيشون فى الدلتا، وصداقات أبى كلها بين زملائه فى الجيش، ولم أرَ لأمى صديقة فى حياتى، وأختى تقضى وقتها مع صديقاتها القليلات على حدة، فى غرفتها أو فى خروجات. الحدث العائلى الرئيسى -بخلاف انتقالى إلى مصافِّ العاملين بجهاز الدولة- هو سفر عمر الوشيك إلى إيطاليا ونزاعه مع أبى حول هذا الأمر.

كنت بلا أصدقاء أبثُّهم شكواى واعتراضاتى. أخى عمر حادّ الطبع، ولا يستمع إلى شيء أقوله أكثر من دقيقتين إلا ويبدأ فى انتقادى وتسفيه أفكارى .ومع حبى الشديد له وتعلقى به فإن ذلك منعنى من «الفضفضة » له. حاولت عدة مرات وفشلت فشلا كاملا وندمت على ما حاولت. صفية أحَنُّ منه وأقرب، وتبنّتنى عاطفيا منذ فراقى لداو مينج ثم سفر عز الدين. يبدو أنها شعرت بعزلتى، أو شعرت هى نفسها بالعزلة، فاقتربت منى أكثر. لكننا ظللنا غير قادرين على البوح بشيء يتجاوز مشكلات الحياة اليومية. فلم أعرف شيئا عن مشاعرها كبنت؛ لم تقل لى أبدا إنها أحبت شابا أو أعجبها رجل، وحتى حين بدأ النقيب إبراهيم، ضابط المدفعية ثقيل الظل الذى يعمل مع أبى، فى التودُّد إليها لم تقُل لى شيئا وعلمت بالأمر من أمى. لا أدرى لم كنا قابضين على قصصنا الشخصية ممتنعين عن الخوض فيها هكذا! وفى نفس الوقت قريبين وعطوفين بعضنا على بعض. ربما خجل، وربما جوّ النظام السائد فى المنزل.

محمود بشير حاول مرارا تنمية زمالتنا وتحويلها إلى صداقة. راحات بعد الظهر سمحت بتقوية تعارفنا بعض الشيء، حيث صرنا نتناول طعام الغداء معا مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع. لكنى رفضت بأدب دعواته المسائية؛ كانت فكرة ذهابى إلى بار أو اللقاء بناس لا أعرفهم ترهبنى، خصوصًا أن الذين يسهر معهم محمود فنانون وصحفيون من الرجال والنساء -وبالأخصّ نساء- وهم نوع من الناس لم أحتكّ به فى حياتى وأخاف من التعامل معه بحكم تربيتى.

خطابات عز الدين من كندا شكّلت كنزا من العواطف والقصص: عالَم كامل عشته من خلال صديقى. الجامعة ورقى نظامها؛ التعليم المحفِّز، والتفكير النقدى، وروح الابتكار، وهذه الأشياء التى نسمع عنها فى القصص، المدينة الهادئة وأشجارها من خضرة الصيف الزاهية لألوان الربيع المتغيرة لسقوط الجليد الأول، الناس والتحضر وحسن المعاملة، البنات اللائى يقول إنهن نوع آخر غير الذى نعرفه. نجح عز الدين فى الفصل الدراسى الأول بامتياز، وأصبح معيدا فى الجامعة التى يتعلم بها، وسعادته تسيل من خطاباته .أما أنا فلم أستطع الخوض كثيرا فى ما يُقلِقنى، باعتباره من أسرار العمل التى لا أستطيع البوح بها خشية تلقُّف الأعداء لها واستغلالها ضد مصر. آه لو عرف الأعداء! اقتصرت خطاباتى على الأمور التى كانت بيننا قبل سفره، والتى شحبت مع الوقت. أحاول جاهدا أن أجد شيئا مثيرا أقوله له كيلا أضجره .لكن رغم كل ما يحدث حولى وقتها، لم يكن هناك شيء يحدث لى أنا لأذكره .يحدِّثنى عز الدين فى خطاباته عن الدور المتنامى للصين، ويسألنى عن دهاليز حرب الخليج ومفاوضات إنهائها، والأكراد والشيعة وما يجرى لهم، وعن المذابح التى بدأت فى البلقان، ثم عن مؤتمر مدريد للسلام فى أكتوبر. بعدها يضيف أنه يتفهم عدم تطرُّقى إلى هذه الأمور بسبب حساسية عملى. لكَ الله يا عز الدين: ماذا كان يظنُّنى أفعل فى الرئاسة؟ أنا مترجم المقالات.

الحلقة السابعة

طلب منى الدخول معه إلى غرفة مكتبه وأغلق الباب وأجلسنى قبالته.. لم يكن يحتاج عند هذا الحد إلى أن يقول أى شىء.. فقد أرهبنى رد فعله هذا بما يكفى لإقناعى بأى موقف

تغيرت الأحوال فى العام التالى. بدأت التحولات مع نجاح عمر فى انتزاع موافقة أبى على سفره إلى إيطاليا، بعد صراع لشهور طويلة استخدم فيها عمر كل الأسلحة الثقيلة التى لديه. توقف عن الأكل فى البيت، ثم توقف عن الحديث مع أبى -هو الذى قاطعه لا العكس (أترى يا يحيى؟ هذا درس لك)، ثم توقف عن الحديث مع أمى أيضا. بعدها استخرج جواز سفر وتركه »بالصدفة« ملقى على المنضدة ليراه الجميع. وحين لم يفلح كل هذا، قال لأمى إنه اقترض المبلغ الذى يلزمه للسفر من صديق له، وسيسافر فى أول الشهر التالى، وتوقف بعدها عن الكلام مع كل أعضاء المنزل، بمن فيهم أنا الذى أيدت مشروعه للسفر منذ البداية. رضخ أبى عندئذ، وهى أول مرة أراه يوافق فيها على شىء عارضه .أعجبنى إصرار عمر ونجاحه، وشعرت بالغيرة بعض الشىء. لكنى لم أسعَ لتقليده، بل صعب علىّ انكسار إرادة أبى.

بعد سفر عمر، تقدم إبراهيم ثقيل الظل لخطبة صفية أختى .وإبراهيم هذا نقيب من سلاح المدفعية أُلحِقَ للعمل مع أبى منذ فترة، ولا يفتأ يتملقه ويتقرب منه فى ما بدا لى سعيا واضحا كى يفوز برضاه ومساعدته فى الحصول على منصب هنا أو هناك. حين قالت لى أمى إنها تشعر برغبة إبراهيم فى الاقتران بصفية قلت لها رأيى فيه، لكن ما رأيته أنا انتهازية رأته هى حسن تصرف ودليلا على أنه سيشق طريقه إلى النجاح. وثقل الظل؟ لم توافقنى الرأى، فهو فى رأيها مهذب ومجامل، يحترم الآخرين، ربما جادّ زيادة عن اللزوم لكن ذلك لا يعيب الرجال. لم يعجبنى الأمر برمته. لِمَ يجب أن تتزوج صفية وهى ما زالت فى الخامسة والعشرين؟ ولِمَ تتزوج ضابط المدفعية اللزج هذا دون الشباب كلهم؟ سألت صفية إن كانت تحبه، فاحمرّت وجنتاها من السؤال وقالت إنه لطيف معها وكريم وشكله مقبول والكل يُجمِع على كونه عريسا مناسبا. أردت أن أقول لها إن هذا غير كافٍ، أردت أن أسألها عن مشاعرها وما إذا كانت قد أحبّت، أردت تحذيرها من الارتباط قبل أن تجد هى نفسها وقد انتهى بها الأمر تابعة لضابط المدفعية ممسوحة الشخصية والوجود. أردت أن أقول كل هذا، لكن صمتا لا يتزحزح حلّ بيننا كأنه فاصل لا يمكن اجتيازه. صمتُّ، ولكنى عزمت على الحديث مع أبى عن الموضوع.

حين حادثته فى الأمر طلب منى الدخول معه إلى غرفة مكتبه وأغلق الباب وأجلسنى قبالته. لم يكن يحتاج عند هذا الحد إلى أن يقول أى شىء، فقد أرهبنى رد فعله هذا بما يكفى لإقناعى بأى موقف. لا يعرف الآباء حجم سلطتهم على أبنائهم، ولا يعرف الأبناء إلى أى درجة يجهل الآباء طريقهم ويتحسسون من الخطأ ويترددون مثلهم، وإلى أى حد يمكنهم أن يغيروا آراءهم لأتفه الأسباب. وها أنا ذا أقول لك: تَذكّر دائما، إن نجوتُ الليلة مما ينتظرنى، أنى مثلك تماما، أبحث عن طريقى، بخبرة أطول، لكن الخبرة لا تقول لى ماذا يتعين علىّ فعله. فلا تخَف منى، ولا تنبهر بما أقول أو تتبعنى وأنت مغمض العينين مثلما فعلت أنا مع أبى. جلست وأنا أشعر أن ما سيقوله لى خاصّ وهامّ، واستعددت نفسيا لتلقيه كإفضاء يستحق أن احتويه وأقبله على الفور .بدأ بأن المرأة تحتاج إلى الاستقرار أكثر من أى شىء آخر، وإبراهيم يحترم صفية ويعرف قدرها وسيعتنى بها، وقلل من شأن العواطف التى قال إنها تزول سريعا، فكل الأزواج يعتاد بعضهم على بعض مع الوقت ولا يبقى سوى حسن العِشرة. ثم مال بجذعه وهو جالس قبالتى فاقترب أكثر وقال إنه لن يعيش لنا طول العمر، وإنه على وشك بلوغ سن المعاش ويريد الاطمئنان علينا. ذكر سفر عمر وتَهدَّج صوته قليلا وشرد بنظره. ثم ابتسم ابتسامة عريضة كأنما ليمحو ذكرى، وقال شيئا عن وظيفتى ونجاحى ومستقبلى. ثم استطرد بأنه لم يبقَ له سوى الاطمئنان على صفية، وأن إبراهيم سيصونها ويعتنى بها. تحدثت قليلا -من باب المحاولة- عن الحب والشخصية والاستقلال، ولكنى لم أقاوم كثيرا، وخرجت من مكتبه مقتنعا أن موقفه منطقى، وقد يكون الأقرب إلى موقف صفية نفسها .ومَن أكون أنا كى أُقحِم تفكيرى ومنطقى على أختى إن كان كل ما تريده هو حياة عائلية تقليدية وهادئة. تزوجت صفية بثقيل الظل بعدها بشهور قليلة، وانتقلت إلى بيتها الجديد فى مدينة نصر.

تَغيَّر وضعى فى العمل خلال هذا العام أيضا، فقد عهد إلىّ الأستاذ مرتضى بمهمة إعداد الملف الإعلامى، فأصبحت أنا الذى أختار المقالات التى يتم ترجمتها.. أو هكذا ظننت فى البداية، فبعد ثلاثة أيام من تسلمى المهامَّ الجديدة استدعانى الأستاذ مرتضى وأنَّبنى على التغييرات التى أدخلتها والتى -وفقا لما ذكره- أغضبت سكرتير الرئيس للمعلومات، وربما الرئيس شخصيا. شرحت له ما فعلت لكنه قاطعنى وطلب منى أن لا أغير أى شىء دون مراجعة رئيسى، فكل هذه الأمور لها نظام موضوع لأسباب، ولا يجب العبث بها .صمتُّ فأضاف أنه تقرر إسناد هذه المهمة إلى شخص آخر، وعدت أنا لترجمة المقالات. لكن بعد أسبوع أرسلنى للمشاركة فى الترجمة بأحد المؤتمرات التى سيشارك فيها الرئيس. وبالفعل ذهبت من اليوم التالى إلى الشخص المسؤول عن الترجمة فى المؤتمر، وساعدته فى تنظيم الفريق الذى سيتولى الترجمة، وانتقلنا جميعا إلى مركز المؤتمرات بمدينة نصر بعدها بأسبوع، حيث سيدور المؤتمر. وكانت هذه أول مرة أرى الرئيس رأى العين.

كان أقصر مما يبدو فى التليفزيون، وأعرض، وأكثر ذكاء ودماثة. يسير وحوله حلقة من كبار مساعديه وسكرتيريه والحراس ووزير أو اثنان، لكنه ينظر إلى مَن يقف وراءهم ويحيِّى من يراه على مبعدة ويتبادل معه حديثا ضاحكا أو ساخرا. صوته جهورى، وحين يتحدث يصمت الجميع. يسير بسرعة وبخطى واثقة وهم يلحقون به ويسبقونه دون أن يضعوا أنفسهم فى طريقه. وتحوطه هالة تشبه التقديس. نظر إلىّ وهو يعبر أمامنا نحن المترجمين، وسأل بصوت عال مَن نكون. رد أحد مساعديه بصوت خفيض: «المترجمين يا فندم»، سأل: «دول من عندنا؟»، فأجابه بالإيجاب، فضحك الرئيس ونظر إلينا محذّرا: «خلُّوا بالكم، اوعوا تترجموا غلط وتضيّعوا الدنيا»، ثم سار وحلقة المساعدين تتبعه.

لا أدرى كيف أصف لك مشاعرى ساعتها! وقع قلبى بين قدمَىّ مثلما يُقال، وظللت طوال المؤتمر مرتبكا وعينى لا تفارق مقعده. كنت أراه من حيث أجلس فى أثناء الترجمة. أرقبه: يقضى معظم وقته جالسا بلا حراك .أحيانا يميل برأسه فيأتيه أحد الوزراء الجالسين خلفه أو رئيس الديوان وينحنى حتى يصل إلى مستوى أذنه ويستمع لما يقوله له، ويومئ، دائما يومئ، ثم يذهب. قد يعود بعد قليل وينحنى بجواره بنفس الطريقة ويحدّث الرئيس. عندها يظل الرئيس جالسا دون حركة كأن أحدا لا يحدثه، ثم يهز رأسه مرة واحدة، وينصرف الرجل. ويواصل الجلوس فى صمت. كنت مأخوذا؛ ها هو ذا، رئيس الجمهورية بشحمه ولحمه، على بعد خطوات. وقد تحدث إلىّ من دقائق قليلة. هذا الرجل الذى بيده كل شىء، الذى يرجعون إليه فى كل القرارات، على بعد خطوات.

تكرر هذا الأمر ست أو سبع مرات خلال هذا العام، ولم يحدث خلالها أن تَحدّث إلىّ أو حتى لاحظ وجودى، لكن تكرار وجودك فى نفس المكان مع الرئيس يمنحك شعورا بالأهمية والقوة لا يمكنك مقاومته، لأنك تنتقل من حيث كنت لتصبح عضوا فى طائفة الناس الذين يرون الرئيس دوما، وهى طائفة محدودة العدد جدا. قبولك فى عضوية هذه الطائفة يعطيك تميزا عن البقية، شئت أم أبيت، وشيئا فشيئا تعتاد هذا التميز، ويرتبط شعورك بنفسك وبقوتك باستمرار انتمائك إلى هذه الطائفة، وطبعا بالرئيس نفسه. ومثلما سأفهم بعد ذلك، يدفعك هذا الشعور للسعى باستمرار للاقتراب من الرئيس أكثر، كى تستمدّ لنفسك مزيدا من هذه الرابطة وهذا التميز، هذه القوة التى تشع داخلك دفئا حقيقيا كما لو كنت تقترب من الشمس. هكذا، رويدا رويدا، ينتظم المعاونون والمستشارون والوزراء حول مصدر الضياء فى حياتهم.

سألنى محمود بشير عن المؤتمر فقلت له إنى أحببت العمل فيه، فاقترح علىّ أن أطلب من واسطتى أن ينقلنى إلى إدارة الترجمة الفورية .أبديت اندهاشى من افتراضه أن لى واسطة بالرئاسة، فانفجر ضاحكا، وسألنى إن كنت أعتقد جديا أن هناك شخصا واحدا فى الرئاسة لم يتم تعيينه بواسطة، بمن فيهم الرئيس نفسه! تركنى ومضى وهو يهز رأسه يأسا منى. الحقيقة أنى أحببت العمل فى المؤتمر لدرجة أنى فكرت فى الذهاب إلى العميد القطان وطلب مساعدته مثلما اقترح محمود، لكنى خجلت. أحببت العمل فى المؤتمرات، ليس فقط لأنها كانت أكثر إثارة من ترجمة المقالات، وإنما لأنى كنت أشعر فيها بالأهمية .هذه هى الحقيقة: لو سألتنى ساعتها لأجبتك بأنى أحبها لأنى أشعر بقيامى بعمل هامّ والإسهام فى شىء مفيد لمصر. لكن الحقيقة كما أراها اليوم أنى أحببتها لأنها تُشعِرنى بأنى جزء من شىء هامّ، وما الذى يعطيها الأهمية؟ ذلك الرجل الربعة، العريض، الذى يتحرك ويتحدث ببطء ويتندر على من يحدِّثهم فيضحك الناس سعداء بسخريته منهم، ويمضى وكل فكرة تومض فى رأسه أو شعور ينتابه يمكن أن يتحول إلى قرار يؤثر على حياتى وحياة الملايين من الناس. هو الذى يجعلها مهمة بمشاركته فيها، وكلما اقتربت منه أكثر زاد شعورك بأهمية ما تفعله.

فى آخر العام استجمعت شجاعتى وذهبت لمقابلة العميد القطان، وطلبت منه أن يرى إمكانية نقلى للعمل فى الترجمة الفورية بشكل دائم، سواء فى المؤتمرات أو -إن أمكن- فى مقابلات الرئيس.

نظر القطان إلىّ ساعتها وازداد احمرار وجهه، وربت علىّ وهو يبتسم، كأنه فهم أنى انضممت أخيرا إلى الفريق.

الحلقة الثامنة

عندما تعمل مثلى بالحكومة لوقت طويل -لا قدر الله عليك ذلك- تتحول حياتك إلى سلسلة من الأعوام لا الأيام، فتتذكر ما حدث لك عاما بعام، ويتداخل كل ما حدث طوال العام كأنه كان يوما واحدا، يغلب عليه حدث واحد هو الذى يَعْلَق بذهنك ويطمس ما عداه. فى حالتى أذكر العام الثانى لى فى مكتب الرئيس، 1993، لا بتوقيع اتفاقية أوسلو ولا بحادثة التفجير الأولى لبرج التجارة العالمى ولا بضرب الرئيس الروسى لبرلمانه بالدبابات، إنما بفضيحة سالى القصبجى.

كانت سالى مندوبة إحدى الصحف لدى الرئاسة، امرأة ذكية وجذَّابة إلى حد ما، لكن الذى ميَّزها هو علاقاتها الواسعة داخل وخارج الجهاز الحكومى. هذه العلاقات جعلت منها مركز خدمات متنقلا، يلجأ إليه مَن لديه حاجة يُضنِيه قضاؤها، ابتداءً من تعيين الأقارب فى الوظائف حتى تراخيص البناء. لم تكن سالى تبخل بقدراتها السحرية على أحد، بل تمد يد المساعدة لمن تعرفه ومن لا تعرفه ما دام لجأ إليها، وبلا مقابل سوى المودَّة، وربما احتاجت إلى هذا الشخص نفسه فى يوم ما لمساعدتها على قضاء أمر ما. سالى هذه دخلت فى علاقة غرامية مع محمود بشير. هو الذى أخبرنى، وعلى الفور حذرته من مغبَّة خلط العمل بالعواطف خصوصًا فى مكان كهذا، إلا أنه ضحك من حذرى ونعتنى بالسذاجة وسألنى بتهكُّمه المعتاد إن كنت أظنُّنا فى جامع. سكتُّ، فلم يكن من طبعى التدخُّل فى شؤون الآخرين. وليتنى تدخلت.

لم يُعرَف عن محمود العفة، بل استقرت سمعته كزير نساء، كريم فى ذوقه، لا يضطهد أحدا منهن. ولم يُبدِ أحد انزعاجا خاصا إزاء هذه السمعة، بل كان الجميع يتندر على تعدد علاقاته النسائية. ومحمود نفسه كان يأخذ الموضوع بخفة وانطلاق مثل أى أمر آخر فى حياته، ينتقل من هذه إلى تلك، أحيانا تتركه هذه وأحيانا يفر هو من تلك، ويحكى لى جوانب من هذه القصص بشكل عابر ولا يبدو أن أيا من هذا يؤثر فيه. لكن يبدو أن علاقته بسالى أصابت جانبا فى نفسه لم يكن يعلم بوجوده. أحب سالى فعلا، وبإخلاص لا أعرف من أين أتاه، لكن لا هو ولا أنا أدركنا ذلك فى حينه. وبدأت تظهر عليه علامات لم أرَها فيه من قبل، أحيانا أجده شارد الذهن ساهما، وأحيانا مبتهجا مشرقا، وأحيانا مغلقا لا يرد. حتى إننى أنا الخجول فاتحته فى تغيُّره وسألته إن كان قد وقع فى الحب الذى تفاداه كل هذه السنوات، فلم يحر جوابا مفهوما.

ثم وقعت الواقعة. اكتشف محمود أن سالى على علاقة بأحد كبار العاملين بالرئاسة فى نفس الوقت الذى كانت تبادله فيه الغرام. وأقول لك إنه لا شىء أقسى على الرجل من مثل هذا الاكتشاف. هكذا الرجال مضحكون يا بنى: يتصورون جميعا استحالة تعرُّضهم للخديعة من نسائهم، مع أنهم لا يكفون عن إغواء السيدات. هل يسألون أنفسهم كيف يمكن -حسابيا- أن تقع كل هذه الخيانات ويظلوا هم بمنأى عنها؟ لا، لا يسألون أنفسهم عن هذا، مثلما لا يسألون أنفسهم عن كل ما يسوؤهم معرفته. كانت صدمة محمود بشير فى سالى مروِّعة، ولا تتفق إطلاقا وتورطه المتكرر مع سيدات متزوجات برجال لا يقلون عنه شأنا ولا ذكاء. حاولت سالى الإنكار لكن الدليل كان دامغا، فاعترفت وبكت مقسمة إنها تحبه، وحكت له قصة معقدة عن علاقتها القديمة بهذا المسؤول والتى كانت قد توقفت حين تَعرَّفت إلى محمود، لكنها عادت فى فترة كانا فيها غاضبين كلاهما من الآخَر، أو شىء من هذا القبيل. المهمّ، لم يكتفِ محمود بقطع علاقته بها، بل ذهب إلى الشخص الآخر فى مكتبه وضربه. وهكذا بدأت الفضيحة.

ولم تتوقف هنا. المشاجرة غير المسبوقة فى تاريخ الرئاسة أدَّت إلى تحقيق، ومع كل يوم يمر يتضح بُعد جديد لعلاقات سالى القصبجى .وظهرت تسجيلات مصورَّة، ووقعت وشايات مدمِّرة، وتحولت الفضيحة إلى كرة من النار تجرى فى الرئاسة كلها، حتى صدر القرار باستئصال كل ما يتعلق بها .وهكذا طارت كل الرؤوس المتورطة فى شبكة علاقات سالى المريبة، وأولهم طبعا محمود بشير الذى طُرد. رأيته فى آخر يوم له فى المكتب وراعنى إلى أى حد تغير، كان حطامًا يشبه الشاب الضاحك المنطلق سريع البديهة والحركة الذى عرفته .سألته عما سيفعله فلم يُبدِ اهتماما، وبعد صمت طويل أسرَّ إلىّ بأن ما يمزِّق قلبه فعلا ليس الطرد والإهانة، بل فقدان سالى. ثم رحل، وتم التنبيه علىّ أن لا أتصل به بعد ذلك.

فضيحة سالى القصبجى كان لها توابع مباشرة على عملى. فقد اتصل بى العميد القطان ودعانى إلى العشاء ببيته. استغربت الدعوة، فهذه أول مرة يفعلها، ولم تكن علاقتنا بهذا القرب، كما أنه لم يدعُ أبى أو أحدا غيرى. ذهبت طبعا، متأنقا، وحاملا باقة من الزهور أوصتنى بها أمى. فتحَت لى البابَ شابة فى السابعة عشرة تقريبا، وحين سألتها مرتبكا عن العميد القطان ابتسمت وأدخلتنى إلى الصالون. لم أعرف ماذا أفعل بباقة الزهور فأعطيتها إياها، وهى ارتبكت بدورها ووقفت ممسكة بها. ثم غادرت الصالون... وظهر القطان بعدها بدقيقتين خِلتُهما دهرا. فى ذلك المساء عرَّفَنى إلى ابنته، ندا، تلك التى فتحت لى الباب وتسلمت أزهارى بالصدفة، والتى صارت، بعد هذا العشاء بسنوات، أمك. عرَّفنى أيضا إلى زوجته. وبعد التعارفات السريعة اختفت البنت وأمها وظللت أنا مع العميد. سأل عن أخبارى ثم انتقل سريعا، قبل أن أجيبه، للحديث عن المكتب. أبلغنى إعجاب رؤسائى وزملائى الأقدم بنشاطى واجتهادى والتزامى، وتنبُّئهم لى بمستقبل واعد. وأشار إلى أن الأزمة الأخيرة -صارت تلك هى التسمية المتعارَف عليها لفضيحة سالى القصبجى المدوِّية- قد يكون لها جانب إيجابى حيث شغرت أماكن عديدة من بينها مكان فى الترجمة الخاصة باجتماعات الرئيس ويمكن إن حالفنى الحظ أن أُنقل إليها كما طلبت منه منذ شهور. بدا لى الأمر مضحكا وأنا أتساءل عما إذا كانت كل الأماكن التى شغرت لعشاق سالى السابقين، وأحاول تخمين عددهم. تمالكت نفسى واحتفظت بالجدية اللازمة، والعميد القطان الذى يحمرّ وجهه كلما تَكلم أصبح منفعلا تماما وهو يتحدث عن احتمال تغيير منصبه هو شخصيا والانتقال من الحراسة إلى عمل مدنى فى السكرتارية الخاصة. دخلت ندا لتدعونا إلى المائدة فانتقلنا إليها مع بقية الأسرة. تبادلنا أحاديث عامة عن الأحوال فى أثناء الطعام، وسألتنى زوجته بلطف عن حياتنا فى بكين، ثم انتقل الحديث إلى ندا التى كانت فى البكالوريا الفرنسية، وسألنى العميد القطان بغتة إن كنت أعرف الفرنسية فنفيت، فأردف بجدِّية أنه يجب علىّ تعلُّمها. بعد العشاء عدنا إلى الصالون لاستئناف الحديث. ذكَّرَنى بضرورة تحسين علاقتى الاجتماعية بالزملاء والرؤساء بالمكتب، وتنفيذ ما يُعهَد إلىَّ دون اقتراحات وتجنُّب الفُتْيا إلا حين تُطلب وعدم الإسراف فيها إن طُلبت، وعدم الحديث عن عملى إلا إلى رئيسى المباشر، وتجنُّب فعل أى أمر فى السر أخجل منه لو عُرِفَ، وعدم التدخل فى ما لا يعنينى، والبحث عن زوجة ملائمة، ومراعاة الأدب واحترام مَن هم أقدم منى أو أكبر سنّا وتقديم ذلك على أى اعتبار آخر. وختم بالتنبؤ لى بمستقبل باهر إن اتبعت هذه النصائح السبع. ثم قام واقفا إيذانا بانتهاء عشائنا.

حزنت لِمَا جرى لمحمود، وأردت الاطمئنان عليه رغم التحذير الواضح الذى صدر لنا بعدم الاتصال بأى من المفصولين. فكرت فى الاتصال به من المنزل لكنى ترددت خشية أن يكون تليفونى مراقبا. وتذكرت نصيحة القطان. وبينما أتردد وأفكّر دخلَت على المكتب فتاة سمراء ممشوقة القوام ومبتسمة .عرَّفتنى نفسَها: عفاف، عاملة سويتش التليفونات (هذا اختراع آخر انقرض ولم تعاصره أنت)، وأردفت بصوت خافت أن الأستاذ محمود يُهدِينى السلام. نظرت إليها فى هلع، لكن ابتسامتها اتسعت وطمأنتنى أن هذه رسالة خاصة، فهو لم يتصل بالمكتب أو شيئا من هذا القبيل، إنما قابلته عند مقهى بشارع فيصل وهى عائدة إلى بيتها فطلب منها إبلاغى السلام. ظللت أحدق إليها دون رد، فلم أعرف بمَ أردّ، خشيت أن يكون كلامها فخّا فلم أُرِد التورُّط بشىء، وخشيت أن يكون حقيقيّا فلم أُرِد ردَّها. ولما طالت نظرتى وأيقنَت أنى لن أتكلم هزّت رأسها فى ابتسامة مستغربة ومتهكمة فى نفس الوقت، وقالت لى أن أتصل بها إن احتجت إلى إبلاغه بشىء، ولما لم أردّ على ذلك أيضا رفعت يدها بالتحية وقالت لى إنها عائدة إلى غرفة السويتش.

ثم عادت سالى القصبجى. اختفت عدة شهور، ثم عادت للظهور، فى التليفزيون هذه المرة. وفى خلال أسابيع قليلة أصبحت من أهمّ الوجوه الإعلامية على الشاشة. وانتابتنى حالة عميقة من عدم الفهم. لم يكن لدىّ أصدقاء فى الرئاسة بعد رحيل محمود أو حتى زملاء يمكننى الحديث معهم عن هذه المسائل، فكلهم يتبعون نصائح القطان السبع. فكرت فى سؤال الأستاذ مرتضى -رئيسى المباشر- لكنى تراجعت، فقد كان قرار نقلى على وشك الصدور ولم أُرد اقتراف أىّ أمر من شأنه تعطيل هذا النقل. ولم أستسغ الاتصال بالعميد القطان لأساله. وظل الفضول يقتلنى: كيف عُوقِبَ كل من كان على صلة بسالى فى حين نَجَت هى من العقاب، بل وتحسنت أحوالها؟ وفى النهاية تَغلّب علىّ الفضول، ولعلّى أيضا أردت اختبار عفاف، فاستدعيتها إلى مكتبى وسألتها عن شىء تافه يتعلق بالتليفونات والفاكس، ثم تطرقت عَرَضا إلى عودة سالى للظهور سائلا إياها إن كانت قد شاهدتها على الشاشة فأكدت أنها تتابع برنامجها كل ليلة .تشجعت وسألتها كيف نجت هى فى حين عوقب الباقون فرَمَتنى بنظرة مَن لا يعرف إن كان محدِّثه عبيطا أم يتظاهر بالعبط. ساد صمت لحظة فاستأذنَت منصرفة، وهمستُ لها وهى تهمّ بالخروج أن تبلغ سلامى إلى جيرانها فى شارع فيصل .فالتفتت إلىّ وقالت مازحة إنها لا تسكن فى فيصل بل فى أرض اللواء. سألتها بصدق: أى لواء؟ فرَمَتنى بنفس النظرة وخرجت دون أن ترد.

الحلقة التاسعة

اقتربت بمقعدى من مكان الرئيس كما قيل لى والتزمت بالتعليمات بعدم النظر إليه أو الإتيان بصوت أو حركة فى أثناء الاجتماع

تم نقلى فى مطلع 1994 كما وعدنى العميد القطان، واستقرت سمعتى بالرئاسة كموظف كتوم وكفء، يُعتمد عليه ولا يتدخل فى ما لا يعنيه ومُخلِص. أحيانا أحضر مقابلات الرئيس لأدون محضر الجلسة -تحت إشراف سكرتير الرئيس للمعلومات- وأحيانا أقوم بدورى الأصلى كمترجم فورى فى لقاءات الرئيس. أول اجتماع حضرته كان بين الرئيس ومسؤولى الاتحاد الأوروبى. حذرونى من النظر إلى الرئيس فى أثناء الاجتماع، وطبعا من الإتيان بأى صوت أو حركة. جلست فى أبعد مقعد ممكن عنه لكنى لم أتمالك نفسى واختلست النظر إليه عدة مرات. فى إحدى هذه المرات لمحنى وشعرت كأنه يزجرنى بنظرته فانكمشت وعدت إلى أوراقى. ولأنى جلست بعيدا عنه، وظللت مشغولا بمسألة النظر إليه، لم أتمكن من متابعة ما يقوله الضيوف بما يكفى. كذلك فإن المسؤول الأوروبى كان خافت الصوت ويتحدث بلكنة إسبانية تتداخل مع نطقه للإنجليزية بشكل صعّب علىّ تمييز ما يقول. كدت أموت من الرعب والوقت يمر وأنا أدرك أنى لم أدون شيئا من مناقشاتهم. لم يكن الرئيس يقول شيئا ذا بال، إذ انصبّ معظم حديثه على تأكيد ما يقوله الضيف وتعديله فى بعض الأحيان أو الإضافة إليه بتكرار عبارة «ومن هنا أهمية تنشيط الدور الأوروبي». كتبت ما استطعت التقاطه، ومن حين إلى آخر أنظر إلى سكرتير الرئيس للمعلومات وفرائصى ترتعد. بعد نهاية الاجتماع أمسكنى السكرتير من يدى وسألنى وهو ينظر فى أوراقى عما كتبت .تلعثمت، ثم اعترفت له بأنى لم أسمع أو أفهم شيئا مما قاله الضيف، وانتظرت الصاعقة التى ستحلّ على... لكنه ضحك بصوت عالٍ وهو يربت على كتفى وقال لى أن لا أنزعج فهذا الرجل لا يقول شيئا ذا قيمة أصلا، ولا أحد يميز ما يقوله بمن فى ذلك زملاؤه الأوروبيون. ووسط ذهولى أمسكنى من يدى وسار بى وهو يؤكد علىّ أن أجلس فى المقعد القريب من الرئيس فى المرة القادمة ولا أخشى شيئا، فهو مقعد مخصّص لكاتب الجلسة أو المترجم، وطلب منى أن أمر عليه فى مكتبه بعد ساعة ليُملِى علىّ شيئا أدوّنه كمحضر للجلسة الهلامية التى حضرناها.

لا أقصّ عليك تفاصيل هذه الجلسة كى أسلّيك، ولا لأن الذكريات تعاودنى بشدة الآن وأنا جالس فى هذه السفينة الصامتة أنتظر المواجهة الآتية، لكن أقص عليك ذلك كى أفهمك أمرا لم أقله لأحد من قبل، ولو قلته لأحد لما صدقنى ولظن بى الظنون. فى البداية ظننت أن هذا الاجتماع الفارغ من أى مضمون هو حادثة مؤسفة ضاع فيها وقت الرئيس هباء. وبعد عدة اجتماعات مشابهة، ظننت أنهم يأتون بى للاجتماعات التى لا يُرجَى منها فائدة، وحين توثقت صلتى بسكرتير الرئيس للمعلومات بما يكفى علقت بعد أحد هذه الاجتماعات أن الزوار أضاعوا وقت الرئيس دون فائدة، فرد علىّ باستنكار أن الاجتماع كان جيدا جدا ومثمرا! صُدمت وقتها، لكن كلما مرت علىّ الشهور ثم السنوات تَعمّق إدركى لعبث معظم هذه الاجتماعات. لم أرَ طائلا من ورائها سوى تصويرها وبثها على القنوات، والإعلان عن المناقشات التى تَمّت فيها، والأوهام التى تثور فى أذهان الناس عن أمور خطيرة لا بد أنها نوقشت فيها، ثم الاتفاق على زيارة أخرى أو اجتماع تالٍ، دون أن يتم شيء لا فى الاجتماع الأول ولا فى ذلك الذى يتم الاتفاق على عقده. ومن اجتماع إلى اجتماع، ومن مؤتمر إلى مؤتمر، تعيش القضايا وتستمر، تتدهور أو تتحسن حسب نصيبها، دون أن يكون لأى من هذه الاجتماعات أثر يُذكر سوى الإيحاء بأن جهدا يُبذل ومشروعات وخططا تُنَفّذ.

كانت تلك صدمتى الكبرى. لم يخطر على بالى أبدا أن يكون الأمر هكذا .حضرت اجتماعات مع رؤساء دول وحكومات حوض النيل، واحدا تلو الآخر. يقول الضيف كلاما جميلا ويقول الرئيس كلاما جميلا، ويحومان حول الموضوعات التى يختلفان عليها، ثم يتفقان على مواصلة الحوار حول تلك الموضوعات، ربما بين الوزراء أو مبعوثين لهما أو بينهما فى لقاء لاحق فى مكان سيتوجهان إليه هما الاثنان. وينتهى اجتماعهما الهامّ، وتطنطن وسائل الإعلام بتكهنات عما تم فى هذا الاجتماع، ويخرج المسؤولون مبتسمين أو متجهمين حسب الحاجة، ويلتقطون عدسات الكاميرات، ويتمتمون بعبارات مطّاطة تُوحِى بالغموض الخطير وتُخفِى الفراغ. ثم يلتقى الرئيسان ثانية، ويُعِدّ سكرتير المعلومات ملخصا للرئيس بما «تمّ» فى الاجتماع الذى سبقه، وهو فى معظمه اتفاقات على اجتماعات أخرى، وما دار فى تلك الاجتماعات الأخرى، ثم لا شىء سوى مناقشات ودية ودوران حول الخلافات والاتفاق على اجتماعات بعدها .أين تتم الأشياء إذن؟ أين تحدث؟ أين تُعقَد الاتفاقات أو الصفقات؟ لم أقابلها فى أى من هذه الاجتماعات. حتى الاتفاقيات التى يتم التفاوض عليها تبدأ بأفكار كبرى وتنتهى بصياغات ملتبسة تُخفِى الخلاف بين أطرافها أكثر مما تجمعهم على عمل حقيقى. فى السنوات الأولى عزّيت نفسى بأن هذه لا بد واجهة لشىء آخر عميق يتم فى مكان آخر عميق.

واصلت الترجمة وكتابة محاضر الجلسات. اقتربت بمقعدى من مكان الرئيس كما قيل لى والتزمت بالتعليمات بعدم النظر إليه أو الإتيان بصوت أو حركة فى أثناء الاجتماع. وحين ظهر الصينيون، لأول مرة منذ التحقت بالعمل فى الرئاسة، خفق قلبى كأنى أقابل أصدقاء قدامى. وكما كان الحال أيام إقامتى فى الصين انبهر المسؤول الصينى الكبير بإتقانى اللغة، وأثنى علىّ -بالإنجليزية- مباشرة للرئيس. لكن يبدو أن ذلك قد ضايق الرئيس بدلا من أن يعجبه، فانكمشت فى جلستى أكثر وظللت أحدق إلى الأوراق التى أكتب فيها. كانت تلك السنة هى موعد تجديد اتفاقية حظر الانتشار النووى، وكان لمصر موقف فيها أصبحت بسببه محط الزيارات الدولية. وأذكر أنى كتبت وترجمت فى هذا العام وحده مقابلات واجتماعات أكثر من بقية الأعوام مجتمعة. وتعلمت كثيرا عن الموضوعات النووية وتفاصيلها. لكن، فى هذا الموضوع مثلما فى كل الموضوعات، لم يكُن هناك سوى مناقشات واجتماعات وتربيطات حول اجتماعات ومناقشات أخرى، وانتهى الأمر كله بلا شىء. ووقّعت مصر على تجديد الاتفاقية دون الحصول على ما أرادت.

بنهاية عام 1995 أُحيِلَ جَدُّك إلى التقاعد. وشعرت على الفور بحمل يقع على كتفى، كأنى أصبحت مسؤولا عن الأسرة بشكل ما. لم يكُن لهذا الإحساس أساس واقعى، فمعاش أبى وأملاكه ظلت مصدر دخل الأسرة، ولدى أبى مشروعات عمل فى القطاع الخاص ينوى البدء فيها. وصفية متزوجة وهانئة أو على الأقل هادئة مع ضابط المدفعية زوجها وأبى ابنتها ياسمين ذات العامين. وعمر الذى استقرّ بإيطاليا على وشك الزواج بفتاة قابلها هناك من أصل فلسطينى)واستسلمت أمى، عكس موقفها أيام داو مينج، ولم يعترض أبى لدرجة منعه من الزواج بهذه المرأة المجهولة لنا). ومع أن عمر هو الابن الأكبر لا أنا، فإنى شعرت بالمسؤولية عن العائلة وبأن تقاعُد أبى يبدأ مرحلة جديدة فى حياتنا ستعتمد فى كثير منها علىّ. ثم بدأت أمى تتحدث عن ضرورة التفكير فى زواجى. كنت فى الخامسة والعشرين، ولا رغبة لى فى فتح هذا الموضوع، خصوصًا مع أمى. لكنها لم تتوقف، بالطبع.

نسيت أن أقول لك إن عزالدين فكرى كان قد أرسل إليّ خطابا يحدِّثنى فيه عن نظام إلكترونى للتراسل وعن شيء اسمه »الإنترنت«، فى عام 1993 .واستغرق الأمر عامين حتى وصل إليّ الاختراع، وكنت من المحظوظين، حيث لم تكن الخدمة عندئذ متوفرة إلا من خلال الجامعة ومجلس الوزراء. تَصوّر !تَطلّب الحصول على بريد إلكترونى مجلس الوزراء شخصيّا !المهم، بحلول 1995 كنا نتراسل عن طريق البريد الإلكترونى، وقد قلل هذا الأمر كثيرا من وحدتى ومن أثر غياب الصداقة فى حياتى، إذ أعاد إليّ صديقى التوأم بشكل من الأشكال. فبدلا من الخطابات الشهرية أصبح باستطاعتنا تبادل الرسائل كل يوم تقريبا، وهكذا عدت مرة أخرى إلى حياة عزالدين وعاد إلى حياتى، إلا، بالطبع، ما يتعلق بعملى. أوشك عزالدين على إنهاء رسالة الدكتوراه التى يعكف عليها؛ بقى له عدة شهور من البحث وأخرى للكتابة. وكانت درجاته كلها ممتازة، وقدم عددا من الأبحاث فى مؤتمرات علمية عديدة فى كندا والولايات المتحدة، وخاطبه أساتذته فى إمكانية بقائه للتدريس والبحث بكندا إن شاء .تناقشنا فى الأمر لعدة أسابيع وذكّرنى ذلك بأيامى الأخيرة فى بكين؛ كم كان الأمر ليختلف لو أتيح لنا البريد الإلكترونى وقتها! المهم أن عزالدين رفض هذه العروض وقرر العودة إلى مصر فور انتهائه من الدكتوراه، فى العام التالى، مع أنه لم تكن لديه وظيفة تنتظره فى مصر. والأهمّ من ذلك أنه قابل فتاة أعجبته، على حسب وصفه، وإن كنت قد شممت رائحة الحب من حديثه عنها لكنه رفض التصريح بهذا. وظلّ شهورا يحدِّثنى عنها ويتردد بشأنها، ثم قطع علاقته بها قبل أن تتطور إلى حب، كما قال، لأنها لن تصلح للحياة معه فى مصر. هكذا، بقرار، قطع علاقته بها وتوقف عن رؤيتها أو الحديث معها وحتى عن ذكرها لى. هذا هو عزالدين الذى أعرفه: بلا قلب.

لكنى لست فى صرامته. ورغم النصائح السبع للقطان، وحذرى وتردُّدى الطبيعيين، وذكريات داو مينج وشعورى بالخيبة والصغر، فإنى لم أستطع منع نفسى من الاهتمام بعفاف، موظفة التليفونات السمراء الهيفاء، التى تأخذ انتباهى كله حين تسير فى الممر أمام مكتبى، وتربكنى بالكامل حين تدخله لتُبلِغنى بأمر ما. وتَحوّل السؤال عن محمود بشير المطرود من كونه الهدف الخفيّ لحديثى معها وتودُّدى إليها، إلى تُكَأة كى تمر علىّ وأراها.

ثم تطورت الأمور بسرعة.

الحلقة العاشرة

عندما عدت إلى المكتب من راحة بعد الظهيرة استدعانى العميد القطان الذى أصبح الآن يعمل فى السكرتارية الخاصة وجدته ثائرا ووجهه أكثر حمرة من أى وقت رأيته فيه انفجر فىّ حين رآنى

كنت خارجا من المكتب بعد يوم عمل طويل متوجها إلى المنزل، ومع أن منزلنا يقع على بعد خمسمئة متر من المكتب فإنى كنت أتنقل بينهما فى سيارتى الصغيرة، لا تسألنى لِمَ. خرجتُ من المكتب إلى شارع الخليفة المأمون وكانت الساعة تشارف على التاسعة حين لمحتها واقفة على الجانب الآخر من الطريق. اضطربتُ حين رأيتها: لم أكن أعرف ماهية مشاعرى إزاء عفاف؛ ليست حبا، ليست مثل مشاعرى أيام داو مينج، بل شيء آخر لم يتحدد بعد. أريد القرب منها، والبقاء معها، ولو لم نقُل شيئا. حين تظهر تملك علىّ حواسّى كلها : تسيطر حركتها على انتباهى، ووقفتها، وجلستها، ومشيتها. كل شيء يتعلق بها يهزّنى. ليس حبا، بعد، لكن سَمِّهِ افتتانا. لم يحدث لى أن فُتنت بامرأة بهذه الطريقة من قبل، ولم أدرِ ماذا أفعل. لكنى حين أراها أقع تحت تأثير اللحظة وأصبح أكثر قابلية للمغامرة، وهذا أيضا جديد علىّ. عبرت بسيارتى ناحيتها وتوقفت أمامها مدعيا أنى -لمحاسن الصدف- ذاهب لزيارة أصدقاء لى فى ميدان الجيزة، وعرضت توصيلها. ابتسمت وركبَت، وأصابنى شيء بمجرد جلوسها بالسيارة بجواري، كأن وهجا يصدر منها.

كان الطريق طويلا ولا أعرفه جيدا، فأنا لا أذهب إلى هذه المناطق مطلقا، ولا أحسبنى عبرت شارع السودان من قبل. وبين اضطرابى من القيادة فى طرق مجهولة وشعورى بوهج يلفحنى من هذا الوجود الطاغى بجوارى دخلت فى حالة من الاضطراب العامّ المصحوب بجرأة غير محسوبة. كأنى ثمل قليلا. تَولّت دفة الحديث فتجاوزتُ ترددى التقليدي، سألتنى عن أسرتى ومن أين أتيت وأين تعلمت وما إلى ذلك، وراعنى إلى أى مدى كانت قصتى قصيرة وغير مثيرة! سألتنى عن البنات فى الصين فلم أقل شيئا، وأظن أنّ وجنتى احمرّت؛ على الأقل هذا ما اتهمَتنى به. ثم بدأت هى تحكى قصتها دون سؤال منى، ثم تتوقف لتسألنى إن كانت تُضجرنى. لم تُضجرنى البتة، بل أذهلتنى بعالمها الذى لم أكن أعرف عنه شيئا، تقريبا.

عفاف تعيش مع أمها وأخيها وأختها فى شقة صغيرة ببيت متواضع من ثلاثة أدوار فى أرض اللواء. أبوها المتوفَّى كان صولا فى الجيش، وعمل سائقا لأحد القادة حتى بلوغه سن المعاش، ومن خلال هذا القائد وجد لها وظيفتها فى الرئاسة عندما تخرجت فى المعهد التجارى. ضحكت وقالت إنها أكثر أفراد العائلة نجاحا. فأخوها حسن الذى أنهى دراسته بأحد المعاهد عاطل عن العمل منذ ثلاث سنوات، وأختها ميرفت ما زالت فى المدرسة الثانوية وتشقُّ طريقها بخطًى أكيدة نحو الانحراف. جفلتُ، ولاحظت انزعاجى فأردفت ضاحكة أنها تمزح، فالبنت ما زالت فى الرابعة عشرة، لكنها لا ترى عليها اهتماما بشيء غير الأولاد وجمالها، وتكاد ترسب كل عام لولا تدخُّلات الأسرة بالهدايا والرشوة المقنعة فى صورة دروس. سألتها عن أمها فقالت إنها ست بيت، لكنها اضطُرت إلى العمل بعد تقاعد أبيها لأن المعاش لم يكن من الممكن أن يوفى باحتياجاتهم، ولأنها ست بيت بلا أى مؤهلات فقد عملت بعض الوقت فى تنظيف البيوت وأيضا فى عمل الجبن والزبادى وبيعهما. مالت علىّ ضاحكة وهى تتصنع الجدية وقالت إنها قد باحت لتوّها بسر الأسرة الكبير، فقد ظلّت أمها تُخفِى موضوع التنظيف بالبيوت هذا عن الكل، خصوصا الجيران، بل إن حسن نفسه لم يعرف به إلا متأخرا فى خناقة مع أمه بسبب النقود. أما الزبادى والجبن فقد كانت الأم تبيعهما فى الشارع لكن الفتوات الذين يسيطرون على الحى طردوها بعد أن رفضت زيادة «الأرضية» التى تدفعها لهم كل شهر. وانتهى بها الأمر إلى أن تعمل لحساب أحد محلات الألبان من الباطن. لم يعِش الأب طويلا بعد تقاعده، وبعد وفاته كان مرتب عفاف قد تَحسَّن، فتوقفت الأم عن العمل فى البيوت كى تعتنى بحسن وميرفت، وإن استمرت فى بيع الجبن والزبادى من خلال محل الألبان المجاور.

لم أعرف ماذا أقول ولا كيف أردّ. لِمَ تحكِ لى كل هذه الأمور الشخصية؟ وكيف تحكيها بهذه البساطة؟ لم يبدُ عليها أنها متأثرة أو تشعر بأن هذه الحياة معاناة من نوع خاص، بل على العكس، كانت تضحك وسط القصة، على نفسها وأهلها وأحوالهم. أما أنا فلم أعرف أحدا مثلها من قبل. لم أعرف أحدا رسب فى المدرسة، أو ذهب إلى مدرسة فنية أصلا. وعمرى ما أخذت درسا خاصا، أو ورد بخاطرى أن المدرس أو الناظر يمكن رشوته. كان لى زملاء فقراء فى المدرسة وفى أولى سنوات الجامعة، لكن لا شىء مثل هذا الذى تحكيه .كما أن اختلاطى بالآخرين -فقراء كانوا أم أغنياء- كان محدودا. عشت فى بيتنا بالمنصورة ثم بمدينة نصر ثم بكين ثم روكسى دون التوغل فى حياة الناس الأبعد عن دائرتى المباشرة، وفى دائرتى المباشرة لم يكن هناك شىء كهذا.

استجمعت شجاعتى، أو لعله تأثير الوهج وقصتها، وسألتها عن الحب. أجابت وهى تضحك أنه لا يوجد أكثر منه فى حيّها، ولما أبديت دهشتى قالت لى أن لا أصدق المظاهر، فخلف كل أمر أمر مختلف، والناس يفعلون كل ما يريدون فى كل ظرف، لكن الفارق الوحيد هو درجة الإخفاء والتنكر التى يلجؤون إليها .ارتبكتُ وأردت الخروج من هذه النقطة فسألتها عن الزواج، زواجها هى، فضحكت أيضا وسألتنى أى نوع من الرجال سيتزوجها: صاحب محل الألبان أم الفتوة الذى يجمع الأرضية كل شهر؟ وكيف ستتزوج؟ وأين؟ قلت أشياء بلا معنى محدَّد فهزت كتفيها وقالت لى أن لا أُتعِب نفسى فى التفكير، فهذا كله نصيب. ثم انتقلت للحديث عن محمود بشير وكيف اختفى من المقهى الذى كان يرتاده، وأنها سألت عنه ولم تستدلّ على مكانه. ثم انتقلنا إلى موضوعات أخرى لم أكن أتابع ما تقوله فيها جيدا، إذ انصبّ تركيزى كله على محاولة تبيُّن الطريق فى الأدغال التى قادتنى إليها، وتفادِى دهس أى من الأطفال المتناثرين فى الشوارع الضيقة التى نمر منها، والترعة، والحفرة، وبقية تضاريس المنطقة .وفى وسط الغابة الأسمنتية بالضبط، عندما فقدت الاتجاه بالكامل وبدأت أسأل نفسى إن كنت سأخرج من هنا، طلبَت منى أن أُنزلها لأنها ستأخذ ميكروباصا إلى بيتها!

ظللت أفكر فى عفاف وما حكته لى فى أثناء رحلة البحث عن طريق الخروج من هذه المتاهة. جفلتُ من المنطقة، وشكل الناس فيها، وطريقة سيرهم فى الشارع، ومن حكايات عفاف. لكن فى نفس الوقت زادتها هذه الحكايات فتنة. كأنها تفتح لى طاقة لمصر التى لا أعرفها والتى أقرأ عنها فى الكتب .قلت لنفسى هذه هى مصر الحقيقية، لا مصر الخشب التى أعيش فيها. لكنى تنفست الصعداء وشعرت أن روحى رُدَّت إلىّ حين عبرت شارع السودان نحو المهندسين، كأنى أفقت من حلم غير آمن.

ما حدث فى اليوم التالى أذهلنى...

عندما عدت إلى المكتب من راحة بعد الظهيرة استدعانى العميد القطان، الذى أصبح الآن يعمل فى السكرتارية الخاصة. وجدته ثائرا ووجهه أكثر حمرة من أى وقت رأيته فيه. انفجر فىّ حين رآنى، ناعتا إياى بالاستهتار وعدم المسؤولية، ومعربا عن صدمته العميقة فىّ، على كل المستويات. سألنى مستنكرا كيف فعلتُ هذا، كيف بلغت بى الحماقة وقلة العقل أن أوصّل عاملة التليفون إلى منزلها فى آخر الدنيا نهارا جهارا! حاولت التذرع بأنها كانت صدفة فنظر إلىّ باستياء وازداد غضبه أكثر وهو يصرخ فىّ إن كنت أظنه مغفلا. وظل يصبّ علىّ جامّ غضبه وأنا أسأل نفسى كيف عرف! هل يراقبوننى أم رآنا أحد بالصدفة؟ أغيب فى تساؤلاتى وأعود لأجده ما زال يصرخ فى وجهى. لامنى على سوء التقدير، خصوصا بعد حادثة سالى القصبجى، موضحا أنه أنقذنى بالعافية من الطرد هذا الصباح. وذكّرنى بأنى محسوب عليه وما أفعله يؤثر على سمعته هو شخصيا. وحتى بغضِّ النظر عن هذا، كيف أنحدر، أنا الذى يأتمننى رئيس الجمهورية على المشاركة فى أكثر اجتماعاته سرية، إلى مثل هذا المستوى؟ »عاملة تليفونات؟ وأمها بتبيع جبنة؟»، مضيفا أنى إن كنت أجهل حساسية منصبى وعملى ومركزى فلعلّى لا أستحقه. كما هدَّدنى بإطلاع أبى على فعلتى الشنعاء، لكنه لن يفعل حرصا على صحته. هدَأت حمرة وجهه تدريجيا، وبدأ يستعيد هدوءه، وحثّنى على التفكير جدّيا فى الزواج، ومن أناس يليق بى مصاهرتهم. ثم صرفنى من مكتبه بعد أن جعلنى أتعهد أن لا أعود لمثل هذا الأمر أبدا.

عدت إلى مكتبى والحرج يغطينى، كأن كل من ينظر إلىّ يعرف بأمر رحلتى المسائية إلى أرض اللواء المجهول الاسم، وعيناه تقولان لى باستخفاف» :عاملة تليفونات؟!«. انتظرتُ أن أرى عفاف لأعرف إن كان أحد قد قال لها شيئا، لكن شخصا آخر ردّ على حين اتصلت بالسويتش، ولم أجسر على السؤال عنها. ولم تأتِ هى إلى مكتبى، ولم أرَها فى الأيام التالية كذلك. ثم علمت أنهم نقلوها فى نفس يوم استدعائى من قِبَل القطان إلى وحدة إدارية بمحافظة الجيزة.

الحلقة الحادية عشر

حين أنظر الآن إلى هذه الأعوام أشعر بالندم لأنى تركتها تمر هكذا تضيع الحقيقة أنى كلما فكرت فى حياتى السابقة أفاجأ بأنى لا أندم على شيء فعلته بقدر ما أندم دوما على أشياء لم أفعلها .

مرّت ثلاث ساعات وما زلت فى أول الحكاية؛ أريد الاختصار لكن التفاصيل تناديني أن لا أتركها. من سيحييها إن لم أذكرها لك هنا؟ لكنى لو قصصت عليك كل ما أريد فلن أقصّ عليك ما أريد. علىّ الإسراع . الساعة الآن تقترب من السابعة، وصوت الحركة على ظهر السفينة يتزايد. قلت للواء المنيسى إنى سأظلّ بقمرتى معظم الوقت لأنى مُتعَب من البحر، سأذهب لأحضر قهوة وشيئا آكُله ثم أعود.

ها أنا ذا. قابلت اثنين من البحارة الآسيويين عند المطعم وحيّيانى بأدب شديد. ليسا صينيّين لكنى لم أستطع تبين هويتهما بالضبط؛ ربما من منغوليا. لا يعرف هذان المسكينان أنهما لن يكملا رحلتهما بسببى، بل سيُسحَبان بعد أقل من أربع وعشرين ساعة إلى ما لم يكن فى حسبانهما، وبسببى أنا.

أين كنت فى حكايتي؟ نعم، نُقلَت عفاف من الرئاسة، ثم استقرت أمورى فى المكتب دون مغامرات، ولم أرَ عفاف ثانية إلا بعد سنوات طويلة تغيرت فيها حياتى بالكامل. فى هذا العام عاد صديقى عزالدين فكرى من كندا. كنت أترقب عودته من أجل استعادة حياتنا القديمة، وأخطط الأوقات التى سنقضيها معا، بل جال بخاطرى أن نقيم معا فى منزل واحد. استأذنت من عملى وذهبت لمقابلته فى المطار، ووجدته كما هو تقريبا، لكن أكثر أناقة. كان لقاؤنا حارا مليئا بعناقات وربتات على الكتف وابتسامات تقول أكثر من الكلمات القليلة التى تتناثر بيننا. أخذته من المطار إلى مطعم فى الكوربة وتناولنا غداءنا معا .حدثنى عن مناقشة الدكتوراه وإطراء اللجنة التى ناقشته على قيمتها وتوصيتهم له بنشرها، وعن أفكار كثيرة حول التعليم الجامعى فى مصر وضرورة تطويره بحيث يستفيد من التقدم الذى أحرزته جامعات العالم، وحول طريقة تعيين وتدريب وترقية الأساتذة والباحثين، وإدماج الطلبة فى عملية البحث مبكرا، وتمويل التعليم العالى من المجتمع ودعم استقلاله، وضرورة بلورة علوم اجتماعية من منظور عربى بعيدا عن الهيمنة العلمية لمجتمعات الشمال، دون قطيعة أو عداء معها، وكيف أن بداية ذلك هى تدريس النظرية لأنها هى الأساس الذى يشكِّل العقل ويفتح ملكات النقد لدى الطلبة من ثَمّومن ثَمّ يجعلهم قادرين على خلق وإنتاج العلم لا نقله فقط. كنت أبتسم بينى وبين نفسي؛ أين يظنّ نفسه؟ لم أصارحه برأيى هذا، واكتفيت بهز الرأس فى انتظار أن يكتشف بنفسه ما ينتظره؛ هل نسى جامعة القاهرة التى تخرج فيها؟

تركته ينهى ملخص أحلامه هذا ثم حدثته عن أفكارى حول السكن، فضحك من اقتراحى بأن نسكن معا، وحدثنى عن شقة استأجرها فى حى الزمالك من أحد معارفه. خيّب ذلك أملي؛ لم يكتفِ باستبعاد فكرتى بل سيقيم بعيدا أيضا. كيف ومتى سنلتقى بين مواعيد عملى وسكنه البعيد؟ سكتُّ ولم أعلّق. واستطردنا فى الحديث: كنا نتبادل الحديث عبر البريد الإلكترونى ويعرف كلانا كل شيء عن الآخر وحياته، سوى عملى الذى لم أتحدث عنه أبدا فى الرسائل. حدثته عن المكتب وظروفه وإحباطى من الفراغ وغياب المضمون والمبادرة والفشل العامّ والفوضى والمحسوبية وبقية قائمة شكوى الفلاح الفصيح التى نعرفها جميعا، وهو يهز رأسه ويقترح مخارج وحلولا وإصلاحات، وأنا أشرح له الصعوبات التى تواجه هذه الأفكار. ثم حان وقت سفره المبدئى إلى المنصورة لرؤية خالته قبل انتقاله للإقامة في القاهرة بصفة نهائية فى الأسبوع التالى. سألته عن مشروعاته بالنسبة إلى العمل، فأجاب بثقة أنه سيجد عملا ولا ريب؛ سيبحث فى الجامعات ومراكز البحث ولا بد أنه سيجد شيئا يتفق ومؤهلاته. وافترقنا على لقاء.

لن يجد عزالدين عملا لسنوات، لا فى الجامعات ولا فى أى مكان آخر. بدأ الأمر بمشاركته فى ندوة قال فيها إن الجامعات المصرية تحتاج إلى إصلاح جذرى وإنها بشكلها الحالى عبارة عن خرابات. انقضّ عليه الحاضرون من أعضاء هيئة التدريس فى بعض الجامعات المصرية الذين اعتبروا كلامه إهانة شخصية لهم ولمصر كلها. وانتشرت كلمته هذه فى أوساط الجامعات حتى عُرف بها .ولم يساعده ذلك فى الحصول على وظيفة بأى من الخرابات التى انتقدها. لكن الحقيقة أن ذلك لم يكن السبب الوحيد، فنظام التعيين في الجامعة نفسه لا يسمح بدخول أحد من الخارج هكذا إلا فى حالات استثنائية جدا. كما اكتشف صديقى المتفائل أن رسالة الدكتوراه التى حصل عليها بامتياز وإطراء وتحيات غيرُ معترَف بها فى مصر، لأن أحدا من قبله لم يتخرج فى هذه الجامعة فى هذا التخصص من ثَمّومن ثَمّ لا يعرف المجلس الأعلى للجامعات عنها شيئا. ومن ثم بدأ رحلة طويلة وعبثية لمعادلة شهادته، تتضمن تقديم وصف لكل المواد التى درسها، وشروط الالتحاق بالجامعة وأشياء أخرى كثيرة حكاها لى وقتها. كابوس مكتمل الأركان.

استقر عزالدين فى شقته بالزمالك وهو يبحث عن عمل ويقوم بهذه المغامرات الصغيرة. وصار يأتى لتناول الغداء معى فى الخليفة المأمون فى معظم راحات بعد الظهر. يخرج لمقابلات صباحية بحثا عن عمل أو حضورا لندوة أو مشاركة فى مشروع بحثى صغير التقطه من هنا أو هناك، ثم يمر علىّ فى غالب الأحوال لتناول الغداء فى مقهى صغير استقررنا عليه بجوار مكتبى، ويعود إلى منزله بعدها حيث يقضى المساء فى البحث أو الكتابة.

استمر ذلك الإيقاع طوال 1997 و1998، وكانا من أفضل سنوات صداقتنا، كأننا عدنا صبيّين. وصرت أستطيع أن أحكى له ما يدور بالمكتب ومشاركته إحباطاتى يوما بيوم، وكذلك سماع رأيه واقتراحاته التى غالبا ما بدت وجيهة لكنها لم تنفعنى كثيرا فى ظروف العمل في الرئاسة. هذه الصداقة، هذه اللقاءات والمناقشات، كانت النقطة الوحيدة المضيئة فى حياتى خلال هذين العامين. ففى العمل كان إحباطى يتزايد، وهو ما استغربته أنا شخصيا لأن الإنسان يعتاد الأشياء مع الوقت. لكنى شعرت أن القليل الموجود من العزم أو التصميم أو الرؤية يتناقص، كأن اهتمام الموجودين بالعمل، بمن فيهم الرئيس نفسه، يتناقص. كأن الجميع استسلم: تركوا الآلات المعطّلة حيث هى، وتلك التى تعمل كما هى، وخلدوا لسُبات لا يفيقون منه حتى وهم قيام .حادثت العميد القطان فى ذلك -بلهجة مخففة طبعا- فقال لى إن الظروف الدولية صعبة ولا أحد ينتظر حدوث شيء إيجابى أو نجاح أى مبادرة فى السنوات القادمة، ومن ثَمّ فالجميع فى حالة انتظار. والوضع فى مصر؟ سألته، قال إن الظروف الدولية الصعبة تنعكس سلبا على الوضع الداخلى ومن ثَمّ لن يحدث شيء أيضا فى الوضع الداخلى خلال السنوات القليلة القادمة، حتى تتغير الأوضاع، "المهم أن نمرر هذه الفترة."

هناك أعوام تمر فى حياتك مثلما قال العميد القطان، دون أن يحدث فيها شيء سوى أن تمر. ليس هذا أمرا طبيعيا، لكنه معتاد. وحين أنظر الآن إلى هذه الأعوام أشعر بالندم لأنى تركتها تمر هكذا، تضيع. الحقيقة أنى كلما فكرت فى حياتى السابقة أفاجأ بأنى لا أندم على شيء فعلته بقدر ما أندم دوما على أشياء لم أفعلها، فتذكر ذلك يا يحيى.

خلال هذين العامين تدهورت أحوال أبى بسرعة لم أستوعبها أنا نفسى. لم أفهم كيف يمكن للتقاعد أن يهدم رجلا بهذا الشكل وفى هذا الوقت القصير .مزاجه تَغيّر فور بدأ التقاعد. صار عصبيا نافد الصبر يثور لأتفه الأسباب، خصوصا على أمى، ثم يعود ويعتذر، ثم صار يخجل من كثرة ثوراته واعتذاراته فانسحب وقلل من احتكاكه بالجميع. حتى هيئته تغيرت، وأكتافه العريضة وقوامه الممشوق تهدلت. حاول بدء مشروع سياحى لكنه لم يستطع التعامل مع ما سمّاه فوضى القطاع المدنى فتوقف بعد عدة بدايات فاشلة. ثم انطفأ أبى تماما، ومع انطفائه ذهبت البهجة من المنزل، وسكن أمى توتُّر وهمّ مُقيم. أظنها كانت غاضبة على أبى، لا لشيء فعله تحديدا وإنما لانطفائه، هو الذى كان مصدر النور والقوة فى حياتها. كأنها شعرت فجأة بأنها وحدها بلا سند، بل ومسؤولة عن هذا الذى لم يعد رجلها مثلما كان. ولم يكن هناك أثقل من الصمت السائد على العشاء، وصوت ارتطام الملاعق الذى يرن فى صمت العائلة المتوتر يذكرنى كل دقيقة بما آل إليه أمرنا.

زواج أختى صفية تطور فى طريقه الطبيعى، فصارت أما لاثنين وزوجة لضابط مدفعى ثقيل الظل، وبدين أيضا. تقلص الأدب الذى كان يستعيره فى معاملتها وظهرت الخشونة الكامنة تحته، وباءت محاولات أختى بالفرار من تقليدية ورتابة هذه الحياة بالفشل. لم يمنعه لطفه وحسن أخلاقه المزعومان من تقريع صفية أمامى وأمام أمى -وإن التزم ببقايا الأدب فى حضور أبى- كلما حاولت طرق باب غير تقليدى فى حياتهما. كل ما يريده منها هو أن تتركه فى حاله، وأن تقبل بدور وواجبات الزوجة والأم، وتهدأ وتكفّ عن الاقتراحات. وتمسك غصة بتلابيب معدتى كلما رأيتهما معا. أما عمر الفارّ فقد واصل فراره فى إيطاليا وحصل على الجنسية بعد زواجه بخديجة ذات الأصل الفلسطينى وأنجبا ثلاثة أطفال. أتى لزيارتنا بفرقته الكاملة وأشاع جوا من البهجة المؤقتة فى البيت الصامت المظلم، ثم رحل فجأة مثلما أتى لنشعر نحن من جديد بصمت وظلام حياتنا العائلية التى كنا قد اعتدناها حتى أتى وكدرها ببهجته.

وفى نهاية 1998 كانت أمى قد حزمت أمرها: الحل الوحيد لنا جميعا أن أتزوج. هكذا أعلنت، متسائلة فى غضب حقيقى عما أنتظره. ولما صمتُ ظلت تطاردنى، ولما زاد صمتى انفجرَت فىّ سائلة لأول مرة إن كنت أعاقبهم بسبب تلك الفتاة الصينية التى تركتها فى بكين. وأعقبَت ذلك بهجوم متواصل على عدم تحمُّلى المسؤولية واستمرائى حياةً من الأنانية والطفولية وعدم النضج وبقية مجموعة "كيف تُشعِر أبناءك بالذنب وتبتزُّهم عاطفيا." وأقول لك هذا كأب، الآن، سواء عشت أم لا، لا تتركنى أو أمك -وبالذات أمك- تبتزك عاطفيا أبدا. مهما قال الأبوان -بالذات الأمهات- فإنهم عادة ما يبتزون أبناءهم، فلا تستسلم لهذه اللعبة فهى قاتلة. لا تستسلم مثلما استسلمت أنا.

وهكذا، فى يناير 1999، تزوجت ندا القطان، العروس المُعَدّة لى سلفا.

الحلقة الثانية عشر

يمكنك أن تجد كل شىء وأى شىء هنا: إجراءات أمنية.. قرارات تتعلق بالحرب والسلام.. صحة وتعليم وميزانية وتعيينات... كل ما يخطر ببالك كأنك واقف فى وسط صورة مجمَّدة لعقل حكم مصر

أريد أن أحدِّثك عن زواجى بأمك: الفرح، والبيت، وشهرنا الأول، لكن الوقت يداهمنى. يمكنك، إن مِتُّ، أن تعرف التفاصيل منها، إن لم يمنعها غضبها علىّ من ذكرها لك. هناك شىء واحد أقوله لك، كأب، وهو أن لا تدخل فى عش الدبابير هذا؛ تَزوَّج كما شئت، لكن تَجنَّب هذه الشكليات التى ستخنقك دون أن تلاحظ. سيقولون لك «ليلة وتعدى»، «مظاهر لإرضاء ماما أو بابا«، »الناس ستأكل وجهنا». دعهم يأكلوه، وفرّ بنفسك مع من تحب، على طريقتك أنت، لأنك إن دخلت من هذا الباب فلن تخرج سالما. خذها منى كلمة.

دخلت أنا وأمك من هذا الباب المرتب والمُحكَم، الذى قادنا إلى بيت مرتَّب ومُحكَم، عشنا فيه حياة مرتَّبة ومُحكَمة؛ كان بعضها سعيدا، وبعضها صعبا، وكثير منها تمريرا للأيام، كثير منها لا يمكن تذكُّره .كنت فى التاسعة والعشرين وأمك أصغر منى بأربع سنوات، جميلة، أنيقة، ذات خلق رفيع وشخصية قوية، وتقدّس البيت والعائلة، زوجة مثالية كما قالت أمى المغرمة بها. أمك التى تعرفها هى المرأة التى أعرفها، هى السيدة التى يعرفها الجميع؛ ظاهرها كباطنها. سيدة مرتَّبة وشديدة الإحكام. كانت هكذا وهى فى الخامسة والعشرين، وظلت هكذا حتى رأيتها آخر مرة من أسبوع. لا أدرى كيف أصف لك مشاعرى إزاءها بدقة: أحبها طبعا، وأحترمها، وأشعر بالعرفان لكل ما فعلته لى ولك ولحياتنا. لكن، ظل هناك دوما شىء زجاجى فى علاقتنا: نتحدث ونأكل وننام ونسافر بحساب. كأنها مغلَّفة بزجاج رقيق؛ أشعر أنى إن قمت بحركة غير متوقعة، سأشرخه أو أكسره، أو كأننا فى حفلة مستمرة، نرتدى ملابس رسمية، ضيِّقة بعض الشىء فى الأجناب، ولو تحركنا فجأة لتمزقت وأصبح شكلنا مُحرجا بين الناس. حاولت كثيرا التسلل خلف هذا الزجاج، خلف الملابس الرسمية، لكنى كلما نزعت طبقة وجدت أخرى تحتها، حتى توقفت عن المحاولة.

لا تنزعج مما أقول. ندا هى أمك، رابطة أخرى بيننا لا يمكن فصمها. وحبك لها جزء منك، لا يمكنك تغييره حتى لو حاولت. وحياتنا الزجاجية الباردة هى واحد وعشرون عاما من حياتنا جميعا، لا يمكننا تغييره حتى لو حاولنا. لا تنزعج، فأنا أقول ذلك لأشرح ما سيأتى، كى تفهم أو على الأقل تتفهم لِمَ سارت الأمور فى الطريق الذى سارت فيه. وأيضا لتعرف أن البرودة الزجاجية التى كبرتَ أنت فيها ليست سمة الحياة الزوجية بالضرورة، فهناك طرق أخرى، أؤكد لك هذا.

اصبر علىّ وسأقصّ عليك كل شىء. نعم هناك طائرات ستهبط علينا، وهناك موت ينتظرنا، لكن هكذا الحال دائما، ولو سمحتُ للموت الذى يداهمنى بمنعى من الحديث إلى ابنى لانتصر الموت، وهذا ما لن يحدث. أنا جالس فى قمرتى، هادئا مثلما قلت لك فى بداية رسالتى، وأمامى كوب من القهوة، وأرتدى روبا أزرق اللون، كأن شيئا لن يحدث بعد ثمانى عشرة ساعة. كل شىء هادئ من حولى، وسأظل هادئا. يجب أن أظل هادئا.

مر العام الأول لزواجنا سلساً، ورتبت ندا كل شىء فى حياتى. حتى عندما حملَت فيك، استمرت فى العناية بى وبالبيت كأن شيئا لم يتغير. لم أرَ عليها علامة اضطراب واحدة، ولا أى شىء مما تذكره الكتب والأفلام عن اضطراب الهرمونات وجنون النساء الحوامل. حتى بطنها لم يكبر كثيرا، وظلَّ متناسب الحجم مع قدها الصغير المتناسق. لم أرَها يوما إلا وهى فى زينتها، مصفَّفة الشعر صبيحة الوجه، بابتسامة صغيرة ونظرة نصف متسائلة نصف متفهمة. وظلت هكذا حتى وضعتك فى الثامن من فبراير من العام التالى لزواجنا، أى بعد بداية القرن الجديد بشهر، وكانت سعادتنا جميعا بك لا توصف، وعادت ملامح البهجة حتى إلى أبى الذى بُعث من جديد كأنه استيقظ من غيبوبة، وصار يقضى معظم نهاره معك أو حولك. وعوض هذا عن غيابى فى المكتب معظم اليوم.

وكان وجهك حلوا علىّ أنا أيضا، إذ تَحسَّن وضعى فى العمل بشكل ملحوظ؛ صرت المترجم الأثير للرئيس، وكاتب محاضر معظم الجلسات والمسؤول عن حفظها .وبدؤوا يستعينون بى لتدوين محاضر جلسات واجتماعات تتعلق بالشأن الداخلى أيضا، مما فتح أمامى عالما كنت أجهله تماما. ثم عهد إلىّ سكرتير الرئيس للمعلومات بمهمة مساعدته فى إعادة تنظيم الأرشيف، ويا لها من مهمَّة !يمكننى القول دون مبالغة إن هذه المهمة قد غيَّرتنى. حين دخلت الأرشيف أول مرة هالنى الغبار والفوضى وكل الأشياء التى تراها فى الأفلام مرتبطة بغرف الأرشيف: ملفات من الورق المقوّى متراصَّة، لا تعرف أولها من آخرها ولا ما إذا كانت ستتفتت فى يدك لو أمسكتها أو يخرج منها ثعبان يلدغك .اقترحت على السكرتير أن تُدخِل هذه الملفات بالتدريج على الكمبيوتر، فضحك واستبعد الفكرة تماما باعتبارها حماقة. وكانت وجهة نظره أن تحويلها إلى ملفات ضوئية أو رقمية يسهِّل اختراقها وتسريبها، ومن ثم تَعيَّن علينا إعادة تنظيمها يدويا، كما هى، والعثور على طرق للحفاظ عليها وتبويبها وتسهيل الوصول إليها عند الحاجة مع بقائها فى صورتها الورقية دون نسخ أو تصوير :نسخة واحدة فقط، وتظلّ هنا. سألته عن احتمال الحريق فضحك وطمأننى أن لا حرائق تحدث فى القصر الرئاسى.

ومن ثم ألقيت بنفسى داخل الملفات كى أبدأ عملية إعادة التنظيم هذه، فوجدت وسط التراب والملفات كنزا، بالمعنى الحرفى للكلمة. آلاف الأوراق التى تحوى مذكرات من كل جهات الدولة «للعرض على السيد الرئيس«، ورأى الرئيس وتعليماته بشأن كل منها. يمكنك أن تجد كل شىء وأى شىء هنا :إجراءات أمنية، قرارات تتعلق بالحرب والسلام، صحة وتعليم وميزانية وتعيينات... كل ما يخطر ببالك. كأنك واقف فى وسط صورة مجمَّدة لعقل حكم مصر؛ كلما تحركت تلمس جزءا منه. قضيت شهورا أقرأ فى هذه الملفات، وكلما قرأت أكثر فهمت أكثر، حتى امتلأت. وبدأت أشعر أنى لا أريد معرفة المزيد، وزاد ميلى إلى الصمت.

حتى مع عزالدين، الذى وجد عملا أخيرا، مدرسا بالجامعة الأمريكية. بدأ حديثى معه عن الأمور السياسية يقلّ. لا لشىء إلا أن قدرتى على شرح خلفيات الأمور التى أعرفها تقلصت مع تعمُّق معرفتى بهذه الخلفيات . هل تفهم ما أعنيه؟ كلما عرفت تفاصيل الأمور ودواخلها، صعب عليك شرحها لمن لا يعرفها .عزالدين أستاذ فى العلوم السياسية، وتفكيره شديد التنظيم وحديثه واضح .يفكّر ويتحدث كأنه يضع رسوما هندسية لمبنى. أما أنا فأعيش داخل المبنى، بكل تفاصيله ومشكلاته وأقبيته وفئرانه والرطوبة الناشعة على جدرانه والفطر والجير المتساقط منه. أعرف كيف تُستخدم غرف المبنى ولِمَ توجد قطع الأثاث فى الأماكن التى توجد فيها، ومن أين أتت ومن يحرص على مكانها ومن يتربص بها ويريد نقلها أو الاستيلاء عليها. المهندس، برسومه الواضحة، لا يرى شيئا مما أراه. وكلما ازدادت معرفتى بهذه التفاصيل بدا لى حديثه الفكرى الأنيق بعيدا عن واقعى، وتصعب علىّ مهمة الشرح، فأصمت. لكن صداقتنا لم تتأثر بهذا الصمت، بل على العكس، أظن أن عزالدين قد طوَّر ملكة الكلام عنده وأصبح يستمتع بصمتى. ربما لهذا علاقة بكونه محاضرا ظل محروما من المحاضرات لسنوات. وحين عرّفنى إلى خطيبته «أسماء»، التى كانت تحضِّر درجة الماجستير فى الأدب المقارن بنفس الجامعة، لاحظت أنها هى الأخرى صَموت.

ومع تزايد ميلى إلى الصمت زاد ميلى إلى الانسحاب من المجتمعات، فى حين بدأت علاقات عزالدين تتسع، حتى إنه قابل محمود بشير وتَعرّف إليه فى أحد المؤتمرات التى ينظّمها مركز أبحاث تابع لمؤسسة إعلامية صغيرة يعمل بها محمود منذ طرده من الرئاسة. لم أقابل محمود أو أتحدث معه مرة واحدة منذئذ تجنُّبا للمشكلات، خصوصا بعد ما حدث لعفاف عاملة التليفونات. أدركت أن لحركتى واتصالاتى عواقب وقررت أن أستغنى عما هو غير ضرورى منها. لكنى احتفظت ناحيته بوُدٍّ قديم وببعض التعاطف، وسعدت بمعرفته بعزالدين التى أعادت بعض هذا الود ولو بطريق غير مباشر. وذات يوم جاء عزالدين يضحك، وقال لى إنه شاهد محمود مع سالى القصبجى! استغرق الأمر عدة أيام كى أصدّق، حين عاد عزالدين إلىّ بالقصة كاملة وكيف أن محمود ظل تائها هائما فى حياته حتى استأنفا علاقتهما. ظللت أسأل نفسى: كيف فعل هذا بنفسه؟ كيف سمح لنفسه أن ينقاد خلف مشاعره إلى هذه الدرجة؟ أتَفهَّم الضعف الإنسانى، لكن إلى هذه الدرجة؟!

لم يمهلنى القدر كثيرا من الوقت للتفكير فى علاقة محمود بسالى، ففى اليوم التالى توُفّى أبى. هكذا دون مقدمات. ذهب للنوم فى الحادية عشرة مساء مثلما يفعل كل ليلة؛ قال لأمى «تِصبحى على خير»، ونام، ثم لم يستيقظ .مات ضابط المخابرات العسكرية فى فراشه، بهدوء تامّ ودون ضجة.

حين يموت أبوك، مثلما قد يكون حالك الآن وأنت تقرأ هذه الرسالة، ستعرف الشعور الذى انتابنى ساعتها. حزن عميق لا يخفف منه عزاء، بل ورغبة فى الغرق فى هذا الحزن. جاء عمر من إيطاليا، مع خديجة والأبناء ومكثوا أسبوعا. فاجأتنى جدتك بصلابتها فى الأيام التالية للوفاة، وتركيزها على إتمام الأمور العملية بشكل حسن والاعتناء بزوجة ابنها وأحفادها. لكن بمجرد رحيلهم ونهاية جلبة المعزِّين بدأت رحلة ذبول لن تتوقف. أما أنا فقد أصابنى حزنى أعمق بكثير مما توقعت، وهبط علىّ صمت لم أقطعه إلا اضطرارا .حمدت الله على وجود ندا وعزالدين، بل وخطيبته أسماء، فى حياتى خلال تلك الأيام، وعلى حكمتهم وحبهم الذى أحاطونى به. لم يحاول أى منهم تعزيتى بالكلمات المعتادة أو حثّى على التقليل من حزنى. وحين قررت الاستماع إلى القرآن طوال اليوم فى البيت والسيارة لمدة أربعين يوما دون توقف شاركونى الاستماع فى هدوء. ورغم حداثة معرفتى بأسماء فإنها شاركت بإخلاص فى عملية مرافقتى فى أثناء فترة حدادى على أبى. وساعد على ذلك صداقة ندا السريعة معا رغم اختلافهما. ندا تعرف أهمية عزالدين فى حياتى، ومن ثم قررت مصادقة خطيبته فور ظهورها. مُحكَمة هذه المرأة.

كان عاما غريبا، كأنه يقلب صفحة القرن الجديد، فمن انتخاب جورج بوش فى أمريكا إلى انتفاضة فلسطين، ومن ولادتك إلى موت أبى، بدأ العالم الذى أعرفه يتوارى ويظهر عالم جديد. موت أبى فى نهاية العام أكثر ما مسَّنى، ولم أفهم مصدر حزنى العميق إلا بعدها بسنوات: لم يكن هذا حزنا على فقد الأب فحسب، بل على الزمن الذى يمضى بلا رجعة ولا يقفه شىء أو أحد، حتى أقوى الناس فى نظرى. حين مات أبى شعرت أنى كبرت: انتقلت بين عشية وضحاها من طابق الصغار إلى طابق الكبار. صعدت إلى الطابق الأعلى الذى ليس فوقه طوابق أخرى، والذى لا يمكن النزول منه ثانية، مهما فعلت.

الحلقة الثالثة عشر

كان أكبر أسباب انغماسى فى العمل هو انغماسى فى العمل نفسُه ..فعندما تبدأ فى السير على هذا الدرب تفقد الأصدقاء والأهل سريعا ..وتتقلص حياتك الاجتماعية حتى لا تعود تعرف ماذا تفعل بالوقت إن وجدت نفسك فى إجازة

هل بدأت تشعر بالملل من رسالتى؟

فما بالك لو كانت هذه هى حياتك؟!

منذ مولدك، فى عام 2000 ولأكثر من عشر سنوات لم يحدث شىء تقريبا فى حياتى. كل هذه السنوات راحت، كما قال اللواء القطان ـهل قلت لك إنه صار لواءً؟ـ فى عملية «تمرير الوقت». بعد وفاة أبى انغمستُ فى عملى أكثر، ربما لتفادى التفكير فى ما لا أريد التفكير فيه، وربما لشعورى أنى صرت «كبيرا «ولم يعُد يليق بى اللعب والحلم بحياة أخرى. كذلك زاد انغماسى فى العمل بسبب زيادة فهمى لما يدور من حولى، سواء فى الرئاسة أو فى مصر عموما، ومن ثَمّ زيادة إدراكى لعدم إمكانية تغيير أى شىء، ومن ثَمّ لعدم فائدة الكلام. ولكن ربما كان أكبر أسباب انغماسى فى العمل هو انغماسى فى العمل نفسُه، فعندما تبدأ فى السير على هذا الدرب تفقد الأصدقاء والأهل سريعا، وتتقلص حياتك الاجتماعية حتى لا تعود تعرف ماذا تفعل بالوقت إن وجدت نفسك فى إجازة. تظلُّ تحوم فى بيتك، ثم تبدأ فى مشاهدة الأخبار، أو ترفع سماعة التليفون وتتصل بالمكتب لتتأكد من أن أمرا ما تمت معالجته. وحين تفعل ذلك تدرك أنك قد انغمست فى العمل بالكامل ولم يعد لك حياة خارجه.

العمل فى القصر الرئاسى يشجّع على ذلك، بسبب الأبهة والإحساس بالخطورة الذى يتملك العاملين به، حتى لو لم يكن هناك شىء مهم يفعلونه فى الواقع .الأبهة والإحساس بالخطورة يمكّنانك من التظاهر أمام نفسك بأهمية ما تفعله؛ لا يمكنك تأخير هذا التقرير وإلا لما عُرض على الرئيس فى موعده. ولا يمكنك تأخير إعداد هذه المذكرة وإلا لما قرأها الرئيس قبل مقابلته مع ذلك الضيف الآتى من آخر الدنيا ليراه لمدة نصف ساعة. ولا يمكنك التأخُّر فى الرد على الرئيس حين يطلب معلومة ما، وإلا انهارت الدنيا. كل شىء هامّ وخطير وفورى، حتى لو لم يكن أى من هذا يقود لأى شىء .الخطورة والأهمية لا تحتاج إلى سند من الواقع؛ يكفى أن تؤمن بها أنت ومن حولك. وكلما انغمست فى العمل وتقلصت حياتك خارجه أصبح من مصلحتك أن تؤمن بأهمية هذا العمل.

كما يساعد النظام الحديدى والصرامة كثيرا على خلق هذا الإيمان بالأهمية. لكنى، رغم رغبتى الشديدة فى المحافظة على إيمانى، بدأت ألاحظ تراخى الصرامة وتفككها مع الوقت، خصوصا منذ 2005، وحلول درجة من الاسترخاء تزايدت بسرعة بعد ذلك مع تعدد مراكز اتخاذ القرار فى القصر .قابلنا ذلك، نحن العاملين، بالامتعاض. فلا ناقة لنا ولا جمل فى انتصار هذا الطرف أو ذاك. جُلّ ما نريده هو احترام النظام وعودة الصرامة، لأنهما يشكّلان العمود الفقرى لأهميتنا. إذا توقف الرئيس عن قراءة المذكرات التى نعرضها عليه، أو قرأها ولم يتخذ قرارا بل جاء القرار من شخص آخر لم يقرأها، فما قيمة هذه المذكرات؟ وإن كانت المذكرات بلا قيمة، فما قيمة عمل مَن كتبوها وشاركوا فى صياغتها أو ترجموها أو وضعوها فى ملف ووضعوها بكل احترام وتبجيل على مكتب الرئيس؟ لا شىء. وإن فقد عملنا أهميته، فما قيمتنا نحن أنفسنا إن كان كل ما نفعله فى حياتنا هو هذا العمل؟ إن كان كل ما تفعله فى حياتك هو ترتيب مواعيد الرئيس، فما فائدتك إن تَدخَّل شخص آخر فى تحديد مواعيده أو أصبحت مواعيده تُغيَّر وتُلغَى دون سابق إنذار؟ نحن، الموظفين، كبارا وصغارا، نعتمد على احترام النظام، لا من أجل لقمة عيشنا فقط، بل كى يكون لحياتنا ولنا قيمة كبشر. لهذا كنا نستاء من تسرُّب الفوضى، ومن تعدُّد مراكز القرار فى القصر، ومن التدخلات الآتية من خارجه، ومن التردد فى اتخاذ القرار أو تقلص الاهتمام، ومن الجمود والفشل الذى بات واضحا للجميع .صار هذا الجمود حياتنا، وانطبع الفشل علينا جميعا؛ نقضى أيامنا فى محاولة دفع عجلة لا تدور، وينتهى بنا الأمر

جميعا إلى أن نجرى فى مكاننا، مثل العجلات الرياضية التى انتشرت فى ذات الوقت فى مصر. لكن ما العمل؟

كلما التقيت عزالدين كرَّر علىّ مخاوفه من المستقبل القريب؛ «نحن نجرى بسرعة نحو حائط أو هُوّة». لا أدرى كم مرة سمعت منه هذه الجملة خلال تلك السنوات، وكم مرة قرأتها فى مقال له أو كتاب، هو الذى صار نجما لامعا منذ قابل جورج بوش فى نيويورك وانتقده علنا لازدواجية إدارته فى التعامل مع قضايا الحريات، ولانتهاكها الصارخ لحقوق الإنسان فى العراق ودعمها لانتهاكات إسرائيل فى فلسطين. ثم عاد إلى القاهرة فى اليوم التالى وانتقد النظام المصرى لانتهاكه للحريات وحقوق الإنسان. وبعد أن كانت الصحف المصرية قد قدَّمته كبطل قومى، لم تعد تعرف كيف تهاجمه فى اليوم التالى)لكنها طبعا هاجمته بعد أسبوع). المهم، كلما قال لى ذلك هززت كتفى يأسا وقلت له إنى لا أرى حلا للمشكلة، فيُغدِق علىّ من أفكاره غيضا من فيض .وأكرر ما قلته له فى لقائنا الذى سبقه، من أن ذلك كله كلام معقول وموضوعى، لكنه لن يتم. لماذا؟ لأن كل طرف له سمات وتفكير وطريقة وعقلية، ولن يتغير بالإقناع، بل فى أغلب الظن لن يتغير إطلاقا. كل خطط عزالدين كانت جيدة، ولو أخذنا أيا منها لأمكن إصلاح الأحوال، لكن كان من المستحيل الأخذ بأىٍّ منها. هذا هو الأمر ببساطة.

أحيانا كان عزالدين يتهمنى -بالأصالة عن نفسه ونقلا عن محمود بشير الذى توثقت علاقته به- بأنى أفتقر إلى الشجاعة. ويحرِّضنى، أنا المترجم الجالس عند أذن الرئيس، أن أطرح عليه رؤى مختلفة، وأن أقنعه. وأنا أبتسم من تفاؤله. لا يعلم أنى إن قلت شيئا خارج السياق فلن يسمعنى أحد، لا الرئيس ولا غيره. لا يفهم عزالدين الأكاديمى ولا محمود الفوضوى أن لغة خاصة تُستخدم فى القصر الرئاسى، بكلمات محدودة العدد، وأفكار وقوالب محدودة العدد ومتوارَثة وأُقِرَّت من قبل. إن استُخدمت كلمة أخرى، أو فكرة أخرى، أو قالب آخر، فلن يسمعك أو يفهمك أحد. ستتعلق نظرتهم إليك فى الهواء، مثل شاشة كمبيوتر لا تستجيب لضغطاتك، وبعد وقت، يتجاهلون ما قلتَ أو يستبعدونه باعتباره مزحة أو فكرة خرقاء ويواصلون ما كانوا بصدده. ولو كررت استخدام تلك اللغة الغريبة لصنَّفوك مع الأغيار، هؤلاء الذين لا يفهمون واقعنا وظروفنا، أو المُغرضين والسائرين فى ركابهم ممن يتحدثون اللغات الأجنبية .أجلس إذن فى مقعدى القريب من أُذُن الرئيس، ويميل علىّ ليتأكد من أنه سمعنى جيدا، يعطينى هذه اللحظة من تركيزه، لأنه متأكد أنى أتحدث اللغة التى يفهمها ويثق بها. أما إن تحدثت بلغة أخرى، فلست مترجمه الذى يعرفه .هذا ما لم يفهمه صديقى الأكاديمى، برسومه الهندسية الباهرة وعديمة القيمة، وطبعا ما لم يفهمه صديقه الفوضوى، الذى لا يكاد يفيق من البيرة الرخيصة على مقهاه بوسط البلد.

لكنِّى لا أريدك أن تعتقد أن حياتى كانت كلها معاناة، لا، لم يكن الأمر كذلك. فقد استمتعت كثيرا، وشعرت بأهمية العمل الذى أقوم به حتى مع إحباطى وشكوكى وتساؤلاتى التى لا تنقطع. فلا يمكنك الجلوس بين رئيسين وأضواء الكاميرات مسلَّطة عليكم ثم ينسحب الناس كلهم وتُغلَق الأبواب وتظل أنت وحدك معهما ولا تشعر بأهميتك وأهمية ما تفعل. حتى لو أضاعا اللقاء كله فى العبث وتبادل التفاهات، مثلما كان الحال معظم الوقت .لكنك هناك، فى بؤرة الاهتمام، والآخرون فى الخارج يتساءلون عن الأسرار التى تطَّلع أنت عليها . وحين تعود إلى بيتك فى آخر الليل، مُرهَقا، وتهبط من سيارة الرئاسة أمام الباب فيحييك البوَّاب أو الجار تحيَّة خاصَّة، ثم تصعد إلى بيتك المنمَّق فتقابلك زوجتك بحنان وتقول لك إنها لمحتك مع الرئيس فى نشرة التاسعة، لا يمكنك إلا أن تشعر بأهميتك وأهمية ما تفعله.

تَفَكُّك الصرامة فى الرئاسة كان له فوائد، أهمها أننا صرنا نقضى الصيف كله فى الساحل الشمالى حيث ينتقل العمل إلى برج العرب، ومعظم الشتاء فى شرم الشيخ لنفس السبب. وكان ذلك مفيدا لنا جميعا خصوصا لأمى التى تدهورت صحتها بشدة وانتقلت للحياة معنا بسبب احتياجها إلى رعاية دائمة. ولم تعد قادرة على المشى وأصبح الجلوس أمام البحر متعتها الوحيدة الباقية تقريبا .وبين شرم والساحل، صرت أسافر كثيرا إلى الخارج مع الرئيس، وهى دائما فرصة طيبة لرؤية العالم وشراء الهدايا والملابس لأمك الأنيقة، ولك أيضا .

واعذرنى أن تباهيت عليك بذلك، لكنك لم ترتدِ شيئا واحدا من مصر خلال هذه السنوات العشر، حتى أحذيتك الصغيرة التى ذابت على رمال شرم الشيخ والساحل الشمالى أتت كلها من أوروبا وأمريكا. كما عوَّض صعودى الوظيفى أمى بعض الشىء عن الذى فقدته، وصارت تعاملنى باعتبارى رجلها وابنها الأكبر والمسؤول الرئيسى عن العائلة. حتى إبراهيم، زوج أختى السمج، غيَّر من معاملته لى وخصَّنى بالاحترام الذى كان يسبغه على أبى، مما أسعد صفية وقوَّى من مركزها أمامه، وزاد ارتباطها بى وزادنى ذلك سعادة. كما ترى، دائما ما تأتى الأمور مختلطة: الإحباط والتحقق، الشكوك والإيمان، البرودة والسعادة، ولا يمكنك الفصل بينهم واختيار جانب واحد. لا يحدث هذا إلا فى قصص الأطفال. صحيح أنه لم يحدث شىء تقريبا خلال هذه السنوات العشر، وأظنها ضاعت هباء فى معظمها، لكنها لم تكن خالية تماما من السعادة والتحقُّق.

ثم تَغيَّر كل شىء فجأة. رغم أننا كلنا رأينا الإشارات، فقد بُوغِتنا حين وقع ما وقع. كان عيد الشرطة يوم ثلاثاء. فأخذت إجازة يومى الأربعاء والخميس واتفقت مع ندا على اصطحاب أمى إلى العين السخنة لقضاء عدة أيام على شاطئ البحر، كى ترى أمى المريضة البحر ربما للمرة الأخيرة. لكنها سبقتنا، وأسلمت الروح وهى نائمة مثل أبى، قبل بدء الإجازة بيوم واحد.

كلما التقيت عزالدين كررَّ علىّ مخاوفه من المستقبل القريب.. «نحن نجرى بسرعة نحو حائط أو هُوّة«

الحلقة الرابعة عشر

كان الجميع يدرك أن الجمعة هو يوم فاصل.. فإما تتفتَّت المظاهرات وتخفت.. وإما تتحد نيرانها المشتعلة فى ميادين وساحات متفرقة فى أرجاء مصر فى نار واحدة كبيرة وتتحول من حركات احتجاجية إلى ثورة شعبية

فى صبيحة 25 يناير كنا مشغولين بإجراءات الدفن. اتفقت وصفية على تلقِى العزاء بعد الدفن مباشرة وعدم إقامة سُرادق مسائى كما جرت العادة. لا هى ولا أنا نحب المظاهر، ولم يكن حزننا العميق الهادئ يحتمل إزعاج الساعين لتأدية الواجب. من أحب أمى سيأتى للصلاة عليها ويصاحبها حتى مثواها الأخير؛ نقوم بدفنها معا، ثم يعود كل منا ليحزن بطريقته. حاول عمر إقناعنا بتأجيل الدفن يومين حتى يتمكن من الحضور من إيطاليا، لكننا امتعضنا لمجرد التفكير فى ذلك، وطلبنا منه البقاء حيث هو. هذا هو ثمن الغربة: أن تموت أمك وأنت عنها بعيد، لا تشهد ضعفها وهزالها، لا تكون لها أبا حين تعود هى إلى طور الطفولة، ولا تستطيع حتى المشاركة فى دفنها. اللواء القطان اعترض على قرارنا من باب الوجاهة الاجتماعية والأصول، وقال إنه حجز بالفعل القاعة الكبرى فى مسجد عمر مكرم، لكنى أنا وصفية تمسكنا بموقفنا فرضخ فى النهاية. وهكذا، تَحرّكنا قبل الظهر، صفية وزوجها وأنا وأمك ولفيف من الأصدقاء والأقارب حتى مسجد أبي بكر الصديق بمصر الجديدة حيث صلينا الظهر وصلاة الجنازة، وكان حشد الناس كبيرًا، ثم ذهبنا إلى المقابر الجديدة فى طريق السويس.

لا أريد أن أثقل عليك بوصف مشاعرى عند الدفن، فهذه أشياء يَحسُنُ تركها حتى تأتينا بنفسها. لكن تَذكّر أن هذه سُنّة الحياة، وهذا الأمر لا يحدث لك وحدك بل لكل الناس، وسيأتى الدور علينا جميعا. أعلم أن هذه الكلمات قد تُضحِكك من فرط اعتيادها، لكنى أؤكد لك أنك ستحتاج إلى التمعُن فيها يوما ما، وستجد أنها تلخِّص الموقف كله. كلنا نمر من هذا الطريق.

كنتُ حتى هذا اليوم أتغافل عن الموت، وأتظاهر بأنه لا يعنينى فى شىء؛ أقرأ عن أناس ماتوا، أعرف أناسا مات لهم أقارب وأحباء، أتابع الأخبار وأشاهد جثث القتلى فى الحروب التى لا تنقطع، وكلها بالنسبة إلىّ أرقام وأحداث، مثل المذكِّرات التى أكتبها فى عملى أو الترجمة التى أقوم بها. كم مرة ترجمت أحاديث عن قتلى وجرحى بالجملة، دون أن أشعر بشىء، دون أن أشعر أنى أنا شخصيا معنىّ بالموت ! وحين مات أبى مسَّنى موته فى أعماقى، وكان أول أجراس الإنذار التى دقّت فى حياتى القصيرة، لكنى تغاضيت عنه بعد ذلك لسنوات طويلة. ثم ماتت أمى، ومن هذا اليوم حل الموت ضيفا مقيما فى حياتى .كأنه كسر الباب الذى حمانى، وأصبحت حياتى مَشاعا له يرتع فيه صباح مساء .سيظل مقيما معى، يحصد أرواح من أحب، حتى يجىء دورى، ربما غدا أو بعد غد .سنرى. لا داعى لاستباق الأحداث. لأعُد إلى حكايتى.

كنا فى طريق العودة من المقابر حين بلغتنا أنباء المظاهرات. عدت إلى المنزل وعاد اللواء القطان إلى الرئاسة، ورحل الأصدقاء والأقارب. وبينما كانت أجواء ما بعد الموت تتسلل إلى أرجاء المنزل، جلست أنا وأمك نشاهد التليفزيون، وهو الوضع الذى سيستمر لأيام كثيرة قادمة .اتصلت باللواء القطان لأعرف ما الذى يحدث لكنه لم يردّ. اتصل بى عزالدين ودعانى لمشاهدة لقطات بعينها تبثُّها محطات «الجزيرة» و«العربية» وأخرى على شبكة التواصل الاجتماعي القديمة – «فيس بوك». ظلت اللقطات المدهشة تتوالى، من الفتى الذى وقف أمام عربة الأمن يواجه خرطوم المياه بجسده، إلى الحشود التى تسير نحو قوات الأمن دون خوف، إلى الفتية الذين يلتقطون بأيديهم قنابل الغاز ويرسلونها إلى من ألقاها عليهم. كان من المستحيل أن ترى تلك المشاهد ولا تفهم أن شيئا كبيرا يحدث، شيئا مختلفا.

لكن حماى لم يتفق معى فى الرأى، وحين مر على المنزل مساء ذلك اليوم أخبرنى أن المعلومات المتوفرة تؤكد أن ما يحدث خطة مُعدّة من قِبَل الإخوان المسلمين وحلفائهم فى المنطقة، وباتفاق مع الولايات المتحدة، وأن هذه الخطة تشبه انقلاب الضباط الأحرار فى عام 1952، مع فارق هامّ هو أن الإخوان يستخدمون هذه المرة جموع الشعب والشباب المطالب بالديمقراطية سلاحا فى مواجهة النظام بدل تكتيك الانقلاب القديم. هذه المعلومات، وفقا للقطان، ليست جديدة، وإنما تعود إلى إضراب 6 إبريل و9 مارس، اللذين كانا يمثّلان تمرينات لهذه الأحداث، أما تونس فهى البيان العملى الذى تم تجربة الخطة فيه؛ بلد صغير ومحدود الأهمية ومن ثم لا ضرر كبيرا إن فشلت الخطة .وبعد نجاح التجربة فى تونس جاء الدور على مصر. حاولت أن أحاجّه، مذكّرا بمعاناة أغلبية الشعب من الظلم والفساد الذى نعرف أكثر من غيرنا إلى أى مدى استشرى، والشعور العامّ بالإهانة بسبب التوريث، والقمع والتزوير، وغياب الأمل، وفشل أجهزة الدولة المتزايد، من حريق القطار إلى غرق العبّارة، وغير ذلك من الأشياء التى نعرفها جميعا. لم ينكر اللواء القطان أيا من هذه الأمور، لكنه ذكّرنا بأن هذه المظالم قديمة وممتدة، ولا تفسر الانفجار بهذا الشكل وفى هذا التوقيت، وكرر أن ما يقوله لى معلومات لا اجتهادات. صمتٌ، ومضى يؤكد أن الهدف من هذه الخطة هو إسقاط الدولة نفسها، بمؤسساتها، تمهيدا لقيام دولة الإخوان المحكومة من قِبَل التنظيم العالمى للإخوان، وهو ما لا يمكن السماح به.

سألته عمّا سيحدث بعد ذلك قال إن الأمور ما زالت مضطربة، وهناك تخبُّط على أعلى مستوى فى اتخاذ القرار، وحذّرنا من الخروج من المنزل أو الذهاب ناحية ميدان التحرير.

لم نذهب إلى العين السخنة طبعا، ولا إلى أى مكان آخر .ولم يطلب مني أحد قطع إجازتى والعودة إلى المكتب. سألت اللواء القطان إن كان يجب علىّ الذهاب إلى المكتب فنصحنى بالعكس تماما، قائلا إن تجنُّب المكتب أفضل لمستقبلى. هل كان يعرف أكثر مما قال؟ مؤكّد، فهو دائما يعرف أكثر مما يقول، دائما. قضينا الأربعاء والخميس دون مغادرة المنزل. مساء الخميس مر علينا عزالدين وأسماء للاطمئنان. أخذ يحكى عما يعرفه من أحداث جرت فى الميدان وفى السويس من مواجهات ومعارك وكر وفر. كان مصدر هذه القصص محمود بشير وطلبته بالجامعة، ثم مال علىّ وقال بصوت خافت إن سالى القصبجى كانت مع محمود فى الميدان، ويبدو أنها أبلت بلاء حسنا فى المواجهة مع الأمن، وكذلك كان هناك أناس آخرون أعرفهم. نظرت إليه مستفسرا عمن يقصد فغمز لى بعينه وصمت. قصص عزالدين لم تكن كلها لطيفة، بل شملت تفاصيل مريعة عن وحشية العنف المستخدَم، وعن القتلى الذين سقطوا. أسماء جلست صامتة طويلا ثم قالت شيئا نافذا كعادتها، وبصوت لا يكاد يُسمع. سألت زوجها لم لا يشارك شخص مثله فى هذه المظاهرات، هو الذى يدعو طوال الوقت إلى التغيير والديمقراطية. أجاب بأنه لا يعرف هوية الذى نظّم هذه المظاهرات وأتى بكل هؤلاء الناس. ردت بأن الذى نظم المظاهرات هم قوى الشعب. فصحّح لها: الذين يشاركون هم قوى الشعب، لكن من الذى نظم؟ أجابت: الشباب وتجمُّعاتهم على الإنترنت، فعاود: لكنهم هم أنفسهم فوجئوا بحجم المشاركة، وهذه الجماهير ليست جمهورهم التقليدى، فمَن هؤلاء؟ وكيف خرجوا فى هذا التوقيت وبدعوة من أناس لا يعرفونهم ولا يتواصلون معهم؟ أجابت أسماء فى ضيق المحاصَر بأن الشباب دعوا إلى المظاهرات، فاستجاب البعض من جمهورهم، ثم انضمّت جموع الشعب، هكذا بتلقائية. هز عزالدين رأسه غير مقتنع، وقال إنه سيذهب إلى الميدان فى اليوم التالى ليرى الأمر على الطبيعة.

رنّ كلامه فى رأسى، ونظرت إلى ندا فوجدتها تنظر إلىّ نظرة «أرأيت أن أبى على حق؟». أقصّ عليك هذه التفاصيل لأن هذه لحظة فارقة، وهذا الخلاف فى تفسير ما يحدث فى ميادين مصر سيكون له أبلغ الأثر على الأحداث بعدها. فى خضمّ الإثارة لم نلحظ أهمية هذا الخلاف، أو لم نتوقف عنده تحت ضغط الأحداث، وكانت له فى ما بعد نتائج بالغة الأهمية.

اكتشفنا بعد ذهاب عزالدين وأسماء أن الإنترنت قد توقفت عن العمل. اتصلت بالقطان فقال لى إنهم وقفوا خدماتها بشكل شبه كامل، وستُقطع اتصالات التليفونات المحمولة كلها فى الصباح، ونصحنى بالحصول على أرقام أرضية لمن أريد الاتصال بهم لأن المسألة قد تطول. سألته عما سيحدث فى الغد فلم يُجِب، لكنى لما قلت له إن عزالدين سيكون فى الميدان وسيخبرنى من هناك بما يجرى صمت لحظة، ثم طلب منى أن أهاتفه وأقول له أن لا يذهب إلى الميدان، "لاحْسَن طلقة كده ولاّ كده تطيش وتيجى فى عينه". قال لى هذا، حرفيا، ولم أعرف حتى يومنا هذا هل كان يعنى ما أظنه يعنيه أم كان حديثه من باب الحرص بشكل عامّ.

كان الجميع يدرك أن الجمعة هو يوم فاصل، فإما تتفتّت المظاهرات وتخفت، وإما تتحد نيرانها المشتعلة فى ميادين وساحات متفرقة فى أرجاء مصر فى نار واحدة كبيرة وتتحول من حركات احتجاجية إلى ثورة شعبية. فى الصباح قرأت بعض القرآن لأمى حتى قرب موعد صلاة الظهر، ثم جلست مع ندا فى مركز المراقبة أمام التليفزيون. حاولت الاتصال بالقطان، وساعتها اكتشفت أن الاتصالات قد قُطعت بالفعل. بدأت الموقعة الحاسمة. اتصلت به بالتليفون الأرضى، وصرنا نتبادل الحديث كل نصف ساعة تقريبا ليُطلِعَنى على تطورات الأمور.

كلما اتصل وجدت غضبه قد تزايد. ولم يكن هذا الغضب موجها ضد المتظاهرين وإنما ضد القائمين على الأمر فى الرئاسة. اشتكى من التخبُّط والبطء فى اتخاذ القرار، وسيادة المصالح الشخصية على المصلحة العامة، قائلا إنهم سيخربون البلد، كأنه مرآة لِمَا يشتكى منه الشعب الذى يملأ الميادين. قال إن هناك خطة، ثم قال إن الخطة تم التخلِى عنها، ثم خطة أخرى، ثم لا يعرف من الذى يتخذ هذه القرارات، وهكذا. ثم اتصل فى الثالثة وقال إن الأمر انتهى، وإن الجيش سينزل الشوارع ويتسلم مسؤولية الأمن. سألته إن كان يظنّ أن ذلك سيحلّ المشكلة، فصمت قليلا ثم قال: «ربنا يستر.»

الحلقة الخامسة عشر

لا أثر لسلطة الدولة فى الميدان أو حوله.. لا شىء سوى شعارات ضد النظام ورموزه على الحوائط.. وبشر يسيرون ويتحدثون ويحملون لافتات ويهتفون

استيقظت فى صباح يوم 29 وأنا أشعر برغبة جارفة فى الذهاب إلى ميدان التحرير. ورغم تحفُّظ أمك الشديد، لم أستطع البقاء فى المنزل، خرجت وتوجهت إلى الميدان. كانت الشوارع خالية أو تكاد. لا أثر للشرطة أو الجيش. وصلت إلى ميدان التحرير فى نحو ربع ساعة، وهالنى المنظر هناك؛ كأنه ساحة حرب انتهت لتوّها. سيارات الأمن المدمّرة متناثرة فى مداخل الميدان ومخارجه، وعلى مطالع كوبرى أكتوبر. على حطامها شعارات تندِّد بالنظام وتدعو الرئيس إلى الرحيل. شعارات مشابهة مكتوبة على الدبابات وسيارات الجيش القليلة الموجودة. مقر الحزب الوطنى المحترق يهزّ المرء، والدخان لا يزال يتصاعد من المبنى ومن عشرات السيارات المحترقة فى فنائه ورائحة الحريق تملأ الجوّ. لا أثر لسلطة الدولة فى الميدان أو حوله: لا شىء سوى شعارات ضد النظام ورموزه على الحوائط، وبشر يسيرون ويتحدثون ويحملون لافتات ويهتفون . أمام مبنى التليفزيون كانت هناك بعض المدرعات، لكنها بدت ضعيفة وبلا حول أو قوة فى وسط الجموع التى تتجاهلها أو تقفز فوقها لتلتقط الصور أو تكتب عليها شعارات ضد النظام.

أدهشنى ما أرى وهزّنى من أعماقى، أنا الذى لم أرَ الشعب من قبل. سرت وأنا أتساءل مَن هؤلاء ومن أين خرجوا ولِمَ الآن. لن أحدثك عن تفاصيل الميدان وسلوك الناس والروح التى سادته، فقد كتب الناس عن هذا بما فيه الكفاية، وستجد آلاف الصفحات والتعليقات والشهادات التى تحكى عن هذه الأيام إن شئت. لكنى أقول لك شيئا واحدا، أنِّى وأنا جالس على حافة الرصيف فى الميدان أرقب الناس من حولى عرفت أن النظام قد ولّت أيامه ولن تعود .أنا المترجم الذى قضيت معظم حياتى داخل القصر الرئاسى، الذى يتوه إن خرج من مصر الجديدة ولا يعرف شيئا يُذكر عن «الشعب»، والذى لا يفهم كثيرا فى السياسة، ويكره المبالغات، عرفت وأنا جالس هناك فى صباح 29 يناير 2011 أن الأمر قد انتهى، أن مصر قد انفجرت وخرج ما فى باطنها إلى السطح ولن يعود كما كان قبل ذلك اليوم.

قابلت عزالدين وأسماء ومحمود بشير وسالى القصبجى، معا، جالسين على رصيف عالٍ بجوار مسجد عمر مكرم. كانت أول مرة أرى فيها محمود منذ خمسة عشر عاما، رأيت صورته عدة مرات فى صحف ومواقع على الإنترنت لكن لم نلتق وجها لوجه. لم يتغير كثيرا، بل نضج وبدا أكثر عقلا وإن كان لا يزال مجنونا. لا أعرف كيف أصف لك ذلك، لكن حين تراه تدرك على الفور أنه قادر على فعل أى شىء فى أى وقت إن أراد، لكنه بدا أكثر نضجا مع ذلك، مثل ممثِّل قديم اعتاد لعب أدوار الفتى الأول. تعانقنا طويلا وشعرت بسعادة حقيقية أن التقيته، ومال علىّ معاتبا بضحك وهو يسأل إن كان لقائى يحتاج إلى ثورة كى يتمّ .سالى كانت تظهر كثيرا على الشاشات، وأظنها استعانت بأطباء التجميل عدة مرات، لكن ظهورها المستمر عوّدنى على التغييرات التى لحقت بشكلها. بدت لطيفة ومجاملة مثلما كانت فى الماضى، لكن أقل تدللا وأكثر جدية فى طريقة معاملتها وفى حديثها. محمود وسالى بدوَا كأنهما فى بيتهما، وبالفعل فهمت أنهما قضيا الليلة فى الميدان وأرسلا فى طلب خيمة وينويان البقاء فى الميدان حتى تحقيق مطالب الشعب. مال علىّ عزالدين وهمس بأن عفاف موجودة فى الميدان. سألته عفاف مَن فضحك وقال: «بنت بتاعة الجبنة». جفلت؛ هل تَحوّل الميدان إلى اجتماع عامّ لكل من قابلتهم فى حياتى؟ الحقيقة أنه كان كذلك بالفعل، نزلت مصر كلها هناك، يوما بعد يوم، والتقى أناس لم يرَ بعضهم بعضا من سنين، وآخرون رأى بعضهم بعضا كما لم يروهم من سنين.

سألت محمود وسالى عن مطالب الناس فقالا كلاما كثيرا لكن غير محدد .عزالدين تَدخّل ليصوغ هذا الكلام فى شكل قائمة مطالب، لكنه كلما ذكر بندا اعترض أحدهما، ثم تَدخّل آخرون فى النقاش حتى أصبحوا عشرين شخصا لا يعرف أحد منهم أحدا، وكلهم يتناقشون فى قائمة عزالدين ويضيفون إليها ويخرجون منها ويغيّرون ترتيب بنودها، وتركتهم بعد نحو ساعة يتناقشون، وعزالدين واقف فى وسطهم مندمجا تماما فى المناقشة، دون أن يبدو بصيص أمل فى توصلهم إلى ما يمكن وصفه ببداية اتفاق. سرت فى الميدان مع الناس.

بعد قليل رأيتها، وللوهلة الأولى لم أتعرف عليها. توقف وجهى عندها وشعرت أنى رأيتها من قبل، للحظات، قبل أن أدرك أنها هى، عفاف، عاملة التليفونات. يا إلهى! كم تغيرت! شعلة الأنوثة المتوهجة، القد الممشوق المتمايل ثقة، الابتسامة الماكرة والنظرة التى تجعلك تعترف، كل هذا راح؛ طمسه جسم ثقيل وعباءة وطرحة ورقبة غليظة. لكن فى وسط كوم اللحم والقماش هذا رأيت فى عينيها شيئا من عفاف القديمة، شيئا يضحك من وراء قسمات الحدّة السائدة. وزادت الضحكة اتساعا لمّا أدركَت أنى تذكرتُها، تقدمت نحوى وتعانقنا بودّ خالص.

تعانقنا كأخ وأخت، نحن اللذين عملنا معا لأكثر من عام لم يحدث خلاله بيننا أكثر من المصافحة باليد. لكن كان هناك شىء فى الجو يجعلك تشعر بأنك أخ لكل الموجودين. لسبب ما اختفت الحواجز بين الناس، وصرنا ننظر فى أعيُن بعض دون خوف ودون حاجة إلى إخفاء نظراتنا. كأننا اكتشفنا بعضنا فجأة، وبدأنا فى الكلام والتواصل. وقفنا أنا وعفاف ينظر كلانا إلى الآخَر ونبتسم، ثم لمحت رجلا وفتاة ينظران إلينا باستغراب. انتبهت عفاف وقدمتهما لى: حسن وميرفت، أخوها وأختها. ثم قدمتنى لهما باعتبارى الرجل الذى وصّلها أغلى توصيلة مجانية فى حياتها، وضحكوا ثلاثتهم. تصافحنا وتبادلنا بعض الكلمات حول ما يحدث. حسن فى نفس عمرها تقريبا، لكنه أكثر سمرة منها ونحيف حاد الملامح، ومضطرب بعض الشىء. ميرفت أصغر منها بعشر سنوات أو أكثر قليلا، محجّبة أيضا لكنها أكثر اهتماما بزينتها، ونظرتها لا تستقر فى مكان، تبدو ضجرة أو تنتظر حدوث شىء. جلسنا على الرصيف نتبادل الحكايات والتوقعات عما سيحدث، وقالت لى بصوت خافت إنها رأتنى مؤخرا فى التليفزيون مع الرئيس، متسائلة إن كان وجودى فى الميدان قد يتسبب لى فى أذى. هززت كتفى ولم أردّ. لم أعتقد أن هذه مشكلة حقيقية، فلديهم أشياء أهمّ منى بكثير فى تلك اللحظات. سألنى حسن عن رأيى فى ما يحدث، فتلعثمت ولم أقُل أكثر من أن هذا شىء مدهش. لم يهتمّ كثيرا بإجابتى، فكل ما أراده هو إيجاد مدخل للكلام. أمّن على ما قلت، ثم قال إن المدهش فعلا هو صمت الناس طوال السنوات الماضية، لكن ذلك انتهى. الشعب تَحرّك، كفر بالنظام وظلمه وفساده، ولن يعود إلا بعد أن يُطيّح به. سألته عن عمله فقال إنه عاطل عن العمل بشكل عامّ، فمنذ تخرج فى المعهد العالى التجارى لم يعمل بشكل منتظم أكثر من ستة أشهر، بعدها يلقّط رزقه من هنا وهناك، وعند كل خطوة يجب أن يقسم ما يكسبه مع أحد. حاول عدة مرات بدء نشاط تجارى صغير، «ولو حتى كشك«، لكنه وجد الأبواب مُوصَدة فى وجهه. كل شىء يحتاج إلى شىء، وهو لا شىء لديه يعطيه سوى القدرة البدنية على العمل، ولا أحد يحتاج إلى قوّته هو بالذات .وعندما أصابه مرض فى كُليته، لا يعرف كيف أصابه، تدهورت هذه القوة أيضا، وزادت احتياجاته. استطاعت عفاف مساعدته فى دخول مستشفى التأمين الصحى حيث يعالَج من وقت إلى آخر، لكن المرض يتزايد وسيحتاج حتما إلى عملية أو إلى غَسل بانتظام، ويعلم الله كيف سيدبّر هذا. نظر إلىّ وسألنى ماذا يفعل، وكيف يجب عليه أن يشعر هو الذى يجاهد كل يوم كى يبقى عائما على السطح وسط بذخ يُعمِى الأعين ولا يستطيع أن يصيب منه ولو الكفاف. حلال هذا أم حرام؟ سألنى.هززت رأسى ولم أردّ.

ثم سألت عفاف عن أحوالها فقالت إنها تعمل فى نفس الوحدة الإدارية بالمحافظة التى نُقلت إليها منذ خمسة عشر عاما، وراتبها الآن ستمئة وخمسون جنيها بالإضافى والحوافز، مع خمسين جنيها مكافأة تحصل عليها من وقت إلى آخر، فى رمضان ودخول المدارس والعيدين وأحيانا فى المولد النبوى، حسب الظروف.
ضحكتُ وقالت إن الله وحده هو العالم كيف تتحايل بهذه النقود على احتياجاتها وإخوتها، ومع هذا فهى ليست الأسوأ حالا بين جيرانها، بل من المحظوظين الذين لديهم وظيفة ودخل ثابتان. لا حسن ولا ميرفت استطاعا الحصول على شىء مشابه، وفى الشارع الذى تسكن فيه لا يوجد سوى خمسة فى مثل حالها، أما الباقون فعلى باب الله؛ وظائف متقطعة، خدمة فى البيوت، بيع فى المحلات وعلى الأرصفة، أو أسوأ. سكتت عفاف وبدت عليها ملامح صرامة لا أذكرها لها.

تململت ميرفت فى وقفتها ونظرت إلىّ بعداء ثم حوّلت نظرتها، ثم عادت تنظر إلىّ ثانية مباشرة فى عينى. نظرت إليها مستفهما فسألتنى عن شعورى بعد أن تسببتُ فى ضياع مستقبل أختها، وظللت أنا أستمتع بمزايا الوظيفة الأبهة. فوجئت بالسؤال المباشر، وبحدة غضبها بعد خمس عشرة سنة على شىء حدث لأختها لا لها. سألتنى إن كنت أعرف كيف فُصلت. قلت إنها نُقلت، فرمقتنى بنظرة «لا داعى للتظاهر بالعَبَط»، وقالت إن مدير عفاف مسح بكرامتها الأرض ناعتا إياها بأقبح الأوصاف، ومعيّرا إياها بأصلها المتواضع وهددها بتشريدها لو حاولت الاتصال بى مرة أخرى. قالت إن أختها سكتت يومها لأنها تحتاج إلى الوظيفة ولا تستطيع الوقوف فى وجه هؤلاء الناس، وكانت أمهم على قيد الحياة وقتها وتحتاج إلى كل قرش من مرتبها للعلاج وخلافه. وقفت صامتا لا أعرف بمَ أرد، فسألتنى عن وظيفة جد اللواء الذى أمر بطردها من الرئاسة . ظننت أنى لم أسمع جيدا فاستوضحتُ السؤال، وهنا انفجرت بالسباب فى أصل هذا الرجل الذى دمر مستقبلهم، ونعتته بأنه ولا بد «من بيئة واطية «واعتلى منصبه بالنفاق والتدليس ثم نسى نفسه وأهله واستكثر على عاملة التليفونات »بنت بتاعة الجبنة» أن تُعجِب شابا ابن ناس. ثم ثبّتت عينيها فى عينَىّ وشَخَصَت بوجهها إلى وجهى فسدّت علىّ الأفق كى لا أهرب بنظراتى بعيدا وسألتنى إن كان المطلوب أن تعيش عاملة التليفونات عيشة أهلها ولا تحاول تحسين أحوالها أو تبنى لنفسها وأبنائها حياة أفضل. ألم يكن أبو مارجريت تاتشر بقالا؟ وزوجة هلموت كول ممرضة؟ سكتت ميرفت فجأة، واعتذرت عن احتدادها، ثم أضافت أن أختها سكتت يوم ما مسح بها الأرض فى الرئاسة، لكنها من الآن فصاعدا لن تسكت، لا هى ولا غيرها، وليُرونا ماذا سيفعلون. نظرت إلى عفاف فوجدتها واقفة وعيناها مثبّتتان فى عينَىّ، تلمعان ، وتشعّان ثقة لم أرَها فيهما من قبل.

الحلقة السادسة عشر

ذهبتُ فى اليومين التاليين إلى الميدان أستيقظ فى الصباح وآخذ بعض الماء والطعام وأشدّ الرحال حتى هناك وأظل مع المتظاهرين حتى الرابعة بعد الظهر

قضيت الثلاثة عشر يوما التالية بين مصر الجديدة والتحرير. صمّم اللواء القطان أن أظل بعيدا عن القصر - خلال هذه الفترة -التى لم نكن نعرف إلى متى ستستمر. حصل لى على إجازة مفتوحة بذريعة العناية بأمور العائلة بعد وفاة أمى، وطبعا لم يكن أحد فى الرئاسة ليهتمّ فى ذلك الوقت بمن جاء ومن غاب .قصصت على ندا ما رأيته فى الميدان، واستقبلَت ما قلتُه باهتمام لكن دون حماس. سألَت بعض الأسئلة عن الإخوان المسلمين وما إن كنتُ لاحظت وجودا ملموسا لهم فى الميدان، وكيف يأكل المتظاهرون ومن أين يأتون بالمال. هذا النوع من الأسئلة المرتابة، لكن دون اتهام محدّد .دعوتها للمجىء معى فى اليوم التالى فاستبعدَت الفكرة، مفضِّلة البقاء فى المنزل للعناية بك، ولأن المنطقة كانت تحت حراسة شديدة ولم تُرد المخاطرة بالخروج منها وتعريضك أو تعريض نفسها لأى من المخاطر التى تسمع عنها فى وسائل الإعلام.

ذهبتُ فى اليومين التاليين إلى الميدان، أستيقظ فى الصباح وآخذ بعض الماء والطعام وأشدّ الرحال حتى هناك، وأظل مع المتظاهرين حتى الرابعة بعد الظهر، موعد حظر التجوُّل، فأعود إلى البيت. لم يكن أحد يحاول فرض حظر التجوُّل، واستمرت السيارات والناس فى التجوال بعد هذا الوقت، لكن أمك كانت قلقة لدرجة لا تسمح لى بالبقاء خارج البيت بعد هبوط الظلام. يوم 31 يناير قال لى اللواء القطان إن هناك أصواتًا تنادى باستخدام القوة لفضّ المظاهرات والقبض على أكبر عدد من المحرّضين عليها ومنظِّميها، إلا أنه شخصيًّا، وآخرين، مقتنعون بعدم جدوى استخدام العنف وبضرورة التوصُّل إلى حلّ سياسى، لكن المشكلة فى من يمثّل المتظاهرين .واقترح علىّ الحديث إلى عزالدين ومحمود و«أصدقائى» فى الميدان لمعرفة ما إذا كان هناك استعداد لتفويض أحد أو مجموعة للتفاوض باسم المتظاهرين.

وافق عزالدين فى حين استبعد محمود الفكرة تماما. قضينا النهار ننتقل من خيمة إلى أخرى داخل الميدان. الخيمة التى تتّسع لشخصين تضمّ سبعة. اختار محمود وعزالدين عددا محدودا من الشباب يثقون بهم، وقدمونى لهم. تَصلّبوا فور سماعهم بجهة عملى وبدوا غير راغبين فى الحديث. لكنهم ضغطوا على أنفسهم ربما بسبب وجود محمود الذى يعرف الناس كلهم فى الميدان ويعرفونه. نتحدث همسا كيلا يسمعنا مَن فى الخيام الملاصقة. نتناقش مطولا، ثم ننتقل إلى مجموعة مختلفة، وفى كل مرة نسمع نفس الكلام، هناك مقترحات كثيرة، بعضها جنونى، لكن معظمها معقول ومقبول للشباب وللمتظاهرين. وظلت المشكلة أن لا أحد يملك التفاوض باسم الميدان؛ لا يمكن. ومحمود يهزّ رأسه ولسان حاله يردّد: ألم أقل لكما ؟ حاولنا طوال النهار، وفى حين وجدت نفسى ألوذ بالصمت فور رفض الشباب للفكرة، فإن عزالدين واصل محاولة إقناعهم. وهم يردون بعدم رغبتهم فى التفاوض: يرحل. يقول لهم غير الرحيل هناك كثير مما يحتاج إلى التفاوض، لكن الشباب يرفض. لا أحد يتحدث باسم أحد هنا. والحل؟ سألت، فأجابوا، فى كل مرة، مطالبنا واضحة، ولن نرحل قبل أن يرحل النظام.

شرح محمود لنا الوضع كما يراه: مجموعات كثيرة من الشباب وغير الشباب تنتمى إلى توجُّهات سياسية وفكرية متباينة، وكثير منها غير مسيّس أصلا، ولا شىء يجمعهم سوى المطالب السلبية: رحيل رأس النظام، إلغاء مباحث أمن الدولة، إلغاء الحرس الجامعى، أشياء مثل هذه. كذلك هم لا يثقون بأحد، ولا يمكنهم أن يفوّضوا أحدا. سألته عن الحل فردّ بأنه ليس هناك مشكلة تقتضى الحل؛ هذه ثورة، وهكذا تكون الثورات.

لكن عزالدين لم يعجبه هذا الحديث، ففى نظره الشباب يخاف من الإخوان المسلمين، الذين يمنعون أى محاولة لبناء توافق على فكرة أو مطلب داخل الميدان، لأنهم يريدون الميدان كما هو، مجرد أداة للضغط، فى حين تأتى الرؤية من عندهم هم، جاهزة، ويكون التفاوض معهم هم. وهذه مشكلة، وتحتاج إلى حل. وما الحل؟ بناء توافق من خلال التفاوض. وهكذا، أخذ عزالدين على عاتقه هذه المهمة.

وظللنا يومًا آخر ننتقل من خيمة إلى خيمة، ومن اجتماع فى بيت غريب بوسط البلد إلى اجتماع آخر فى بيت غرباء أُخَر، ندخل ونُلقِى التحية فنجد ثُلَلا من البشر الذين لا أعرف منهم أحدا، طبعا، ويعرف عزالدين بعضهم فقط، ثم ننزوى مع شخص أو اثنين فى غرفة، أو شرفة، ونبدأ الحديث. أصعب أنواع التفاوض ذلك الذى يتم مع عدد لا نهائى من الأطراف: تجلس مع أربعة، وبعد نقاش مجهد تتوصلون إلى اتفاق، لكن هؤلاء الأربعة لا يمثلون سوى جزء من المشهد، ومن ثم فعليك أن تجد الآخرين، مجموعة مجموعة، حتى تصل إلى اتفاق أو شبه اتفاق. يبدو الأمر عبثيًا، لكنه الطريقة الوحيدة لخلق إجماع بين مجموعات متناثرة.

ثم توصلنا إلى ملامح عامة لاتفاق، وأبلغتها للقطان فى المساء. وفى اليوم التالى بدا أن بعض بنود هذا الاتفاق بدأ يجد طريقه للتنفيذ. لكن اليوم التالى لذلك شهد هجوم الجِمال على الميدان ومَن فيه. لم أكن فى الميدان حين حدث الهجوم، وعلى الفور اتصلت باللواء القطان فوجدته مُحبَطا مما حدث، وقال إنه ترك مكتبه فى الرئاسة وعاد إلى البيت احتجاجا .لكنه عاود الاتصال فى الصباح التالى وقال إن ما حدث محاولة ممن يحبّذون استخدام القوة لوقف إدخال أى إصلاحات جذرية لأنها ستضرّ بهم وبخططهم للمستقبل، هؤلاء هم منظمو حملة الجِمال. ثم طلب منى العودة إلى الميدان للمحاولة مرة أخرى، مؤكدا أن أنصار استخدام العنف داخل النظام قد تمّ تهميشهم بعد فشل هجوم الجِمال المزرى.

عدت إلى الميدان فوجدته مختلفا؛ محمود مرهَق وعيناه زائغتان. سألته كيف كانت الليلة فقال عصيبة، وشرح لى كيف هجم البلطجية باستخدام الخيل والجمال من ناحية ميدان عبد المنعم رياض واستمرت المواجهات طوال الليل فى حين وقف الجيش دون حراك. فى البداية تراجع المتظاهرون بسرعة ثم أعادوا تنظيم صفوفهم شيئا فشيئا، وساعدهم شباب الألتراس وشباب الإخوان المسلمين الذين تدفقوا على الميدان. فى البداية كانت كرات النار وزجاجات المولوتوف تُلقَى عليهم من أسطح العمارات فى الميدان، ثم صعد بعض الشباب على سطح العمارة وطهّروها من المهاجمين، وبعدها تَحوّلوا إلى العمارة التالية وهكذا، حتى طهّروا الميدان كله من البلطجية قرب الفجر. نفس الشىء حدث عند كوبرى أكتوبر واستمرّت المواجهة هناك حتى الرابعة صباحا. ومن ساعتها يسيطرون على هذه المواقع الاستراتيجية ويمنعون عودة البلطجية. أخذنى محمود لرؤية أكوام الحجارة التى أتوا بها لا أدرى من أين؛ خلعوها من الرصيف وأحواض الزرع على ما أذكر ووضعوها بجوار مداخل ومخارج الميدان. كانت جموع البلطجية لا تزال تحوم، وأستطيع رؤيتها فى شوارع وسط البلد، وهناك مناوشات على التخوم، لكن الجيش الآن يقف حائلا بينهم وبين المتظاهرين .ثمانية قتلى هذه الليلة.

أخذنى عزالدين مع طبيب شابّ لزيارة «المستشفى الميدانى»، وهو زقاق صغير بين عمارتين يُستخدم للصلاة أيام الجمعة. وجدت جرحى يفترشون الأرض على جانبَى الزقاق، أمام أبواب المحلات المغلقة، وبينهم ملاءات معلّقة كيفما اتفق، وقد عُلّقت على أبواب المحلات المغلقة أسماء »أقسام الجراحة«، ووُضعت فى الوسط كومة من الأدوية. قال الطبيب إنه وزملاءه المتطوعين ظلوا يعملون طول الليل. لم يكن من الممكن نقل الجرحى فى معظم الأحيان، فليس لديهم نقالات، ولا يوجد أحد لنقل الجرحى فالكل يدافع، ومن ثم كان الأطباء يضمدون الجراح وسط المعركة؛ يسقط أحدهم فيجرون إليه ويعالجونه على الأرض حيث سقط. أخرج الطبيب من جيبه أدواته الجراحية: حقنة ومخدرا ومطهرا وخيط الجراحة وشيئا آخَر لم أتعرف عليه. حكى لى عن متظاهرين أصيبوا فى رؤوسهم، كان يضمدهم وهم يستعجلونه كى يعودوا مرة أخرى للدفاع عن الميدان ضد البلطجية. قال الطبيب باقتضاب شيئا عن إصابات الرصاص، والأعين، وشيئا عن القتلى، ثم صمت.

عدت مع عزالدين إلى الميدان، وقال لى إن معظم الفتيات والسيدات قد رحلن، وحلّ محلّهن رجال من الإخوان المسلمين الذين أصبحوا يشكّلون قرابة نصف الموجودين فى الميدان، وأبدى قلقه من هذا التطوُر. أحيط الميدان بلجان من الشباب يفحصون الداخل والخارج، بمرح واعتذار وتعاوُن من الجميع .أعتقد أنى فُتشت فى هذه الأيام أكثر مما فُتشت فى حياتى كلها. لكن الميدان أصبح الآن أرضا محرّرة، وتَفنّن المتظاهرون فى إبداء آرائهم، والتعبير عن أنفسهم، بالرسم والكتابة والغناء والرقص، وكل الأشكال الممكنة.

لكن رغم الجو الاحتفالى الظاهر، كان الشباب مُرهَقا ولا يدرى بمن يثق ولا كيف يفاضل بين المقترحات المتباينة التى يسمعها. يخشون من الكل، حتى هؤلاء الذين يعرفونهم من قبل كمحمود وعزالدين، فمن يدرى مَنْ يعمل لحساب مَنْ؟ ومن يريد أن يقفز على أكتاف مَنْ؟ لم أكن الوحيد الذى يحاول التفاوض معهم أو مع جزء منهم على اتفاق، وكنت متأكدا أن اللواء القطان ليس الوحيد الذى يحاول من الجهة الأخرى. لكنى حاولت قدر استطاعتى على أمل أن يؤدِّى ولو إلى بعض التفاهم بين الجانبين، أو على الأقل لفهم الصحيح للواقع هنا بدلا مما ينقله إليهم مخبروهم والطائرة العمودية التى لا تكفّ عن التحليق فوق الميدان. حاولت لعدة أيام، وكلما ظننت أن تقدما يتم، حدث شىء فتتقهقر المسألة برمتها إلى الخلف. لم يتمّ التوصل إلى اتفاق، سواء لأن وتيرة الأحداث كانت أسرع مما يمكن معه اللحاق بها، أو لتعدُّد المنابر والوساطات والأطراف والنيّات والمشروعات. وكلما طال الوقت زاد غضب المتظاهرين وتصميمهم وارتفع سقف مطالبهم. وفى صباح التاسع من فبراير قال لى اللواء القطان إنه لم يعد من المحاولة فائدة، وإن الناس التى بيدها الأمر لم تفهم بعدُ ما يحدث، ولم تقتنع بعد أن تغييرا كبيرا أصبح ضروريًا، أو تحاول أن تتعامى عن هذه الحقيقة، ومن ثم فهى تناور. وفى اليوم التالى، عند الظهر، اتصل بى وأخبرنى أن الموضوع انتهى وأن الرئيس سيرحل. شعرت براحة شديدة ممزوجة بأسى عميق فى نفس الوقت. لِمَ كان يجب أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة؟ رغم كل شىء، ألم يكن من الأفضل الخروج بشكل أكرم؟ لو كان قد فعلها منذ شهر واحد لصار بطلا يخلده التاريخ. ولو فعلها منذ أسبوعين لتَذكّره الناس بالخير. طال صمتنا، ثم سألته عمّن سيتولى زمام الأمر الآن فقال فى عصبية: «ربنا يستر.»

الحلقة السابعة عشر

لم تقتصر المشكلات على أمك وأصدقائى الثوريين، فقد جاء عمر من إيطاليا فى منتصف فبراير وهو ثائر وغاضب إلى أقصى درجة.. علىّ وعلى صفية بسبب إصرارنا على دفن جدتك دون انتظار عودته

فى أول مارس عدت إلى العمل. وجدت القصر الجمهورى الفارغ كئيبا، وقد حلّ الصمت الكامل محلّ الهدوء الحذر المعتاد. فى البداية لم أكن أعرف ماذا أفعل بالضبط فى المكتب، وأظن أن معظمنا شعر بنفس الشيء، فاستمر كثيرون منا يفعلون نفس ما كانوا يفعلونه من قبل، حتى لو كانت قمَّة الهرم غير موجودة. واصلتُ إعداد التقارير وغير ذلك من الأمور الاعتيادية، ومع تطوُّر الأحداث أصبحت هذه التقارير تذهب للمجلس العسكرى، ثم أصبحت أنا أيضا أذهب هناك حين يأتى زوار ذوُو أهمية. فى بعض الأحيان كنت أجلس بالساعات فى مقر المجلس دون أن أفعل شيئا، وأحيانا كنت أشارك فى الاجتماعات كى أترجم أو أدوِّن الملاحظات، أو أردّ إن كان لدى أصحاب الاجتماع سؤال عن خلفية الموضوع محلّ المناقشة.

كانت الفترة الانتقالية عصيبة مثلما قرأت عنها. وأثَّرت الاضطرابات التى سادتها علينا كلنا، لا فى العمل وحسب، بل فى حياتنا الخاصة كذلك .أمُّك أصبحت شديدة التوتر، وبدأت تشعر بجفوة تجاهى بسبب قربى ممن أسمتهم »جماعة التحرير«. وكلما حاولت تهدئتها وبعْث أملها فى المستقبل أظهرت مخاوفها أكثر واحتدَّت فى بيانها وحمَّلت الثورة مسؤولية هذه المخاطر التى تحيق بنا. وكانت تفعل ذلك فى صيغة لوم كأنى أنا شخصيّا الثورة .الطريف أن أصدقائى من «جماعة التحرير» كانوا يفعلون نفس الشيء معى ولكن من الجانب الآخر، فكلما تعثرت العملية الانتقالية، أو ارتكب المجلس العسكرى واحدا من أخطائه الفادحة أو ألقى القبض على نشطاء منهم وحاولتُ أن أشرح لهم صعوبة الانتقال احتدُّوا علىّ كأنى أنا شخصيّا المجلس العسكرى .انتهى بى الأمر سريعا إلى الصمت، مرة أخرى. كنت أظن أن الثورة ستُنهى حالة صمتى هذه، لكنى أخطأت.

لم تقتصر المشكلات على أمك وأصدقائى الثوريين، فقد جاء عمر من إيطاليا فى منتصف فبراير وهو ثائر وغاضب إلى أقصى درجة، علىّ وعلى صفية بسبب إصرارنا على دفن جدتك دون انتظار عودته. لم يشفع لى شيء، ولا حتى أن ثورة قامت، لشرح موقفنا. وانتهى الأمر بأن أعلن مقاطعته لى ورحل عائدا إلى إيطاليا. تضايقت أشد الضيق من هذا الأمر، صحيح أن عمر كان حادّا دائما ومنفلتَ الغضب بحق ودون وجه حق، لكنه هذه المرة تَعدَّى حدود احتمالى، أو لعله احتمالى الذى تَقلَّص بسبب الجوّ العامّ. وغاظنى بشكل خاصّ أنه صبّ غضبه علىّ وحدى، إلى درجة مقاطعتى، مع أن صفية كانت شريكتى فى كل ما قررناه.

صفية كانت سعيدة بالثورة، ولعلَّها الوحيدة من عائلتى الصغيرة التى شاركتنى السعادة بهذه الثورة، ورأت فيها أملا كبيرا للمستقبل .لكنها كانت مثل الكل متخوفة، من العثرات، ومن الفشل، ومن اختطافها من قِبَل هذا أو ذاك، ثم -مثل بقية الشعب- صارت مخاوفها تزيد مع استفحال الأزمات وانتشار الفوضى وانعدام الأمن وانفجار المشكلات الاجتماعية والسياسية، بل والأخلاقية، الذى استمر فى التزايد. لم تكن صفية تعتقد أن شيئا من هذا برىء، لكنها ملّت من كل هذه الفوضى، وصارت مخاوفها تطغى على الأمل فى معظم الأوقات.
ساعد على ذلك زوجها إبراهيم، ضابط المدفعية السمج الذى لم يفقد سماجته حين خلع بزته الرسمية وانتقل للعمل فى مجال السياحة قبل الثورة بعامين. طبعا قضت العملية الانتقالية المتخبطة على السياحة وعلى عمله، وظلّ هو يشحن الجو من حوله بالكراهية لكل ما له علاقة بالثورة، حتى شهر يناير نفسه كرهه.

حماى اللواء القطان استمر فى عمله، لكنه صار يقضى معظم وقته فى مقر المجلس العسكرى ووزارة الدفاع. لم يكن دوره واضحا لى بالضبط، وعرفت فى ما بعد أنه لم يغير وظيفته الرسمية كجزء من سكرتارية الرئيس، رغم خلوّ منصب الرئيس، لكنه عمل بشكل فعلىّ مع المجلس العسكرى. وتصادف وقتها أن مساعده القديم محمد المنيسى، الذى كان بصحبته يوم زار بيت أبى فى بكين منذ سنوات طويلة، كان وقتها يعمل فى الأمانة العامة للمجلس العسكرى، وهو ما ساعد القطان أيضا على توطيد علاقته بالمجلس.

المنيسى كان برتبة مقدّم، وهو جالس الآن فى القمرة المجاورة دون أن يشك أن خطته كلها على وشك الانهيار .تَحمَّس اللواء القطان فى البداية للعملية الانتقالية، ورفض كل تحفُّظاتى على الاستفتاء والجدول الزمنى وترتيب المحطات الرئيسية لهذا العملية، كما استبعد كل ما تناقله الناس من حديث عن صفقات مع الإخوان وتحالفات مع السلفيين، وعن اضطهاد للنشطاء وشباب الثورة، وعن الثورة المضادة، وعن نيات العسكريين. فى البداية أخذ هذه التحفظات والمخاوف بجدّية، رفضها لكنه أخذها بجدية، ورتَّب عددا كبيرا من الاجتماعات بين العسكريين والشخصيات السياسية والإعلامية. لكن هذه الجدية تناقصت مع الوقت، وحين اقتربنا من الانتخابات، بدا واثقا أن كل شىء سيسير على ما يرام، وأن مجلس الشعب الجديد سيكون »موزاييك« يعكس أطياف الشعب كله، وقال لى إن الإسلاميين لن يحصلوا على أكثر من 35% من المقاعد.

محمود بشير، الذى صرت أراه مرة فى الأسبوع على الأقلّ ونتحادث كثيرا فى التليفون، كانت حياته مرآة للمرحلة الانتقالية نفسها .أياما يكون فى السماء، من السعادة والثقة بالمستقبل، وأياما أجده فى الأرض من الاكتئاب والإحساس بالمؤامرة ودنوّ الأجل. حكى لى قصته مع سالى بالكامل، منذ أيام الرئاسة وخيانتها وانفصالهما حتى عاد لها. قال إنه قضى أسوأ أيام عمره حين تركها، وإن غضبه على خيانتها لم ينفعه بشىء. وبين موقف متسق مع العقل والقواعد لكنه مدمِّر لمشاعره بل ولحياته، وموقف آخر أقلّ اتساقا لكنه يعيد البهجة إلى حياته، انتهى به الأمر إلى الموقف الأخير. هز كتفيه وقال إنه لم يكن مثالا للوفاء هو الآخر، فلِمَ يجعل من مبدأ نظرى عائقا أمام سعادته؟ لم أردّ. هناك أشياء لا يمكن الجدل فيها، والعلاقة بين رجل وامرأة أحدها. لا يمكنك، مهما أوتيت من منطق أو عقل، أن تفهم علاقة رجل بامرأة ما لم تكن أنت هذا الرجل أو هذه المرأة. فكيف أحكم عليه أو أنصحه؟ ولِمَ؟

محمود وعزالدين عملا معا ومن قُرب بعد الثورة، وإن كان من موقعين مختلفين، ففى حين انخرط محمود مع الجماعات الثورية والمجموعات اليسارية، فإن عزالدين، المتشكك فى العقائد السياسية وفى الاندفاع الثورى من ناحية، والمتخوف من الإسلاميين ونزعتهم إلى السيطرة من ناحية أخرى، انخرط مع المجموعات والأحزاب الليبرالية الناشئة، وإن كفّ عن المشاركة المباشرة فى العمل السياسى مكتفيا بدوره التحليلى والأكاديمى، وهو ما جعله مثار سخرية محمود اللاذعة، الذى وصف موقفه هذا بأنه مزيج من الضعف والانتهازية.

هكذا كان العام الأول من الثورة؛ لم يُسقِط نظاما ويُقِم نظاما جديدا مثلما كان المتظاهرون يأملون، لكنه خلخل الأشياء وهزَّها من أعماقها .ستسقط كل هذه الأشياء فى ما بعد، وتقوم مكانها أشياء جديدة، مثلما تعلم .لكن ليس هذا بيت القصيد، فقد درستَ هذا وقرأتَ عنه بما يكفى. ما أريد قوله لك أن العام الأول من الثورة خلخل حياتنا نحن، حتى حياتنا الشخصية وأصدقائنا وعلاقات بعضنا ببعض. لا أدرى كيف حدث ذلك، لكنه حدث. كأننا كلنا كنا مربوطين بشىء وانقطع، فصرنا نتحرك بحرية أكبر. أو كأننا عشنا تحت غطاء انكشف وطار فى عاصفة، فصرنا يرى بعضنا بعضا، ونرى أنفسنا، بشكل أوضح .أو لعلنا ببساطة صرنا أحرارا أكثر، ليس تماما، لكن أكثر مما كنا قبلها .وانعكس ذلك على كل شىء فى حياتنا، وإن لم ندرك ذلك وقتها، ونحن مشغولون بقرارات المجلس العسكرى، وبحوادث الاعتداء على الأبرياء، وبقتلى ماسبيرو، وبالمحاكمات العسكرية، ومن الذى ظل فى موقعه ومن أُطيحَ به، واختفاء البنزين وأنابيب البوتاجاز، وكل هذه التفاصيل التى شحبَت أهميتها وتضاءلت بعد ذلك.

ومن ضمن الخلخلة والحرية أن حياتى أنا انفتحت أكثر، فصرت أقابل أناسا لم أكن لأقابلهم من قبل، وأذهب إلى أماكن لم أعرف بوجودها فى مصر من قبل .على سبيل المثال اكتشفت أن «أرض اللواء»، التى كنت أظنها على حدود العالم المتحضر، فى الحقيقة عاصمة لمناطق وأحياء وقرى تعيش فى أحوال أسوأ منها بكثير. اكتشفت العشوائيات والناس الحقيقيين الذين يعيشون هذه الحياة، يوما بعد يوم، دون ماء ودون صرف صحى وأحيانا دون سقف. رأيت عفاف وعائلتها مرات كثيرة، فى تظاهرات الجُمَع المختلفة بميدان التحرير، ثم استضافونى عندهم عدة مرات، وأخذنى حسن -الأخ العاطل- فى جولة داخل العشوائيات المحيطة بأرض اللواء. فكّرت فى دعوتهم إلى منزلنا لكن أمك ارتاعت للفكرة وثنتنى عنها من باب عدم الإساءة إلى مشاعرهم إن قارنوا أحوالهم بأحوالنا. محمود وجد لميرفت عملا بشركة للتليفونات المحمولة عن طريق أحد معارف سالى القصبجى .لكن لا هو ولا سالى استطاعا كسر نحس حسن الذى ظل بلا عمل ثابت، وبدأت كُلْيته فى التدهور خلال هذه الفترة، وساعدته -دون علم أمك- ببعض المال لتغطية نفقات العلاج.

لكن مشكلة عفاف وإخوتها لم تكن -على الأقل خلال هذه الشهور- مشكلة مالية أو ظروفا معيشية قاسية، وإنما الإحباط من مشكلات المرحلة الانتقالية وعثراتها. وفاجأتنى درجة الوعى والنضج السياسيين لهم، خصوصا حسن، الذى كان قادرا على صياغة موقفه بوضوح شديد وبلغة بسيطة رغم تعليمه وثقافته المحدودَين. كان لديهم جميعا منحنى للأمل واليأس، يصعد ويهبط مع سرعة التغييرات السياسية، ولديهم جميعا حاسَّة قوية تمكّنهم من تمييز التغييرات الحقيقية من الشكلية. والحقيقة أن المنحنى ظلّ يتدهور فى الشهور الأخيرة من العام، وعاد ثلاثتهم إلى ميدان التحرير كثيرا، ثم إلى ماسبيرو، لكنهم لحسن الحظ لم يُصابوا بسوء. وعندما وقعت أحداث محمد محمود -ستجد تفاصيلها على الإنترنت- اتصلت بى ميرفت لتقول لى إن حسن هناك ولا تستطيع إقناعه بالعودة، وطلبت تدخُّلى. لكن ماذا كان فى استطاعتى فعله؟ ولحسن الحظ لم يُصِبْه مكروه وقتها، وجاءت الانتخابات التشريعية لتضع حدّا لذلك.

كان تخوُّف اللواء القطان ومَن صرت أدعوهم أصدقاءه من »جماعة العسكر «هو حدوث انفلات أمنى فى أثناء الانتخابات، وكان سعيدا سعادة بالغة حين تمَّت المرحلة الأولى بهدوء. وعندما أشارت النتائج الأولية إلى اكتساح الإسلاميين -على عكس توقعاته هو وأصدقائه العسكر- سألته عن معنى ذلك، فأطرق ساهما ثم هز رأسه وقال: «ربنا يستر.«

الحلقة الثامنة عشر

عادت النغمة القديمة بحلول العام الثانى للثورة. «شباب الثورة الأنقياء» أصبحوا «عيال تافهين وضايعين» ولا يفقهون من أمرهم شيئا، مضللين ومفتونين بالأضواء والتليفزيونات وبعضهم مأجور لجهات أجنبية لم يأتِ العام الثانى للثورة بما تشتهى السفن.

الخوف والتوتر الذى بدأ يتجمع فى الأفق خلال العام الأول تراكم عبر أحداث ماسبيرو، ثم محمد محمود، ثم مجلس الوزراء، وبلغ أشده مع نتائج الانتخابات البرلمانية. وانتاب كل من أعرفهم حالة من الاكتئاب التى خلَّفَت آثارها على حياتنا اليومية. حتى تفاؤل صفية المشرق الذى بدا بلا نهاية خفَت. لم تُذعِن لليأس، لكنها كفَّت عن متابعة ما يحدث. صفية التى لم يكن لها فى السياسة من قبلُ تَحوَّلت مع الثورة إلى متابِعة مدقِّقة للحياة السياسية. ولم يقتصر الأمر على مشاركتها فى التظاهرات بميدان التحرير، وتشجيعها لأبنائها الثلاثة على المشاركة، بل ولومها لكريم ابنها الأكبر على تقاعسه عن المشاركة، بل تعدى الأمر ذلك إلى بحثها عن أسماء المرشحين فى الانتخابات فى دائرتها والدوائر التى لها فيها أصدقاء، وجمع ما تَيسَّر من معلومات عنهم، وحشد صديقاتها وأقربائها لتأييد مَن رأت أنه الأصلح. صفية، المحجَّبة، التى تنظِّم دروس القرآن فى المسجد القريب من بيتها، كانت تخشى الإخوان والسلفيين وترى أن بعضهم يتبنى رؤية متخلفة للدين والآخر يستغلُّه لأغراض دنيوية لا تليق به. وحين أتت نتائج الانتخابات بما أتت به، انطفأت حماستها، وتوقفت عن متابعة التطورات السياسية، وعن الذهاب إلى التحرير.

أما الزوج فبدأ يخطِّط للسفر إلى الخارج. ضحكت صفية من خططه هذه، فأين يذهبون؟ هم الذين لم يعيشوا خارج مصر قطّ كيف يمكن لهم أن يفكّروا فى الهجرة؟! تركَته يفعل ما يشاء وقالت لى أن لا أهتمّ، لكنّ قلقًا عميقًا اعترانى. وأثبتت الأيام أنى كنت مُحِقًّا. لم يكُن رد فعل صفية وزوجها فريدا، بل فعل كل من أعرفهم شيئا مشابها لما فعلاه، بدرجات متفاوتة. حتى ندا أمك بدأت هى الأخرى الحديث عن السفر والاستقرار خارج مصر .فى البداية ظننتها تمزح، لكن هذا المزاح تَكرّر وتَطوّر. كانت قلقة، فمصر فى رأيها يجرى تسليمها لحفنة من المتطرفين والمهووسين، وهى لا تريد الحياة وسط هذا الجنون، لا تريد شيوخا يقولون لها ما يجب أن تفعله وما يجب أن لا تفعله، ولا رجالا يوقفونها فى الطريق أو حتى ينظرون إليها نظرات استهجان .كانت تقول لى إنها تشعر بالأكسجين يتناقص من الجو، ولا تريد أن تعيش وسط هذا الجو الخانق، ولا مجرد الاستماع إلى الكلام الفارغ والمسىء الذى تسمعه فى وسائل الإعلام كل مساء، لا تريد ذلك. وقطعا لا تريد لك، أنت الذى تخطو لعامك الحادى عشر، أن يصيبك هذا الهوس بسوء. حاولتُ كثيرا التهدئة من روعها، ثم لجأتُ إلى أبيها لطمأنتها، لكنه فى الحقيقة زاد الطين بلة، فالرجل الذى كان قد تَخلَّى عن تفسير الثورة بأنها مؤامرة من الإخوان المسلمين، وأقر بأنها تَحوَّلت إلى ثورة شعبية حقيقية ضد الظلم والفساد الذى نعرفه جميعا، عاد إلى النغمة القديمة بحلول العام الثانى للثورة» .شباب الثورة الأنقياء» أصبحوا «عيال تافهين وضايعين» ولا يفقهون من أمرهم شيئا، مضللين ومفتونين بالأضواء والتليفزيونات وبعضهم مأجور لجهات أجنبية، أما الإخوان فسائرون فى مؤامرتهم التاريخية لإسقاط الدولة، وإما أن يلتفت الشعب إلى هذه المؤامرة ويحبطها وإما ستضيع البلد. زاد حديث جدّك هذا مخاوف أمك سوءا، فلا هى ولا غيرها يعوِّل على وعى الشعب لإنقاذ البلاد .أنت الوحيد الذى ظللت متفائلا وسعيدا بالثورة، ربما لكثرة الإجازات التى حصلتَ عليها هذا العام من المدرسة.

أكثر المكتئبين كان محمود بشير. ظل متماسكا طوال العام الأول حتى أحداث محمد محمود، لكن تراجع المجلس العسكرى أمام الإخوان فى موضوع الدستور ومبادئه ثم أحداث مجلس الوزراء، أصابت هذا التماسك فى مقتل، وأجهزت نتائج الانتخابات على ما بقى لديه من أمل. انتعش قليلا فى ذكرى الثورة الأولى، لكن تلا ذلك مباشرة قتل عشرات من خيرة شباب الثورة فى مباراة بين الأهلى والمصرى، ودخلت الأمور فى نفق مظلم لم تخرج منه بعدها، وهو معها.

أذكر أنى جلست معه ومع عزالدين فكرى فى أوائل أبريل من ذلك العام نتناقش فى ما يحدث. قال محمود يومها إن الثورة انتهت؛ فشلت أو تمت سرقتها، أو الاثنان معا.

عزالدين كان المتفائل فى ثلاثتنا، وظلّ يردد أن الثورة أعمق من كل ما نرى حولنا، وأن هذه موجة أُولَى ستتلوها موجات، ونحن الاثنان ننظر إليه كما تنظر إلى مرضى الضلالات الذين يسمعون أصواتا ويتحدث إليهم أناس غير مرئيين. فقد محمود أعصابه عليه فى وسط حديثه، وأمسك به من كتفه وهو يدعوه إلى الإفاقة من هذا الهراء والنظر حوله، إلى ضَعف وإنهاك قوى الثورة، وانقسام وتفتُّت الائتلافات والتحالفات المدنية التى تدلُّ كثرتها على انعدام قيمتها، وتحالُف الإسلاميين مع العسكر وبيعهم شركاءهم فى الثورة، وانصراف الناس عن الثورة ويأسهم من تحقيق أهدافها، بل وكراهيتهم لمن أوهمهم بإمكانية ذلك وعرَّض حياتهم للخطر بلا معنى، غير جهلهم واستعدادهم شبه الفطرى لتأييد أى نوع من الاستبداد، مرة عسكريًّا ومرة دينيًّا. ظل غضب محمود يتزايد يومها حتى خشيت عليه من نفسه، وانسحب عزالدين فى هدوء بعد أن طلب منا التمهل قبل إصدار الإحكام، قائلا إن العسكر والإخوان لا يمكن أن يتحالفا إلا إلى حين، وعلينا التخطيط لليوم الذى سيصطدمان فيه .نظر إليه محمود بزهق وأشاح بيده. وذهب عزالدين وهو يبتسم ويهزّ رأسه.

كان غضب محمود أكبر بكثير من أن يكون بسبب الوضع السياسى، فظللت أستجوبه حتى اعترف. سالى، مرة أخرى تلك المرأة. قال لى إنها منذ بدأت الثورة وهى فى قلبها، وكانا معا فى كل المعارك والمواجهات، من فوق أسوار أمن الدولة فى مدينة نصر وحتى شارع محمد محمود. ووضعت المؤسسة الإعلامية التى تملكها فى خدمة قوى الثورة وائتلافاتها. إلا أنها بدأت منذ أحداث بورسعيد تفسح المجال بشكل غريب لفلول النظام السابق. فى البداية أنكرت وراوغت ولفّت ودارت، ثم اعترفت أخيرا أنه لا خيار آخر أمامها، فالثورة تنحسر ولا بد لها من عمل حساب المستقبل. كان محمود مصدوما وغاضبا مثلما رأيته فى الرئاسة يوم اكتشف خيانتها الأولى وضرب شريكها وطُرد. أخذ يهز رأسه فى حنق، وكلما تحدث فى الموضوع ازداد غضبه اشتعالا. ثم وقف مرة واحدة وهو يزعق بأعلى صوته: «صحيح، القحبة إن تابت عرّصت». ومضى خارجا تاركا إياى أتلقى النظرات المستنكرة للجالسين حولنا فى المقهى. الدرس المستفاد من هذه القصة أن لا تأخذ أصحابك المجانين إلى مكان محترَم.

كان عاما سيئا على الجميع.

اتصلت بى ميرفت وقالت إنها تتصل دون علم عفاف أختها، لكن حسن سُرقت كليته ولا يعرفون ماذا يمكنهم فعله. ظننت أنى لم أسمع جيدا، وبين استفساراتى المذهولة وتلعثمها فهمت أنه ذهب إلى المستشفى للعلاج من طلقات خرطوش أصابته فى أثناء اشتراكه فى احتجاجات لاظوغلى التى أعقبت قتل الشباب فى مباراة المصرى. ذهب إلى مستشفى خاصّ مجهول لأنه خاف القبض عليه إن ذهب إلى مستشفى عامّ، وقالوا له إن الأمر يحتاج إلى عملية لاستخراج عدد من طلقات الخرطوش المستقرة فى جنبه الأيمن. وحين خرج بعدها اكتشف وجود خياطة كبيرة فى جنبه، فقلقت عفاف وأخذته لإجراء أشعة، وعندئذ اكتشفوا اختفاء كُليته اليمنى. أخذوا جيرانهم وأصدقاءهم وذهبوا إلى المستشفى، وبعد لفّ ودوران اعترف المستشفى بأنهم «أزالوا» الكُلية مدّعين إصابتها بالطلقات وبأنها كانت خطرا على حياته. لم يصدق أحد هذه الترهات، لكنهم لم يستطيعوا فعل شىء. خافوا من الذهاب إلى الشرطة، وفيمَ تفيد الشرطة فى أىّ حال؟ ذهبت عفاف إلى نقابة الأطباء لكنها عادت مُحبَطة، ولا يعرفون إلى من يلجؤون .فكر حسن فى اللجوء إلى الصحافة، لكن الصحفى الذى تَحدَّث معه أخبره أن قصصا مثل هذه تحدث طوال الوقت. فاتصلت بى ميرفت علّى أستطيع المساعدة باتصالاتى. صُدمت؛ أىّ بلد هذا الذى يسرق فيه الأطباء كُلية مريض فى أثناء علاجه فى مستشفى؟ كم نظاما اجتماعيا يجب أن ينهار حتى نصل إلى هذه النقطة؟ لكن ماذا أستطيع فعله؟ الاتصال بالمجلس العسكرى كى يبحث عن كُلية حسن المسروقة؟ تَحدّثت مع شخصية أمنية فى الرئاسة ووعدنى بالمساعدة، لكنه سأل فى استياء عن سبب وجود هذا الشخص فى محيط لاظوغلى فى أثناء الأحداث .غمغمت بأنه ذهب لمشاهدة ما يحدث، فنظر إلىّ بارتياب ووعد بالمساعدة.

وقبل أن يمر شهر على حديثى أنا ومحمود وعزالدين، وصلت دوامة العملية الانتقالية إلى مرحلة المواجهة بين الإخوان والأجهزة الأمنية القابضة على الأمور فى البلاد. وصرنا كالجالسين أعلى منحدر حادّ، ننزلق بسرعة متزايدة نحو السفح ونحن نرقب انزلاقنا مستائين متعجبين كأننا مسلوبو الإرادة أمام جاذبية أرضية تشدُّنا إلى أسفل دون مقاومة منا، حتى وقع ما وقع وانهارت العملية الانتقالية برُمَّتها فى هُوَّة الحكم العسكرى المباشر.

هل كان الأمر كله مؤامرة منذ البداية، أم سوء إدارة من المجلس العسكرى وسوء تصرُّف من القوى السياسية؟ لن تعرف الإجابة عن هذا السؤال أبدا. مر على هذا الأمر ثمانى سنوات، تبدلت فيها الأحوال أكثر من مرة، وسمعت خلالها شهادات عديدة من أناس شاركوا فى الأحداث، لكل منهم رواية مختلفة لما جرى وأسبابه ومنطقه. حماى، اللواء القطان، وعدد من أعضاء المجلس العسكرى أكدوا لى أن الحكم العسكرى جاء ردّ فعل على الأحداث التى سبقته والتى عرَّضَت سلامة البلاد لخطر حقيقى، بالضبط مثلما تَدخَّل المجلس فى يناير 2011، وأن لا شىء من هذا كان مدبَّرا أو فى الحسبان أو حتى محل رغبة أو ترحيب. وليس لدىّ ما يدعونى إلى الشك فى إخلاص هؤلاء الرجال الذين عرفتهم لسنوات طوال. آخرون، من القيادات الأمنية التى أُطيحَ بها خلال الأحداث، حكوا لى عن صراعات مكتومة بين العسكر والأمن، وانقسامات ومناورات وطموحات وتحالفات ووعود لم يتم الوفاء بها. وآخرون، من رجال أعمال وسياسيِّى النظام القديم، روَوا أمامى تفاصيل مؤامرات وأموال وصفقات وخيانات معقَّدة، ناهيك بروايات السياسيين من الإخوان، والسلفيين، واليساريين، والليبراليين، وغيرهم. كل هذه الروايات تقصُّ جوانب مما حدث .الأمر يتعدى اختلاف الرؤى لنفس الحدث، فهناك جوانب مختلفة لهذا الحدث نفسه، ولعلها كلها صحيحة، على الأقل بدرجة ما. ليس لدىّ معرفة شاملة كاملة بكل ما دار، ولا أظن أحدا غير الله سبحانه وتعالى لديه هذه المعرفة. لكنى أفضّل أن أرى ما حدث كأنه حريق كبير، أسهم فى إشعاله كثيرون، بعضهم بإهماله وغبائه وبعضهم انتقاما، بعضهم طمعا وبعضهم سهوا وغفلة، ويظنّ كل منهم أن عمله هو الذى يفسِّر نشوب الحريق. لكن الحقيقة، والله أعلم، أنهم جميعا شاركوا فى إشعاله. فلا تُتعِب نفسك يا بنى فى محاولة التوصل إلى معرفة حقيقة ما حدث بالضبط، وهل كان الأمر انتخابات مزوَّرة أم انتخابات ملغاة أم انقلابا أم إنقاذا أم صفقة... لا فرق بين هذه الروايات. المهم أنهم أشعلوها، واستولى العسكر على الحكم بدعوى إطفائها.

الحلقة التاسعة عشر

كان واضحا للجميع منذ اليوم الأول أن المجلس الرئاسى هذا ليس أكثر من واجهة.. بالكاد.. للحكم العسكرى.. لكن رد الفعل كان خافتا

تم بسط الحكم العسكرى بشكل أذكى مما توقعه الجميع. فبعد حل البرلمان وبدء وقوع الأحداث تَدخَّل المجلس العسكرى لتولِّى دفة الحكم، لكنه أعلن أنه سيتدخل لإنقاذ البلاد من الفوضى وتسليم السلطة بمجرد ملء الفراغ الدستورى والسياسى الذى نتج عن هذه الأحداث. لم يصدِّقه أحد بالطبع، واحتشدت مليونية ضخمة فى ميدان التحرير تندِّد باستيلاء العسكر على السلطة. أذكر أن اللواء القطان كان عندنا فى البيت ذلك المساء وقال لى إننا مخطئون، أنا و»أصدقائي»، وإن الغد سيحمل لنا مفاجآت لم نتوقعها. وفى الصباح، بالفعل، أعلن المجلس العسكرى استقالته بكامل هيئته، وتقاعُد أعضائه من الخدمة ومن أى مناصب عامة، وعودة القوات المسلحة إلى ثكناتها فورا، والبدء فى مشاورات مع القوى السياسية لتشكيل مجلس رئاسى مدنى عسكرى مشترك يتولى الحكم لفترة انتقالية يتمّ فى أثنائها إعداد دستور للبلاد والإشراف على الانتخابات التى تلى إعداد الدستور.

نزل هذا الإعلان كالصدمة على الجميع، وبرّد كل السخونة التى تراكمت منذ حلّ البرلمان وبدء الأحداث. فقد كان الجميع مقتنعا أن العسكرين لن يسلموا السلطة. أيدت القوى المدنية والثورية هذا الإعلان كما أيده السلفيون والأحزاب التقليدية، ولم يبقَ فى المعارضة سوى جماعة الإخوان المسلمين الذين نزلوا إلى الشوارع احتجاجا على حل البرلمان وبقية الإجراءات التى عطّلت انتقال السلطة لرئيس مدنى منتخب. لكن الإخوان وجدوا أنفسهم وحدهم، فالسلفيون اتفقوا مع المجلس العسكرى، والقوى الديمقراطية كانت غاضبة على الإخوان واستئثارهم بالسلطة خلال الشهور التى سبقت تلك الأحداث. أما عامة الشعب فقد ارتاحت لحزمة الإجراءات التى أعلنها المجلس، وأدّت استقالة أعضاء المجلس العسكرى إلى استعادتهم لثقة أغلبية الشعب. ومن ثَمّ لم تؤدِ التظاهرات المليونية للإخوان فى ميدان التحرير إلى شيء .وحين صعّد الإخوان احتجاجاتهم وبدؤوا يحتلُّون الطرق والمبانى العامة ويوقفون الخدمات قامت الأجهزة الأمنية بإلقاء القبض على كل قياداتهم العليا والوسيطة فى يومين، دون أن يثير ذلك اعتراض أحد. بل على العكس، ساد ارتياح عامّ الأوساط الشعبية والسياسية على حد سواء.

فى اليوم التالى بدأت مشاورات تشكيل المجلس الرئاسى الذى تَقرَّر أن يضم خمسة أشخاص: اثنين من المدنيين واثنين من العسكريين ويرأسه قاضٍ. اتصل بى اللواء القطان وطلب منى التشاور مع أصدقائى واقتراح أسماء لمن يشارك فى هذه المشاورات، وفعلا اقترحتُ عليه بعض الأسماء بناء على نصيحة عزالدين ومحمود اللذين اشتركا فى المشاورات الرسمية. كانا متفائلَين فى البداية، لكن بعد عدة أيام من الاجتماعات التقيانى غاضبَين، وقالا إن الموضوع كله خدعة، وإن المجلس العسكرى لا يريد سوى واجهة مدنية له، ثم أعلن معظم القوى السياسية المدنية مقاطعته للمشاورات. استدعانى اللواء القطان واثنان من أعضاء المجلس وطلبوا منى التدخل مع أصدقائى لإقناعهم بالعدول عن الانسحاب .شرحت لهم ما فهمته من أصدقائى، وأبدوا تفهُّما لمنطقهم، لكنهم دفعوا بأهمية تغليب المنطق العملى وعدم الاستسلام لأحلام رومانسية قد تدمِّر العملية برُمّتها. فليس من المعقول ولا الممكن الانتقال مرة واحدة إلى حكم مدنى خالص، ديمقراطى بالكامل، ومن هنا جاءت فكرة المجلس المشترك، وهو خطوة إلى الأمام، وأفضل من ترك الساحة لآخرين أو قصره على العسكريين .وختموا حديثهم بتأكيد أن هذه مرحلة مصيرية، يتوقف عليها مستقبل مصر كله، ومن ثم ضرورة تنحية المواقف المتشددة جانبا والقبول بحل وسط كى يسير المركب. لم أكن مقتنعا تماما، لكنى قلت لهم ما عندى ولم يغير ذلك من موقفهم، كما أن لمنطقهم وجاهته، فقلت لنفسى وقتها أن لا ضير من المحاولة، وإعطائهم فرصة لإتمام عملية التحول التدريجى نحو الحكم المدنى.

لكن لا محمود ولا عزالدين اقتنعا بالعودة إلى المشاورات، وفى النهاية لم ينضمّ إلى المجلس الرئاسى سوى حزب الوفد، وشخص آخر ينتمى إلى حزب التجمع، لكن الحزب فصله بعد انضمامه، هذان هما المدنيان . إضافة إلى عضوين عسكريين وقاضٍ كبير تَبيَّن أنه كان فى الأصل عسكريا، لكن عُيّن فى سلك القضاء منذ عدة سنوات. ورغم استياء القوى السياسية كلها من هذه التركيبة، وتشكُّك الرأى العام فى مدى مدنية هذا المجلس، فقد جرى الإعلان عنه والاحتفاء به بوصفه بداية جديدة لعملية انتقال ديمقراطى صحيحة تتفادى أخطاء العملية الفاشلة التى سبقت والتى أدخلت البلاد فى فوضى أفزعت الجميع.

وفى اليوم التالى لتنصيب هذا المجلس، أعلن كل أعضاء المجلس العسكرى تقاعدهم وخروجهم من الخدمة فى مشهد مهيب، وحلّ محلهم ضباط جدد أصغر سنا تَسلّموا قيادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة بدلا من هؤلاء الذين تقاعدوا، وأعلنوا فى أول اجتماع لهم دعمهم للسلطة الرئاسية الجديدة وعودة القوات المسلحة للتفرغ لمهمتها الأصلية فى حماية سلامة واستقلال التراب الوطنى. وفى نفس اليوم أقسم سعيد الدكرورى اليمين الدستورية أمام المجلس الرئاسى كرئيس لحكومة انتقالية ضمّت اللواء القطان وزيرا للدفاع، كما ضمّت وجوها جديدة فى كل الوزارات – عدا وزيرة التعاون الدولى التى احتفظت بموقعها.

كان واضحا للجميع منذ اليوم الأول أن المجلس الرئاسى هذا ليس أكثر من واجهة، بالكاد، للحكم العسكرى. لكن رد الفعل كان خافتا .استقر الإخوان فى السجون وخفتت احتجاجات قواعدهم سريعا، ولزم السلفيون الصمت وفقا لاتفاقهم مع العسكر، وباستثناء الإدانات اللفظية وبعض الوقفات الاحتجاجية الرمزية لم يفعل أحد من القوى الثورية والمدنية شيئا يُذكر، إذ قرروا النأى بأنفسهم عن صراع بين ديناصورَين سينهك كلا منهما الآخر. وكان تدخلهم إلى جانب الإخوان سيجعلهم -إن انتصروا على العسكر- يعودون إلى دور الأخ الأصغر الذى سئموه، فقرروا بدلا من ذلك الاكتفاء بمظاهر الاحتجاج، مع تركيز طاقتهم فى تنظيم صفوفهم من جديد استعدادا لمواجهة مع أحد الديناصورات فى ما بعد. وقد كان. أما عموم الشعب فقد انتابتهم راحة، جزء منها نتيجة هدوء الفزع الذى أثاره المتطرفون خلال عامَى الثورة، وجزء منها لأن ذلك بدا كأنه عودة للحياة الطبيعية، تلك التى اعتادوها ويعرفونها ويعرفون كيف يديّرون أمرهم فى إطارها. وكذلك كان موقف المجتمع الدولى مائعا، فقد وفر المجلس الرئاسى غطاء وجه للحكومات الأجنبية التى تتبنى تأييد الديمقراطية كسياسة لها، فاعتبروها خطوة فى الاتجاه السليم، أما الحكومات ذات الوجه المكشوف فلم تحتَجْ إلى غطاء وأعربت عن سعادتها بعودة الاستقرار لمصر.

وسط هذا الإذعان العامّ عاد الحكم إلى القصر الرئاسى .وتم تعيين المقدم المنيسى رئيسا لديوان رئيس الجمهورية، وطلب منى القيام بوظيفة سكرتير الرئيس للمعلومات. وبعد تفكير لم يطُل قبلت بالمهمة. لو سألتنى وقتها لِمَ قبلتُ لأجبتك بأنى صدّقتهم، وأملت أن تكون هذه الفترة مرحلة انتقالية حقيقية تصحِّح الأخطاء التى وقع فيها المجلس القديم وتضع البلاد على الطريق السليم. وأيدنى فى هذا عزالدين فكرى. حتى محمود شجّعنى على قبول الوظيفة المعروضة علىّ، رغم أنه لم يرَ فى ما جرى أكثر من انقلاب عسكرى قامت به الدرجات الوسطى ضد القيادات العليا والمدنيين المنتخَبين فى آن واحد. لكن بشكل أو بآخر كنا نأمل فى أن يكون لوجودى داخل الحلقة الضيقة لصنع القرار أثر إيجابى على مجريات الأمور. كذلك أستطيع لوم أمِّك على هذا، أو حتى لومك أنت، وأن أدّعى أن قبولى بالوظيفة هذه جاء من باب الشعور بالمسؤولية عنكما، والرغبة فى توفير نفس مستوى الحياة والأمان والحماية الذى اعتدتماه، خصوصا وأنت فى بداية مرحلة المراهقة الحرجة ووسط بلد متقلب .لكن هذا غير حقيقى، فقد صار جدك وزيرا للدفاع فى بلد يحكمه العسكر، فأى حماية أكثر من هذه؟!

لكنى حين أفكر الآن فى الأمر، أعتقد أن قبولى هذه الوظيفة لم يكن فقط لهذه الأسباب، بل لأنى خفت. خفت أن أخرج من القصر الرئاسى إلى عالم لا أعرفه. صحيح أن الثورة فتحت لى آفاقا كنت أجهل وجودها، وجعلتنى أكتشف مِصر أخرى غير تلك التى عرفتها من قبل. وصحيح أن ذلك فتح فى حياتى أبوابا لبهجة جديدة علىّ، وصرت أرى حياتى القديمة ضيقة ومحدودة وأتعجّب كيف قضيت أربعين عاما فى هذا الإطار الخانق. لكن حين جاءت لحظة الاختيار بين أمان ما أعرفه واعتدته، والمجهول، خفت الخروج من المكان الوحيد الذى أعرف فيه الأمان، خفت أن أضيع إن تركت العالم الوحيد الذى لى فيه قيمة وأصبح عالة على أصدقائى أو حماى. بالمقارنة مع هذا الضياع المحتمَل، كان المقدم المنيسى يعرض علىّ الجلوس بجوار العرش، وربما القدرة على التأثير فى قراراته. ومن ثمّ قبِلت.

ومع عودة الحكم إلى القصر الرئاسى انفضّ المولد فى وزارة الدفاع. تم إسقاط جميع التهم الموجّهة إلى مدنيين والأحكام الصادرة بحقهم من القضاء والنيابة العسكريّين، وانسحبت الشرطة العسكرية من الشوارع، وأُعيدَ الحظر على نشر أى أمر يتعلق بالقوات المسلحة دون إذن مُسبَق، ولم يعُد أحد يسمع عن العسكريين شيئا. أما السيد وزير الدفاع، اللواء القطان، فقد توارى عن المشهد السياسى برمته مركزا جهده كله على «تطوير» القوات المسلحة. ولم أفهم ماذا كان يفعل حتى وقت متأخر.

وفى إطار تطعيم السلطة بالمدنيين من أبناء الثورة عرض المقدم المنيسى على عزالدين فكرى ترك الجامعة والعمل متحدثا رسميا باسم المجلس الرئاسى .ناقشه عزالدين كثيرا فى هذا العرض، فى حضورى، محاولا إقناعه. وأكّد له أنه لن يكون مجرد بوق للمجلس الرئاسى وإنما سيشارك فى وضع السياسة نفسها كى يتمكن من الدفاع عنها. شرح له أن المطلوب ليس متحدثا رسميا بالضبط وإنما مستشار، سياسى وإعلامى، يشارك فى صياغة القرارات كى تلقى قبولا من الناس. وبدا أن الأمر يروق لعزالدين، لكنه رفض العرض فى النهاية. وحين سألته على انفراد قال إن لديه أشياء أخرى أكثر أهمية يفعلها .سألته ما هى، فأجاب بثقة: «الإعداد للانتخابات المحلية». استغربت، ولم أفهم إلا متأخرا.

ومع إحكام قبضة العسكريين على البلاد واختفائهم من المشهد فى نفس الوقت بدأت الناس تشعر بالاستقرار والطمأنينة التى افتقدوها لسنوات. حتى ندا، أمك، عادت إلى ابتساماتها المُحكَمة، وعدت أنت للذهاب إلى المدرسة كل يوم دون إجازات ممتدة، وتوقف إبراهيم زوج أختى عن التخطيط للسفر إذ عادت السياحة بسرعة للانتعاش. كأن الجميع كان متعطشا للعودة إلى هذه الحياة .حتى محمود وسالى عادا لبعضهما البعض مرة أخرى، وتوسعت سالى فى مؤسستها الإعلامية وساعدها محمود فى ذلك. كما بدأ المجلس الرئاسى مشاورات مع القوى السياسية لكتابة دستور جديد وإعداد قانون للانتخابات، وبدا لعدة شهور أن كل شيء يسير فى طريقه بهدوء... لكن هذا الهدوء كان أكثر هشاشة مما ظننت...

الحلقة العشرون

الأخطر من تحرُك القوى السياسية المدنية ومؤيديها كان تحرك السلفيين.. فهؤلاء قبلوا التعاون مع العسكر مقابل تغيير نصوص محددة فى الدستور

بدأت سلسلة الأزمات فى 21 مارس فى العام التالى، 2013، بحادثة أمنية بجوار أرض اللواء. توجه مسؤولون من المحافظة مدعومين بقوة من الشرطة إلى منطقة قريبة من أرض اللواء لتنفيذ أمر إزالة لخمس عمارات أقيمت دون ترخيص على أراضٍ زراعية. حاول أصحاب العمارات تأجيل تنفيذ قرار الهدم لكن القوة مضت فى طريقها، فاستنجد أصحاب العمارات بمالكى الشقق وأهاليهم لمنع القوة من هدم البيوت، وتطور الأمر إلى اشتباكات وقع فيها ثلاثة قتلى، اثنان منهم من قوة الشرطة. انسحبت الشرطة لكنها عادت فى الليل للقبض على الجناة، فوجدت الأهالى متحصنين بالعمارات، ووقعت اشتباكات أكبر أدّت إلى تدخُل مزيد من الأهالى حتى أصبح موقف قوة الشرطة حرجا. فاستنجدت القوة بوزارة الأمن الداخلى التى أرسلت تعزيزات لإنقاذ الموقف. وفى خلال أربع وعشرين ساعة تحول الوضع فى أرض اللواء إلى حرب، وسقط ضحايا كثيرون من الجانبين، ومع سقوط الضحايا اشتعل الموقف أكثر وامتدّ ليشمل مناطق ناهيا وصفط اللبن وبولاق الدكرور حتى كفر طهرمس. ثم أعلنت جماعة مجهولة عن اختطاف دورية شرطة تضمّ أربعة ضباط بينهم عميد، وخمسة عشر جنديا بأسلحتهم وسياراتهم .وكردّ فعل لذلك طوقت الشرطة المنطقة الواقعة غرب شارع السودان بأكملها، وأقامت المتاريس وبدأت حصارا مفتوحا للمنطقة حتى يعود المخطوفون .حاولنا التوسط لدى الخاطفين، حتى إنى اتصلت بعفاف أسالها إن كانت هى أو حسن يعرفان أحدا له علاقة بما يحدث، فضحكت بمرارة ونفت معرفتها بما يحدث، قائلة إن بيتها بعيد عن الأحداث وإن أرض اللواء لا يعرف كل سكانها بعضهم بعضا. حاولت مع أصدقائى الثوريين وغيرهم علّ أحدا يستطيع التوسط لكن أحدا لم يقبل الوساطة ونأى الجميع بنفسه عن المشكلة. حتى اللواء القطان رفض تدخُل الجيش فى الأزمة، قائلا إنها ثقب أسود يمكن أن يبتلع من يدخله. ومن ثم طلبنا من حكومة الدكرورى التعامل مع المشكلة بطريقتها... واستمر الحصار.

بعد هذه الحادثة بأيام بدأت الاحتجاجات تظهر فى مناطق أخرى من المدينة، هذه المرة لأسباب فئوية تتعلق بالأجور أو بأسعار السلع وتوفُرها. كان الاحتياطى النقدى قد نفد منذ شهور، ورفضت الحكومة الشروط القاسية التى وضعتها مؤسسات التمويل الدولية لأنها كانت ستؤدِّى إلى رفع أسعار الوقود والخبز أكثر من ضعفين، بما يعنى إشعال البلد فورا. وفى نفس الوقت لم يتطوع أحد بمدّ يد المساعدة المالية، فاضطُرّت الحكومة إلى تمويل العجز بطبع مزيد من أوراق النقد. لم ينهَرْ الاقتصاد، فقد كانت السياحة مستقرة نسبيًّا واستمر الدخل الآتى من قناة السويس ومن الصادرات فى تأمين مستوى معقول من الدخل القومى. لكن الأزمة كانت تتزايد، ببطء ولكن بشكل مستمر، مثل سفينة تغرق شيئا فشيئا. ولم يمكِّن ذلك الوضع المالى الحكومة من رفع الأجور كما وعد المجلس الرئاسى ،أو إدخال أى إصلاحات فى أى مجال، بل على العكس، زاد التضخُم باطِّراد وبدأت شكوى الناس تزداد. لم يكن لدى المجلس الرئاسى -ولا العسكر القابعين من خلفه- حل للمطالب الفئوية التى عادت تطل برأسها بقوة، فلجأنا إلى القوى السياسية من أجل التوصل إلى حل لكن أحدا لم يقدم شيئا مفيدا. لم يكن من الممكن الاستجابة لهذه المطالب، ولا قمعها .فظلت الحكومة تسوّف وتماطل، مما أطال فترة الاحتجاجات والإضرابات، وبدأت قطاعات أخرى تنضمّ إليها.

وفى منتصف أبريل نشرت اللجنة المشكّلة لكتابة الدستور الدائم مشروعها .لم أكن شخصيا راضيا عنه، ولا المجلس الرئاسى بمن فيه رئيسه، القاضى العسكرى. وأجرينا مناقشات لمسوّدته مع عدد من رموز القوى السياسية سرا، بمن فيهم صديقى عزالدين ومحمود اللذان اكتسبا نفوذا واسعا فى أوساط الليبراليين واليساريين. ولم نلمس رضاء أى مِمَّن ناقشناهم عن الدستور المقترح. وشرحت هذا لأعضاء المجلس الرئاسى العسكريين، وللواء القطان وبعض مساعديه ممن أعلم أن لهم نفوذا على المجلس. لكنهم لم يهتموا، وقالوا إن هذه القوى ستعترض فى كل الأحوال، ثم سيتقبلونه مع الوقت، ربما بعد تعديل مادة أو اثنتين.

لم أقتنع، وحاولت شرح وجهة نظرى لكنهم لم يستمعوا، فصمتُّ، وقلت لنفسى دعهم يروا بأنفسهم، وربما كانوا مُحِقِّين .لكنهم كانوا مخطئين، فقد رفضت جميع القوى السياسية مشروع الدستور فور إعلانه، واعتبروه مجرد نسخة منقحة من دستور 1971. وبدأت سلسلة من الاحتجاجات والتظاهرات أدهشتنى حيويتها. كنت أظنهم قد نسوا الاحتجاجات الشعبية.

محمود بشير وعزالدين كان عندهما -كالعادة- تفسير لقوة التظاهرات؛ استكان الجميع للحكم العسكرى على أساس تهدئة الوضع وتجميع الصفوف، أو على أمل أن تسفر المرحلة الانتقالية الجديدة عن شىء أفضل. حتى هؤلاء الذين وصفوا ما حدث بأنه انقلاب عسكرى مقنّع اختاروا الانتظار حتى يرتاح الشعب ويلتقط أنفاسه، وحتى لا يُتهموا بنفاد الصبر والعجلة. أما الآن، وقد تمخض الجبل فولد فأرا، فلم يعد للإحجام من مبرر.

الأخطر من تحرُّك القوى السياسية المدنية ومؤيديها كان تحرك السلفيين، فهؤلاء قبِلوا التعاون مع العسكر مقابل تغيير نصوص محددة فى الدستور تجعل تطبيق الحدود الشرعية بنصها واجبا (الجلد وقطع اليد والرجم وضرب العنق وغير ذلك) لا استلهام مبادئ أو روح أو مقاصد الشريعة مثلما ينصّ مشروع الدستور.
العسكر القابعون خلف المجلس الرئاسى، فى لؤمهم المفضوح، لم يكن لديهم أى نية فى إدخال هذه التعديلات على الدستور، لكنهم كانوا يحتاجون إلى دعم السلفيين فى مواجهتهم للإخوان فرضخوا. أما الآن وقد حانت ساعة الحقيقة، فقد أسقطوا هذه التعديلات من المشروع، وجُنّ جنون السلفيين .أغرقوا الشوارع والميادين فى مشاهد أعادت إلى الأذهان أيام ما قبل الانقلاب، ثم بدأ بعض الجماعات السلفية المتناثرة فى حمل السلاح ضد ما أسموه «الحكومة الكافرة»، بدؤوا فى المناطق النائية فى مطروح والوادى الجديد وسيناء، ثم ظهرت لهم جيوب فى العشوائيات والمناطق الفقيرة. ويُعتقد أنهم هم من اختطف دورية الشرطة فى أرض اللواء. وقد ألّب ذلك بقية الشعب على المجلس الرئاسى والعسكر من خلفه، فقد تنازلوا عن جزء من حريتهم وأحلامهم مقابل الاستقرار والأمان من الفزع الذى يثيره فيهم السلفيون، والآن وجدوا أنفسهم وقد خسروا الاثنين معا. وهكذا، زاد التذمر من المجلس الرئاسى والعسكر القابعين وراءه يوما بعد يوم.

لم تكن تلك الأزمات بركانا سيفجر الموقف، بل كانت أقرب إلى الساعة الرملية المقلوبة التى تظهر على شاشة الكمبيوتر فى أثناء تنفيذ أمر معقّد. الوقت ينفد. هذا ما كانت تلك الأزمات تشير إليه. وسواء فهم العسكر هذا أم لم يفهموه، فإن الناس العاديين فهموا أن عودة تلك الأزمات تعنى بداية تبدُّد الراحة المؤقتة التى نعموا بها. ومثل الفئران التى تفرّ من السفينة قبل غرقها، شرع إبراهيم زوج أختى فى الإعداد للسفر. هذه المرة لم تقلل صفية من أهمية ما يفعل، بل قالت إن عمله من القاهرة أصبح صعبا ولا يمكن الاعتماد عليه، كما أنها تشعر بالاختناق، حتى المسجد الذى تعطى فيه دروس القرآن منذ عشر سنوات لم تعُد تستطيع الذهاب إليه بعد استيلاء السلفيين على إدارته، بمعرفة المسؤولين فى وزارة الأوقاف. ومن ثم وافقت إبراهيمَ على الاستقرار فى دبىّ مع أولادهم الثلاثة لعامين أو ثلاثة حتى تتضح الصورة. كان هذا القرار طعنة فى قلبى، لا أقلّ.
فصفية أقرب الناس إلىّ وآخر من بقى لى من العائلة. ومنذ وفاة أبى، ثم وفاة أمى، لم يعد لنا سوى بعضنا.
حتى عمر الذى يعيش فى إيطاليا نفّذ تهديده وقطع الرسائل القليلة والمكالمات النادرة التى كنت أتلقاها منه. لم يكن لى أحد سواها، والآن سترحل أختى المحجّبة حافظة القرآن، بسبب السلفيين!

لم تعلِق أمك على قرار صفية، وإن قالت نظرتها بجلاء ما يدور فى ذهنها .وأصبحت تصرّ على اصطحابك بنفسها إلى المدرسة والذهاب لإحضارك. وكنت أنت أيضا مندهشا من ذلك، لكننا كلينا لم نقُل شيئا.
اللواء القطان، الذى صرت أدعوه سيادة الوزير، كان حذرا فى تفاؤله. وعند الحديث عن المستقبل والسفر والاستقرار كان يغيّر الموضوع ويقول إن لكل وقت أذانا. وقد عزونا ذلك إلى انشغال ذهنه بالواجبات اليومية للوزارة وعدم استعداده لإنفاق وقته أو تركيزه على أمور بعيدة. فمنذ تعيينه وهو يعمل تقريبا ثمانى عشرة ساعة فى اليوم، إذ بدأ عملية إعادة تنظيم شاملة، خصوصا مع إحالة كل الضباط الأقدم منه إلى التقاعد فور تعيينه. احتفظ لنفسه برتبة اللواء، وقلل عدد اللواءات العاملين، فى حين نقل كثيرا من المسؤوليات القيادية إلى رتب أصغر كى يفتح الباب لمشاركة أكبر من الرتب الوسيطة فى إدارة الجيش. وقد أدّى ذلك إلى ضخّ دماء جديدة فى كل مواقعه تقريبا، وإلى استبعاد كثيرين أيضا. وفى حين احتفظ قادة الأفرع الرئيسية بالسلطة الحقيقية فى البلاد، فإنهم حرصوا على ممارستها من خلال المجلس الرئاسى، ولم يظهر أحد منهم على شاشة تليفزيون أو يصدر تصريحا أو حتى -فى حالة بعضهم- عُرف له اسم.

أما المجلس الرئاسى الذى عملت معه فقد أصبح هاجسه الرئيسى هو كيفية التصرف حيال الأزمات التى تمتدّ كل يوم لتضمّ قطاعات جديدة. كنا نشعر أننا نجلس فوق قمة ماكينة ضخمة تتيبّس أجزاؤها يوما بعد يوم وتتوقف عن العمل تدريجيا دون أن يكون لدينا المال أو القدرة على إصلاحها. وكلما حاولنا إعادة تشغيل جزء توقف جزء آخر. أجرينا كثيرا من المشاورات، والاجتماعات، والمقابلات، بهدف جمع أكبر قدر من المقترحات. ومر بين يدَىّ مئات المذكرات التى تحمل أفكارا ومشروعات لمواجهة هذا التذمر المتزايد بين فئات الشعب .معظم هذه الاقتراحات سقيم وجاهل كمن كتبه، وبعضها فيه رمق من فائدة. لكن الكارثة الكبرى كانت علمى التامّ أن المجلس الرئاسى هذا لن يفعل شيئا لتهدئة التذمر، لا هو بأعضائه الخمسة الضعاف التائهين، ولا القادة العسكريون المختبئون وراءه. لا المال عندهم، ولا الرؤية، ولا التأييد، ولا القدرة السياسية.

ومن ثمّ لم يكن أمامهم إن أرادوا تجنب السقوط فى الفوضى سوى اللجوء إلى تشديد القبضة الأمنية. وكانت وزارة الأمن الداخلى قد تم إعادة تنظيمها وتسليحها وتجهيزها بناءً على اتفاق خاصّ تَوصّل إليه اللواء القطان مع الجانب الأمريكى، تم بمقتضاه توجيه جزء من المساعدات العسكرية لتمويل إعادة بناء الشرطة وبقية أجهزة الأمن. وباكتمال هذه العملية، ظل وزير الأمن الداخلى يتحين الفرصة لاستعادة سيطرة وزارته على الأمور. وهو الأمر الذى كان اللواء القطان وبقية زملائه يشجّعونه على القيام به.

الحلقة الحادية والعشرون

ظللنا ليلتها جالسين لا نفعل شيئا. طلب القاضى الرئيس منى تنظيم اجتماع للمجلس الرئاسى بحضور الدكتور الدكرورى و وزيرَى الأمن الداخلى والدفاع .لكنى حين هاتفت اللواء القطان اعتذر لعدم الحضور باعتبار القضية تخصّ الأمن الداخلى

كنا فى الاجتماع اليومى المسائى حين جاءتنا أنباء هجوم الألتراس. نظرت فى الورقة التى جاءتنى وفركت عينَىّ غير مصدِّق. ولمّا رأيت أن محتويات الورقة لم تتغير بعد الفرك أعطيتها للرئيس. نظر القاضى المبجّل فيها مطوّلا ثم أعطاها بملل ظاهر لزميليه العسكريّين، العميد هشام والعميد مدحت. تشاركا النظر فى الورقة وبدأ صوتهما يرتفع بالسباب وقاما واقفَين وهما فى منتصف القراءة. العضوان المدنيان، الدكتور سيد والدكتور رفعت، ظلاّ يسألان عن محتوى الورقة، لكن العميد مدحت لم يفلتها من يده وقام خارجا يتصل بالتليفون وتبعه العميد هشام وهو يسبّ الدين. أمسك القاضى رأسه بكلتا يديه وأخذ ينظر إلى المنضدة فى صمت. الدكتور سيد يسأل القاضى فى رتابة عما حدث، فلا القاضى يرد ولا الدكتور سيد يكفّ عن السؤال، فى حين قام الدكتور سعيد يسعى خلف العميد مدحت وهشام. أخيرا تَنبّه الدكتور سيد أنى مصدر الورقة فسألنى عما فيها. قلت له: وزير الأمن الداخلى يفيد بقيام عناصر من تنظيم «كتائب الألتراس» المحظور بقتل اثنى عشر ضابطا وثمانية من المدنيين هذا المساء خنقا بكوفيات عليها علامة النادى الأهلى، ونشر صور القتلى على الإنترنت. سألنى عن هُويّة القتلى فأكدت له أنهم هم الذين سبق تبرئتهم فى قضية أحداث مباراة الأهلى والمصرى...

هكذا بدأت سلسلة الكوارث.

ظللنا ليلتها جالسين لا نفعل شيئا. طلب القاضى الرئيس منى تنظيم اجتماع للمجلس الرئاسى بحضور الدكتور الدكرورى ووزيرَى الأمن الداخلى والدفاع .لكنى حين هاتفت اللواء القطان اعتذر لعدم الحضور باعتبار القضية تخصّ الأمن الداخلى. أما وزير الأمن الداخلى فلم أتمكن من العثور عليه، وتَبيّن لى فى ما بعد أنه كان مجتمعا مع اللواء القطان فى بيته. حتى العضوان العسكريان، مدحت وهشام، لم يعودا إلى مبنى الرئاسة، فلم أرَ ضرورة للاتصال بالدكرورى. وظللنا نحن الأربعة: الأعضاء الرئاسيون الثلاثة وأنا، ننتظر حدوث شيء، حتى قاربت الساعة منتصف الليل، فقرر القاضى تأجيل الاجتماع إلى الغد. وكان هذا قراره الوحيد تلك الليلة، والأخير.

لم نجتمع فى الصباح، ففى الرابعة صباحا أيقظنى اللواء القطان بالتليفون ليقول لى إن إسرائيل شنّت هجوما مباغتا على المنشآت النووية الإيرانية، ويطلب منى الحضور فورا إلى مكتبه. أُسقِطَ فى يدي؛ تَردّد الحديث عن مثل هذا الهجوم لسنوات حتى اعتدناه واستبعدنا وقوعه، لكنه وقع. وكنت أعلم أن هذه كارثة، ليس فقط على إيران والمنطقة، بل على استقرار مصر نفسها. وَمَضَ ذلك كله فى ذهنى فى أقل من ثانية، وسألت القطان إن كان يريدنى أن أبلغ المجلس الرئاسى فقال إن هشام ومدحت عنده، وإنه سيبلغ الباقين فى ما بعد لتفادى البلبلة. أقص ّعليك هذه التفاصيل لتعرف كيف كانت تدار الأمور فى أثناء هذه الفترة. كنت قد اعتدت هذه الطريقة؛ سألته وأنا أتوقع إجابته .حتى الثلاثة الآخَرون، القاضى وشريكاه، كانوا قد اعتادوها.

ذهبت إلى الوزارة فوجدت القطان مع كبار مساعديه فى »غرفة العمليات«، وهى قاعة اجتماعات كبرى بها خرائط كبيرة وبعض الوسائل الإلكترونية البسيطة. جلست أستمع إلى الشرح، وأدركت لحظتها أن الكارثة قادمة لا محالة .نظرت إلى الواء القطان فوجدت وجهه شاحبا وملامحه متجمدة، فعرفت أنى لست وحدى فى تقديرى المتشائم. استمر القصف الإسرائيلى لإيران لمدة أربعة أيام، واتهم السلفيون والإخوان حكومة الدكرورى والمجلس الرئاسى بالتواطؤ مع إسرائيل. وأقول لك كشاهد إن هذا غير حقيقى، بل إن اللواء القطان ظل يسبّ فى الأمريكان والإسرائيليين ويصفهما بالخسة والخداع، حيث أعطته كلتا الدولتين تأكيدات بعدم نيتهما شنّ مثل هذا الهجوم.

وبعد أربعة أيام من تلقِى الضربات بدأت إيران تردّ من خلال حزب الله فى لبنان الذى أمطر حيفا وتل أبيب بوابل من الصواريخ، فقامت إسرائيل بقصف الأراضى اللبنانية. وحين انضمّت حركة حماس إلى المعركة من غزة ردّت إسرائيل بقصف وحشى للقطاع حتى الحدود المصرية، وأشاع السلفيون والإخوان أنها قصفت خط الحدود بالكامل، بل وتجاوزته فى مطارداتها لعناصر حماس وهى تحاول الاختباء فى الأراضى المصرية، واتهموا مرة أخرى المجلس الرئاسى وحكومة الدكرورى بالتواطؤ، لكنهم هذه المرة كانوا على حق. لم يكن الأمر تواطؤا بالضبط، بل غيابا للخيارات. لم يكن هناك شىء يمكن فعله: لا نستطيع مطاردة عناصر حماس أو منعها من الرد على قصف إسرائيل للقطاع وإلا اتُهمنا بالقتال إلى جانب إسرائيل. كما لا نستطيع منع الإسرائيليين من القيام بذلك بأنفسهم وإلا اعتبرونا طرفا فى القتال معهم. وكلا الأمرين يستحيل علينا التورط فيه، فتركنا كليهما للآخَر.

ثم بدأت الصواريخ الإيرانية نفسها فى الهطول على إسرائيل، وعند هذه النقطة تدخلت الولايات المتحدة مباشرة فى القتال .وأستطيع أن أقول لك إنه حين وقع ذلك، فى اليوم السابع للحرب، أدركنا -اللواء القطان وأنا- أن نظام الحكم فى مصر قد دخل أيامه الأخيرة. خرجنا من الاجتماع وأخذنى على جنب وطلب منى العودة إلى المنزل وإعداد نفسى وندا وأنت للسفر. حدقت إليه مذهولا فأومأ برأسه فى صمت. قلت له إنى باقٍ، وتناقشنا دقائق معدودة لكن كان عليه الذّهاب فلم نكمل الحديث، وظل يشير إلى بسبّابته وهو ماضٍ.

عبرت السفن الأمريكية من قناة السويس على مرأى ومسمع الجميع، واستخدم الأمريكان المجال الجوّى المصرىّ. أنكرت المتحدثة باسم الحكومة، قائلة إن ذلك تواطؤ فى قتال ضد دول عربية ومسلمة لا يمكن لحكومة مصرية أن تقوم به .لكن مسؤولين عسكريين أمريكيين أكدوا ذلك فى شهاداتهم أمام الكونجرس بعدها بيوم واحد، وأوضحوا أن هذه ترتيبات عسكرية متفَق عليها بين الجانبين، وتم تفعيلها مرارا. وطبعا أشعلت هذه التصريحات الوضع الداخلى أكثر. اتصل محمود بى فى ذلك المساء نفسه من عند حسن وعفاف وميرفت فى أرض اللواء، وحذرنى من أن البلد كلها تغلى، ولا أحد يعلم من الذى يقود هذا الغضب العارم، لا هو ولا أى من التنظيمات الثورية التى يعرفها. ما قاله يتفق مع تقديرات أجهزة الأمن. لكن لا أحد لديه مخرج أو حل. أخبرته بذلك فارتاع أكثر، وصمت لحظة ثم نصحنى -إن كان الحال كذلك- بالاستقالة علنا، فورا. ولما قلت له إنى لا أستطيع التخلى عن عملى فى أشد الأزمات أهمية اتهمنى بالغباء والجبن، وأغلق الخط. اتصلت بعزالدين فوجدته هادئا، وسألته عن رأيه فقال إن وقت الآراء فات ولم يعد هناك ما يمكن عمله، فهذا هو الانفجار الذى طالما حذر منه هو والقوى المدنية، وهو انفجار لا أحد يعرف من الذى يسيطر عليه، إن كان أحد يسيطر عليه. ثم نصحنى بالرحيل بأسرع وقت من الرئاسة والبقاء فى البيت.

لكنى لم أرحل. كيف يمكن لى أن أرحل والسفينة توشك على الغرق هكذا؟ الدكتور سيد، عضو المجلس الرئاسى من حزب الوفد، هو الذى رحل .وتذكرت فئران السفينة حين علمت. حاول العسكريون «إقناعه» بالعدول عن الاستقالة لكنه رفض فى صلابة لم أرَ لها أثرا لديه قبل ذلك اليوم. ثم تبعه العضو المدنى الآخر بالمجلس الرئاسى، ممثّل حزب التجمع المفصول من حزب التجمع. وشيئا فشيئا أعلنت القوى السياسية تبرُؤَها من المجلس الرئاسى وترتيبة الحكم القائم الذى عاد عسكريا عاريا كما ولده من أقاموه. ومع استمرار العمليات العسكرية فى الخليج ولبنان وعلى الحدود، تراجعت قوة الرد الإيرانى وبدا واضحا أنها ستنتكسر فى النهاية، مما أشعل غضب المتظاهرين أكثر. وتزايد احتشاد المظاهرات المنددة بالعسكر وحكمهم فى ميادين مصر، وأصبح النداء واحدا: سقوط حكم العسكر الذين فشلوا فى السياسة والعسكرية على حد سواء، ومحاكمة قادتهم. لم نكُن نعلم من الذى يقود هؤلاء الناس، ولا ماذا يمكن أن نعطيه لهم كى يهدؤوا. وقبل أن نجد الإجابة تحولت المظاهرات إلى اضطرابات .وبدأ ذلك -كما تَنبَّأ محمود بشير- فى أرض اللواء التى لم تتعافَ من حربها القريبة مع الشرطة. ثم تبعتها بقية الأحياء الفقيرة، ثم العشوائيات المحيطة بالقاهرة وبقية المدن المصرية. لم يكن ما يحدث ثورة، بل انفجارا كاملا.

هذه المرة انهارت الشرطة فى خلال يومين، رغم التجهيزات والمعدات والأسلحة الأمريكية. صبّ الغاضبون حقدهم المتراكم على عناصر الشرطة فقتلوا مئات منهم ومثّلوا بجثثهم فى مشاهد مروِّعة. وقُطعت الكهرباء بعد أن أسقط الغاضبون أبراج الضغط العالى فى أنحاء متفرقة من البلاد. وفى محاولة يائسة لاحتواء الموقف، أعلن الدكرورى استقالة حكومته وتكليف وزيرة التعاون الدولى بتسيير أعمالها إلى حين تشكيل حكومة جديدة .لكن ذلك لم يكن له أى أثر على الغضب الشعبى. وفى اليوم التالى توقفت شبكة المياه فى معظم أحياء القاهرة وبعض المدن الأخرى، وتوقفت شبكات المواصلات بين المدن بالكامل. فى مساء هذا اليوم المشؤوم اتصل بى اللواء القطّان من المطار ومعه ندا وأنت، وطلب منى الحضور فورا للحاق بالطائرة العسكرية التى ستُقِلّهم إلى أثينا قبل إغلاق المطار. صُدمتُ. أعتقد أن أكثر ما صدمنى أنه اصطحب زوجتى وابنى دون أن يسألنى، بل رغم معارضتى للفكرة من قبل. والذى صدمنى أكثر هو ذهاب ندا بكَ دون أن تحدثنى فى الأمر. رفضتُ الذهاب، وقلت له إنى سأبقى، فسبّنى ووصفنى بالعَتَه وقال إنه ندم كل يوم فى السنوات الماضية على تزويجى بابنته، لكن ندمه اليوم أكبر من ندمه فى كل الأيام السابقة، وأغلق الخط فى وجهى. حاولت الاتصال بأمك فلم أستطع. كان تليفونها مغلقا أو قُطعت الشبكة، لا أدرى. اتصلت بصفية ثم بزوجها إبراهيم فوجدت تليفوناتهم جميعا مغلقة. جلست فى مكتبى بالقصر الرئاسى فى مصر الجديدة وأنا لا أصدق ما يحدث. هناك فارق كبير بين تحليل الخبراء والسياسيين للوضع وتنبؤاتهم، وأن تحدث تلك الأمور فعلا. ولِمَ تتحقق كل النبوءات معا؟ فات الوقت.

كنت أجلس فى مكتبى لا أعرف ماذا أفعل حين سمعت أصواتا هادرة وتكسيرا، وقبل أن أفهم ما يجرى بالضبط كانت الجموع التى اقتحمت أسوار القصر قد دخلته وبدأت فى تحطيم ما تجده فى طريقها والفتك بمن تجده وإشعال النار فى ما تَبقّى. دخل علىّ فى المكتب ثلاثة ممسكون بهراوات وأشياء أخرى لا أعرف كُنهَها. انتزعنى أحدهم من وراء مكتبى وألقانى على الأرض وبدؤوا فى ركلى هم الثلاثة. ظلوا يركلوننى حتى فقدت الوعى، أو هكذا أظن .أتَذكّر طعم السجادة فى فمى وسلة المهملات تحت المكتب تملأ عينى وأقداما تمر من وقت إلى آخر. ثم وجها نظر فى وجهى مليا وقال شيئا وغاب. ثم رائحة حريق، ودخانا كثيفا. ثم أصواتا أخرى، وبدأت أسعل من كثافة الدخان. ثم بدأ شخص ما فى جرّى على الأرض، ثم فقدت الوعى تماما.

الحلقة الثانية والعشرون

كان المستشفى يعانى من تدفق المصابين ويعمل بنصف طاقمه وبأدوية ومواد طبية متناقصة وَسْط فوضى عارمة وفى ظل انقطاع للمياه والكهرباء والاتصالات

كم الساعة الآن؟ تقارب العاشرة صباحا. مضى ربع الوقت .لا بأس. ما زال أمامى ثمانى عشرة ساعة؛ أعتقد أنى سأتمكن من سرد القصة كلها لك. مثلما ترى يا يحيى، أحيانا أغرق فى التفاصيل وأحيانا أقفز فوق سنوات بكاملها .سامحني، فأنا أقصّ عليك الأشياء والقصص الأقرب إلى قلبى، تلك التى مسّتنى أكثر، وتلك التى أظنها ستمسُّك وتؤثر عليك أكثر. وسامحنى إن داهمنى الوقت واضطُررت إلى الاختصار فى النهاية. سآخذ استراحة قصيرة، ربع ساعة أو شيئا كهذا. سأغمض عينَىّ قليلا وأحاول أن أتوقف عن التفكير فى الحكم العسكرى، وفى الثورة، وفى الشحنة النووية القابعة فى حاويات هذه السفينة، وفى الطائرات التى لا بد أنهم يجهزونها الآن لتهبط علينا فى الفجر. سأغمض عينَىّ قليلا كى أرتاح، وأفصل روحى عن كل هذا، كى أتمكّن من مواصلة هذا الخطاب.....

أوشكت على الموت فى ليلة أول أغسطس من ذلك العام، ولست متأكدا مَن الذى أنقذنى. آخر ما أذكره كان الألم الحادّ فى ضلوعى وأحشائى، عجزى عن الحركة، وشعورى بأن نهايتى حانت، والأقدام التى تأتى وتروح وسلة المهملات التى تملأ عينى. كان هناك ورقة ممزقة وملقاة داخل السلة وبعض كلماتها تبدو من فتحاتها: «وتَفضّلوا بقبول وافر الاحترام». هذه هى الكلمات، وهى آخر ما رأيته قبل أن أغيب عن الوعى تماما. أخبرنى محمود فى ما بعد بأنه حين سمع بأنباء اقتحام القصر الرئاسى طلب إلى مجموعة من «الشباب «دخول المكاتب والتأكد من سلامتى إن كنت هناك. لكنهم لم يجدونى، وأبلغوه بأن المحتجين أفرغوا المكاتب من العاملين ثم أشعلوا فيها النيران. ظل يومين يبحث عنى دون نتيجة، ثم شاهدنى أحد أتباعه الشباب فى مستشفى عين شمس مع عشرات ممن أصيبوا فى الأحداث، وأبلغه. تَوجّه على الفور إلى المستشفى ووجدنى فى غيبوبة ودون رعاية طبية حقيقية. فقد كان المستشفى يعانى من تدفق المصابين ويعمل بنصف طاقمه وبأدوية ومواد طبية متناقصة وَسْط فوضى عارمة وفى ظل انقطاع للمياه والكهرباء والاتصالات. لم يكن أحد يعرف ما بى بالضبط، فأخرجنى من هناك بمعونة أصدقائه ونقلنى إلى شقة أحدهم فى ميدان الجيزة بعيدا عن الأعين حتى تهدأ الأمور. لم تكن إصاباتى الظاهرة بالغة: بعض الحروق وضلوع مكسورة وغيبوبة أفيق منها ثم أعود إليها. أتى بطبيبة شابة فحصتنى وأعطته تعليمات العناية بى، ووجد صديقه الشاب، عبده، ما يحتاج إليه فى صيدلية محطمة الأبواب بجوار مستشفى أم المصريين. كان البقاء فى هذه الشقة أفضل وأكثر أمانا من المستشفى من وجهة نظره، وكان محقا فى ذلك، فعلى الأقل لم يأتِ أحد للبحث عنى أو القبض علىّ أو حتى لقتلى، مثلما حدث لآخرين ممن كانت وجوههم معروفة للمحتجين الغاضبين.

مرت هذه الأيام ككابوس متصل. هل تعرف شعورك حين تُصيبُك الحُمّى، فتظلّ تنام وتستيقظ ولا تعرف إن كنتَ نائما فعلا أم يقظا، وأحيانا تشعر كأن أجزاء من جسمك تغادرك، أو تريد المغادرة، ويأتى أناس داخل غرفتك وداخلك وحولك ولا تعرف مَن هؤلاء ولا ماذا يحدث لك. هكذا ظللت أياما طويلة، اختلط الليل والنهار فيهما، ولم أكن أعرف هل الحرارة التى أعوم فيها من داخلى أم حر أغسطس الخانق فى تلك الشقة. والأصوات: هدير لا ينقطع وأبواق سيارات وقرقعات أخرى، تأتى وتذهب، كأنها تحدث داخل رأسى، أكاد أشعر بدبيبها يجرح مخى ويعتصر جمجمتى. ثم سكون، ثم تعود مرة أخرى .والعرق .أحيانا أشعر بقطرات العرق تسير أسفل عنقى، على كتفَىّ ثم أعلى ظهرى. تمضى ببطء كأنها شفرة صغيرة تشق جلدى. وأحيانا أشعر كأنى أغوص فى فراش مشبع بالماء. وعبده، صديق محمود ساكن الشقة. كان وجهه أول ما أتذكر رؤيته بعد »وتَفضّلوا بقبول وافر الاحترام». وجه أسمر نحيل، حليق، لامع السمرة، وشعره شديد السواد وخشن، وعيناه متسائلتان فى دهشة طبيعية. ينظر إلىّ بعينيه العميقتين وتساؤله هذا لفترات طويلة، وأنا حبيس الحُمّى أو الغيبوبة أو كليهما، أريد أن أصرخ به أن يكفّ عن التحديق إلىّ، أحاول إغماض عينَىّ ولا أستطيع.

ثم يأتى الهدير من ناحية النافذة. أحيانا تُخرجه الضوضاء من تحديقه فيذهب إلى النافذة ويغلقها، لكن الضوضاء تستمر. هذا الهدير لا يأتى من النافذة، بل من الجدار ذاته، بل من رأسى نفسه. وأحيانا لا يتحرك رغم الضوضاء والهدير. وأرغب بشدة فى الغرق فى سكون وظلام ولو كان أبديا، أى شىء أفضل من هذه الدوامة، ومن هذا العرق الذى يغرقنى. وفى النهاية أستسلم لما يحدث لى، وعندها أسقط فى هوة سحيقة من السكون والظلام .حتى يعيدنى شىء ما إلى ذلك الهدير، والعرق، وإلى وجه عبده.

ورأيت وجه محمود كثيرا، لا أعلم إن كان حلما أم علما، لكن كل المرات كانت متشابهة. أرى هيئته فى آخر الغرفة. يضع أشياء على منضدة فى الزاوية البعيدة ثم يذهب، ويعود. ثم يقرّب وجهه ناحية وجهى ويمعن النظر فىّ وهو يهزّ رأسه مبتسما. يمد يده ليربت على رأسى وأشعر بها ثقيلة كأنها ترجّ عالمى كله. وأريده أن يرفع يده عنى لكنه يبقيها ويمسح على شعرى فأدوخ وأختنق أكثر، وهو يبتسم، ثم يمضى. ورأيت عزالدين مرة، وكان وجهه ممتقعا وملامحه متجمدة وجبينه مقطبا. أطال النظر نحو وجهى ثم مضى.

وكانت عفاف هناك أيضا، كل يوم تقريبا. وأحيانا ميرفت أختها. عفاف كانت تطعمنى. أذكر أنها كانت ترفع رأسى على وسادة إضافية وتجلس بجانبى وتطعمنى حساء، أو تحاول. أحيانا كنت أراها مبتسمة وأحيانا أخرى مقطّبة، وكثيرا مرتبكة تمسح أشياء أو تجمع أشياء من فوق الفراش. وأحيانا بلا طعام، ممسكة بقطعة باردة من القماش على جبهتى، أو رقبتى، أو صدرى .وأحيانا قطعة من القماش الجافّ تمسح العرق المتصبب. وأحيانا كنت أراها مستلقية بجوارى على الفراش، ملتصقة بى، وحين أمعن النظر فى وجهها لا أجدها عفاف بل ميرفت، وأشعر بلحمها ملتصقا بلحمى فى عَرَق غامر، وخانق، وأنفاسها تخرج فى وجهى وتمنع عنى الهواء، ثم أراها رابضة فوقى تضغط على بكل أجزاء جسمها كأنها ستُخرج روحى من حلقومى، وأغمض عينَىّ وأفتحهما فأجدنى وحدى فى الغرفة، أو أجد عبده يحدِّق إلىّ، أو محمود يبتسم، أو عفاف تحاول إطعامى.

وفى وسط كل هذا يستمر الهدير فى نحر خلايا رأسى.

أسوأ ما فى الكابوس أنك لا تستطيع له دفعا.

فى الأسبوع الثالث من أغسطس، بدأت أوقات يقظتى تزيد وتستقر، وأوقات الكابوس المستمر هذا تتراجع حتى اقتصرت على الليل. فهمت أين أنا، وبدأت أغادر الفراش قليلا. تبينت مصدر الهدير المستمر، وهو كوبرى الجيزة الملاصق سُورُه المعدنى لجدار الشرفة، والمروحة المعدنية المثبتة فى سقف الغرفة، وصوت محرك الثلاجة من المطبخ المجاور. محمود كان يأتى مرة أو اثنتين أسبوعيا للاطمئنان علىّ. وتَبيّن أن عبده شخص حقيقى، هو صديق لمحمود من »الشباب««، ليس ثوريا بالضبط لكنه يساندهم، وكان معهم يوم وجدونى فى المستشفى فتَطوّع لإيوائى فى شقته الصغيرة هذه. وظلت عفاف تأتى يوميا للتأكد من أن كل شىء على ما يرام. تمر عادة فى الرابعة أو الخامسة بعد الظهر. سألتها إن كانت تأتى من عملها بالمحافظة فضحكت وهى تهز رأسها وصمتت لحظة ثم قالت «أى محافظة؟»«، وفهمت منها بعد ذلك أن دواوين الحكومة كلها متوقفة عن العمل منذ بدأت الاضطرابات فى أول أغسطس. ميرفت أيضا كانت تمر ولكن مرة أو اثنتين، وبصحبة عفاف. لم تقُل لى شيئا، وظلت نظراتها كما كانت دوما، زائغة وغير مستقرة على نقطة معينة. حاولت تبيُّن ما حدث بيننا، إن كان قد حدث شىء، لكنها لم تنظر إلىّ أبدا.

بنهاية الأسبوع الأخير من أغسطس بدأت أسترد عافيتى، وصرت أتناول طعاما عاديا ودون مساعدة، وبدأت أتنقل فى الشقة دون نوبات دوار أو أى من الأعراض التى كانت تبقينى فى الفراش معظم الوقت خلال الأسابيع الفائتة. لكنى ظللت راغبا عن الحديث، ولا أجيب من يكلّمنى إلا بإيماءة أو نظرة. لم يكن لى أى رغبة فى الحديث. تراجع طرق الهدير داخل رأسى، ولم أكن أريد سوى الصمت.

أخبرنى محمود باختصار بما وقع خلال الشهر المنصرم :الاضطرابات التى اندلعت فى كل المدن تقريبا كانت بلا سيطرة، بلا قيادة، وبلا مطالب محددة .ولم يقف فى وجهها شيء. الشرطة التى حاولت فى البداية تم تمزيقها إربا فآثر قادتها إنقاذ ما تبقى لها من قوة وانزوت فى معسكراتها البعيدة، وحتى تلك لم تسلم من الهجمات تماما. الجيش قرر رئيس أركانه فى لحظة من الحكمة عدم التدخل ونأى بنفسه عن الأحداث ومن ثمَّ تفادى الدخول فى مواجهة مع الجموع الغاضبة، ثم أخلى كل معسكراته الموجودة داخل المدن لتفادى أى احتكاكات.

قال محمود أن المصالح والخدمات كلها تقريبا معطلة، وأن اضطرابات أخرى اندلعت: سرقات وأعمال نهب وقتل. بدأت هذه الأعمال ضد البنوك والمحلات التجارية الكبرى وبعض المؤسسات العامة ثم امتدت إلى أملاك الأفراد، خصوصا المناطق الغنية حيث اقتحم كثير من أهالى العشوائيات والأحياء الفقيرة، بل وكثير من الشباب الذى لا يجد سكنا، الفيلات فى الأحياء الجديدة حول القاهرة، ثم الشقق الخالية داخل المدن. لم يكن هناك شرطة بالمعنى المفهوم، بل خليط من اللجان الشعبية فى بعض الأحياء، والمجالس العرفية فى الريف وبعض المناطق النائية، وتحولت «كتائب شهداء الألتراس «إلى «حرس ثورى» فى المدن الكبيرة، وظلت هناك بقايا للشرطة فى مناطق محدودة .ثم بدأ بعض الخدمات فى العودة ولكن بشكل متفرق ومتقطع. لم تكن هناك حكومة خلال هذه الفترة، فبعد أن قتل المحتجون الدكتور الدكرورى فى مكتبه ومثّلوا بجثته فى شارع قصر العينى، فرّ بقية أعضاء الحكومة والمجلس الرئاسى خارج البلاد، ولم تتمكن القوى السياسية المتناحرة من تشكيل حكومة حيث لم يكن لأحد سيطرة على الشارع المتفجر غضبا. قال محمود إن الكل ينتظر بلوغ موجة الغضب مداها وبداية انحسارها كى يبدؤوا فى تشكيل حكومة يكون لديها فرصة للحكم .كنت أستمع إلى هذا وأنا غارق فى الصمت، وأتساءل إن لم يكن كابوس الحمى والغيبوبة أرحم من هذا الكابوس. أنهى محمود حديثه، وأمام صمتى المتواصل تَأهّب للرحيل. ثم مال علىّ وطلب منى بصوت خافت البقاء بالشقة لدى عبده لفترة من الوقت، لأن اسمى مُدرَج مع رموز النظام القديم المطلوب القبض عليهم من قِبَل «كتائب حراس الثورة.«

الحلقة الثالثة والعشرون

ذهب كل ما أعرفه ومن أعرفه وعالمى كله. ووجدت نفسى جالسا فى غرفة على كوبرى الجيزة.. ليست لى.. مع شخص غريب الأطوار.. فى بلد اجتاحته الفوضى

أنا عدو الثورة.

أنا من قضى أيام التحرير الأولى يحاول دفع مطالب الثورة داخل نظام غاشم وعنيف، ركله الثوار بأحذيتهم حتى كادوا يقتلونه، ولم ينقذه سوى الصدفة.

أنا.

تركوا المستبدين، والقتلة، والمفسدين واللصوص، وركلونى أنا بأحذيتهم حتى كادت روحى تخرج من أحشائى. والآن، يريد الألتراس، الذين قمعهم أمن الدولة والعسكر والشرطة ورجال الأعمال ومجالس إدارات النوادى، يريدون القبض علىّ أنا، يريدون المترجم سكرتير المعلومات وكاتب الجلسات!

طلب منى محمود أن لا أهتمّ ولا أغتمّ، فسيتمكن هو وأصدقاؤه من إقناع »حراس الثورة« أن لا علاقة لى بأى شيء جرى. قالها وضحك وهو يردف أنى «يا حرام» لم أفعل شيئا فى حياتى، لا كنت ضد أحد ولا مع أحد، وهذا جزاء المحايدين. ومضى وهو يضحك. لكنى لم أجد ذلك مضحكا، البتة. ثم علمت من عزالدين حين أتى لزيارتى أنه يسعى مع بعض رموز القوى المدنية لمراجعة قوائم المطلوبين لدى «حراس الثورة» وهو متأكد من نجاحهم فى حذف اسمى منها .أجمع الاثنان، وأيّدهما عبده، أن المسألة مسألة وقت ليس إلا، حيث إن الفوضى تَحُول دون إتمام أى شيء بسرعة، فلا أحد يعرف من يسيطر على ماذا.

لم يعد هذا الحديث يعنينى، فقد كنت كمن سقط سقف بيته عليه وانهار كل ما عرفه فى حياته، ذاهلا ومنقبضا وصامتا ومستسلما. كل ما أردت معرفته هو ما حدث لك ولأمك، ولحماى اللعين الذى اختطفكما، لكنى لم أصل إلى شيء .الإشاعات التى نقلها إلىّ عبده، المصدر الدائم للترهات، تقول إن اللواء القطان ذهب إلى أمريكا مع عائلته، وإن بقية أعضاء الحكومة الفارّين موزعون بين أمريكا ودول أوروبية لا ترتبط باتفاقات تسليم للمجرمين مع مصر .عزالدين جاء لرؤيتى وهمس لى بأنكم لستم فى أمريكا. نظرت إليه مستفهما فقام وفتح باب الشرفة فأغرق الغرفة فى هدير الكوبرى وجلس بجوارى وهمس فى أذنى بأن إحدى طالباته بالدراسات العليا، سارة رمسدل، فى الأصل ضابطة بالبحرية الأمريكية وخدمت فى عدة مواقع بالشرق الأوسط قبل أن تأتى إلى مصر فى إجازة دراسية، ولديها أصدقاء فى مراكز قيادية بالبحرية ووزارة الدفاع فى الولايات المتحدة. وقد أكدت له بشكل قاطع أن اللواء القطان وعائلته ليسوا هناك. لا تعرف أين هم، كما قالت، لكنها ستتيقن من الأمر وتبلغه.

وصفية وإبراهيم وأولادهما؟ كان إبراهيم يتأهب للسفر إلى دبى قبل بدء الأحداث، لكن الحرب على إيران قضت على هذه الفكرة. تَحدّث معى وقتها عن مشروع للعمل مع عمر فى إيطاليا فلم أشجّعه. كل منهما شخصية صعبة، وخشيت إن عملا معا أن يصطدما فيؤثر ذلك على العلاقة العائلية بينهما .تَبيّن أن هذا ما حدث، لكنى لم أتمكن من الاتصال بهما أو معرفة مكانهما إلا بعدها بأسابيع. مع ذلك كان عندى شعور أنكم بخير، فلو حدث لأى منكم مكروه -لا قدّر الله- لذاع الأمر. لكنى كنت أريد الاتصال بكم، والحديث مع أمك. أردت أن أفهم كيف طاوعها قلبها أن تفعل هذا بى وبك. أردت أن أسمع منها قبل أن أستسلم لحكم قلبى عليها. ولم أفلح.

كانت أضلعى لا تزال تؤلمنى، وظل عندى مشكلات فى معدتى .ومع بدء جسدى فى التعافى، ببطء، فإنى كنت أهوِى تدريجيا فى هوة من الاكتئاب العميق. ذهب كل ما أعرفه ومن أعرفه وعالمى كله. ووجدت نفسى جالسا فى غرفة على كوبرى الجيزة، ليست لى، مع شخص غريب الأطوار، فى بلد اجتاحته الفوضى وعمّته السرقة والنهب، ومطلوب القبض علىّ، أنا الذى لم أفعل شيئا، دون كل الذين فعلوا أشياء يستحقون الشنق بسببها.

أقضى يومى جالسا فى تلك الشقة المريعة؛ يخرج عبده صباحا ويعود بعدها بقليل ومعه الجرائد وشيء للإفطار ثم يخرج ولا يعود قبل الليل .أظل جالسا بلا حراك معظم الصباح. أحيانا أغفو ثم أستيقظ لأغفو ثانية . أحيانا أدفع نفسى لتصفُّح الجرائد لكنى لا أتذكر منها شيئا. لا أذكر أى أخبار قرأتها فى هذه الأيام. أحيانا يترك عبده التليفزيون مفتوحا، وهو ما يدفعنى إلى القيام من الفراش لإطفائه. ذات يوم أحضر لى كتابا وتركه بجوارى؛ نظرت إلى الغلاف فوجدته نسخة مترجمة من «مزرعة الحيوانات» لجورج أورويل، واستغربت . فعبده قال لى إنه يعمل محاسبا لعدد من الشركات والمحال الصغيرة، وغيرَ كتب المحاسبة لا يقرأ أى شيء. لِمَ «مزرعة الحيوانات» بالذات؟!

فى النصف الأخير من الشهر تسللت خارجا مرة، عند المغرب .ذهبت فى جولة بميدان الجيزة والمنطقة المحيطة بها لرؤية الشارع ومعرفة ما تغير. لكنى لم أرَ شيئا مختلفا فى ميدان الجيزة، بل ظل كما رأيته آخر مرة، بفوضاه وميكروباصاته وباعته الجائلين وساندوتشاته ومسافريه الآتين والضالِّين والمضلِّين. بدت لى سحنة الناس مختلفة قليلا، كأن فى وجوههم صرامة لا أحسبنى رأيتها فيهم من قبل، وسعى حثيث حلّ محلّ الهوينى المعتادة، وبعض الحدة فى التعامل. لكنى لست متأكدا، ربما كانت هذه مشاعرى أنا وأسقطتها على غيرى. سرت فى الشوارع أنظر، فلم أجد أثرا لشرطة، أو لجان شعبية أو أى سلطة أخرى، سرت ساعة أو بعض ساعة ثم عدت قبل أن يوقفنى أحد ويتعرف علىّ.

بدأت الكهرباء تعود لساعات أطول من تلك التى تنقطع فيها، وكذلك المياه .وحين قال لى عبده بعد عدة أسابيع إن الإنترنت عادت للعمل، طلبت منه أن يحضر لى كمبيوترا. فى هذه الفترة توقف محمود عن المجىء لانشغاله، وكذلك عزالدين، لكنهما كانا يرسلان التحية مع عبده. عفاف أيضا قللت من مجيئها بعد تحسُّن حالتى. استغرق الأمر يومين حتى ظهر عبده بالكمبيوتر. وجلست طول الليل أبحث عن خيط يقود إليك أو إلى أمك أو جدك :عنوان بريد إلكترونى، موقع اجتماعى، برنامج للمحادثات، أى شيء. أرسلت إليكم رسائل عديدة على العناوين القديمة، كانت ترتدّ كلها. بعد ثلاثة أيام من البحث وجدت صفية، وتحادثنا بعض الوقت وكانت شديدة القلق، فلم تسمع خبرا منى أو عنى منذ الاضطرابات. آخر ما سمعَته هو خبر إحراق القصر الرئاسى والمكاتب التابعة له. الشيء الوحيد الذى طمأنها هو ورود اسمى فى قائمة المطلوبين من قِبل حرس الثورة، وهو ما فسرته على أنه شهادة بأنى قيد الحياة. سألتها عن ندا وعنك فقالت إن ندا أرسلت إليها منذ ستة أسابيع رسالة قالت فيها إنهم بخير وسيغادرون أثينا إلى مكان لا تستطيع الإفصاح عنه، إلا أنها ستعاود الاتصال، وأوصتها خيرا بى. تَحدّثنا عما جرى، وعن صدمتى من سفركما هكذا .كنت أريد البكاء ولكنى لم أستطِع. ظللت أصمت ولا أكمل الجمل .وصفيّة تعرفنى، وتعرف أن صمتى وتقطُّعى هذا هو طريقتى فى البكاء. حاولت تهدئتى وحثّى على رؤية الأمر بعينَى أمك المذعورة، لكنى لا أذكر أنها نجحت فى ذلك، البتة.

حين يعود عبده فى المساء يجدنى عادةً مستلقيا فى الفراش. يدخل الغرفة ويجلس فى المقعد الوحيد ويقصّ علىّ آخر الشائعات الرائجة فى الشارع، وهى دائما عن حملة أمنية كبيرة سيشنها الجيش على المدن، أو عودة وشيكة لرموز النظام القديم، أو احتلال إسرائيل لشرق سيناء، وهكذا .وكلها لا أساس لها من الصحة. لكن ما له أساس من الصحة، الأخبار التى ينقلها إلىّ دون طلب منى، يوجع القلب: المتاريس التى تقيمها اللجان الشعبية على مداخل الأحياء من الحادية عشرة مساء حتى السادسة صباحا، وما يسمى »الشرطة الشعبية«، وحراس الثورة، ونقاط «الجمارك» التى أقامتها «كتائب الفقراء» على الطريق الدائرى والأوتوستراد ومحورَى صفط و26 يوليو فى القاهرة، وعلى مداخل ومخارج الإسكندرية وبقية المدن الكبرى، وحتى فى بعض الطرق الزراعية. قال لى عبده إنه وقع فى قبضة إحدى هذه النقاط ذات يوم، فى وضح النهار، وإنهم يأخذون من كل راكب نسبة مما معه: بعض المال أو ساعة أو خاتما، ويتركونك تذهب بالباقى. واصلت الصمت. لكن عبده لم يكن يحتاج إلى تشجيع كى يواصل الحكى. وحين يطول صمتى ولا يبدو علىّ أنى أسمعه، يشرع فى الحديث فى موضوع آخر. قال إن نقاط الجمارك هذه أفضل من لا شىء، فالطرق الصحراوية مثلا متروكة ليرتع فيها من يشاء ويقدر. سكت ثم استطرد هذه المرة قائلا إن شبكات المياه والكهرباء عاد معظمها إلى العمل. شركات المقاولات ساعدت فى إعادة أبراج الضغط العالى، وساعدها متطوعون من الأهالى كلٌ فى منطقته، وتعاون الناس وتركوا الموظفين والمهندسين يعودون لأعمالهم لتسيير هذه الشبكات .لكنهم لا يتقاضون أجورا، فلا أحد فى الحكومة يتلقى أجرا أو راتبا منذ بدأت الاضطرابات. لكن الناس يتصرفون، قال، يقايض بعضهم بعضا، يقترضون ويُقرضون، يتبادلون الخدمات، ويؤجّلون النفقات التى يستطيعون تأجيلها.

ذات يوم سألته عن الحكومة. فهز كتفيه وقال إنه لا أحد يهتمّ بتشكيل حكومة، فالناس تعبت من الحكومات لأنهم فى كل مرة يخدعونهم .كلما أتتهم حكومة تكذب عليهم وتحاول قمعهم دون أن تحقق لهم شيئا أكثر مما لديهم الآن :بعض الأمان، وبعض الاحتياجات الأساسية، وبعض الكهرباء. قال إن أحوال الناس اليوم ليست أسوأ ولا أفضل مما كانت عليه فى ظل الحكومات وفى ظل الحكم العسكرى بكل هيلمانه، فلماذا يوجع الناس قلبهم بحكومة ورئيس؟ الناس تغيرت، أكد عبده ذلك فى لهجة تقريرية؛ خرجت من القمقم ولم يعُد أحد يقبل الظلم أو التكبر أو السيطرة مِن قِبَل غيره، سواء كان الدولة أو أى سلطة أخرى، حتى المشايخ لم يعودوا قادرين على إلجام الناس. الناس لم يعد لهم كبير، وكلٌ يفعل ما يريد. ثم إن السياسيين لن يتمكنوا من تشكيل حكومة. فلا أحد منهم يحتكر تأييد الناس ويستطيع تشكيل حكومة وحده؛ الإخوان خرجوا من السجون واستعادوا بعض قواعدهم، والسلفيون خرجوا من المخابئ، والثوريون والقوى المدنية نظموا أنفسهم إلى حد ما خلال هذه الاضطرابات. وكلما حاولت قوة الانفراد بالأمر اتحدت القوتان الأخريان ضدها. ومن ناحية أخرى لن يتفقوا معا ، فكل قوة سياسية لا ترى إلا مصلحتها ولا تريد سوى سيطرة رجالها على الحكم، ومن ثمّ لن يشكلوا حكومة؛ «سنعيش هكذا فى الأناركية .«استوقفنى استخدام عبده مصطلحا أجنبيا وسط سيل حديثه هذا فنظرت إليه مندهشا .سألته إن كان لا يخشى من الفوضى أو حتى من وقوع مصر فى أيدى قوة أجنبية فهز كتفيه ساخرا وسأل: مَن المغفل الذى يمكن أن يُقدِم على احتلال مصر؟ الاحتلال موضة قديمة، قال. وأضاف أنه حتى أمريكا لم تحتلّ إيران بعد أن دكّتها بالقصف الجوى لمدة شهر. كلما حدث ما يعكّر مزاجها ترسل طائراتها لقصفها من جديد؛ «مضى عهد الاحتلال يا أستاذ». أما الفوضى، وفقا لعبده، فلا تختلف كثيرا عن النظام.

كان عبده دقيقا فى وصفه لمشاعر الناس آنذاك، لكنه لم يكن مُحِقّا فى تنبؤاته.

الحلقة الرابعة والعشرون

كنت فى قلبى مثل الآلاف إن لم يكن الملايين من جيلى أتوق إلى التغيير ليس فقط لرئيس جديد ودستور وانتخابات بل لنظام جديد بلد جديد

حين أبلغنى محمود أن الحرس الثورى قد أزال اسمى من قوائم المطلوبين كنت قد زهدت عفوهم. ظللت طوال هذا الوقت أسأل نفسى: ماذا فعلت؟ هل أخطأت بالعمل فى الرئاسة؟ كنت مثالا للمترجم الأمين، ولكاتب الجلسات المدقق. لم أهمل يوما فى عملى، لم أحاول استغلاله لمأرب شخصى، وحين طُلب منى الرأى قلت رأيى بأمانة. ففيمَ كان خطئى؟ كنت شاهدا على الظلم والفساد والفشل، نعم، لكن هل سألنى أحد وكتمت الشهادة؟ ماذا كان بوسعى أن أفعل، أنا المترجم؟ هل كان واجبا علىَّ الصراخ بأن النظام مستبدّ؟ هل كان أحد ينتظر صرختى تلك كى يعلم أن النظام مستبد وفاسد، أم كنا جميعا عارفين؟ ماذا كان يُفترض بى أن أفعل إذن؟ أذهب إلى ميدان التحرير وأقف هناك محتجا على ما أراه من خيبة وتبديد للوطن ولمصالح الناس؟ وحدى؟ أنا بالذات؟ وماذا عن الخمسة والثمانين مليونا من مواطنىّ، لِمَ لا يحاسبهم أحد على عدم وقوفهم بالميدان قبل 25 يناير؟ أين كانوا، هم؟ «حراس الثورة» يدرجون اسمى فى لائحة المطلوب القبض عليهم، لكن لِمَ لا يضعون أسماء بقية الخمسة والثمانين مليونا، أو حتى أسماءهم هم؟ وما الفارق بينى وبينهم؟

ما علينا.

كنت فى قلبى، مثل الآلاف إن لم يكن الملايين من جيلى، أتوق إلى التغيير، ليس فقط لرئيس جديد ودستور وانتخابات، بل لنظام جديد، بلد جديد، وثقافة أخرى، وطريقة أخرى نكوِّن بها حياة جديدة. لكن هذا ما حبانا أو ابتلانا به الله. تعاملت مع واقعى بما استطعت، مثلما يتعاملون الآن مع واقعهم بما يستطيعون. كل من القوى السياسية السائدة تودّ لو اختفت القوى الأخرى من الخريطة، لكن لا محيص من تعاملها معها، وقبول بعض مطالبها، والتنازل لها. أيجوز، بعد عشر سنين، أن يأتى مجذوب «ما بعد ثورىّ» ويحاسب مَن يتعاملون اليوم مع تلك القوى السياسية الأخرى على أساس أنهم تنازلوا عن المبادئ؟ أىُّ عَتَهٍ هذا؟ أى طفولة؟!

لم أرَ ركْلى بالأحذية حتى الموت كحادثة عارضة، ولا وضعى على قوائم المطلوب اعتقالهم. بل كاستبعاد متعمّد. هؤلاء الذين ركلونى أعلنوا بأقدامهم امتلاكهم للثورة الثانية: «هذه ثورتنا نحن»، ذلك ما كانت أقدامهم تقوله وهى تستقر بين ضلوعى، أما أنا وأشباهى فلا مكان لنا فيها .هكذا استقرّت فى وعيى، مهما قال محمود وشرح عزالدين. لا مكان لى فى هذه الثورة؛ وما الثورة إن لم تكن رفقة، فى القلب؟ لم أكن أمينا وشريفا فحسب فى عملى أيام الاستبداد، بل أخذت جانب الثورة منذ لحظاتها الأولى. وحين ذهبت إلى الميدان لم أحسبها، لم أفكر أن ذلك سيضر بمستقبلى إن فشلت الثورة، أو سيفيدنى إن نجحت. كنت أسعى، دون مأرب شخصى، كى تنجح، لأنى مثلى مثل الكثيرين كنت مستعدا وقتها أن أضع حياتى على المحك، من فرط رغبتى فى إنجاحها. لكن هذا أنا وما فكرت فيه، ولست مدينا لأحد بشرح، ولست مدينا لأحد بإثبات. وإن كان مجاذيب الثورة هؤلاء سينقلبون على كل من لا يعرفونه بالاسم، فلهم الله. هذا ما شعرت به وقتها. قد ترى، أنت ابن الجيل الجديد، أننى بالغت فى ردّ فعلى، أو أخذت الأمر على محمل شخصى فى غير محله، أو كنت رومانسيا حين كان يجب أن أكون عمليا. لكن هكذا كنت، وهكذا أخذتها، وانسحبتُ فى داخلى قبل أن أقرر الانسحاب من الحياة العامة. انكمشت تحت مكتبى وسط الركلات، وظللت منكمشا بعدها لوقت طويل.

أقمت فى شقة عبده بلا عمل ولا شيء محددا أفعله. وبعد صدور «العفو الثورى» لم يتغير إيقاع حياتى فى كثير. أقضى معظم الوقت فى المنزل، أخرج أحيانا. أقرضنى كل من عزالدين ومحمود بعضا من المال إلى حين عودة البنوك للعمل بشكل كامل والإفراج عن أرصدة وودائع المواطنين التى جُمدت وقت الثورة الثانية. الأسعار ارتفعت بدرجة ملحوظة، واختفى بعض السلع أو شحّ، على حسب حالة الطرق و«الجمارك الشعبية» المفروضة على بعضها، لكننا اعتدنا الوضع الجديد. كانت أزمة ممتدة، لكنها ليست كارثة.

حاول أصدقائى واحدا واحدا إخراجى من العزلة التى ضربتها على نفسى. لكن إلى أين أخرج؟ وماذا يمكننى فعله؟ لا أعرف سوى الترجمة والسياسة. أما السياسة ففى ثورة، وللثورة رب يحميها ولا يريدنى فيها. ولا حاجة بى إلى المال كى أعمل بالترجمة التجارية. الحقيقة أنى لم أُردْ فعل أى شىء. ومن ثم واصلت الجلوس فى غرفتى بجوار سور الكوبرى المعدنى الصاخب.

محمود وعفاف كانا أكثر أصدقائى مثابرة، وقد نجحت مثابرتهم فى إخراجى من هذه العزلة، وندموا على ذلك فى ما بعد، على ما أظن .محمود قرر اصطحابى عنوة، تقريبا، خارج الشقة. وهو عنده نوعان من الخروجات :اجتماعات سياسية مع تنظيمات ثورية وسهرات عزاء كما يسميها. وبما أنى لم أكن شخصا يمكن الظهور به فى اجتماعات ثورية فقد خصّنى بسهرات العزاء التى أفلت منها فى الماضى حين عملنا فى الرئاسة معا. أخيرا عرفت معنى السهر، ومقابلة رجال ونساء لا تعرفهم ولا يعرفونك، والتبسط معهم بمجرد اللقاء بهم، وكيف يفتح الكحولّ قلوب الناس للبوح، ويسقط الحواجز النفسية والمادية معا فينتهى بك الأمر تبكى فى أحضان شخص قابلته للتوّ، أو تحتضن شخصا يبكى على شىء لم تسمعه جيدا. لكنكما تبوحان بما فى قلبيكما، ويساورك الشك أن الآخر لا يسمعك حقيقة أو لا يفهم ما تقول فتضحك بدلا من أن تجفل، وتقترب منه أكثر. وإن استيقظت فى الصبح ولم تعرف من الراقد فى فراشك، أو فى أى فراش أنت، فإنك تضع ذلك على حساب المأساة، فى نخب تعقيدات الحياة، وصعوبة البشر، ووحدتهم، وتعاطفهم. كأنها جلسات عزاء حقيقى، نقدمه ونتلقاه، ليعيننا على المواصلة فى أثناء النهار. وحين يكون نهارك كنهارى آنذاك، يصبح العزاء الليلى كل ما تتطلع إليه فى يومك، فتبكّر بداية مراسمه أسبوعا بعد أسبوع، وتكرره حتى يصير طقسك اليومى، حتى تغرق فيه.

سيطر علىّ وقتها شعور عميق بالندم على أيامى التى انقضت، وبأنى كنت غبيا وساذجا بلا مبرر. لو كنت نبيها مثل القطان لعرفت كيف أستفيد من عملى المرموق طوال هذه السنوات، وأبنى لنفسى قاعدة من الأمان والرفاهية والقوة، بالأصول وبالقانون، ثم أفر من السفينة حين توشك على الغرق. ولو كنت مقداما جسورا مثل محمود بشير، أو عاقلا باردا مثل عزالدين فكرى، لكان نصيبى مثل أى منهما. لكنى، مثلما قال محمود، لم أكن أيا من هؤلاء، ولم أفعل شيئا، لا مع أحد ولا ضد أحد، وهكذا أتلقى جزاء المحايدين، جزاء المترجمين الأمناء الذين لا يفعلون سوى ترجمة ما يقوله الناس بعضهم لبعض.

لم أستطِع دفع الضغينة التى شعرت بها فجأة تجاه ثلاثتهم. كان عزالدين مشغولا فى كل الأحوال بمحاولة تنظيم القوى المدنية الديمقراطية، ومثل من يحرث فى البحر، كان يجمع فصائل منهم معا لينفرطوا قبل أن يذهب لإحضار الآخرين. وهو لا يكلّ ولا يملّ، وإن واجهته بعبث عمله هذا ردّ عليك بأن البناء يأخذ وقتا، وأن هذه العملية نفسها تدريب للجميع، ولا أحد يمتلك الخبرة ولا عادة العمل الجماعى، وكلها أشياء تأتى من الممارسة، وهذه هى الممارسة، ومن لا يعجبه فعليه التنحى عن العمل العامّ. أصبح حادّا، هو الآخر، مع الوقت.

أما محمود فكان مشغولا مع أصدقائه الثوريين، ولم أكن أراه إلا فى مجالس العزاء الليلية، التى صرت أرتادها يوميا، فى حين لا يظهر هو سوى مرة أو اثنتين فى الأسبوع. حين ألقاه يبدأ فى الحكى، لكن ذهنى يكون مشوّشا، إذ كنت أبدأ الشرب قبل وصوله بساعات. لكن حتى من دون أثر الكحول لا أعتقد أن ما يقوله كان مفهوما إلا لقلة قليلة. مثلا، ظل ليلة كاملة يحاول أن يشرح لى سبب انقسام الاشتراكيين الثوريين إلى مجموعتين: الأولى ثورية اشتراكية والثانية اشتراكية ثورية. ستظنّ أننى أمزح، لكن هذه هى الحقيقة. ظل يشرح لى الفارق بين الفصيلين المتنازعين حتى نجوت منه بصديقة أخذته بعيدا عنى هو وثورييه واشتراكييه، أيا كان ترتيب صفتيهما.

كنت أهوى إلى القاع، لكنى لم أكن قد وصلت إليه بعد .وكان البلد يهوى معى، بطريقته الخاصة. ففى حين كانت الغالبية العظمى من البشر تسعى لحماية نفسها وتأمين معيشتها اليومية مثلما قال عبده، استمر السياسيون فى محاولة تشكيل حكومة والاتفاق على دستور. ونتيجة للعداء المستحكم بين الإخوان والسلفيين - بعد اتفاق الأخيرين مع الحكم العسكرى على الإخوان، وتطرف الثوريين وتشرذم الديمقراطيين المدنيين- لم تتشكل الحكومة إلا فى يناير، أى بعد خمسة أشهر من إحراق القصر الرئاسى. وجاءت الحكومة فى النهاية ائتلافية مفكّكة وضعيفة، برئاسة مستشار وسطى النزعة غير معروف للكثيرين، اسمه عباس فخرى. ووجدت الحكومة الجديدة نفسها بلا أدوات تمكّنها من السيطرة على الشارع أو الاقتصاد أو الأمن. وبالإضافة إلى الحكومة اتفقت القوى السياسية على تشكيل لجنة تأسيسية تضع الدستور، حيث تَعذّر بالطبع إجراء انتخابات فى ظل هذه الظروف.

لكن عبده كان مخطئا فى وصفه حياة الغالبية العظمى من الناس. فمع انشغال أصدقائى بمفاوضات تشكيل الحكومة، لم يبقَ سوى عفاف التى ثابرت على إخراجى من عزلتى طوال اليوم، مستعينة بعبده وأخيها حسن. وشيئا فشيئا صرت أقضى معظم نهارى عند عفاف وإخوتها بأرض اللواء، مهد الثورة الثانية. وأتاح لى ذلك فرصة للانغماس فى حياة «الشعب» الذى لم أعرفه قبلا إلا سماعا.

ولم أجد هذه الحياة بالشاعرية التى ظننتها، ولا بالبساطة والحرية التى ادّعاها عبده، ولم يزدها ترسخ «الأناركية» إلا قسوة. لم أكن أفعل شيئا هناك سوى التسكع مع حسن أو الجلوس عند المغرب بالبيت معه ومع أختيه، قبل أن أذهب إلى رفاق العزاء فى المساء. وسارت الأمور هكذا شهورا حتى خلطت الأمرين وارتطمت بالقاع.

الحلقة الخامسة والعشرون

لا أزعم لك أن حياة الشعب شاعرية أو نبيلة.. بل مليئة بالكد والقسوة.. بعض هذه القسوة مباشر فى الوجه.. كفرض الإتاوة على أكل عيش الفقراء.. كسرقة الكحكة من يد اليتيم.. كبلطجة الشرطة على الناس وعجزها عن حمايتهم فى آن واحد

سأفصّل لك هذا الأمر بعض الشىء، أنت الذى تعرف عن الشعب أقلّ من القليل الذى عرفته أنا وقتها. لكن دعنى أبدأ بنصيحة مباشرة، هكذا دون لف أو اصطناع للحكمة. أنت مِن هنا، مِن هذا «الشعب» الذى لا تعرف عنه شيئا كثيرا. ومهما طال بك المقام فى البلاد الأخرى، ومهما تعلمت لغاتها وأخذت لكنتها وتزوجت منها، سيظل فيك جزء من هذا الشعب، هنا، شئت أم أبيت .فخير لك أن تعرفه، جيدا، ولا تنساه أو تتناساه أو تخفيه. هو منك وإن أغمضت عينيك عنه، والآخرين يرونه فيك وإن أخفيته. فخذه بيدك، وتحمل مسؤوليته وإن لم يكن من صنعك، وإن كرهتَه. اقبل ما تريد منه وارفض الباقى، لكن لا تتنكر له أو تُشِح بوجهك كيلا تراه.

لا أزعم لك أن حياة الشعب شاعرية أو نبيلة، بل مليئة بالكد والقسوة .بعض هذه القسوة مباشر فى الوجه، كفرض الإتاوة على أكل عيش الفقراء، كسرقة الكحكة من يد اليتيم، كبلطجة الشرطة على الناس وعجزها عن حمايتهم فى آن واحد، كمياه الشرب النقية التى يجب أن تمشى إليها وتعبئها فى آنية وتعود بها للبيت كالغنيمة، كطابور الخبز المدعم، كالفقر والحاجة التى لن تستطيع سدها مهما فعلت. هذه بعض ملامح القسوة اليومية المباشرة، المعروفة للجميع .لكن القسوة الحقيقية هى تلك التى تَسرّبت إلى القلوب فعوّدتها ما لا يجب أن تعتاده. مثل سرقة بيت جيران عفاف بعد عودة أبيهم من السعودية بأسبوع، واقتناع الجميع بأن السارق لا بد أن يكون أحد الجيران الذى يعرف بعودة الرجل محمّلا. مثل الغيرة من جارك حين يشترى ثلاجة أو أثاثا جديدا، أو حين يدخل بيته رجل محترَم أو بنت حلوة أو يركب سيارة. مثل التشنيع على جيرانك إن علا شأنهم قليلا كى تمنعهم من التكبر على الباقين .مثل الشباب على المقاهى وأمام المحلات وقد نصّبوا أنفسهم حُماة لقيم لا يعرفونها، خالطين أهواءهم وفورة غرائزهم بالشرع والرجولة. مثل أن يتحرش ابن الجيران بأختك، ثم يعتذر إليك أبوه، لأنه ظنها فتاةً أخرى! مثل الجار الذى يمنع زوجته من العمل، ثم يضربها، ثم يطلقها ويتركها مع عياله دون دخل، ثم يقترن بأخرى، جارتهم، ويعود مطالبا القديمة بمغادرة الشقة هى والأبناء. هذه هى القسوة الفاجعة حقا، تلك التى لا يشعر بها أصحابها. ومع ذلك لا تتسرع وتُدِنْهم، بل حاول قدر استطاعتك الترفق، بها وبهم حتى تزول، إن زالت.

لا أحدِّثك هنا عن أشياء عامة، بل عن بشر عرفتهم وخالطتهم وصرت -على الأقل إلى حين- جزءا من حياتهم. حسن، الذى استمر بلا عمل ثابت حتى بعد الثورة الثانية، تَبيّن أن طبيبه اللص سرق كُليته السليمة. وبعد شهور، تهاوت الكُلية الأخرى المعطوبة وتوقفت عن أداء وظيفتها. حدث ذلك قبل الثورة الثانية، ولم تتمكن عفاف التى استعانت بكل من تعرفهم للتوسط له، أن تُدخِله مستشفى عامًا يُجرى له الغسيل الكلوى بشكل دورى بالمجان. وأصبح عليه إما توفير تكلفة ذلك لا يدرى أحد من أين أو كيف، وإما تركه يموت. لا حل ثالثا. وزاد الطين بلة أن مرضه هذا أخرجه بشكل نهائى من دائرة البحث عن عمل، كما أغلق أمامه فرص الزواج وبناء حياة لنفسه، فصار كومة من الإحباط والضغينة جالسة على مقهى أو فى البيت أو واقفة فى الشارع تنتظر شيئا تفعله، خيرا كان أو شرا، أى شىء يعطيه شعورا ولو مؤقتا بالفائدة أو بالقيمة. قد يكون ذلك العمل هو الانضمام إلى مظاهرة أو احتجاج، أو التحرش بامرأة يعلم أنه لن يستطيع أن ينالها هى أو مثيلاتها، أو بيع قطعة بانجو أو التشارك فيها. سيان.

وكانت ميرفت قد فقدت عملها فى شركة الاتصالات فى غضون شهرين من تعيينها، حيث اكتشف مديروها أنها لا تتقن أى شىء، بل وتخطئ فى القراءة والكتابة، فميرفت لا حرفة لها ولا مهارة خاصة، والمعهد الذى تخرجت فيه مثله مثل المدرسة التى كانت فيها، لم يعلّمها شيئا. حاولوا تشغيلها فى خدمة العملاء، فى العلاقات العامة، سكرتيرة، أى شىء، إكراما لمن توسط لها، لكنهم لم يجدوا لها نفعا فى أى قسم فأعطوها ثلاثة أشهر مكافأة وشكروها وتركوها بجوار الباب. بلا عمل هى الأخرى، وباحتياجات وتطلعات مفهومة، وبأخ مريض مكلّف، استسلمت للعمل الأسهل، ذلك الذى سبقته إليها أمها الراحلة، وهو الخدمة فى البيوت. لكن حتى الخدمة فى البيوت مهنة، وميرفت لم يعلّمها أحد .لا تعرف كيف ترتّب الأشياء، هى التى ترتب بالكاد أشياءها القليلة، ولا كيف تخدم ناسا أو تعد مائدة أو تعتنى بطفل، ولا طاقة لها بأى من هذا .هى الشابة المتفجرة أنوثة تهفو إلى الانطلاق والحياة، كيف تحشر نفسها فى رداء الخادمة المنضبطة المطيعة التى لا حسّ لها؟ لم تستقر فى أى من البيوت التى عملت بها، ثم وجدت عملا فى تنظيف الغرف بفندق، ثم حدثت مشكلة مع مديرها المتحرش وغادرت، وهكذا. وعندما اندلعت الثورة الثانية، سألتها أسماء زوجة عزالدين - بعد تردد وبخجل- إن كانت مستعدة لـ«مساعدتها» فى العناية بالبيت .وهكذا أصبحت تعمل فى بيت عزالدين. وتذكرت ساعتها اللواء القطان الذى نهرنى يوم خرجت مع «ابنة بائعة الجبن». ماذا لو لم أستمع إليه وقتها وارتبطت بأختها؟ لا إجابة، لا إجابات بسيطة فى حياة معقدة وظالمة .عملت ميرفت لدى أسماء وعزالدين شهورا كانت فترة الرخاء الأكبر فى حياتها .وفجأة طردتها أسماء ونبهت عليها أن لا تطأ بيتها ثانية. سألت عفاف عن السبب -فميرفت كانت تتحاشى الحديث معى دوما- فقالت إن أختها لم تستطع مواكبة التزام أسماء الصارم بالمواعيد والنظام، وإن أسماء تحبّك الأمور زيادة عن اللزوم. ابتسمت ميرفت ساعتها ورمقتها بنظرة غريبة لم أفهمها وقتها.

لا حياة الشعب شاعرية، ولا انغماسى معهم كان كله مشرفا .لست متأكدا مما أصابنى وقتها، لكنى كنت مدفوعا برغبة قوية فى إيذاء الذات .كأنى أردت أن أدفع نفسى إلى القاع تماما، أن أصبح جزءا من القسوة المحيطة بى وأغسل أصولى المرفهة بالانغماس فى الانحطاط الذى يغمر البلد. هكذا انغمست فى جلسات العزاء المسائية، وهكذا توسعت فى الشرب حتى صرت أبدأ فى الظهيرة، وهكذا رفضت العمل مترجما فى المؤسسة التى تملكها سالى ويديرها محمود، وهكذا رفضت العودة إلى بيتى فى مصر الجديدة وظللت عالة على عبده فى شقته المريعة وعلى عفاف وإخوتها فى أرض اللواء. لم يكن أى من ذلك بقرار أو جزء من خطة، بل نتيجة نازع قوى يسيطر علىّ دون وعى منى، وأظن هذه النوازع أهم وأخطر من الخطط. كأن كل ذلك لم يكفِ، فدفعت نفسى إلى الحافة أكثر حتى هويت إلى القاع تماما.

وكانت ميرفت حافتى. ميرفت التى تقترب من منتصف الثلاثينيات، لم تتزوج، وأصبحت صورة من عفاف القديمة لكنها استبدلت الحدة بدلال عفاف الذى لم يعد موضة منذ الثورة. ورغم تعمدها الدائم الاحتكاك بى فإنها تتجنب النظر إلىّ .وأنا أسأل نفسى عما أظنه وقع بيننا وأنا مريض، وهل كان حقيقة أم كابوسا .ولِمَ تعاملنى بعداء منذ رأتنى وفى نفس الوقت تكاد تتحرش بى. كنت قد بدأت طقوس العزاء الليلى مبكرا، وثقل رأسى بسُكر خفيف يشجّع دون أن يُقعِد .دخلت ميرفت المطبخ تغسل الأطباق قبل أن تنقطع المياه ثانية، وذهب حسن لشراء سجائر فى حين ظللت جالسا مع عفاف نشاهد التليفزيون .تظهر ميرفت وتختفى عند باب المطبخ وترمقنى بتلك النظرة التى صرت أعرفها .وقررت لحظتها دفع الأمر إلى نهايته. سألت عفاف إن كانت تريد شايا فهزت رأسها بالنفى وواصلت الفرجة على التليفزيون. قمت إلى المطبخ أُعِدّ الشاى.

رمقتنى ميرفت بنظرة من فوق كتفها حين دخلت المطبخ وعادت لغسل الأطباق .ظلّ التوتر الصامت يعلو صوته بيننا حتى لم يعد من الممكن تجاهله. مرت بجوارى واحتكت بى فأمسكتها من كتفها كأنى أتفادى الارتطام بها، وشعرت بها تريح كتفها على يدى بدلا من أن تشد كتفها بعيدا. تركتها واستكملت عمل الشاى وشعرت بنظرتها الحادة كأنها تستحثنى. نظرت ناحيتها فوجدت تلك النظرة الداعية ترتسم على وجهها كله وتغيّر من ملامحه فتقدمت دون مزيد من التردد واحتضنتها وهى لا تتحرك أو تحاول الإفلات. سمعتها تردّد اسمى بصوت خافت عند أذنى فتشجعت وضممتها أكثر مطوقا ثناياها بذراعىّ

.وعندما صرنا متعانقين متداخلين تملصَت قليلا وأدارت وجهها نحوى وسألتنى بتحدٍ لمَ الآن. ظللت فى مكانى دون أن أحير جوابا، فسألتنى إن كان صديقى هو الذى أرسلنى. هززت رأسى غير فاهم، فنظرت إلىّ ساخرة من ادّعائى العبط .ظللت جامدا فى مكانى مستفهما عما تعنيه فمرّرَت يدها فوق يدى المتيبسة على وسطها وسألتنى، بنعومة مفاجئة، إن كان يجب علىّ انتظار تعليمات الدكتور عزالدين فى كل شىء حتى فى هذا. تراجعتُ خطوة دون أن أفلتها، ونظرت إليها غير مصدّق ما سمعته، فلوَت شفتيها فى تبرُّم، وقبل أن أسأل إن كانت تعنى ما فهمتُه سمعت حركة خلفى فالتفتُّ ووجدتُ عفاف واقفة تحدق إلىّ بذهول. ظللت متجمدا فى وقفتى الشائنة، وميرفت بين ذراعَىّ وقد صمتت، لكن كلماتها عالقة فى أذنى، وعفاف تحدق إلىّ بعينين ممتلئتين دمعا. وفجأة قطعت ميرفت التوتر بأن استدارت نصف دورة، وصفعتنى بيدها اليمنى ودفعتنى بعيدا. لملمتُ نفسى، ومسحت بقايا صابون الغسيل الذى تركَته صفعة ميرفت على وجهى، ومررت من باب المطبخ بجوار عفاف المذهولة، وخرجت من الشقة.

الحلقة السادسة والعشرون

ظللت أغرق هكذا.. هذه المرة وحدى.. حتى وجدت عزالدين يوقظنى من نومى ذات صباح. كان جافا وبعيدا.. غاضبا علىّ ولا شك.. وكنت أنا أيضا غاضبا عليه.. ولدىّ أسئلة لا أدرى إن كنت أودّ معرفة إجاباتها أم لا

لا أعرف كيف سيكون رد فعلك على هذه التفاصيل، ومن المؤكد أنك لا تفكر فى أبيك فى مواقف كهذه. ولست متأكدا مما إذا كانت طريقتى هى الأفضل، لكن هذا هو اجتهادى. لا أريدك أن تكبر وأنت تظنّ أنى رجل كامل، لا أخطئ ولا يأتينى الباطل ولا أجاهد مثل الكل نزعاتى وغضبى وغرائزى. أريدك أن تنسى هذه الدعاية الزائفة التى تروجها كتب الأطفال، وأنت ترانى كما أنا، رجلا من لحم ودم، بأخطاء أحاول تجنُّبها وغرائز أحاول ترويضها وخير أصبو إليه فأصيبه حينا وأخطئه أحيانا. لماذا؟ لا لأنى مهتمّ بشرح صورتى بقدر ما أنى لا أريدك أن تحاسب نفسك أنت بمقاييس غير واقعية. لا أريدك أن تقيس سلوكك على ما تظن أنه كمال بشرى ممكن، أبوك، فتظل طوال عمرك تشعر بالقصور وبأنك لا يمكنك أن تبلغ ما بلغه أبوك. لا أنا كامل ولا عظيم بأكثر مما يمكنك أنت، بأخطائك وترددك وشكوكك وضعفك أن تكون. كلنا هكذا، وتَذكّر هذا وإن نسيت كل شيء آخر.

أنت الذى أنقذنى من القاع الذى ارتطمت به فى رحلة سقوطى، دون أن تعلم.

كنتُ قد عدت إلى شقة عبده بعد حادثة ميرفت، وبقيت هناك لا أبرح الشقة إلا مساء إلى مجلس العزاء. لا شيء آخر، حتى لم أعد أتابع ما يحدث فى البلد. من حين إلى آخر يقول لى عبده شيئا، إن التقينا صدفة بين موعد خروجى وعودته، ولا أعرف إن كان حديثه خبرا أم إشاعة كالمعتاد، حتى إنى لم أعرف بالانتهاء من إعداد الدستور ولا بسقوط حكومة عباس فخرى ولا بأحداث الخليج ولا بالتدخل التركى فى شمال سوريا إلا بعد وقوع كل ذلك بكثير. ظللت أغرق هكذا، هذه المرة وحدى، حتى وجدت عزالدين يوقظنى من نومى ذات صباح .كان جافا وبعيدا، غاضبا علىّ ولا شك. وكنت أنا أيضا غاضبا عليه، ولدىّ أسئلة لا أدرى إن كنت أودّ معرفة إجاباتها أم لا. استيقظت وجلسنا بجوار الشرفة وصوت ارتطام عجلات السيارات الرتيب بفاصل الكوبرى يُشعِرنا بصمتنا أكثر .سأل عن أخبارى دون اهتمام حقيقى بتلقِى إجابة، ثم قام وفتح باب الشرفة وجاء وجلس بجوارى على الفراش وبدأ يتحدث فى أذنى. قال لى إن تلميذته سارة قد حصلت على عنوان اللواء القطان والعائلة، وهم جميعا بخير ويعيشون تحت اسم مستعار فى منزل صغير بضاحية هادئة بجوار لندن، وإنك بخير وتذهب إلى المدرسة، وكذلك أمك فى حالة طيبة. ودسّ فى يدى عنوان بريد إلكترونى خاص بسارة، وقال لى أن أرسل الليلة عن طريقها رسالة إلى العائلة، وسترتّب سارة طريقة لإجراء الاتصالات الصوتية بهم. ثم حذرنى من أن هذه المعلومات غير متاحة لأحد خارج دوائر ضيقة جدا ومن ثم علىّ توخى الحرص الشديد. أيقظنى ذلك من نومى تماما، كأن العالم الحقيقى عاد وطرق بقوة على باب الفقاعة الوهمية التى أعيش فيها منذ شهور فبدّدها. ربت عزالدين على كتفى وقال لى أن ألمّ شتات نفسى وأنتشلها من هذا العبث، ويكفى ما جرى. وقام مغادرا دون انتظار ردِّى.

أول ما فعلته هو الذهاب إلى بيتنا، فوجدت هناك أناسا لا أعرفهم. حاولت فتح الباب بالمفتاح فلم يفتح، ولما طرقت الباب خرج لى طفل نصف عارٍ ثم دخل ثم خرجت لى امرأة فى منتصف العمر بلا ملامح أذكرها، وقالت لى إن زوجها فى العمل. سألتها عمن يكونون، فسألتنى من أنا. ولما أجبتها ارتبكَت، وظلت تراوح بين العداء والتبرير، وفهمت منها أن لجنة شعبية ما دلّتها على المنزل باعتباره من غنائم الثورة فاستقروا به. لم أعرف ماذا أفعل فى هذه الحالة فقلت لها إنى سأعود فى المساء حين يعود زوجها. ذهبت من هناك إلى بيت صفية فى الرحاب فوجدته محتلّا هو الآخر، بعائلتين فى ما أعتقد اقتسماه كل منهما فى طابق، وأطفالهم يمرحون فى الحديقة وحمام السباحة فارغ وبه بقايا ألعاب بلاستيكية. وقفت أرقبه من بعيد ولم أدخل. مررت فى أثناء عودتى بالقرب من بيت عزالدين، ووددت لو توقفت وسألته، أو الأهمّ، سألت أسماء عما يساورنى من شكوك، لكننى عدلت عن هذا.

وجدت محمود بشير بعد لأى. انتظرته كثيرا على باب مكتبه فى المؤسسة التى يديرها، ثم ظهر وابتسم محدقا كأنه يريد معرفة ما ورائى. كان مندهشا لرؤيتى، أو بالأدقّ لرؤيتى مفيقا وفى غير جلسات العزاء .أخذنى من يدى ودخلنا مكتبه وعبّر عن سعادته بالزيارة، لكنه اعتذر بأن عليه الرحيل بعد دقائق، إذ لديه اجتماع لمناقشة تشكيل الحكومة الجديدة التى ستحلّ محلّ حكومة عباس فخرى. ساعتها عرفت أن حكومة الثورة الثانية سقطت .هزّ رأسه ضاحكا وقال فى كلمتين إنها لم يكن لديها فرصة من البداية، فكيف يمكن لحكومة مفكّكة دون أدوات ودون مال أن تتعامل مع مطالب شعبية متضخمة كتلك الموجودة لدى الناس؟ المهم، ونظر إلىّ. قال المهم، كأن ذلك ليس هو المهم .سألته إن كانت وظيفة الترجمة التى تَحدّث عنها منذ شهور لا تزال متاحة، فأومأ أن هناك دائما شغلا لمترجمين، وحاليا لديهم مشروع لترجمة أفلام كارتون للأطفال، ويسعده أن يضعنى فى المشروع، مضيفا أن شركاءه فى المشروع يابانيون ومواعيدهم دقيقة، ومن ثم إن لم أكن متأكدا فيمكنه البحث عن عمل لى فى شىء آخر. لكنى وعدته أن أسلم عملى فى مواعيده. طلبت سُلفة تحت حساب مرتبى فوافق فورا، لكنه طلب منى الدعاء كى تتمكن الحكومة الجديدة من فك أزمة البنوك وتفرج عن الأرصدة كى يستردّ المال الذى يُقرضنى إياه منذ شهور. ضحكنا وخرجنا من مكتبه، حيث تركنى مع السكرتيرة لتتابع إعداد الأوراق، وطلب منها أن يسلمونى كمبيوترا جديدا لأعمل عليه، ولوّح لى مبتسما وذهب لاجتماعه الهامّ. ظللت هناك حتى تسلمت الكمبيوتر والمال وعدت إلى منزلى، أقصد منزل عبده.

وجدته فى المنزل فحكيت له عما حدث فى الصباح فصمّم أن يأتى معى لبيتنا فى المساء. وهكذا عدت بصحبته إلى الطفل نصف العارى وعائلته. كان الرجل، واسمه سلامة، طيبا ومرتبكا. فهمت أنهم من ضحايا كارثة الدويقة، وأن الذى مكّنهم من الشقة وزارة الإسكان فى حكومة عباس فخرى لا اللجنة الشعبية، وأخرج سلامة أوراق التخصيص الصادرة من وزارة الإسكان، وظل يعتذر طوال الوقت. وجدت فى الأوراق إشارة إلى منزلى باعتباره من مصادرات رموز النظام القديم! لم أتمالك نفسى من الضحك، لا أدرى لِمَ، ربما لأن الموضوع كله عبث فى عبث. الرجل ارتبك أكثر بضحكى، وقال لى إنهم لم يلمسوا الأثاث أو بقية محتويات الشقة التى وجدوها عند قدومهم بل جمعوها كلها فى غرفتين وأغلقوا عليها الأبواب كيلا يعبث الأطفال بها، وإنى أستطيع أخذها فى أى وقت. تمهل كأنه يريد أن يضيف شيئا، لكنه صمت. سألته كم طفلا لديه فأجاب بأنهم ثلاثة، أحمد ومحمد ومحمود. وقال إن محمد هو الذى فتح لى الباب فى الصباح، وهو الأكبر. ظللت ساهما، وعبده يحدق إلينا نحن الاثنين بنظرته المستفهمة، ثم قلت للرجل أن يترك المحتويات حيث هى حتى أدبّر أمورى.

لم أكن أعرف ما العمل. المنطقى أن أسترد بيتنا، وأعتقد أن ذلك كان ممكنا. فقد تم رفع اسمى من قائمة أعداء الثورة، ومن ثمّ يجب أن يسرى ذلك أيضا على وزارة الإسكان، التى لم أعرف أنها تصادر بيوت «أعداء الثورة» إلا ساعتها. لكنى لم أرِد اللجوء مرة أخرى إلى عزالدين أو محمود بطلبات، ولم أكن متحمسا لإلقاء عائلة الدويقة بأطفالها الثلاثة فى الشارع، خصوصا أنى لم أكن أحتاج إلى الشقة فورا. قررت تأجيل الموضوع برمته، والتركيز على استرداد بيت صفية، فهذه لا يمكن اعتبارها من أعداء الثورة، ومحتلو بيتها لا يمكن أن يكون لديهم أوراق تبرر وجودهم هناك. واضطُررت إلى الاتصال بمحمود مرة أخرى، فأرسلنى إلى شخص أرسلنى إلى شخص، وبعد يومين جاءت معى »قوة« من حرس الثورة و«اللجنة الشعبية لشرق القاهرة» حتى بيت صفية. لم يستغرق الأمر طويلا حتى استسلم المحتلون وطلبوا أسبوعا لإخلاء البيت . ووافقت بعد أن وعدنى قائد القوة، وهو شابّ من عمر عبده وهيئته، بأن يأتوا معى مرة أخرى لتسلُّم البيت.

عدت إلى الشقة مع عبده، وفى نفس هذا المساء أرسلت رسالتى الأولى إلى اللواء القطان عبر سارة. كانت رسالة بسيطة، دون ذِكر أسماء، أعرب فيها عن رغبتى فى الحديث مع «الأبناء». ردت سارة برسالة أعطتنى فيها تفاصيل »هُويّتى« الجديدة فى برنامج للمحادثة على الإنترنت، وهُويّتها هى، وطلبت منى إضافتها على قائمة اتصالاتى، وانتظار الرد الذى سيأتى خلال بضعة أيام على شكل طلب إضافة إلى هذه القائمة مُوصى به من هُويّتها هى، وذلك تفاديا لاستخدام شبكة التليفونات المصرية. فعلتُ ما طلبَته منى، وظللت أنتظر.

فى هذه الأثناء، بدأت العمل فى ترجمة أفلام الكارتون، ومع استصغارى للمهمة فى البداية فإنى بعد قليل وجدتها شاحذه للهمة وممتعة فى نفس الوقت .لم أشاهد أفلام كارتون منذ سنوات طويلة، ربما خمسة عشر عاما .وأدركت ساعتها أنى لم أصحبك يوما إلى السينما أو أشاهد معك فيلما أو كارتونا فى بيتنا. كيف فعلتُ ذلك؟ كيف انشغلتُ عنك إلى هذه الدرجة؟ وفيمَ كان انشغالى؟ كنت أظن عملى هاما ولا يحتمل التأجيل أو التقليص أو التخلّى، وكنت مخطئا. فى كل ما سبق هذا ما أندم عليه، كل هذا الوقت الذى ضاع والذى لا يمكننى استعادته، كل هذا الوقت الذى كان يمكننى قضاؤه معك، وتركته وتركتك. وعلى هذا، عزيزى يحيى، أستميحك عذرا وأطلب منك المغفرة. هذا خطئى تجاهك، وأنا مدين لك بأكبر اعتذار ممكن. من يدرى؟ لعلِّى أنجح هذه المرة فى مسعاى وعندها سيكون لدينا كثير من الوقت لنعوِّض ما فات، كأب وابن حقيقيّين.

الحلقة السابعة والعشرون

أنا أراها تصرفت كابنة اللواء القطان لا كزوجتى وأم ابننا وهى ترى أنى تصرفت كموظف كبير فى الرئاسة دون أن أعطى عائلتى أى اعتبار

قررت الإقامة فى بيت صفية، حمايةً للبيت من الاحتلال وأيضا للابتعاد عن الجيزة وما جرى فيها. لدى صفية غرفتان على السطح وحمّام ومطبخ لم تستخدمها قط، فقررت أن أتخذهم مقرا، وأسعدتنى فكرة الإقامة فى بيت أختى .أخبرت صفية عما حدث للبيت وطرحت عليها الفكرة فأيدتنى وشكرتنى عليها بل وأبلغتنى شكر إبراهيم زوجها على ذلك. قالت إنهم لن يعودوا قريبا، ولا حتى فى زيارة. استقر الأولاد فى المدارس واستقر عمل إبراهيم بعد أن فض شركته مع عمر. أخبرتنى بمرض عمر؛ لديه شىء فى القلب يحتاج إلى متابعة مستمرة، وهى على اتصال به وبزوجته وأطفاله رغم الخلاف الذى وقع بينه وبين إبراهيم .فى المجمل لديهم جميعا حياة مستقرة فى إيطاليا، وليس هناك ما يدعو إلى هزّها بأسفار لمصر المضطربة أو مجرد التفكير فى العودة حاليا.

مرّ الأسبوع الأول دون أن يأتى رد السيد اللواء، لكن سارة أكدت تلقيه رسالتى. فى نهاية الأسبوع صاحبنى عبده و«القوة» إلى بيت صفية ووجدته بالفعل خاليا. مَن كان هؤلاء الناس؟ وأين ذهبوا؟ قال لى قائد القوة إنهم «مواطنون رُحّل»؛ يتركون الغرفة أو العشّة الصغيرة التى يسكنونها فى أحد الأحياء الفقيرة، ويبحثون عن منزل خالٍ يستقرون فيه حتى يظهر له أصحاب فيتركونه فى هدوء، بعد أن يطلبوا مهلة أسبوعا يكونون خلالها قد وجدوا لأنفسهم بيتا آخر خاليا ينتقلون إليه، وهكذا. تَفقدت المنزل ووجدته فى حالة مزرية. استُخدم الأثاث ومحتويات البيت بلا مراعاة أو رحمة، فتَحطم ما تَحطم واتسخ الباقى بكل الأشكال الممكنة، كأن مستخدميه ينتقمون منه .سألنى عبده عمّن يسكن غرفتى البواب، فأشرت له إلى أن الوضع كما يراه .فسألنى إن كنت أمانع لو سكن هو فيهما، وعمل حارسا للمنزل. وجدتها فكرة غريبة، فعبده محاسب، ولديه بالفعل عمل فى محالّ ناحية الجيزة. سألته مباشرة، لكنه قلل من أهمية عمله محاسبا، قائلا إن مجموع ما يتحصل عليه من المحلات الثلاثة التى يقوم بحساباتها هو ستمئة جنيه فى الشهر. وسألنى إن كنت مستعدا لدفعها نظير حراسته للمنزل، إضافة إلى إقامته مجانا بالغرفتين الملحقتين بالحديقة، دُهشت، وسألته لِمَ يريد ترك المحاسبة ليعمل بوابا، لكنه لم يهتمّ بسخريتى ولم يبدُ عليه استغراب للموقف؛ هذا عمل وذاك عمل، قال. قلت ليكُن، ما دام هذا ما تريده. هذه هى قصة مجىء عبده للعمل عندنا، ولم يفارقنا بعدها قط مثلما تعلم.

انتقلت بالفعل إلى سطح بيت أختى، وعبده إلى ملحق البواب، وانتظمَت حياتى شيئا فشيئا. توقفت عن الشرب تماما وعن ارتياد مجالس العزاء، وأرسلت اعتذارا مكتوبا إلى عفاف مع محمود، واجتهدت فى ترجمة أكبر عدد ممكن من أفلام الكارتون كيلا يكون عندى دقيقة وقت زائدة. ثم جاءتنى رسالة القطان عن طريق سارة، وتحدثت مع أمك ومعك لأول مرة منذ قرابة تسعة أشهُر. كان الحوار مع أمك جافا، وقليل الكلمات وإن طال. أسئلة عن الأحوال، إجاباتها قصيرة وبلا معنى؛ «الحمد لله»، «ماشى»، هذا النوع. أسئلة عنك، فتسهب فى وصف أحوالك ومدرستك كى تعوض نقص الكلام فى الموضوعات الأخرى .أسئلة من ناحيتها عن البيت والأحوال، فقلت لها ما حدث، وكانت فرصتها لصبّ جام غضبها المكتوم تجاهى على الثورة ومَن قام بها. كل هذا ونحن نحوم حول القضية الأساسية، هروبها بك. لم أكن أريد عراكا، فسألتها أولا عن سبب عدم اتصالها منذ سفرها وعدم إطلاعى على مكانكم، فردّت بأنها اضطرّت إلى ذلك وفقا لتعليمات الأمن. سألتها إن كانت هذه تعليمات الأمن أم الوالد فقالت أن لا فرق. لكننا نتحدث الآن، وبناء على مبادرتى أنا، قلت، فردّت بأنها لا تعرف هذه التفاصيل، كل ما فعلته كان بمشورة أبيها. وهكذا، شيئا فشيئا تدهورت المحادثة حتى وصلت إلى نقطة الصراع الحتمية: كيف هربتِ من البلاد بابنى دون إخبارى؟ وكيف تَخلّيتَ عنا وبقيتَ فى مصر دون أى مبرّر تاركا أسرتك تفر وحدها؟ أكرر سؤالى وهى تعطى إجابات أجدها واهية، وهى تكرر سؤالها وأجيبها إجابات تجدها هى غير مقنعة. وحتى اليوم، لو سألتها وسألتنى، ستجد هذين الوجهين للقصة:

أنا أراها تصرفت كابنة اللواء القطان لا كزوجتي وأم ابننا، وهي ترى أني تصرفت كموظف كبير في الرئاسة دون أن أعطي عائلتي أي اعتبار. أظن أنها مخطئة وتكابر، وأظنها تظنّ نفس الشيء بي.

حادثتك بعد أن وصلنا إلى طريقنا المسدود. كنتَ في الرابعة عشرة من عمرك، ولم تكن وقتها مهتما إلا بشؤونك المباشرة. تحدّثنا عن مدرستك وزملائك، وسألتك عن البنات الإنجليزيات وقلت لي إنك لا تحبّهن، ورفضتَ أن توضح أو تزيد. تَحدّثنا عن البيت والمدينة وقلت لي إنها مملّة، ولا تعرف فيها أحدا، ولا تستطيع الخروج وحدك حيث يصر جدك على أن يرافقك أحد الحراس أينما ذهبت. لكنك كنت معجبا بمراكز التسوق، وبـ«الإكس باد» الذي أهدتك إياه أمك، وبالملابس، لكن الطقس كان يزعجك. سألتني إن كنت سآتي قريبا فاضطربتُ وقلتُ إني لا أعرف بعد، فطلبتَ مني إن جئت أن أحضر معي «الهارد ديسك» الأحمر الذي نسيتَه على مكتبك بالبيت وعليه كل أغانيك. وعدتُك بالبحث عنه. واتفقنا أن تشترك في برنامج المحادثة الذي نستخدمه كي نتحدث معا حين نشاء، لكنك نسيت.

فكرت كثيرا أن ألحق بكم، رغم أن أمك لم تقترح ذلك ورغم إحجام جدك عن الحديث معي ورغم غضبي الشديد على كليهما. لكني لم أستطع ابتلاع فكرة أن ألحق أنا بالسيد اللواء القطان الذي أخذ زوجتي وابني وسافر .فكرت أن تعودا أنتما الاثنان، أو حتى أن يذهب ثلاثتنا إلى مكان آخر، إيطاليا مثلا عند إخوتي، لكن شيئا من هذا لم يحدث كما سأشرح لك بعد قليل.

ركزت كل جهدي على الترجمة، وحاز عملي تقديرَ المسؤول عن المشروع وشركائه اليابانيين. وشكرني محمود وأبدى سعادته بعودتي للحياة الطبيعية .كنا قرب نهاية شهر أبريل، وصار لدى محمود وقت أكبر حيث انتهت مشاورات تشكيل الحكومة وقرر هو وأصدقاؤه الثوريون عدم المشاركة، وهو نفس موقف القوى الديمقراطية المدنية عدا حزب الوفد الذي انضمّ إلى الإخوان والسلفيين وشكّلوا أول حكومة يسيطر عليها الإسلاميون منذ الثورة. مازحني محمود بأن أصدقاء سهرات العزاء يفتقدونني ويبلغونني أني أستطيع العودة لزيارتهم إن شئت دون أن أكرر ذلك بالضرورة كل ليلة، وقال إن لديّ فرصة محدودة قبل أن تغلق الحكومة الإسلامية البار الذي يسهرون فيه، مضيفا أن لديه وقتا هذه الأيام ويمكنه أن يذهب معي لحراستي من الفاتنات اللواتي يتربصن بي، فابتسمت واعتذرت. عرفت أن هذا العالم ليس لي، لا اعتراض لديّ على أصحابه، لكن من نعم الله على الإنسان أن يعرف ما له وما ليس له، وصرت الآن موقنا أن هذا الأمر ليس لي.

لم أكن قد قابلت عزالدين منذ مر عليّ في الجيزة ودبّر الاتصال مع أمك من خلال تلميذته سارة. ولم أكن قد قابلت سارة هذه وجها لوجه، فقررت الذهاب إليه في الجامعة كي أشكره وأزيل بعضا من التوتر العالق بيننا، وأيضا أقابل التلميذة الغامضة وأشكرها. لم ألمس منه حماسةً حين اتصلت به لكني ذهبت، ووجدته لطيفا ومرحبا لكن كان شيء ما يقف بيننا لم أعرف ما هو، كأنه حاجز شفاف، طبقة من البلاستيك تصدّ نظراتي عن النفاذ إليه، وتجعل نظراته إليّ باهتة. تَحدّثنا في عدة أمور. شرح لي أسباب رفضه وزملائه الانضمام إلى الحكومة الجديدة، قال إن التيارات الإسلامية تعتقد أن لديها أغلبية وتريد أن تُملِي برنامجها ورؤيتها ولم تتعلم شيئا، وهم الذين أفشلوا حكومة عباس فخري ومن ثم لم يكن لتشكيل حكومة ائتلافية أخرى معنى. سألته إن لم يكن خائفا من استئثارهم بالحكم، وأن يستغلوا سيطرتهم على الحكومة لتغيير قواعد اللعبة وإعادة صياغة الأمور على هواهم، فضحك ضحكة مبتسرة، وقال ساخرا إنه من الواضح أني كنت مشغولا خلال الأشهُر التسعة الأخيرة، وأردف جادا أنه لم يعد لأحد أغلبية تلقائية تؤيده في كل المواقف، بل على العكس، أصبحت المشكلة الرئيسية الآن هي تفتُّت التأييد. كل خمسين نفرا يمكنهم أن يبدؤوا احتجاجا يتحول إلى ثورة صغيرة. حتى داخل معسكر كل قوة سياسية، لم يعد هناك من يستطيع القيادة، فكل قرار له معارضوه وكل اختيار له من يرون عكسه، وقليلون من يقبلون الالتزام بقرار لا يؤيدونه. كأن كل فرد في المجتمع صار قوة سياسية وحده، ومن ثَمّ لن يستطيع الإسلاميون الذين شكّلوا الحكومة محاكمة أعداء الثورة مثلما يريد البعض، ولا العفو عنهم مثلما يريد الآخرون، ولن تستطيعوا تعديل الدستور الذي تم إقراره على عجل كما يريد البعض، ولا الحفاظ عليه كما يريد الآخرون،

ولن يستطيعوا إعادة بناء الأجهزة الأمنية واستعادة الأمن ولا تركها كما هى معقلا لقوى النظام القديم فيها ومصدرا للبلطجة. كل حركة لهم ستواجَه بتحدٍ من جماعة ما، باختصار لن يستطيعوا فعل شىء فى أى من المشكلات الداخلية الهامّة، ولا فى الفوضى العارمة المحيطة بنا من غزة حتى إيران. استرسل عزالدين فى شرح رؤيته للوضع السياسى، كأنه يلقى محاضرة على طلبته، ربما كى يتفادى الحديث فى الأمور الأخرى. وظللت أتوه منه وهو يحاضرنى، وأتساءل إن كان غاضبا علىّ بسبب ميرفت، وهل مصدر غضبه ما فعلته أنا أم اكتشافى ما فعله هو، أم أمر آخر. سألته إن كان حانقا علىّ لأمر ما، فضحك واعتذر بأنه ينفعل عند الحديث عن الوضع السياسى، لأن الحال يؤلمه. ولو لم أكن أعرفه منذ عشرات السنين لصدّقته. لكنه هكذا، حين يغضب بجد لا يمكنك أن تفتح أبوابه. سيظل موصدا حتى يأتى يوم ويفتحها هو بنفسه.

قاطعتنا امرأة شقراء قوية البنية خضراء العينين جادة الملامح، لا مبتسمة ولا متجهمة. هذه هى سارة رمسدل. بادرتنى بالسلام بلغة عربية سليمة، وشكرتها على جهودها فقللت من قيمة ما فعلته وسألتنى إن كان كل شىء على ما يرام، ثم دعتنى إلى الاتصال بها إن احتجت إلى شىء مِن «هذه القناة» فى المستقبَل، «فكلهم أصدقائى هناك»، قالت، وأومأت دون أن أفهم ما تعنيه بالضبط. لم أجد شيئا أضيفه فسلمت عليهما واستأذنت منصرفا. هذه هى سارة رمسدل، ضابطة البحرية الأمريكية التى رتبت العملية التى أنا بصددها، والتى ستهبط مع المروحيات فوق سطح هذه السفينة فى الرابعة من فجر غد.

الحلقة الثامنة والعشرون

تنفس الجميع الصعداء مع تشكيل حكومة الوحدة والمجلس الرئاسى الجديد ..وبدا أن فى الهواء روحا جديدة.. فلأول مرة منذ الثورة الأولى تتفق القوى السياسية لا على حكومة فحسب بل على برنامج تنفيذى

عندما انتظمت فى العمل واستقرت أحوالى المعيشية واطمأننت إلى حد ما عليك وعلى أمك الهاربة، أدركت إلى أى مدى كانت حياتى فارغة من المعنى .محمود بشير يعيش اللحظة ويفعل ما يشاء، حين يشاء، يخون سالى القصبجى أو يعشقها، يهجرها أو يعود إليها، يدير مؤسسة تجارية أو يعمل بالسياسة. أى شىء يُدخِل على قلبه السعادة يفعله، دون أن يشغل باله بأفكار وحسابات معقّدة. فى النهاية، سيتمدد على فراش الموت راضيا عن حياته الزاخرة التى فعل فيها ما أراد. عزالدين يسير كالقطار على قضبان تأخذه من محطة إلى التى تليها: من باحث إلى أستاذ إلى سياسى، لديه مشروع محدّد يعمل عليه ويبنيه خطوة خطوة. وحين يصل إلى المحطة النهائية سيكون سعيدا بالمسافة التى قطعها والأهداف التى حققها. أما أنا، فليس لحياتى معنى، لا أنا أجرى وراء السعادة المباشرة ولا لدىّ هدف أو شىء أبنيه. لم أفعل شيئا عبر أربعة وأربعين عاما سوى الترجمة وأخذ الملاحظات، وحين تحين ساعتى لن أعرف فيمَ أنفقت عمرى. لماذا لم أسائل نفسى قبل هذه الفترة؟ ربما بسبب الانغماس فى مهامّ وظيفتى «المهمّة» التى، كما قلت لك فى بداية رسالتى، تعفيك أهميتها من التفكير فى معنى ما تفعله. وحين بدأت أفيق من ضياع العام الماضى، ولم أجد ذلك الغطاء الذى أعفانى من الأسئلة طوال هذه السنوات، وجدت نفسى أمام نفسى، وأمام حياة بلا معنى ولا هدف.

حتى قلبى تَيبّس. أحببت مرة لكنى هربت من هذا الحب لأنه سيكلفنى ما لا أحب. شارفت على الحب ثانية لكنى وقفت نفسى منعا للمشكلات. ثم نسيت قلبى والمشاعر. تزوجت أمك، وهى امرأة رائعة، لأنها كانت «مناسبة». بنينا معا حياة زوجية تكاد تكون كاملة، وأنجبناك أنت قرة أعيننا .وبيننا مودة ورحمة وصداقة وتواطؤ واعتماد وثقة، هذا ما يسمى بالعِشرة .وهذه كلها أشياء فى غاية الأهمية، لا أشكو، ولا أدعوك إلى التقليل منها .لكنى فقط أقول إن قلبى ظل بعيدا، نائما أو ميتا لم أعد أعرف، لكن الأكيد أنه قد تَيبّس .وفجأة شعرت بهذا التيبس كأنه صخرة ثقيلة أحملها داخل صدرى.

فى المكالمة الثانية مع أمك تَحدّثت مع جدك القطان أولا، وكان حوارنا شديد الحدة. لم يُضِع السيد اللواء وقته فى تحيات ومراسم، بل بدأ بسؤالى مباشرة عما أريده، فلما أجبته بأنى متعجب من استيلائه على زوجتى وابنى والفرار بهما دون إذنى انفجر بالكامل فىّ، وقال إنه اضطرّ إلى ذلك لأنى لم أتصرف كرجل، ولو كنت رجلا لعرفت كيف أهتمّ بعائلتى وأحميها بدلا من الجرى خلف أصدقائى الثوريين وترهاتهم. وفى النهاية تركت امرأتى وابنى بلا حماية. وقبل أن أردّ عاجلنى بالسؤال عما كان من الممكن أن يحدث لهم لو لم يكن هو، بماله الذى ادخره وبنفوذه الذى بناه، قد تكفل بهم، ألم يكن الحال قد انتهى بهم معى على سطح بيت أختى أو فى شقة صديقى بميدان الجيزة .ذُهلتُ، وسألته كيف عرف فضحك ضحكة مبتسرة وقال متهكما إن كثرة الحكومات قد أنستنى فى ما يبدو من يكون. قلت كلاما كثيرا، لكنى شعرت أن كلماتى كانت كقطرات ماء تنزل على لوح زجاجى. عندما انتهيت قال إنه يرى كيف أنى لم أنضج بعد، وأعطى السماعة لأمك.

لم يكن حوارى مع ندا أقل حدة، ربما بسب توترى مما قاله أبوها. بعد تراشق سريع حول السفر والعودة سألتها مباشرة هل ترى فى نفسها زوجة لى أم ابنة للواء القطان، فظلّت تراوغ ولم تُجِب، قالت الاثنين واحد، لا تعارُض، كيف تسأل، هذا سؤال غير عادل، وهكذا، ولم تقُل مرة واحدة «طبعا زوجتك». عشت حياتى مع هاجس ارتباطها بأبيها أكثر منى، هو رجلها الأول والأخير. ولكنى ظللت طَوال الوقت أطرد هذا الهاجس باعتباره غيرة طفولية .لكنها حين فرت بك دون استئذانى أو مناقشتى أو حتى إبلاغى عاد الهاجس وتَضخّم حتى غطّى على كل تفكيرى فيها. وأخيرا، حين جرؤت وحوّلت الهاجس إلى سؤال لم تجد فى نفسها القدرة على اختيارى أنا، ولو لفظيا، وهى فى بيته فى تلك الضاحية اللعينة فى بلاد الإنجليز دون علم منى. لم تقل «زوجتك طبعا»، لم تقلها. مجرد الإقرار اللفظى بأولوية علاقتنا لم تكن مستعدة له .

حين قصصت الأمر على صديقىّ نصحنى عزالدين بالسفر إلى لندن والبقاء هناك لفترة حتى تنصلح الأمور، فى حين نصحنى بشير بتطليقها فورا وإنهاء هذه العلاقة المزعجة بها وبأبيها غير المحتمَل. طبعا لم آخذ بأى من النصيحتين، لكنى لا أبالغ إن قلت لك إن شيئا بينى وبين أمك انكسر فى هذه الليلة.

واصلت الحياة فى هذا الشهر والذى تلاه، وشغلت نفسى عن نفسى وأسئلتها بمتابعة السياسة من خلال أصدقائى. ولم تكُن السياسة بأحسنَ حالا من أحوالى الشخصية، وربما وجدت فى هذا نوعا من العزاء. كانت تلك فترة التقلبات والفوران السياسى الأكبر منذ الثورة الأولى، حيث تبلورت القوى السياسية وتنظمت بدرجة ما وبدأت تتمرس على المناورة والمساومة ويتكون لديها كوادر وقدرات على تنظيم قواعدها، بدرجات مختلفة طبعا. وصعد كل من صديقىّ فى معسكره: محمود بشير، الذى صار يُعرف ببشير فقط، أصبح من قادة المعسكر الثورى الذى اتسع ليضمّ اليساريين والنقابات والعاطلين وصغار الموظفين وعموم الفقراء المستعدين للاحتجاج فى أى وقت. أما عزالدين فكرى فكان أقل أهمية بكثير، ولكنه كان منهمكا فى العمل مع ممثلين للقوى المدنية الديمقراطية على الإعداد للانتخابات المحلية. لم يكن هناك انتخابات محلية أو غير محلية يُنتظر إجراؤها فى وقت قريب، لكنه وزملاءه كانوا يعدون كوادر من الشباب ويدربونهم ويبنون لأنفسهم وجودا ولو بسيطا فى الأحياء والقرى إعدادا للمستقبل. وكنت أنا ومحمود بشير -وعبده الذى ينضمّ إلى جلساتنا دون دعوة لكن لا يصرفه أحد- نضحك من هذا المجهود بادى العبثية، ونقول لعزالدين إن عليه الانتباه لصحته جيدا، لأنه بهذا المعدل لن يصير رئيس وزراء لمصر قبل الألفية الثالثة.

فى يونيو سقطت حكومة الثورة الثانية التى شكّلتها القوى الإسلامية منفردة (إضافة إلى حزب الوفد) بعد أن فشلت فى تحقيق أى من سياساتها وواجهت اضطرابات شعبية واحتجاجات منظمة من قِبَل بقية القوى، وانقلبت عليها قواعد الحركات الإسلامية نفسها. ونتيجة لذلك، ودرءا لمزيد من الخسارة، قررت القوى الإسلامية الدعوة لتشكيل حكومة وحدة وطنية بحيث تتقاسم المخاطر والأعباء مع بقية القوى. إلا أن الخلاف بينهم وبين التيار الثورى اليسارى حول محاكمة رموز النظام القديم المحتجزين منذ الثورة الثانية، وحول إعادة هيكلة الأجهزة الأمنية وتغيير الدستور المؤقت، كل ذلك دفع هذا التيار إلى الانسحاب، وتشكلت الحكومة الثالثة بائتلاف بين القوى الإسلامية وبعض التيارات الثورية الليبرالية وبعض القوى المدنية الديمقراطية، مثل التيار الذى يعمل معه عزالدين فكرى، وترك الإسلاميون رئاسة الحكومة لليبرالى ثورى هو الدكتور حازم شعراوى.

إلا أن هذا المسكين لم يتمكن من عقد اجتماع واحد لمجلس الوزراء، ففور الإعلان عن تشكيل الحكومة بدأت الإضرابات بإيعاز من قوى اليسار الثورى، واحتلّ المحتجون الشوارع المحيطة بمبنى مجلس الوزراء . وشاهدت بشير على شاشة التليفزيون يعلن أنهم لن يرجعوا حتى يسقطوا هذه الحكومة، التى لم تبدأ فى العمل أصلا. وفى محاولة لاحتواء هذا الاستقبال الغاضب أعلن الدكتور شعراوى قائمة جديدة بأسماء من يتمّ تطهير أجهزة الدولة والإعلام منهم، وإيداع بعضهم السجن مع بقية «أعداء الثورة»، وبدء مشاورات للإعداد لمحاكمة المقبوض عليهم منذ الموجة الأولى للثورة، وعدد من الإجراءات الاقتصادية. لكن أحدا لم يقتنع بجدية هذه الإجراءات، كما أن الاحتجاجات كانت منظمة بهدف إسقاط التحالف بين الإسلاميين والليبراليين بغض النظر عما يفعله الدكتور شعراوى. وهكذا استمرت الإضرابات حتى بدأت تشلّ الحياة تدريجيا، وعادت المرافق التى كانت قد بدأت لتوّها فى الانتظام إلى التوقف مرة أخرى. وتوالت استقالات ضباط الشرطة وسفرهم إلى الخارج حتى بدأ البعض ينادى بمنعهم من السفر كأن ذلك سيرغمهم على البقاء فى الخدمة. كما تواتر الحديث عن خلافات بين القادة العسكريين، لكن الجميع تجاهل الأمر مخافة أن يكون صحيحا واكتفَوا بعدم المساس بمخصصات الجيش والدعوة له بالسلامة والبعد عن السياسة.

وبعد ثلاثة أسابيع من الإضرابات والاحتجاجات المستمرة أعلن مجلس مدينة بورسعيد إعادة العمل بنظام المدينة الحرة وإلغاء الجمارك على جميع الواردات إلى المدينة، وإعادة تنظيم شرطتها مع اللجان الشعبية الموجودة فى الأحياء وتكليفها بتنفيذ ذلك. وبالفعل أخلت وحدات مشتركة من الشرطة واللجان الشعبية مكاتب الجمارك ونقلوا موظفيها وأجهزتهم وملفاتهم بالقوة إلى منافذ الجمرك على مداخل ومخارج المدينة. لم يستطع رئيس الوزراء الجديد فعل شيء أمام هذا التحدى السافر لسلطة حكومته، فأعلن فى اليوم التالى استقالته وبدْء مشاورات لتشكيل حكومة وحدة وطنية جامعة.

كان هذا هدف التيار الثورى اليسارى، محمود بشير وأصدقائه، من كل هذه الاضطرابات، حيث أرغموا طرفى التحالف الآخرين، الإسلاميين والديمقراطيين المدنيين على قبول شروطهم للانضمام إلى الحكومة . وتم فى خلال أسبوع واحد من سقوط حكومة شعراوى الاتفاق على برنامج حكومة الوحدة الوطنية الذى تَضمَّن إجراءات فورية لإنعاش الاقتصاد وتعهُّدا من النقابات والاتحادات بتعليق الإضرابات لمدة ستة أشهر، وخطة لاستعادة الأمن وإعادة هيكلة وبناء أجهزته، وخطة لمحاكمة رموز النظام السابق المحبوسين منذ ثلاث سنوات دون سند من القانون، وتكوين لجنة دستورية جديدة تضع دستورا برلمانيا رئاسيا مختلطا يحلّ محلّ الدستور المؤقت المعمول به، وتشكيل مجلس رئاسى جديد تمثّل فيه القوى الثلاث الرئيسية المشاركة فى الحكومة كلّ بعضو إلى حين إعداد الدستور وتنظيم انتخابات جديدة.

تنفس الجميع الصعداء مع تشكيل حكومة الوحدة والمجلس الرئاسى الجديد .وبدا أن فى الهواء روحا جديدة، فلأول مرة منذ الثورة الأولى تتفق القوى السياسية لا على حكومة فحسب بل على برنامج تنفيذى موحد تضطلع هذه الحكومة بتنفيذه. وشعر كثيرون أن هذه هى حكومة الثورة التى طالما نُودِىَ بها، وساد أمل فى تمكّن الحكومة من إعادة الهدوء إلى البلاد وتمكين الناس من التقاط أنفاسهم وعودة الخدمات وبعض الأمن ووقف نزيف الاقتصاد. أما بالنسبة إلىّ، فقد راقبت بشغف تعيين صديقى محمود بشير وزيرا لشؤون الرئاسة فى الحكومة الجديدة. حين زرته وجدته مبتسما مقبلا على الحياة كعادته، واستهلّ لقاءنا بأن طلب منى الاستعداد للعودة إلى عملى القديم فى القصر الرئاسى، معه هو هذه المرة.

الحلقة التاسعة والعشرون

حين تسلمت العمل اكتشفت أنى سأبدأ من الصفر.. ذهبت كل ملفات الرئاسة القديمة وأرشيف معلوماتها فى الحريق.. كما أن الموظفين القدامى ذهبوا مع الثورة الثانية.. إما رحلوا من تلقاء أنفسهم وإما تم التخلص منهم

قلبى فرح وقال نعم، حتى قبل أن أفكر. ربما لو فكرت لعقلت الأمر ورفضته .لكنى لم أفكِّر بعقلى: شعرت أن الأمان والمعنى الذى افتقدته شهورا طويلة يعود لى، وعلى طبق من فضة، كأنه رد اعتبار. بالطبع خطر على بالى الأسئلة التى سيطرت علىّ طوال الشهور الماضية، إحساسى بانعدام المعنى، وضياع عمرى فى ما لا طائل منه. لكنى طردت هذه الأفكار. طردتها، ببساطة، لأنى أردت استعادة ما فقدت، وبشدة. لا أدرى ماذا أقول لك عن هذا؛ أحذِّرك من رغباتك؟ أذكِّرك بضرورة الاحتكام إلى العقل؟ وما فائدة ذلك إن كانت الرغبات تتسلل من حول العقل حتى تغمره فلا يرى؟ حاول تفادى ذلك، لكن إن حدث لك -ومؤكد أنه سيحدث- فحاول على الأقل تفادى تكراره كيلا يصير عادة .أبديت بعض الاعتراضات لمحمود، من باب التمنع؛ ماذا عن عدائى المفترَض للثورة؟ وكيف سيعاملنى أصدقاؤه مجاذيب الثورة؟ ما فائدة هذا العمل إن كان المجلس الرئاسى ضعيفا ومحدود السلطات؟ إلى آخر هذه الاعتراضات التى نسوقها كى يدحضها الأصدقاء و»يقنعونا» بقَبول العرض، وقد كان.

وجدت مكاتب الرئاسة وقد انتقلت إلى موقعها الجديد على الكورنيش. القصر الرئاسى القديم فى مصر الجديدة احترق تماما وتَهدّم معظمه، ثم قرر الثوار تحويله إلى متحف للثورة، فاحتلّته فِرَق فنية وجماعات ثقافية متنوعة بدأت تُقِيم عروضها وسط خرائبه. وشيئا فشيئا تَحوّل إلى مزار قومى وأصبح علامة انتصار الشعب. ومن ثم لم تجرؤ أى من الحكومات الأربع التى قامت منذئذ على إعادته لوظيفته الأولى. وتَقرّر، بالتشاور مع القوى الشعبية، تحويل مبنى الحزب الوطنى القديم على الكورنيش إلى مكتب للرئيس، بحيث يكون فى وسط الناس وتحت يدهم، قرب ميدان التحرير، فلا ينسى أى رئيس قادم نفسه أو يتصور أن باستطاعته الإفلات من غضب الشعب. كما تقرر أن لا يكون مقر الرئاسة قصرا منيعا، بل مجموعة من المكاتب، كى تكتسب الصفة الوظيفية أكثر وتبتعد عن الأُبّهة والنفخة الكاذبة. وقد كان. وجدت مقر الرئاسة الجديد أقرب ما يكون إلى مصلحة حكومية. مكاتب «الرئيس» -ثلاثة مكاتب متطابقة لمراعاة حساسيات أعضاء المجلس الرئاسى- فى الدور الخامس وسط مكاتب معاونيهم، قاعات لاستقبال الضيوف فى الدور الأرضى والأول فقط منعا لتجولهم فى مقر الرئاسة، قاعات للاجتماعات فى الدورين الثانى والثالث، أدوار للسكرتارية الفنية، أرشيف، مركز معلومات، وهكذا. وأجمل ما فى المقر الجديد أنه يطل على النيل، ومن ثم يسمح لك -حين تكون بلا عمل يشغلك- أن تجلس إلى مكتبك وتحدق إلى النيل لساعات طويلة دون أن تمل.

عُيّنت فى وظيفتى القديمة، سكرتير الرئيس للمعلومات .ويتضمن ذلك الإشراف على توفير المعلومات ودورانها فى مقر الرئاسة وتخزينها والحفاظ عليها. أخبرنى محمود أنى سأعمل مباشرة معه. هو ليس رئيسى بالضبط، لكنه حلقة الاتصال بين الرئاسة والحكومة، وهو من ثَمّ مصدر القرارات التنفيذية والاعتمادات المالية التى من دونها لا يمكن عمل شىء فى الرئاسة .علمت منه أن هناك منحة بريطانية ضخمة مخصصة لإعادة بناء مؤسسة الرئاسة، ويوجد شركاء بريطانيون مستعدون لتقديم الخبرة إن احتجنا. واتفقت معه على قبول المنحة ورفض الخبرة كيلا نُدخِل يدا أجنبية فى المقر، وأن أبدأ عملية كبرى لبناء الجانب المعلوماتى لمؤسسة الرئاسة الجديدة. اتفقنا على كل ذلك وتسلمت عملى. كانت حكومة الوحدة الوطنية قد أعلنت بدء تنفيذ برنامجها المتفَق عليه، وتملك الجميع شعور بأننا أخيرا، بعد سنوات من التخبط، على وشك البدء فى بناء مصر الجديدة.

حين تسلمت العمل اكتشفت أنى سأبدأ من الصفر. ذهبت كل ملفات الرئاسة القديمة وأرشيف معلوماتها فى الحريق. كما أن الموظفين القدامى ذهبوا مع الثورة الثانية، إما رحلوا من تلقاء أنفسهم وإما تم التخلص منهم. ومع توالى الحكومات «الثورية» تم تعيين عشرات من الأقارب والأحباب ومصابى الثورة وأهالى الشهداء فى جميع مؤسسات الدولة بما فيها الرئاسة. بدا ذلك وقتها حلا معقولا وغير مكلِف، باعتبار هذه الوظائف موجودة وشاغرة ومرتباتها مدرجة بالموازنة العامة بالفعل ولن تكلِف الحكومة عناء البحث عن موارد جديدة. لكن النتيجة أنى وجدت هيكلا وظيفيا مكتمل العدد، ويكاد يكون منعدم القدرة على أداء أى من وظائفه، بل لا يعرف ما هذه الوظائف أصلا. باختصار، كل ما كان لدينا هو مقر للرئاسة، فقط لا غير. أما البقية، المؤسسة نفسها، بموظفيها وخبراتها ونظمها وأدواتها، فكان يجب خلقها من عدم، وبموظفين لا يعرفون شيئا عن أى من هذا.

تسلمت مكتبى، واطمأننت أنه مطلّ على النيل، وفحصت تقارير المعلومات التى ترد إلى المكتب فوجدتها كلها شكلية لا تحمل معلومات حقيقية. سألت محمود بشير فقال إن الأجهزة الأمنية والوزارات ترسل المعلومات الهامّة إلى مجلس الوزراء، أى إليه هو، وابتسم مزهوا. لم يكن ذلك مستغرَبا، فالمجلس الرئاسى برمته مؤسسة شكلية، والسلطة التنفيذية الحقيقية لدى الحكومة. بل إن المجلس الرئاسى لا يجتمع بصفة دائمة أو روتينية وإنما حسب الحاجة، حين يكون هناك داعٍ للفصل فى منازعات داخل الحكومة بين القوى السياسية المتحالفة، أو من أجل التصديق على قرارات الحكومة أو القوانين القليلة التى يسنُها مجلس الشعب المؤقت. وزير شؤون الرئاسة، محمود، هو الذى ينسّق العلاقة بين الرئاسة وهذه الجهات، وأحيانا يكون هو القائم بعمل المجلس الرئاسى الحقيقى.

سألت عن مسؤولى الاتصال من الأجهزة الأمنية فوجدت أنهم لم يتغيروا !العقداء الثلاثة: لطفى من الداخلية، وحامد من المخابرات العامة، وسعيد من المخابرات العسكرية. ذهلت. اتصلت بهم على الفور واتفقنا على اللقاء فى مكتبى فى آخر النهار. وكان لقاؤنا حارا ومنعشا للقلب، كأنى عدت إلى بيتى بعد تيه. جلسنا نتذكر الأيام الخوالى ونضحك على ما جرى وما صار لنا ولمن نعرفهم، ونستعيد أسماء من عملنا معهم وما جرى لهم، من سافر ومن فرّ ومن استقال ومن فقد عقله ومن تَحوّل مع الثورة ومن ثبت على مواقفه الأولى .كأننا أولاد صغار، بلا هموم ولا مسؤوليات، نشرب شايا ونحدق إلى النيل ونترحم على البعض ونسبّ البعض الآخر ونزفر همّنا فى صوت عالٍ وقهقهة من القلب. سأقول لك شيئا يصدمك يا يحيى، الحقيقة أن هذا هو ما يبقى، هذه الصحبة، والناس الذين تقترب منهم وتصادقهم وتقتسم معهم الأيام. الباقى سُدى.

سألتهم كيف لم يُطَح بهم رغم كل عمليات التطهير والهيكلة وإعادة الهيكلة، فضحكوا ثلاثتهم. سعيد، الفارع الطول العريض المنكبين والشارب صاحب الابتسامة الساخرة قليلا كان أول من أجاب: «إحنا جيش ولا مؤاخذة، وماحدش ليه دعوة بينا». ضحكنا، وعقب الاثنان الآخران على كلماته ببعض الحسد البرىء. العقيد لطفى استطرد ساخرا من حديث الهيكلة والتطهير، قائلا إن كل هذا الكلام لغو فارغ، وربما كان هناك احتمال فى البداية للقيام بتغييرات حقيقية، لكن فوضى المدنيين وفشل الحكومات فى القيام بأبسط واجباتها جعل الكلام عن التطهير والهيكلة محض هراء. تساءل، والعميد حامد يهز رأسه مؤمّنا على سؤاله، عمن يستطيع هز ما تبقى من المؤسسات الأمنية العاملة. هذه المؤسسات تأثرت، وبشدة، وقلت قوتها كثيرا، وأصبحت فى كثير من الأحيان عاجزة عن القيام بمهامّها الأساسية، وأى حديث عن تطهيرها بالمعنى الذى يتصوره الناس سيؤدِى، فى هذه الظروف، إلى هدمها بالكامل، فمن الذى يجرؤ، أو حتى يريد، ذلك؟

حامد، وهو أكبر قليلا منى، رياضىّ القامة مدموك، أبيض الوجه وبملامح ثابتة لا تتأثر بما يقوله، إلا عندما يضحك، انتظر حتى فرغ لطفى من الحديث ثم عقب بالموافقة على ما قاله زميلاه، وأضاف أن الذى حدث مع موجتَى الثورة، بغض النظر عن مسائل الاستبداد والظلم والعدل والحرية والفساد، هو تفتت سلطة الدولة نفسها، خصوصا فى الأقاليم خارج القاهرة، وأصبحت قدرة الحكومة على القيام بأى شىء -إصلاحا كان أو إفسادا- محدودة .ولا يقتصر ذلك على النواحى الأمنية، بل يمتد إلى كل شىء، من التعليم إلى الرى .

فالوزارات نفسها عاجزة عن العمل تقريبا، حتى حين ترغب؛ «النمل أكل العصا»، قال. ومن ثمّ فالوزراء والسياسيون يقولون كلاما ويَعِدون بأشياء ويضعون برامجَ لكنهم لا يستطيعون تنفيذها على أرض الواقع، لأن العصا التى يدفعون بها الواقع -أى الوزارات وهيئات الدولة- قد أكلها النمل وأصبحت هشة مخوّخة.
الموظفون -مثلما ترى فى الرئاسة هنا- إما لا يعرفون ما عملهم، وإما مشغولون بالقتال حول الفُتات الموجود فى ميزانية هيئاتهم، أو يحوّلون أى أمر تنفيذى إلى «سَبُّوبة» يأكلون منها عيشا. هم معذورون، قال حامد، لكن المحصلة أنك لا تستطيع كحكومة أن تفعل شيئا تقريبا. سألتهم ساخرا عما يمكننى أنا فعله إذن فى هذه الوظيفة فضحكوا وأشاروا إلى النيل، وقال لطفى إن لدىّ مكتبا جميلا، ويمكننى أن أعيّن سكرتيرة «مُزّة»، وربنا يفتحها علىّ. ضحكنا، وتَشكّك سعيد فى أن يكون لدىّ اعتماد مالىّ لتعيين سكرتيرة، وكان مُحِقّا!

صحيح أن شر البلية ما يضحك، لكنى لم أعد إلى الرئاسة كى أجلس أمام النافذة وأضحك على شر البليّة. كنت مصمِّما أن أفعل شيئا مفيدا .لقد قامت ثورة، وذهب الطغيان. صحيح أن هناك فوضى، لكن محمود صديقى فى موقع يمكّنِه من التأثير، وأنا أيضا، ويمكننا معا أن نغيّر بعض الأشياء ونضع لبِناتٍ للمستقبل. هذا ما يفعله عزالدين وأصدقاؤه وهو يعملون على بناء قواعدهم فى المحلّيات، وكما قال سيستغرق الأمر وقتا ولن يكون سهلا، ولكن هكذا يتمّ البناء. ويمكننا فعل الشىء نفسه فى مؤسسة هامّة مثل الرئاسة .وعزمت على ذلك. بدأت أخطِّط لعملية إعادة بناء مؤسسة الرئاسة، خصوصا جانب المعلومات الذى يشكِّل العمود الفقرى لعملها، وأفكر فى من سأحتاج إلى الاستعانة بهم وأين أجدهم وكل هذه التفاصيل. أول شىء كان يتعيّن علىّ فعله هو أن أجد سكرتيرا يساعدنى ويتولى تخليص المهامّ الإدارية من أنياب بقية المؤسسة .وجدت سيدة تشغل بالفعل هذه الوظيفة، لكنى أحتاج إلى شخص أثق به، ليس متورطا مع أى من التيارات السياسية التى تعجّ بها الحكومة، وليس جزءا من المؤامرات الصغيرة التى يعيش فيها الجهاز البيروقراطى. تَبيّن فعلا عدم وجود اعتمادات مالية أو درجة شاغرة. ظللت قرابة ساعتين أقلِّب الأمر مع المدير الإدارى ومسؤولة الشؤون المالية، ولم نجد حلا. وفجأة خطر الحلّ على بالى: عبده!

الحلقة الثلاثون

كل الإرادة الطيبة والآمال العريضة لا تعنى زوال العقبات الواقعية أمام نجاح مهمة الحكومة.. حتى لو تجرد أعضاء الحكومة والتيارات السياسية التى ألفتها من كل هوى أو طموح أو حسابات شخصية ـوهو ما لم يحدث بالطبع- فلا تزال هناك عقبات حقيقية تعترض طريق النجاح

قبل عبده التطوع للعمل مساعدا لى، بمكافأة يومية لا تتجاوز أربعمئة جنيه فى الشهر، واستمر طبعا فى الإقامة معى بملحق البواب ببيت أختى، وأصبحنا نذهب إلى العمل ونعود منه معا فى سيارة الرئاسة. أنهى العقيد حامد الموافقة الأمنية على عمله بالرئاسة، رغم تحفظ أمن الدولة، هكذا نسميها بغضّ النظر عن اسمها الرسمى الذى تَغيّر عدة مرات. والحقيقة أن مؤهلات عبده، التى لا يراها غيرى تقريبا، مكّنته من أداء مهامه على أفضل وجه أملتُ فيه. هدوؤه الذى يصل إلى حد التناحة، البطء، ودّ الناس بشكل تلقائى كأن الشر غير موجود، الاهتمام بالإشاعات والرغى مع خلق الله كلهم، الطيبة، القدرة على الاحتمال، عقلية المحاسب المدققة... كل هذا جعله خير عون فى أوساط البيروقراطية المطعمّة بالتنافس السياسى والأحقاد. يبدو مأمون الجانب للجميع، يبتسم للكل ولا يثير حفيظة أو غيرة أحد، ويُبقِينى منتبها لرغبات ومخاوف ومؤامرات الموظفين الصغار، النمل الذى يأكل العصا كلما استطاع إلى ذلك سبيلا. ومع الوقت نمت له صداقات عديدة وسط العاملين، ساعدته على إنجاز العمل حين تنسدّ القنوات الرسمية. من وقتها، صار عبده ملازما لى فى كل خطوة، وساعدنى فى كل ما فعلت، بل ومكّننى من عبور أزمات طاحنة لا أدرى كيف كان يمكن أن أعبرها من دونه. الأمر الوحيد الذى أخفيته عنه هو موضوع الشحنة النووية التى نحن بصدد نقلها، وذلك كى أحميه من العواقب التى قد تصيبنى، كى أبقيه عونا أمينا لك ولبقية عائلتنا.

غرقتُ فى العمل والسياسة مرة أخرى، فأنستنى أمك والقطان وغضبى عليهما، وصرت لا أتذكرهما إلا قليلا، حين أجرى مكالمتى معك أو أتحدث مع صفية أختى؛ أنتما آخر من بقى فى حياتى الشخصية الهزيلة. لم أجرؤ على معاودة الاتصال بعفاف وإخوتها. وواصل عمر أخى مقاطعته غير المفهومة لى، رغم وساطة صفية ورغم تدهور حالته الصحية، وواصل قلبى تيبّسه ونومه الطويل.

وفى حين اختار عزالدين البعد عن مجريات الأحداث وعمل الحكومة، وركز مجهوده بشكل شبه كامل على شبكة شباب المحليات التى يعمل معها، فإننى ومحمود أصبحنا نلتقى بشكل شبه يومى خلال هذه الفترة. لعب محمود بحق دور المحرك لهذه الحكومة الائتلافية، فهو الذى يفض نزاعات الحلفاء، وهو الذى ينسّق عمل الحكومة مع الرئاسة والجيش وبقية الوزارات والهيئات، وكذلك مع مجلس الشعب المؤقت. وهو أيضا الذى يتحدث للإعلام باسم الحكومة، ويناور مع أصدقائه الإعلاميين من خلف الستار لحشد التأييد لعملها. وأنا أرقب كل ذلك وأتعجب متى وكيف اكتسب محمود هذه القدرات! لكن الحقيقة أن هذا أمر طبيعى، أنا الذى لم ألحظ طريقة عمله فى الماضى بشكل جيد. كل ما فعله فى حياته أصبح يصبّ الآن فى هذه البؤرة المتوهجة من النشاط السياسى، حتى علاقته المتخبطة بسالى القصبجى، وبعشاقها وعشيقاته، كل شىء فى حياته أصبح مسخرا لخدمة قدرته على توجيه دفة الأمور فى الاتجاه الذى يراه. أصبح محمود بشير سياسيا، بحق، وبالكامل.

لكن كل المجهود المبذول، وكل الإرادة الطيبة والآمال العريضة لا تعنى زوال العقبات الواقعية أمام نجاح مهمة الحكومة. حتى لو تجرد أعضاء الحكومة والتيارات السياسية التى ألفتها، من كل هوى أو طموح أو حسابات شخصية ـوهو ما لم يحدث بالطبع- فلا تزال هناك عقبات حقيقية تعترض طريق النجاح. لم تستطع الحكومة بدء محاكمة رموز النظام القديم، فلم يكن هناك قانون يصلح كأساس كافٍ للمحاكمة، وخشيَت الحكومة إن حاكمتهم بالقوانين الموجودة أن تتكرر مهزلة محاكمات قضية قتل المتظاهرين الأولى. فى نفس الوقت، لم يكن هناك فائدة تُرجَى من سَنّ قوانين بأثر رجعى. الحل الوحيد كان إنشاء محاكم ثورية خاصة بقانون خاص، لكن لم يكن بين التيارات السياسية إجماع على ذلك الأمر، وخشى البعض من أثره العكسى على الاستقرار.

فى نفس الوقت، فإن استمرار احتجاز رموز النظام هكذا بلا محاكمة لم يكن أمرا مقبولا، وصار يتسبب فى تعرض الحكومة لانتقادات داخلية وخارجية متزايدة، ونفاد صبر من الجميع. ولم يكن من الممكن أيضا الإفراج عنهم، وإلا انفجر أهالى الضحايا وعامة الشعب غضبا. وفى غياب حل معقول ممكن، ظل أعضاء الحكومة يهذون بتصريحات لا معنى لها، كأنهم يقذفون الكرة الملتهبة المسماة محاكمة رموز النظام القديم بعضهم لبعض دون أن يعرف أحد منهم ماذا يفعل بالكرة إن استقرت عنده، سوى أن يقذفها لآخَر.

نفس الشيء حدث بالنسبة إلى إعادة هيكلة أجهزة الأمن .فتلك الأخيرة، كما شرح لى حامد ولطفى، عقدت العزم على تفادى المواجهة مع الحكومة وتفادى الاستسلام فى آن واحد. ومن ثمّ كلما جاءت حكومة باقتراح لإعادة الهيكلة ناقشته الأجهزة المعنية لأطول فترة ممكنة، وقبلته مع بعض التعديلات، ثم تغرق القائمين عليه فى تفصيلات ومعوقات إدارية ومالية وقانونية، حتى تسقط الحكومة وتأتى أخرى فتبدأ من جديد. هذا ما حدث مع الحكومات السابقة، وما بدأ يحدث مجددا مع هذه الحكومة. الشيء الوحيد الذى كان يمكن أن يساعد على تحقيق الإصلاح الأمنى فعلا هو بناء أجهزة أمنية جديدة تعمل بالتوازى مع تلك القائمة وإخضاع الأجهزة القائمة لإشراف من خارجها، لكن ذلك كان يعنى الدخول فى مواجهات مع الأجهزة القائمة، ولا أحد من السياسيين يجرؤ على ذلك، خصوصا فى ضوء تردى الوضع الأمنى بالفعل، الذى سينهار بالكامل إذا حدثت هذه المواجهة، بما سيؤلّب الشعب نفسه على الحكومة .بمعنى آخر، صار الأمن رهينة فى يد القائمين عليه، يدافعون به عن أنفسهم ضد تدخل السياسيين فى عملهم ومؤسساتهم.

الوضع الاقتصادى كان أكثر تعقيدا من كل ذلك، ففى نهاية الأمر، وجدت الحكومة نفسها أمام المشكلة المزمنة، وهى الفقر وضعف الاقتصاد والموارد والقدرات. ومثلما شرح لى العقيد حامد، فإن أدوات الحكومة، الوزارات والهيئات، كانت جزءا من المشكلة. فهذه الهيئات نفسها جزء من المشكلة الأصلية، وتحتاج إلى إصلاح وتطوير بشكل عاجل وجذرى كى تتمكن من أداء مهامها الأصلية، فما بالك بأن تصبح هى أداة للتطوير والإصلاح؟ الكلام سهل، كما اعترف محمود بشير فى النهاية، والمشروعات والأفكار تبدو كلها براقة عند طرحها، لكن عندما تبدأ فى التنفيذ، تجد أن تراكم المشكلات وتجمُّعها كلها يخلق كتلة ضخمة من الفشل تشدّ مشروعات الإصلاح نحو الأسفل وتجثم بثقلها عليها حتى تغرقها معها وتحوّلها إلى جزء من إمبراطورية الفشل المترامية الأطراف.

والآن، حين صرت قريبا من مناورات صنع القرار ولست مجرد مترجم وشاهد بين مقعدين، أفزعتنى قدرة الفشل على التهام الأفكار الجديدة ومشروعات الإصلاح. وأشهد أن محمود بشير وجميع أعضاء هذه الحكومة بذلوا قصارى جهدهم، على الأقل فى هذه المرحلة المبكّرة، لكن هذا الجهد مهما بلغ لم يكن قادرا على تحويل الماء إلى نار، ولا على زيادة إنتاجية العمال، أو تنافسية المنتجات، أو خصوبة التربة وكمية المحاصيل، ولم تكن قادرة على دفع الأوبئة والأمراض التى تدمِّر صحة الناس وميزانية الخدمات، أو تنور المدرسين أو ترفع كفاءة الموظفين. كان كثيرون حادى الانتقاد لأداء الحكومة، سواء من السياسيين كعزالدين أو من عامة الشعب. شهران مرا ولم يلمس الناس تحسُّنا فى أحوالهم وبدؤوا فى الامتعاض. محمود رأى فى انتقاد الناس للحكومة استسهالا للكلام وعدم إدراك لحجم المشكلات التى تعانى منها البلاد، وحين قال ذلك انتقده الناس أكثر لأن كلامه ذكّرهم بما كانت كل حكومة سابقة تقوله تبريرا لفشلها. أما عزالدين وأصدقاؤه الديمقراطيون المدنيون فكانت انتقاداتهم منصبّة على تردد الحكومة، ففى رأيهم كان المطلوب قرارات حاسمة لتجاوز حالة الثورة نحو الاستقرار، مثل إحالة المقبوض عليهم إلى محاكم ثورية، وفصل من لا يصلح، وهكذا. قال لمحمود إن البطء سيجعل الحكومة تدفع الثمن نفسه ولا تحصد نتيجة، وفى النهاية يخسر كل الأطراف، فى حين أن بعض الحدة والحسم سيكون له آثار موجعة فى البداية، لكنه سيخفف عن الجميع أثقال الماضى ويسمح للبلد بالانطلاق. بعض أعضاء الحكومة أيّدوا وجهة النظر هذه، لكنهم لم يكونوا أغلبية. ولم يعد الاختلاف على ما يجب عمله مرتبطا بالتيار السياسى، فقد أصبح هناك ثوريون وديمقراطيون وإسلاميون يرون ضرورة أخذ طريق أكثر حسما وجرأة، فى حين وقف ثوريون وديمقراطيون وإسلاميون آخرون مع منهج الحكومة التدريجى.

أما أنا فقد وقفت أشاهد كل هذا وأنا غير واثق أى المعسكرين على حق .العقيد حامد، الذى كانت تحليلاته دقيقة فى معظم الأحيان، قال إن وجهتَى النظر صحيحتان، ويمكن تنفيذهما، لكن الفارق الحقيقى هو الثمن الذى يتطلبه كل من هذين الخيارين. أما هو فلم يكن قلقا من أى من هذا بقدر ما كان قلقا مما يسميه «تفتُّت سلطة الدولة». لم يكن الأمر يتعلق بفوضى محتمَلة، فالناس فى نظره لا يعيشون فى الفوضى كثيرا. وما حدث منذ اندلعت الثورة الأولى هو نشأة نُظُم وترتيبات غير رسمية يدير الناس بها حياتهم فى شتى المجالات، من الحفاظ على الأمن إلى توفير حاجاتهم الاقتصادية إلى حل المنازعات بينهم، بعيدا عن مؤسسات الدولة. لكن هذا الأمر سيحدّ من قدرة أى حكومة قادمة على الإصلاح، بل على إدارة البلاد.

وبين الحكومة، ومصادرى الأخرى، ومحاولاتى لإعادة بناء مؤسسة الرئاسة، وجدت نفسى فى نهاية الأمر أعمل نحو ثمانى عشرة ساعة فى اليوم. معظم هذه الساعات يضيع فى تفاهات بيروقراطية لا مفرّ منها إن أردت إعادة بناء مؤسسة، وكثير من الإحباط والضجر. وفى وسط كل هذا يصاحبنى عبده، وينبهنى دائما إلى ضرورة الاهتمام بصحتى، وبالطعام، وبالمشى ولو لبعض الوقت أمام المقر على الكورنيش، وبالاتصال بكَ أو بصفية، وحاول عدة مرات إقناعى بالخروج أو السهر، وأنا أستبعد «نصائحه» هذه. من وقت إلى آخر تأتينا دعوات من بعض السفارات الأجنبية لحضور حفلات أو عروض فنية أو أمسيات ثقافية تتبناها هذه السفارات أو تمولها. بصفة عامة أرفضها وأعطيها للسكرتيرة لتوزّعها على من يريد. وعبده يحاول إقناعى بالذهاب إلى هذه العروض كلها، ويجد لكل منها سمة خاصة تبرّر أهمية تعرُّفى عليه أو حضورى ومشاركتى فيه، بشكل أصبح يثير الضحك. حتى جاء يوم كان من المفترض أن ألتقى فيه وفدا من نقابة موظفى الدولة المستقلة فى السابعة والنصف مساء ولم يأتِ الوفد، وتَبيّن أن السكرتيرة أخطأت فى إبلاغهم بالموعد. ومن ثم أصبح لدىّ فجأة أمسية فارغة، وعندها ابتسم عبده وأخرج من جيبه دعوة لحضور مسرحية «أنتيجون» لجان أنوى تقدمها فرقة المسرح القومى. نظرت إليه كأنه معتوه؛ أفى وسط كل هذا أذهب إلى المسرح؟ أنا الذى لم أدخل مسرحية منذ كنت فى بكين! لكنى فى النهاية وجدت نفسى جالسا بجوار عبده فى مقعد أحمر بالصف الأول بالمسرح الكبير بدار الأوبرا أنتظر رفع الستار.

ثم ظهرَت نور.

الحلقة الحادية والثلاثون

عدت إلى المكتب فى الصباح فوجدت أخبارا سيئة تنتظرنى ..تقريرا من الداخلية عن مشكلات فى نجع حمادى بين الأهالى وإدارة مصنع الألمنيوم.. حيث يريد الأهالى تعيين أبنائهم فى المصنع

عندما رأيت نور لأول مرة، لم يحدث لى أى شىء. لا تدَع الأفلام والأغانى والروايات تخدعك، وتوهمك بأن صواعق ستحلّ عليك حين ترى محبوبتك لأول مرة، وأن النور سينبلج من الظلمة ويغشاك توهُّج يجعل خلاياك تحترق .فى معظم الأحيان، ربما فى كل الأحيان، لن يحدث لك شىء من هذا حين ترى لأول مرة المرأة التى ستصبح حبيبتك. كل ما هنالك أنى لاحظتها، كأنى أخذت علما بوجودها وأدرجتها فى مكان ما فى ذاكرتى. نور، الممثلة التى قامت بدور أنتيجون. صار هذا مفتاح ملفّها عندى. لعل الآخرين يحبون بشكل مختلف، ولعلك تقول لنفسك إن هذه طريقة سكرتير معلومات فى الحب. قل ما تشاء، ستجرب بنفسك وترى.

أعجبتنى نور. ولم أتابع المسرحية جيدا لأنى كنت مشغولا بمراقبتها هى .طريقة حديثها، أدائها، ملابسها، ملامح وجهها حين تقترب من حافة خشبة المسرح وأستطيع رؤيتها جيدا، شعرها، قوامها وحركتها. تتحرك على المسرح بخفة كأنها تنساب لا تمشى بخطوات، وشعرها الغزير يتبعها كأنه يحاول اللحاق بها. كانت دقيقة الملامح صغيرة الحجم بشكل لافت، كأنها دمية .وبشرتها البيضاء الناصعة تُبرز سواد عينيها وشعرها أكثر. لها غمازتان تشرقان حين تبتسم فتزيد ابتسامتها إشراقا، ونظرة عتاب مستمرة تُبقيك منتبها كى لا تخطئ فى حقها. هناك شىء فيها يمسُّك من قُرْب، لا أعرف ما هو، لكنها حين تحدثك يخرج صوتها كأنه يدها تمسح على نفسك. راقبتها طوال المسرحية بإعجاب، وقلت لعبده إن فكرته كانت جيدة ويجب علينا تكرار ذلك بشكل دورى كى نخرج من إطار المكتب ومشكلاته وجوه العقيم. ابتهج عبده، وبدأ ينسج خططا لنشاطنا الثقافى: عروض موسيقية، معارض فنية، ندوات ...قاطعته، وطلبت منه التركيز على المسرح. نعم، كنت أريد رؤيتها مرة أخرى، لكنى لم أكن أفصحت لنفسى عن هذه الرغبة، بعد.

عدت إلى المكتب فى الصباح فوجدت أخبارا سيئة تنتظرنى، تقريرا من الداخلية عن مشكلات فى نجع حمادى بين الأهالى وإدارة مصنع الألمنيوم، حيث يريد الأهالى تعيين أبنائهم فى المصنع، وإدارتُه ترفض، بالطبع، وانتهى الأمر بالأهالى إلى أن حاصروا المصنع وقطعوا عنه الإمدادات حتى توقف عن العمل.
اتصلت بالعقيد لطفى فقال إن الشرطة الموجودة هناك لا تستطيع التدخل، لأنها قوة صغيرة وتعتمد فى أمنها وحركتها على قبول الأهالى لدورها. ونصح، كما ورد بالتقرير، المصنع بالتفاهم مع الأهالى وربما تعيين بعض أبنائهم فى أى وظائف ولو رمزية كى تسير الأمور. اتصلت بمحمود فلم أستطع الوصول إليه إلا بعد عدة ساعات، اتصلت بالمحافظ فأخبرنى أن الموقف تدهور منذ الصباح، حيث رفضت إدارة المصنع تعيين المزيد، خصوصا أن هذه ثالث مرة يحدث فيها نفس الأمر خلال عام، ولم يعد الأمر يحتمل تعيين مزيد من الأيدى التى لا عمل لها وترهق الميزانية وتعطّل العمل. وبعد إعلان الإدارة موقفها اقتحم بعض الأهالى المصنع وحطموا أجزاء منه، ونهبوا بعض محتوياته، وأشعلوا النار فى البقية. وتمكنت قوة الشرطة التى راقبت كل ذلك دون تدخل من إجلاء العاملين دون أذى، بعد التفاوض مع المحتجين.

لم تكن حادثة نجع حمادى سوى بداية التدهور فى علاقة حكومة الوحدة الوطنية بالناس. تَحوّل تململ الناس من بطء تحسُّن الأحوال إلى ضجر، ثم انتقادات، ثم احتجاجات، ثم انقلب إلى غضب حين اكتشفوا أن المسألة ليست مجرد بطء بل عجز عن تحسين الأمور، وأن ما يسمونه بطئا هو غاية ما يمكنهم انتظار حدوثه .لن تستطيع الحكومة فعل أكثر من هذا خلال السنوات الثلاث القادمة، هكذا أعلن بشير حين قرر ضرورة مصارحة الناس وتخفيض توقعاتهم .استند فى شجاعته المؤقتة إلى قوة التحالف الذى تقوم عليه الحكومة، لكنه لم يرَ ما يجرى تحت قدميه، فقد كان حلفاؤه هم أول من انفضَّ عنه .الاتحادات النقابية المستقلة التى دعمت التيار اليسارى الثورى هى التى بدأت بالانفضاض عن الحكومة ثم الانقضاض عليها. للحق إن بعض النقابات وقف مع بشير واستمرّ فى دعم تياره والحكومة، لكن عملية تفتت السلطة التى لا يكلُّ العقيد حامد عن التحدث عنها كانت جارية داخل النقابات أيضا.

ففى حين وقفت معظم القيادات مع تيارها السياسى وممثله بشير واستمرت فى مساندة الحكومة، فإن قيادات منافسة وجدت فى هذا الموقف فرصة سياسية لها، وعملت على الاستفادة من الاحتقان الشعبى بتبنِّى مواقف أكثر ثورية من قياداتها كى تزيحها جانبا .ونجحت. انقلب السحر على الساحر، كما أخذ محمود يردد فى مرارة، وأصبح الاحتجاج والثورة حالة دائمة. لم أرَه تائها هكذا من قبل، ربما حين اكتشف خيانة سالى القصبجى له أول مرة. قال إن هذا هو طريق الهلاك، فمهما فعلت سيكون هناك غاضبون ومحتجون، وإن لم تستطع القيادات، وبالذات القيادات الثورية، السيطرة على قواعدها، فلن يمكن التحرك على الإطلاق. قلب حامد شفتيه وأشار بيده أن «ألم نقُل هذا من البداية؟.«!

بدأت المعركة، ونظمت التجمعات النقابية المنشقَّة عن النقابات المستقلة مظاهرات واحتجاجات اجتذبت أعدادا متزايدة من الناس. حاول محمود التنسيق مع الإسلاميين والقوى الديمقراطية، لكن كلتا القوتين خافت على قواعدها أن يصيبها ما أصاب قواعد الثوريين اليساريين إن أخذت موقفا فى هذا الأمر، فظلتا على الحياد. وقف بشير وزملاؤه يرقبون الاحتجاجات وهى تتصاعد دون أن يكون لديهم أدنى فكرة عما يمكنهم فعله، ثم قرر بشير التحرك .بعد خمسة أيام بدأت النقابات المستقلة التى ظلت على ولائها لبشير وتياره فى تنظيم احتجاجات مضادة، تدعم الحكومة وتتهم التنظيمات الأخرى بالتخريب والعمل لصالح الإسلاميين، من أجل كسر الحركة الثورية. جاءنى عزالدين إلى المكتب فزعا، وقال إن ما يحدث مهزلة، وإن محمود يسير فى خطى النظام القديم ويستعين بأمن الدولة لتقسيم النقابات، ولم يعد ينقصه سوى تنظيم موقعة جمل جديدة. حاولت ترتيب اجتماع للقوى المشتركة فى الحكومة مع المجلس الرئاسى لكنى لم أفلح. حاولت العثور على محمود ليأتى ويتحدث معى أنا وعزالدين لكنه لم يكن متاحا. انصرف عزالدين وهو غاضب. وبقيت أراقب ما يحدث.

أكد لى العقيد لطفى أنهم يتحركون بالفعل وسط الاحتجاجات بالتنسيق مع بشير وتياره، قائلا إن هذا هو الحل الوحيد إذا أردنا إنقاذ الحكومة من التفكك .وقع بعض المصادمات فى اليوم السادس بين المتظاهرين من الجانبين، وعند هذه النقطة اندفع مؤيدو التيارات الديمقراطية المدنية وشباب الحركات الإسلامية لحماية المحتجين والدفاع عنهم ضد «ممارسات الفلول» من قِبل حلفائهم فى الحكومة. وفى غضون أربع وعشرين ساعة تحول ما بدأ كاحتجاج نقابى جزئى إلى كرة من اللهب اجتذبت بقية المطالب الشعبية. وبدأ تحالف الحكومة فى التشقق.

تمكنت من العثور على محمود فى أول المساء، ووجدته فى حالة هياج عصبى شديد ويكيل الاتهامات يمينا ويسارا. حاولت تهدئته لكنه لم يكن يسمع .عقدنا اجتماع المجلس الرئاسى مع أقطاب الحكومة فى العاشرة مساء ولم نصل إلى شىء، سوى أن ممثلى الكتلتين الأخريين بدؤوا يلوِّحون بالانسحاب من الحكومة. لم يكن لدى أحد حل حقيقى، فحتى لو انسحبوا من الحكومة، ماذا سيفعلون بعدها؟ هل سيشكّلون حكومة دون اليسار الثورى؟ وفى هذه الحالة هل ستكون أقوى سياسيا أم أضعف؟ وكيف سينجحون فى تلبية مطالب الناس التى لا يستطيعون الآن تلبيتها؟ سألهم محمود بشير هذا السؤال مباشرة، فسكتوا جميعا .لم يكن الأمر الآن يتعلق بتلبية مطالب الناس، بل بصرفهم من الميادين واستعادة الهدوء .وفجأة تذكرت اللواء القطان وما كان ينقله إلىّ من محادثات تدور داخل الرئاسة فى آخر يناير 2011. انتابنى دوار مفاجئ وقوىّ، أُغشِيَ علىّ بعده بثوانٍ قليلة.

كانت هذه أول مرة أُصاب بهذا الدوار الذى لازمنى بعد ذلك. يأتى دائما فى أوقات غير متوقَّعة. قمت بكل الفحوص الطبية التى تخطر على بالك، من فحص ضغط الدم إلى الجهاز العصبى وعلامات الصرع، ولم يجد الأطباء شيئا غير عادى. وفى النهاية نصحونى بالاهتمام بطعامى! لا أريد أن أكون أبا سيئا، لكن بصراحة، فى حياتى كلها لم أجد فائدة للأطباء. المهمّ .أفقت فوجدت بعض الزملاء يعطوننى مياها وبسكويتا، وتطوعت السكرتيرة لسبب غامض بإغراق شعرى بالماء والعطر. انفضّ الاجتماع من دون الوصول إلى نتيجة، كأن إغمائى الدرامى سمح لهم بالقيام والهرب من مسؤولية اتخاذ قرارات لا يعرفون ما هى.

عدت إلى مكتبى فوجدت العقيد سعيد قد اتصل بى فعاودت الاتصال به. وجدته متوترا وقال لى فورا إن «صديقك بشير» يلعب لعبة خطرة، ويغازل بعض قيادات الجيش. ولو نجح وأقنعهم بالتدخل فإنه سيجرّ الجميع إلى هوة أكبر، وطلب منى نصحه بالرجوع عن هذا الطريق وتسوية مشكلاته السياسية دون إقحام للقوات المسلحة فيها. شكرته واتصلت بالعقيد حامد لأرى إن كان لديه شىء فقال لى إن هذه الحكومة فى طريقها إلى السقوط فى تقديرهم، وقد يكون هذا هو المخرج الوحيد الذى يهدئ الناس. سألته ثم ماذا، فقال لا شىء، حكومة جديدة، ونفس البرنامج، وربما احتجاجات جديدة، حتى يهبط سقف توقعات الناس، أو حتى يصبح السياسيون أكثر مسؤولية ويصارحوا قواعدهم بالحقائق دون خشية فقدانهم لشعبيتهم.

فى اليوم التالى تحولت انتقادات القوى الديمقراطية المدنية الخافتة للأداء الحكومى إلى نغمة أكثر حدة وعلانية، وتبعتهم التيارات الإسلامية، وبذلك تَخلّت الكتلتان عن شريكهما الثالث وعن حكومتهم واختارتا الوقوف بجانب الاحتجاجات وهما تعلمان جيدا أنهما لن تستطيعا الاستجابة لطلباتها .اختارت الكتلتان جانب المزايدة مع قيادات الاحتجاج صيانة لقواعدهما السياسية، وحين فعلتا ذلك اكتسبت الاحتجاجات زخما إضافيا، وتحرك المحتجون إلى الكورنيش وحاصروا المقر الرئاسى وأعلنوا أنهم لن يرحلوا قبل استقالة الحكومة. وصل المحتجون إلى محيط المبنى فى الحادية عشرة صباحا، ولأول مرة لا أشعر بالتعاطف مع المتظاهرين، بل تجتاحنى غصة عميقة لسماع صيحات الاحتجاج و«الشعب يريد» وبقية الشعارات .عند هذه النقطة علمت أنى تعبت من الثورة. لم يكن أعضاء الحكومة داخل المبنى حين بدأ الحصار، ولا أعضاء المجلس الرئاسى. لم يكن بالمبنى سوى الموظفين، وأعتقد أنى كنت أكبر الموظفين الموجودين درجة، إذ كان رئيس الديوان فى اجتماع خارج المقر. وحتى العصر لم يصدر شىء لا عن الحكومة ولا عن المجلس الرئاسى، فزاد غضب المحتجين وبدؤوا فى رشق المبنى بالحجارة .وقفت فى مكتبى فى الدور السابع أرقب المحتجين يحطمون واجهة المقر، وكل ما يسيطر على تفكيرى هو كيفية تفادى الركل بالأحذية مرة أخرى.

الحلقة الثانية والثلاثون

محمود بشير قام بدور رئيسى فى عملية التضحية بحازم شعراوى.. حضرتُ جزءا من هذه المشاورات فى اجتماع موسّع ضمّ قادة القوى السياسية الرئيسية وأعضاء المجلس الرئاسى وممثلى الأجهزة الأمنية

رأس حازم شعراوى هو الذى أنقذنى من الركل هذه المرة .كنت واقفا فى مكتبى أرقب الجموع الغاضبة ترشق واجهة مقر الرئاسة، ورجال الأمن يحتمون بدروعهم. أعلم أنهم لن يتدخلوا إذا ما اقتحمت الجموع المبنى، وحتى لو تدخلوا فلن يفلحوا فى منعها. وبينما كنت واقفا أسأل نفسى إن كان مصيرى سيكون كالمرة الماضية أم أسوأ، أعلن الدكتور حازم شعراوى استقالته من منصب رئيس الوزراء وتحمله مسؤولية فشل حكومة الوحدة الوطنية فى تلبية مطالب الشعب. وفى غضون خمس دقائق من إذاعة الخبر توقف المتظاهرون عن مهاجمة المبنى، ثم بدؤوا ينصرفون وهم يهتفون بانتصار الشعب. شعرت بالراحة، فلم أتحمل فكرة تكسير ضلوعى مرة أخرى من قِبل أناس يكرهوننى بعنف دون سابق معرفة. لكنى أيضا شعرت بمرارة؛ هؤلاء المحتجون مساكين فعلا، يعانون معاناة حقيقية، ولديهم آمال يظنونها قابلة للتنفيذ، وعندهم شعور بالقدرة على فرض مطالبهم، ولا يعرفون فى ابتهاجهم بالنصر إلى أى حد هم مخدوعون. لو قلت لهم ما صدّقونى، وربما لو عرفوا لساء الوضع أكثر. وقفت أرقب الجموع تبتعد وهى تحتفل فى جذل بلا أساس، أسأل نفسى إن كان هناك مخرج من معضلة الخداع المركّبة هذه. لم أجد، ساعتها، فجمعت أوراقى وغادرت.

بدأت المشاورات من اليوم التالى. تعلم الأطراف جيدًا أن الحكومة القادمة لن تكون أفضل من التى سقطت، وأن حازم شعراوى برىء، كبش فداء ذُبح أمام الجماهير الغاضبة كى تهدأ. سبق إعلان حازم مناورات بين القوى السياسية، كل تحاول تلبيس الأخرى المسؤولية، لكن كل قوة دافعت عن رجالها فى الحكومة وهددت بإحراق الحكومة التالية إن تم المساس بهم. ولم يبقَ سوى حازم شعراوى، الذى بنى مكانته السياسية حول نفسه كفرد، لأنه لم يُرد الانضمام إلى أى قوة سياسية، ولأنه كان محبوب شباب الثورة وظن أن هذا الحب سيحميه. لم يقرأ ماكيافيللى جيدا، لم يعرف أن حب الناس فى يدهم لا فى يده هو، وأنه لا يدوم. وحين حمى وطيس الصراع السياسى وجد نفسه واقفا وحده، لا يستند إلى قوة تحميه وتدافع عنه، وبين الجماهير الغاضبة الزاحفة المتوعدة وزملائه فى الحكومة المتمترسين تحت غطاء قواهم السياسية، وقف حازم شعراوى بجسده النحيل وابتسامته الطيبة وتفاؤله المفرط، كبشا ضعيفا وحيدا .خيّروه بين كأس السم النبيل والتجريس المفضى إلى الذبح، فاختار كأس السم الدرامية، تجرعها أمام الكاميرات، ثم هوى فى جُبّ النسيان العميق.

قام محمود بشير بدور رئيسى فى عملية التضحية بحازم شعراوى. وانتقل بعدها إلى ما أسماه الخطوة الثانية، وهى حسم مصير قادة النقابات المنشقّة الذين بدؤوا الاحتجاج. حضرتُ جزءا من هذه المشاورات، فى اجتماع موسَّع ضمَّ قادة القوى السياسية الرئيسية وأعضاء المجلس الرئاسى وممثلى الأجهزة الأمنية. العقيد لطفى، ممثل أمن الدولة أوصى بإدخال هؤلاء القادة فى الحكومة، وهو ما رفضه محمود بشير فى البداية وسانده فى ذلك العقيد حامد ممثل المخابرات العامة والعقيد سعيد ممثل المخابرات العسكرية، اللذان قالا إن مثل هذا الإجراء سيشجع كل طامح إلى تنظيم احتجاجات كى يصعد على ظهرها إلى عضوية الحكومة، وهو باب إن فُتح لن يمكن لأحد إغلاقه وسينهى إمكانية استقرار أى حكومة، بل سيفتت القوى السياسية نفسها. سأل ممثلو القوى السياسية محمود إن كان لديه وسيلة أخرى لاحتواء القادة المنشقِّين فنفى، معترفا بأنهم خارج سيطرته. لكنه فى نفس الوقت تمسك بإبقائهم خارج الحكومة .وفُضّ الاجتماع دون التوصل إلى نتيجة على أن نجتمع مرة أخرى فى المساء.

قضيت بعد الظهر فى اتصالات ومناقشات، وحادثت عزالدين لأستمع إلى رأيه فوجدته من رأى حامد وسعيد، لكنه شدد على أن المشكلة ليست فى تشكيل الحكومة بل فى ما ستفعله هذه الحكومة إزاء المسائل المعلقة، وما إذا كانت ستتعامل بحسم مع هذه المشكلات أم ستظل تحاول الإمساك بالعصا من المنتصف فتخسر كل الأطراف. بدأ اجتماع المساء فى السادسة ولم يستمرّ سوى لمدة ساعة، أدركنا خلالها أننا لن نحرز تقدّما يُذكَر، فقررنا جميعا الانتظار إلى الصباح عسى الليل أن يأتى لنا بفكرة مفيدة.

كانت الساعة السابعة والنصف وأنا أتأهب للرحيل حين دخل علىّ عبده وفى يده دعوتان لحضور عرض مسرحى. نظرت إليه مستنكرا؛ لم يكن هذا وقته إطلاقا .لكنه مدّ الدعوة فى وجهى وأنا أسأله عن المجانين الذين ينظمون عرضا مسرحيا فى وسط أزمة كهذه، ولمحت ساعتها اسمها على الدعوة، فصمتّ .نظرت فى ساعتى .لدينا وقت. قال عبده إن الوقت مبكر وليس لدينا شىء نفعله ومن الأفضل أن نغسل حالتنا النفسية بشىء راقٍ كهذا. هززت رأسى موافقا، ومحاولا إخفاء سعادتى، وذهبنا.

هذه المرة حين رأيتها على المسرح حدثت لى أشياء. لا أدرى كيف أصفها لك، لكنى شعرت كأن شيئا ناقصا منى قد عاد وأكملنى. هدأت نفسى واطمأنّت. ثم شعرت بدفء فى قلبى. وأظن أن ابتسامة بلهاء ارتسمت على وجهى. هذا هو الأمر، باختصار شديد. وحين يحدث لك هذا فاعلم أن روحك قد ارتبطت بشخص آخر. قد يكون ذلك الأمر سبب سعادتك، أو تعاستك، أو كلا الأمرين، حسب ظروفك وظروف الشخص الذى ترتبط به. يمكنك أن تنسحب وتحاول نسيان الأمر أو تجاهله، ويمكنك أن تُقدِم، أو تظلّ تراوح بين الأمرين، ولكل من هذه الاختيارات عواقب وثمن ستدفعه. فى حالتى أنا، اخترت المراوحة .لأسباب بيّنة، لم أستطع الإقدام، لكن قلبى الذى يبس منذ عشرين عاما تعلق برائحة الحياة ولم يطاوعنى حين حاولت الانسحاب. أقنعنى قلبى أن الأمر لا يتعدى الإعجاب بممثلة، مثلما يجرى كل يوم مع ملايين من البشر، وقال لى أن لا أقسو على نفسى لدرجة حرمانى من مشاهدة ممثلة تؤدى أدوارا على مسرح لمجرد كونها فاتنة؛ أليس هذا دور الممثلات؟ أقنعنى قلبى -واليائس لا يتورع عن الخداع -أن لا شىء غير عادى يحدث، أو يُتوقع حدوثه؛ كل ما علىّ هو العودة لمشاهدتها، من وقت إلى آخر.

لكنى عدت لمشاهدتها فى اليوم التالى، والذى تلاه. قلت لعبده إن هذا العرض رائع، ووافقنى متشككا، ويبدو أنه فهم بعد قليل، فصار يأتينى بدعوات وتذاكر لكل عروضها المسرحية. شاهدت نور فى كل الأماكن التى قدمت فيها عروضا: من مسرح الجرن الذى تتبناه مع مجموعة من أصدقائها، إلى المقاهى والمسارح المستقلة التى أنشأها الشباب بالعشرات فى كل المدن، وحتى دار الأوبرا. بل شاهدت عروضها السابقة على الإنترنت، وجمعت صورها المتاحة ووضعتها فى ذاكرة هاتفى المحمول. وجمعت كل المعلومات المتاحة عنها. وفى خلال عدة أسابيع كنت قد استقررت سعيدا فى حالة الهوس بهذه المرأة، نور .لكنى أسبق الأحداث. لنعُد إلى التسلسل الزمنى المضبوط.

فى الصباح كانت الفكرة قد جاءت، ومن ممثل الإخوان .اقترح إدخال ممثل عن النقابات المنشقّة وزيرا فى الحكومة، وفى نفس الوقت، وكيلا يحقِق قادة الانشقاق نصرا على القيادة الأصلية للحركة النقابية واليسار الثورى، يتولى محمود بشير رئاسة الوزارة خلفا لحازم شعراوى، وهو الأمر الذى سيوحى إلى العمال والموظفين والفئات الأفقر بأن أولوية هذه الحكومة هى الاستجابة لمطالبهم التى تسببت فى الاحتجاجات الأخيرة. صمتنا جميعا. كان الحل عبقريا، ولكنه غير متوقّع بالمرة. فحتى الآن قامت حكومة الوحدة الوطنية على مبدأ إسناد منصب رئيس الوزراء إلى شخص مستقل عن القوى السياسية المتحالفة حفظا للتوازن بينها. وتساءل الجميع عن سر هذا الكرم المفاجئ من قِبَل الإخوان وما إذا كانوا يدبّرون مكيدة ما. تمتم كل واحد ببعض الكلمات التى لا تعنى الكثير، ثم أخذنا استراحة للتشاور.

طلب ممثلو الأجهزة الأمنية الثلاثة الاجتماع بمحمود بشير وزملائه من التيار الثورى لمناقشة الموقف، وطلبوا منى المشاركة فى الاجتماع. بدأ العقيد لطفى الاجتماع بتهنئتهم بهذه الفرصة، مضيفا أن معلوماتهم تشير إلى أن الإخوان وبقية التيارات المتأسلمة قررت عدم المنافسة على قيادة الحكومة فى هذه الفترة بل وتشجيع القوى الأخرى على ذلك كى تتفادى أى مواجهة مع الجماهير فى ضوء استحالة تلبية المطالب الشعبية فى وقت قريب، وكذلك كى تتفرغ لإعادة تنظيم صفوفها التى أصابها ما أصاب المجتمع كله من تفتُت وتشرذُم. ومن هنا جاء عرضهم بترك رئاسة الحكومة لبشير، مشيرا إلى وجود تقديرات باستعدادهم فى المستقبل للانسحاب من الحكومة برمتها. رد بشير بأن ذلك أدعى إلى رفض العرض وتحميلهم مسؤولياتهم إزاء الوضع المتردى .وهنا انبرى له العقيد حامد الذى حاول طوال الاجتماع السيطرة على غضبه البادى .

عدّد له حامد المخاطر التى تواجهها البلاد: الشرطة تفتّتت وأصبحت وحداتها غير قادرة على تنفيذ الأوامر الصادرة إليها، ولا تستطيع العمل فى محيطها دون معونة اللجان الشعبية فى المدن والعائلات فى الأرياف. وظهرت شرطة للسلفيين والإخوان فى بعض المناطق. وروابط الألتراس المسلحة تتجول جهارا نهارا فى المدن وتعمل كحرس ثورى يتدخل فى الأزمات الكبرى. شركات الأمن الخاصة توسعت فى العمل بحيث لم تعد تقتصر على حراسة المنتجعات بل بدأت المنشآت الاقتصادية الكبرى العامة والخاصة تستعين بها، إضافة إلى البنوك والسفارات، وظهر كثير من الروس وبعض الصينيين فى هذه الشركات. قال حامد، بهدوء العازم على السيطرة على غضب متفجر، إن هذا التردى فى الوضع الأمنى يصاحبه تردٍّ فى قدرة بقية مؤسسات الدولة على العمل، بحيث لم يعد للقرار المركزى الصادر من الحكومة كثير معنى. وأصبح للقرار مراكز أخرى. هذا بالإضافة إلى المخاطر الخارجية المتفاقمة، من الوضع فى سيناء إلى انتشار القوات الأمريكية فى كل مكان فى الخليج إلى الحرب الأهلية فى سوريا. كل هذا معناه تآكل لسلطة الدولة فى الداخل ولقدرتها على الحركة فى الخارج، إن استمر فسيؤدى إلى انهيار الدولة نفسها بالتدريج. أضاف حامد أن هذا تقدير موضوعى للموقف لا دخل للعواطف والرغبات فيه، وأن السؤال الآن هو: هل هناك قوة سياسية مستعدة وقادرة على معالجة الموقف وتغييره نحو الأفضل؟ نظر إلى محمود فى عينيه وقال له إن الفرصة مواتية الآن أمامه، هو ممثل التيار الثورى، لحشد هذا التيار خلف عملية إصلاح جذرية تنقل البلاد إلى الأمام وتنقذها، ولا يصح التخاذل فى هذه اللحظة. سكت. أضاف العقيد سعيد بصوته الجهورى أنه لا يريد صدمة الحضور لكن الحقيقة أن الجيش بدأ يتململ من هذه الحالة، ومن عبث المدنيين بمقدّرات البلاد، وعليهم أخذ ذلك فى الاعتبار .ران صمت عميق. قطعه لطفى قائلا إن قيادات الداخلية أصبحت تستشعر الخطر المحدق بالوضع، وهى مستعدة للتعاون فى مجال الإصلاح الأمنى إن لمست جدية من الحكومة.

صمت محمود بشير لحظات ثم طلب يومين للتشاور بشكل موسع مع زملائه ومؤيديه.

الحلقة الثالثة والثلاثون

فى آخر المساء عاودت الاتصال بصفية وتنفست الصعداء حين ردّت أخيرا وجدت صوتها مُغلقا مخنوقا وأخبرتنى على التو بتدهور حالة عمر الصحية وتزايد مشكلات القلب التى يعانى منها

قبِل محمود بتشكيل الحكومة الجديدة، وصار رئيسا للوزراء، وفى خلال أسبوع أعلن عن حكومة تضمُ ممثلين لجميع التيارات، بما فى ذلك ممثل عن قادة النقابات المنشقّة، مع موازنته بممثِّل عن قادة النقابات المستقلة. هل أخطأ بقبوله هذه المهمّة؟ كانت التحديات كبيرة، لكنها أيضا فرصة له وللتيار الذى يمثِّله. ووعده الجميع بالمساندة، فأغراه ذلك بالقبول. تناسى أنه وتيّاره جزء من سلسلة متعددة الحلقات، ومهما شدّ من عوده وتَقوّى لم يكن بمقدوره شد الحلقات الأخرى كى تستقيم وتنتظم حركتها مع حركته. كما لم يكن بوسعه التحرك منفردا دون الحلقات الأخرى .نجاحه يتطلب القدرة على ضبط حركة الحلقات الأخرى، والذهاب بعيدا، وهو ما لم يكن مستعدا له ولا قادرا عليه. لكن كم منا يستطيع مقاومة الأمل حين يتعارض مع حسابات العقل؟ قليلون، ومحمود بشير ليس من بينهم. انطلاقه الدائم، ورغبته فى دفع الأمور وخوض غمار التجربة، غالبا ما تَغلّبا على حساباته .لهذا قبِل هذه المهمة، وهكذا بدأت نهايته.

كان اليوم التالى لتشكيل الحكومة هو عيد العمال، وقررت قضاءه فى البيت لأرتاح وأُجرى بعض الاتصالات الشخصية التى لا أجد الوقت لإجرائها. جلست على سطح المنزل أرقب السماء والبيوت الأخرى والحديقة الصغيرة التى اعتنى بها عبده وحوّلها إلى مشتل صغير بعد أن دمّرها »المواطنون الرُحّل .«لم يكتفِ بإعادة زرع نباتات الزينة الأصلية، بل أضاف إليها ريحانا ونعناعا ثم بعض الخضراوات، فأصبحت هذه الحديقة الصغيرة تعطينا خَسًا وجرجيرا وبقدونسا وشبتا وطماطم. لكنه حين اقترح تحويل حوض الاستحمام الخالى إلى مزرعة صغيرة للسمك رفضت؛ لا أعتقد أن أختى ستغفر لى هذا.

فى نفس اليوم الذى أُعلِنَ فيه عن تولى محمود بشير رئاسة الوزراء تم الاتفاق بين البنك المركزى ووزير المالية على تسوية لمشكلة البنوك ففُكّت الأرصدة المجمّدة منذ الثورة الثانية. استعدت أموالى أخيرا، وسدّدت ديونى لمحمود وعزالدين، بل وعبده الذى دفعت له مقابل سكنى عنده فى الجيزة .أرسلت بعض المال إلى عفاف وميرفت وحسن عن طريق سالى القصبجى، التى طمأنتنى على أحوالهم وأخبرتنى أن ميرفت أخت عفاف صارت «تعمل عندها». لم أشأ أن أسألها عن طبيعة «عملها» عندها مخافة أن تتأكد ظنونى .نظرَت إلىّ وقتها سالى وأظنها فهمت ما دار بذهنى، وسخرت منى ومن سذاجتى وتعامِىّ عن الحقيقة. لكنى واصلت الصمت.

اتصلت بأمك لأخبرها بفك أرصدتى، وكنت فى سذاجتى أعتقد أن ذلك سيغيّر فى الأمر شيئا؛ ربما يقنعها بالعودة بك إلى مصر. أخبرتها أيضا أنى أستطيع استعادة بيتنا بمنشية الطيران. لكنها استنكرت فكرتى، واتهمتنى بانعدام المسؤولية -تجاهك- لتفكيرى فى إعادتكما إلى مصر فى هذه الظروف. حاولت أن أشرح لها أن الحياة مستمرة، وأننا لا نأكل بعضنا بعضا فسخرت من كلامى وظلت تردد على مسامعى قصص الحوادث التى تجرى للناس فى الشوارع. نعم هذه الحوادث حقيقية، قلت، لكن ألا يحدث مثلها فى لندن وفى نيويورك؟ أخذنا نتحاور والطريق بيننا ينغلق كلما تحدثنا، كأننا نتحدث بلغتين مختلفتين، كل ما يجمع حوارنا المبعثر هو بعض الكلمات التى يتخذها كل منا تُكَأة للرد على الآخر. لم يكن هذا نقاشا بل حديثين متوازيين حول نفس الموضوع. صمتُ فى النهاية وتركتها تواصل كيل الاتهامات والأسئلة التى لا إجابة لها .كرهتها فى هذه اللحظة، اعذرنى إن قلت لك هذا، لكنى كرهت عنادها وأنانيتها المفرطة وانحصار اهتمامها فى أمرها الخاص وانغلاق قلبها عنى وعن حياتنا وعن مصر كلها. وشعرت أن كل ما أريده هو إنهاء المكالمة وعدم التحدث إليها ثانية، أبدا. ظلت تلاحقنى بأسئلتها السخيفة وأنا صامت. ثم قلت ألا فائدة من هذا النقاش، فهاجمتنى بعنف أكبر. توقفت عن السمع. انتظرت حتى صمتت لحظتين، ثم قلت مع السلامة، وأغلقت الخط.

اتصلت بصفية على الفور لأقصّ عليها ما حدث فردّ علىّ إبراهيم زوجها وأخبرنى أنها فى المستشفى مع عمر لإجراء فحوص له وستعود فى الليل. اتصلت بعزالدين فوجدته فى حالة انطلاق لم أعهدها فيه منذ سنوات طويلة، فسألته عما به، وكانت هذه آخر فرصة لى لقول أى شىء فى تلك المكالمة .قال إنه نجح أخيرا فى جمع الشباب الديمقراطى المدنى فى شبكة حقيقية تعمل على الأرض، وبعد أكثر من سنة من العمل اكتمل بنيان هذا الكيان على مستوى المحليات فى مصر كلها، أصبح لديهم أقسام فى كل المحافظات وفروع ممتدة حتى القرى والنجوع. لا يقومون بعمل سياسى مباشر، ولا علاقة لهم بالتظاهرات والاحتجاجات وغير ذلك وإنما يركزون على القضايا المحلية التى يواجهها الناس: الرى، الائتمان الزراعى، الطرق، المدارس، تراخيص البناء، وغير ذلك من الأمور التى تقضّ مضاجع الناس. أضاف عزالدين أنهم اختبروا مدى كفاءة هذه الشبكة على مدى الشهر الماضى، فأجروا تمرينات لقياس قدرتها على التواصل فى الاتجاهين: من القاعدة إلى القمة وبالعكس، وبالفعل، جاءت نتيجة القياس اليوم، وهى مذهلة؛ وصلت الرسالة المركزية إلى القواعد بدرجة 85%، واستطاعت القواعد رفع رسائل إلى المركز خلال أسبوع. استعانوا بشركة محترفة لعمل هذا القياس وللتحقق من وصول الرسائل ودرجة دقتها. هذه النتيجة، أعلن لى عزالدين بصوت احتفالى لم أسمعه منه منذ زمن، تؤكد أن هذا الجانب من العمل اكتمل، ويستطيع الآن البدء فى تقوية هذا الكيان على المستوى القومى وإفراز قيادات سياسية جديدة من بين هؤلاء الشباب ودون الحاجة إلى السياسيين القدامى الذين يئس منهم هو وأصدقاؤه الشباب. سألته كم من الوقت سيستغرق هذا فأجاب ببساطة كأن الوقت لا يعنيه: سنتين تقريبا. هنأته، وحين سألنى عن سبب اتصالى لم أجد مجالا للحديث عن مشكلتى فقلت إنى أردت الاطمئنان .فأضاف أن سارة رمسدل أنهت دراستها، وستناقش رسالة الماجستير التى أعدتها خلال بضعة أيام، بعدها ستعود إلى عملها الأصلى فى سلاح البحرية قائلا إنى يمكننى الاتصال بها لأشكرها قبل مغادرتها مصر، إن أردت. شكرته وتركته يحتفل بإنجازه السياسى الهامّ.

أجريت عدة اتصالات أخرى ثم جاءنى عبده ليصطحبنى إلى ميدان التحرير. لم أكن أريد الذهاب لكنه أصر على ضرورة «اختلاطى بالشعب «خصوصا فى يوم مليونية دعم العمال. وافقت، واصطحبته دون تحمُّس، فآخر ما كنت أشعر به وقتئذ هو الحاجة إلى دعم العمال. وصلنا إلى الميدان، وشعرت للتو أنى أرتدّ أربع سنوات إلى الوراء، وتذكرت الروح السائدة فى التحرير فى أثناء العام الأول للثورة. شعرت بحسرة وغصة عميقتين. من كان يظن أن هذا يقود إلى ذاك؟ سألت نفسى وأنا أسير مع عبده بين حشود البشر. وشعرت مرة أخرى بالتعاطف معهم والأسى لهم فى ذات الوقت: كيف سيتمّ دعم العمال؟ من الذى سيفعل ذلك؟ حتى حكومة العمال الوليدة لن تستطيع دعمهم. لكن الروح السائدة كانت احتفالية ومتفائلة؛ من أنا كى أفسد الحفل؟

فجأة رأيتها. واقفة أمامى، مع خمسة أو ستة من الشباب .ترتدى قميصا أبيض وجينزا أزرق وشعرها معقوص من الخلف. وجهها الأبيض بلا مكياج يحبس نوره .ظلت نظرتى محدقة إليها حتى لاحظَت تحديقى فابتسمت فى مزيج من الخجل والحرج. انتبهت وعبده يحدق إلىّ بعينيه المتسائلتين وهى تبتسم .لم يكن للتراجع فرصة فابتسمت أنا الآخر وهززت رأسى لها فردّت بالمثل. مددت يدى مصافحا وقلت شيئا عن إعجابى بتمثيلها ثم صمتّ. انضمّ عبده إلى الحوار فتعارفنا كلنا، بالخمسة المحيطين بها. بعد كلمات التعارف والإعجاب نفد الكلام وصمتّ ثانية، فبدأ عبده يسألها عن عروضها ومشروعاتها. تَحدّثَت عن مشروعها لإنشاء مسرح فى كل قرية، مسرح «الجرن»، واسترسلت فى الشرح، ربما كى تتخلص من حرج تحديقى وصمتى. كنت أستمع إليها وكلماتها تذوب حين تلمسنى وتتحول إلى شىء آخر لا أميزه لكنى لا أريده أن يتوقف، دون أن أعرف ماذا تقول بالضبط. انتهت من حديثها وظللت أنا صامتا، فقال عبده بثقة كاذبة إن فى الرئاسة برنامجا لدعم الفنون يمكن أن يكون مفيدا لمشروعها، وأخذ أرقام تليفونات الأصدقاء الستة، بمن فيهم نور.

ظللت بعدها سائرا كأنى أخفّ من وزنى المعتاد. درنا فى الميدان دورة كاملة، على أمل أن أراها ثانية فى النقطة التى كانت بها، لكنها اختفت .درنا نصف دورة أخرى، وحين فقدت الأمل قلت لعبده إنى تعبت، وعدنا إلى البيت. قضيت الساعات التالية مبتسما وهانئا، أقاوم شعورى بالسعادة، وأقاوم رغبتى فى الاستماع إلى أم كلثوم، وأقول لنفسى أن لا شيء يحدث. اضحك على نفسك كما تشاء يا يحيى، فلن تستطيع خداعها طويلا.

فى آخر المساء عاودت الاتصال بصفية وتنفست الصعداء حين ردّت أخيرا .وجدت صوتها مُغلّقا مخنوقا وأخبرتنى على التو بتدهور حالة عمر الصحية، وتزايد مشكلات القلب التى يعانى منها، قالت إن الأطباء يدرسون إمكانية وجدوى التدخل الجراحى ومخاطره، وحتى يستقروا على رأى سيُبْقُونه فى المستشفى تحت الملاحظة. ماذا لو جرى له شيء؟ طردت الخاطر من رأسى بأسئلة اعتيادية لصفية عن الأولاد والحياة فى إيطاليا. تطرقنا بعدها إلى موضوعى الأصعب، وهو أمك الخاطفة. قصصت على صفية ما دار بينى وبينها فى مكالمتنا الأخيرة، فوجدت موقفها مائعا. ظلت تطلب منى أن أنظر إلى الأمر بعينَى أمّ، وأن أفكر فى الضغط الذى كانت تحته حين فرت بك، وبالمشاعر التى تعترى المصرى فى الخارج حين يشاهد طوال الوقت تقارير عن خطف وقتل ونهب وانفلات أمنى فيتصور أن البلاد كلها فى الفوضى... لم أنكر أنها فى فوضى، قاطعتها، لكنى قادر على حماية زوجتى وابنى، ثم هل تقف معى زوجتى أم تفرّ؟ وتأخذ ابنى معها! بعد عدة دقائق أدركت أن صفية تأخذ صفها، فسألتها صراحة. صممتت هُنيهة ثم قالت إن العقل يقول بسفرى أنا لكما لا العكس. حاولت أن أشرح وجهة نظرى، وصفية تستمع إلىّ وتردِّد أن كل هذا جميل لكن الاهتمام بزوجتى وابنى هو الأهم، والذى حدث نتيجة الظروف هو أنهما سافرا والآن تصعب عودتهما ومن ثم يجب علىّ إبداء المرونة والسفر للعيش معهما، وشيئا فشيئا تنصلح الأمور. ظل صوتى يختنق داخلى وأن أحاول شرح ما أشعر به، شعورى بأن ندا ليست زوجتى بقدر ما هى ابنة القطان، أنها فرّت من البلاد دون عناء إبلاغى، اختفاؤها مع ابنى شهورا حتى عثرت أنا عليها عن طريق رئاسة أركان الجيش الأمريكى: هل يُعقل هذا؟ والآن تريدين منى السفر لأكون فى معية أبيها؟ أحاول الشرح ولا أستطيع. قلت هذه الكلمات لكنها لم تنفذ إلى صفية، بل ارتدّت إلىّ. وظللت أنا وكلماتى واقفَين على هذه الناحية من الخط، وصفية تقول لى ما يجب علىّ فعله على الجانب الآخر. صمتّ وانتظرت حتى انتهت من حديثها.

الحلقة الرابعة والثلاثون

بعد أكثر من أربع سنوات من الثورة وبعد انكسار الشرطة وتفتتها وانهيار سلطتها لم يتغير شيء فى تصور قياداتها للأمن والحل؟ سألته ولم أجد عنده إجابة. درسنا مشروعات كثيرة متداوَلة لإصلاح الأمن لكن ظلت المعضلة الرئيسية هى كيف تقنع الجهاز الحالى بالتعاون

فى صباح اليوم التالى لعيد العمال بدأ محمود بشير مفاوضات شاقة مع شركائه حول برنامج الحكومة، كما بدأ اتصالات مع الأجهزة الأمنية الثلاثة حول عملية إصلاح الأمن. لم يكن لى مكان رسميا فى هذه المشاورات، حيث إن دور المجلس الرئاسى ظل رمزيا خلال كل هذه الفترة، لكن الأطراف كانت تشركنى فى مناقشاتها من وقت إلى آخر، حين يحتاجون إلى شاهد أو حكم يمكنهم تجاهل رأيه دون عواقب. البرنامج الحكومى الذى تَمخّض عنه أسبوع المفاوضات لم يكن باهرا؛ بعض العناصر من هنا وبعضها من هناك فى محاولة لإرضاء كل الأطراف. وأهم شيء بقاء مصدر تمويل هذا البرنامج مجهولا .مَن الذى سينفق على كل هذه المشروعات؟ لم يكن لدى محمود بشير وزعماء الائتلاف الحكومى إجابة. قال بعضهم إن الاستقرار سيجذب السياحة، وقال بعضهم إن الدول العربية ستساعد لأنهم باتوا قلقين من تدهور الوضع أكثر، وقال البعض الآخر إن المؤسسات الدولية ستساعد لخشيتها من انهيار الدولة نفسها وعواقب ذلك على استقرار المنطقة. ضحكت بينى وبين نفسى؛ أى عرب الذين سيساعدون وهم جميعا إما منشغلون فى حروب أهلية وإما واقعون تحت السيطرة إن لم يكن الاحتلال الأجنبى؟ وأى استقرار ذلك الذى تخشى عليه المؤسسات الدولية؟ سألتهم عن حكمة الارتكان إلى تقديرات غامضة كهذه فاستنكروا تشكّكى وقالوا لى الجملة الأكثر شهرة فى مرحلة ما بعد الثورة: «لا تكُن سوداويا». سكتّ.

حين تطرقت المفاوضات الحكومية إلى موضوع الإصلاح الأمنى الذى وعدت قيادات الداخلية بمساندته ظهرت المشكلات. بدأت كل من المخابرات العامة والعسكرية باستبعاد نفسها من عملية الإصلاح، لعدم وجود مشكلة لا يستطيعون حلها بأنفسهم وتفاديا للعبث بالمؤسستين الوحيدتين اللتين تعملان بشكل جيد؛ »يجب أن ينصبّ الإصلاح على المكسور، لا السليم، وهو الداخلية .«ولم يعجب هذا الكلام أحدا فى الحكومة، التى أراد بعض أعضائها وضع إشراف ديمقراطى على هذه الأجهزة وأراد البعض الآخر مد سيطرته عليها للتأكد من ولائها له .ولم تكن هذه المشكلة الوحيدة، فحين أبدى محمود بشير استعدادا لقبول إعفاء الجهازين من عملية الإصلاح مقابل مساعدتهما له فى الضغط على الداخلية، اكتشف أنهما لن يساعداه، لحساسية العلاقة بينهما وبين الداخلية .العقيد لطفى ممثل أمن الدولة قالها صراحة، إنهم لن يستسلموا للتضحية بهم كى ينجو الآخرون. سألت العقيد لطفى عن تصورهم للإصلاح، واكتشفت سريعا ما اكتشفه بقية أعضاء الحكومة، وهو أنهم يريدون أسلحة وذخائر ومعدات جديدة، ومقرات ومكاتب، وزيادة أعداد الجنود، ورفع رواتب الضباط، وعفوًا عامًا .كان كلام لطفى واضحا، فهو يستخدم كلمة «إصلاح أمنى» عنوانا للمناقشة، لكن سريعا ما يتحول الأمر إلى «إعادة الداخلية لتقف على قدميها». سأله محمود عن تغيير العقيدة الأمنية، وإدماج احترام حقوق الإنسان، وكل هذه المسائل التى من أجلها قامت الثورة، فقال لطفى إنها هامة جدا، ويجب إدخالها كمواد فى كلية الشرطة و«إعطاء الضباط الحاليين بعض المحاضرات التثقيفية» فى هذا المجال.

لم يتغير شيء، أسرّ إلىّ محمود بشير فى يأس. بعد أكثر من أربع سنوات من الثورة، وبعد انكسار الشرطة وتفتتها وانهيار سلطتها، لم يتغير شيء فى تصور قياداتها للأمن. والحل؟ سألته ولم أجد عنده إجابة. درسنا مشروعات كثيرة متداوَلة لإصلاح الأمن، لكن ظلت المعضلة الرئيسية هى كيف تقنع الجهاز الحالى بالتعاون، أو كيف تحفظ الأمن خلال فترة بناء جهاز جديد إن أردت الإصلاح دون تعاون الجهاز القائم.
عزالدين فكرى قال إن التعاون لن يأتى بالإقناع، بل يجب تطوير اللجان الشعبية وروابط الألتراس وشرطة السلفيين والإخوان وغير ذلك إلى شبكة أمنية فاعلة، والضغط على بقايا الشرطة، فإما تتعاون وإما تخرج من الخدمة.

فى جلسة خاصة وافق العقيد حامد على هذا الرأى، لكنه قال إن الأجهزة الأخرى لا تستطيع دعمه رسميا وإلا بدت كأنها يأكل بعضها بعضا. عدت إلى محمود بهذا التقييم، لكنه استبعد الفكرة تماما، قائلا إن كلام عزالدين نظرىّ، وتطبيقه سيؤدى إلى فوضى ودماء. لكنه لم يكن لديه بديل سوى الانتظار.

وصلت إلىّ دعوة من سارة رمسدل لحضور مناقشة رسالة الماجستير التى أعدتها، ولم يكن لى رغبة فى حضور أى مناقشات، لكنى تذكرت قرب رحيلها فاتصلت أشكرها. حدّثتها وهنّأتها على نجاحها المتوقّع وشكرتها على مساعدتها لى ولعائلتى الصغيرة وتمنيت لها التوفيق. شكرتنى وقالت إنها ستحتفظ بعنوانها الإلكترونى كما هو، ودَعتنى للاتصال بها لو احتجت إلى شىء مجددا. سكتُّ لحظة ثم سألتُ بدافع الفضول عن وجهتها فقالت إنها ستنضمّ إلى العملية الجارية فى الخليج، حيث ستستقرّ فى إقليم الأحساء بشرق السعودية الذى كثفت القوات الأمريكية انتشارها فيه حماية لمنابع النفط منذ الحرب على إيران. سألتها مستغربا إن كانت ستنتقل للعمل مع القوات البرية فضحكت وقالت إنها لا تستطيع البعد عن البحر، تماما كالسمك، لكنهم يبنون مركزا للبحرية فى الأحساء ليشرف على قاعدة بحرية مزدوجة فى الساحل الشرقى للسعودية وسلطنة عمان تحمى حرية الملاحة فى مضيق هرمز، بحيث تحلّ محلّ القاعدة القائمة على الساحل الإيرانى التى تتعرض لهجمات يومية من المقاومة الإيرانية. لم أعرف بمَ أردّ سوى تمنِّى السلامة لها. قالت إنها تود لو بقيَت بمصر واستكملت الدراسة وتفادت العودة إلى البحرية، لكنها التزمت بذلك حين قبلَت المنحة الدراسية التى قدمتها لها وزارة الدفاع .سألتها إن كانت تستطيع الاستقالة فأجابت بأن ذلك غير ممكن إلا بعد استكمال عدد معين من سنوات الخدمة، أما الآن فستكلفها الاستقالة تسديد عشرات الآلاف من الدولارات مقابل ما أنفقته البحرية على تدريبها ودراستها. صمتُّ مرة أخرى، ثم أوصيتها مازحا بأن تنتبه لنفسها ولا تقتل أحدا، فقالت بكل جدية إنها عازمة على ذلك فعلا. انقبض قلبى بعد هذه المكالمة، ولم أعرف بمَ أشعر بالضبط حيال سارة، التى ساعدتنى حين لم يساعدنى أحد، والراحلة صوب الخليج تحمل السلاح. من يقف مع مَن؟ وضد مَن؟

وبينما أنا فى مكتبى أنتقل من اجتماع إلى آخَر ومن اتصال سياسى إلى مشاورات أمنية إذ يدخل علىّ عبده ليخبرنى أن موعدى مع الأستاذة نور قد حان. نظرت إليه غير فاهم، هل يقصد نور التى فى ذهنى (وفى تليفونى، وفى خيالى، وفى نومى)؟، وأى موعد؟ احمرّ وجهه وتلعثم قليلا وهو يتظاهر بالعبط ويسألنى إن كنت نسيت أن لدىّ موعدا معها لمناقشة كيفية دعم مشروع مسرح الجرن. الجرن؟! سألته وأنا أكاد أنفجر، لكنها ظهرت من خلفه بابتسامتها الرائقة فتَبخّر غضبى. رحّبت بها ودخلَت وجلسَت وطلبتُ لها عصير ليمون، وهدأ يومى فجأة.

جلسنا متقابلَين على طاولة اجتماعات صغيرة فى آخر مكتبى. أخرجَت أوراقها وبدأت تشرح بهدوء وجدّية تفاصيل المشروع، ثم أخرجت كمبيوترا وبدأت ترينى صورا من الأماكن التى أعَدُّوها كمسارح وتجارب من بعض القرى وردود فعل الأهالى والمدرسين بالقرية. تتحدث، وضوء النافذة الكبيرة يأتى من خلفها، يمر من أعلى شعرها ويتخلل أجزاءه العليا المهوّشة قليلا .تمسح بيدها على شعرها من وقت إلى آخَر فتغلق تلك الفتحات الصغيرة التى يتخلل النور شعرها منها. بدأت كلماتها تقلُّ وهى تركّز على الصور المتتابعة على شاشة الكمبيوتر، وأنا أقترب بوجهى من الشاشة فأشعر بوجودها متناثرا فى الهواء من حولها، ويغمرنى هذا الوجود. أنظر إليها من وقت إلى آخر محاذرا أن أطيل نظرتى أكثر مما يسمح به هذا السياق المهنى، كأنى أغترف فى ثوانى النظرة السريعة كل ما أستطيعه من ملامح وجهها لأستبقيه معى. حين تبتسم ابتسامة صغيرة، ترسم غمازتاها منحنيات فى خدّيها، تنتهى بهدوء عند انحناءة ذقنها. تهز رأسها إلى اليمين أحيانا وهى تنظر إلى الصورة، ثم تعلق بشىء. تخطئ فى اختيار الصور أحيانا، فتضحك وتعتذر. تعلِّق على بعض الأحداث التى عاصرت هذه الصورة أو تلك، أو تحكى قصة سريعة عن رد فعل هذه الأسرة على المسرحية التى مثّل فيها ابنهم، وكلما تكلمت غرقتُ فيها أكثر، وكلما حركت وجهها واختلف وقْع الضوء عليه غيّر جمالُها شكلَه، لكنه لا يخفت ولا يهدأ ولا يتركنى فى حالى. مسحَت شعرها بيدها وقالت إنها انتهت مما لديها، وسألتنى كيف يمكن أن نساعدها.

لم يكن لدى أى فكرة، لكنى كنت أتشبث ببقائها أطول فترة ممكنة. لا أريد منها شيئا سوى أن تظل هنا، تتكلم، أو حتى تصمت، لكن تظلّ .طلبت لها شايا، لأنه يأخذ وقتا فى إعداده وفى شربه، وسنُحرَج من الرحيل قبل إنهائه. وظللت أسألها عن المشروع وتمويله الحالى والمشاركين فيه. واضح أنى لم أكن منتبها لإجاباتها لأنى كررت عددا من الأسئلة. جاء الشاى وأنا مستمر فى الأسئلة، وبدأت هى ترشفه، وأنا أغوص مع رشاقة شفتيها وهما تلامسان حافة زجاج الكوب وتتركانه وتعودان إليه. قلت كلاما كثيرا عن دعم الفنون، والمجلس الرئاسى، والحكومة، والرئاسة نفسها كمؤسسة، والوضع التعليمى العامّ، وكثيرا من الكلام أحسب معظمه هذيانا غير مترابط. وهى تنتظر الإجابة وتهز رأسها تمشية للكلام عديم الفائدة، فتهتز خصلات شعرها الكثيف وتتماوج واحدة وراء أخرى حتى الخصلات البعيدة الراقدة فى أمان على ظهرها. أتفادى عينيها، فستفضحنى عيناى ولا ريب. لا يحتاج الافتتان إلى دليل، تعرفه حين يصيبك، وحين لا تعرف ماذا تفعل به ولا تأبه، كل ما تريده هو البقاء قريبا والنظر إلى فاتنتك. حين انتهى الشاى قلت لها إنى سأحيل الموضوع إلى المشرفين على دعم البرامج الفنية -لا وجود لهم طبعا- وأتابع الموضوع من قرب وأتصل بها. قالت إنها ستتصل بى فى أول الأسبوع القادم لتذكِرنى، واستأذنتنى فى رقم هاتفى المحمول كى يمكننا التواصل أسرع. تبادلنا الأرقام وتأكدنا من أنها تعمل وقد سقط قلبى تماما، لا أدرى أين. صرت أومئ إليها وأبتسم كأنى فقدت النطق، وصافحتها ووقفت أرقبها وهى خارجة. وحين خرجت من الباب الخارجى واختفت ظللت واقفا لحظات حتى انتبهتُ على نظرة السكرتيرة المستفهمة وعبده المبتسم.

وددت لو انتهى اليوم فى تلك اللحظة، لكنه استمر .الاجتماع التالى كان مع مجموعة الأمن الداخلى لمناقشة التقرير الأسبوعى عن الوضع الأمنى. نفس التقرير الذى يأتى كل أسبوع: «ارتفاع معدل الجريمة بنسبة كذا عن مثيله فى العام الماضى وبنسبة كذا (أكبر بكثير) عن سنة الأساس 2010)، والمقصود طبعا قبل الثورة حين كان الأمن «مستتبًا») – تَواصُل عملية تحوُّل الجريمة من كونها أعمالا فردية إلى نمط العصابات المنظمة الصغيرة التى تعول عائلات كبيرة العدد – تقدير لأعداد هذه العصابات ومناطق نفوذهم التى يوفرون فيها الأمن من خلال نظام الإتاوة – الأشكال الجديدة للجرائم الصغيرة المنظمة مثل سرقة الأطفال والتوك توك – ثم صور لبعض قادة هذه العصابات المعروفين للأمن». وهناك، فى وسط هذه الصور، رأيت حسن، أخا عفاف، زعيم عصابة صغيرة متخصصة فى سرقة الموتوسيكلات وبيعها بالقطعة.

الحلقة الخامسة والثلاثون

كنا جميعا مخطئين فى حقها وحق مَن هم فى وضعها.. لكنى لم أفهم وقتها ولم يفهم كثيرون منا.. وحين فهمت كان الضحايا قد تراكموا.. يا الله! هناك أشياء تفعلها أو تسكت عنها دون سوء نية منك..وحين تدرك هول نتائجها يكون الوقت قد فات والثمن أصبح هائلاً

طلبت من عبده أن يأتينى بعفاف فى الصباح. وقضيت الليل أفكِّر فى ما يمكننى عمله، لكنى لم أهتدِ إلى شىء. فى طريقنا إلى المكتب فى اليوم التالى تحدثت مع عبده فى الأمر، فهزّ كتفيه فى لا مبالاة، وقال إن كثيرا من الناس يأكلون عيشهم بهذه الطريقة. سألته دهِشا إن كان يرى ذلك أمرا عاديا فنفى، لكنه أضاف أن لا شىء أصبح عاديا. أشار من زجاج السيارة ونحن نمر من فوق ميدان العباسية إلى تحصينات وزارة الدفاع وسألنى إن كنت أعتقد أن هذا أمر عادى؟ سكتنا.

جاءت عفاف وأجلستُها فى مكتبى. بدت شديدة التحفظ وكنت أنا مضطربا ومحرَجا، فنحن لم نلتق منذ حادثة المطبخ المشؤومة. طلبتُ لها عصير ليمون وسألتها عن الأحوال فردّت باقتضاب وحمدت الله على كل حال . أبديت اعتذارى عن «اللخبطة» التى حدثت وأشرت إلى اضطراب ظروفى وقتها فأشاحت بيدها كأنها تُبعِد الموضوع من هواء الغرفة، وقالت إنه لا معنى للعودة للحديث عمّا مضى. أشارت إلى المكتب وقالت إن الأحوال تحسنت كثيرا مقارنة بمكتب المعلومات بالرئاسة الذى عملنا به بشارع الخليفة المأمون. قلت شيئا عن التطوير لكنى لاحظت استعدادها للهجوم فسكتّ. استطردَت قائلة إن من سخرية القدر أن تتدهور أحوال الناس بعد ثورة شعبية وتتحسن أحوال المسؤولين عن النظام. أدركت إلى أين سيقودنا هذا الحديث فقطعته، وأخبرتها بالأمر الذى طلبتها بشأنه. لم يبدُ عليها تأثُّر ولا دهشة؛ واضح أنها كانت تعلم. رشفت من كوب الليمون ونظرَت إلىّ نفس النظرة التى رأيتها فى عينيها منذ أربع سنوات فى ميدان التحرير، ثم انهالت علىّ.

فى البداية قالت إنها تعرف طبعا، مثلما يعرف الجميع، فهذه العصابات لا تعمل فى الخفاء. بل إن أصحاب الأشياء الضائعة يلجؤون إليها قبل إبلاغ الشرطة، وفى معظم الأحيان لا يكلفون أنفسهم عناء إبلاغ الشرطة. كما أن كثيرا من هذه الموتوسيكلات مملوكة لشركات قطاع عامّ أو لمصالح وهيئات حكومية، وهؤلاء لا يريدون سوى إثبات السرقة كى يُخرِجوا الموتوسيكل المسروق من العهدة. مالت علىّ وسألتنى فى تهكّم إن كنت أريد معرفة ما هو أفضل من ذلك، وقبل أن يأتيها ردى قالت إن هذه العصابة لم يبدأها حسن، بل بدأها محامٍ من وزارة الثقافة. ولما لاحظت استغرابى أسهبت :هو محامٍ فى الشؤون القانونية للوزارة قابله حسن عن طريق معرفة مشتركة على القهوة فى فيصل، وعرض عليه المحامى المحترم أن يسلمه موتوسيكلات الوزارة القديمة التى لا يستخدمها أحد لكثرة أعطالها على أن يقوم حسن بتفكيكها وبيعها ويقوم المحامى وأصدقاؤه فى الوزارة المحترمة بالإبلاغ عن سرقتها ثم إخراجها من العهدة. وهكذا يكسب الجميع: الوزارة تتخلص من عبء موتوسيكلات لا تستخدمها وتحتاج إلى مكان وحراسة بل ونفقات صيانة أكثر من ثمنها، وحسن يكسب ويقسم مع المحامى. بعد ذلك تَطوّر العمل، فبعد الانتهاء من الموتوسيكلات القديمة بوزارة الثقافة تحولوا إلى الوزارات الأخرى، حيث أدخل المحامى زملاء له من بقية الهيئات والوزارات. يعنى أصبحت عصابة تنظيف العهدة الكهنة فى الحكومة. ثم تَوسّعوا فى عملهم بعد الانتهاء من الكُهْنة إلى الموتوسيكلات العاملة، وهكذا.

سكتت عفاف ثم حدجتنى بنظرة نافذة وسألتنى إن كان هذا هو السبب فى »استدعائى« لها. وقبل أن أجيب أردفت أنها غبية أن أتت كل هذه المسافة لتسمع هذا الكلام، وأنها كانت غبية طوال السنوات الماضية، حين ظنّت أن علاقة أخرى غير الاستغلال يمكن أن تنشأ بين ناس «مثلهم» وناس »مثلنا .«حاولت الاعتراض فعلا صوتها لتُسكِتَنى، ودَعَتنى إلى التفكير قبل الردّ، التفكير فى كيفية تعامل أمثالى، أنا وعزالدين ومحمود وسالى وأسماء والقطان والبقية، معها وإخوتها. لا العمل، ولا الحب، ولا حتى الرغبة، استطعنا التشارك فيها، كل ما رأيناه فيهم هو مادة للاستغلال.

قالت ذلك ثم صمتت هنيهة، أضافت بعدها بمرارة شديدة:» «كلكم». حاولت الدفاع عن نفسى، شرح موقفى، ما لم يكن مقصودا وما تم بنيّة حسنة. قاطعَتنى بأن هذا الكلام لا داعى له، كذلك لا داعى لأن أرسل إليها نقودا مرة أخرى، فهى لا تريد صدقة من أحد، كفاية، مالهم سيأخذونه بأنفسهم، وإن كنا نظن أن مال الدولة حلال لنا وحرام على الباقين، فنحن مخطئون. قالت «إننا» نسرق بالقانون وباللوائح والنظم التى نحتكرها لأنفسنا ولا نسمح لأحد بالدخول فيها غيرنا، لكن «هم «أيضا لهم طريقتهم التى يحتكرونها. زفرت هازئة وهى تقوم، وأضافت أن حسن لا يفعل شيئا لا تفعله الحكومة نفسها؛ كلاهما يأخذ من المال العامّ، وكلاهما يحوّله لقطع غيار يبيعها. نظرت إلىّ وهى خارجة وقالت لى إن حسن فى أحسن أحواله منذ خرج من المدرسة، ويشعر للمرة الأولى أنه رجل ومسؤول عن نفسه وليس عالة على أحد، وإن كانت الداخلية فالحة تتفضل تقبض عليه. وصفقت الباب خلفها.

شعرت وقتها بغضب شديد عليها وعلى أختها المنحلّة وأخيها اللص، وعلى تبريرها لسلوكهما بل والهجوم علىّ أنا الذى أحاول مساعدتهم .لكنى كنت أكابر، أحمى نفسى من هجوم لا أملك له ردا. فالحق معها. كنا جميعا مخطئين فى حقها وحق مَن هم فى وضعها. لكنى لم أفهم وقتها. ولم يفهم كثيرون منا .وحين فهمت كان الضحايا قد تراكموا. يا الله! هناك أشياء تفعلها أو تسكت عنها، دون سوء نية منك، سهوا أو خطأ أو غفلة، وحين تدرك هول نتائجها يكون الوقت قد فات والثمن أصبح هائلا. وهذا من بينها. أقول لنفسى الآن إنى فعلت ما بوسعى، حسب ظروفى وما كنت أعلم وأفهم. أسرّى عن نفسى، أحاول تخفيف المسؤولية عنى. لكنى فى مكان ما داخلى أبكى ندما: كيف لم أرَ كل هذا؟ كيف عميت عنه ولى عينان؟ كيف نظرت إلى الناحية الأخرى كيلا أرى؟ لك الله يا عفاف ومن معك، قد يسامحك على أخطائك ويعوّضك عمّا لحق بك من ظلم. لكن أنا، وأمثالى مثلما قلت، من سيسامحنا، وبأى وجه؟

مثلما كان لقائى بعفاف كانت اجتماعاتى ذلك الصباح، بلا نفع. فكل شىء معلّق فى انتظار الانتهاء من برنامج الحكومة؛ كل قوة سياسية تريد حسم أمرها ومعرفة ما إذا كانت ستشارك بفاعلية أم تبدأ فى إعداد انسحابها تمهيدا للقفز من السفينة. ذهبت إلى محمود فى مكتبه بمجلس الوزراء بعد الظهيرة لتناول القهوة ومعرفة التطورات. وجدته ممتلئا بالحيوية واليقظة، بل ومنتشيا إلى حد ما، كأن صراع القوة هذا أيقظ حواسه كلها. لم يصل إلى شىء مفيد فى مفاوضات الإصلاح الأمنى، ومن ثم قرر ضرب الفوضى بالفوضى وإدارة الأزمة بالأزمة. ماذا يعنى ذلك؟ يعنى أنه لن يوافق على إصلاح أمنى يعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبل الثورة، وقيادات الداخلية لن توافق على إصلاح حقيقى يغيّر طبيعة جهاز الشرطة، ومن ثم فلا إصلاح، بل إنه سيقلص مخصّصات الشرطة ويجمِّد رواتبها ويقصّ مميزاتها، ولينهَر ما ينهار، ولنرَ من سيصرخ من الألم قبل الآخر. بدا لى ذلك مغامرة غير مأمونة العواقب .سألته كيف سيكون الحال حين يبدأ الوضع الأمنى فى التدهور، ونعود إلى أيام »البلطجية» و«الطرف الثالث» و«مشعلى الحرائق». هز كتفيه وقال علىّ وعلى أعدائى، ليشعلوها إن شاؤوا، ولنر من ستحرقه النار. كانت روح القتال قد تَملّكته، وهو ما أقلقنى أكثر، وحين ردّدتُ على مسامعه ما قاله له عزالدين فكرى من خطورة اللعب بالنار، وعدم تمييز الفوضى بين ضحاياها، سألنى إن كان لدىّ حل بديل. قلت له الحل البديل من قبل، ورفضه باعتباره حلا نظريا، فسكتّ هذه المرة.

عُدتُ إلى المكتب فى الرابعة وأنا أشعر أن اليوم يغرق فى البؤس ولا بد من إنقاذه، فاستجمعت شجاعتى واتصلت بنور، لأول مرة. ردّت وأتانى صوتها الرخيم مرحِّبا. سألتها عن الأحوال وسألتنى. ثم شعرت بضرورة تبرير الاتصال فقلت لها إنى تحدثت مع المسؤولين وأريد إحاطتها ببعض الأمور، فشكرتنى وقالت إنها ستكون قرب وسط البلد فى أول المساء ويمكنها لقائى فى نحو السادسة، فقلت كاذبا إن هذا موعد مناسب جدا، ودعوتها لشرب القهوة فى مقهى صغير بوسط البلد. مرت الساعتان التاليتان فورا، ورمقنى عبده بنظرة متشككة حين قلت له قُبيل السادسة إن لدىّ موعدا وسأعود بعد ساعة. تحررت من رابطة العنق والجاكيت وتمشيت حتى المقهى بقميصى الأبيض وبنطلونى الرمادى .لم أستمتع بهذه المسافة من المكتب إلى وسط البلد بهذه الطريقة من قبل، ولا كنت بهذا اللطف مع الناس ولا متقبلا لفوضى الباعة الجائلين فى وسط البلد وسماجتهم مثلما كنت فى ذلك اليوم.

ثم جاءت. أهلّت من باب المقهى، وسارت بخطواتها الواثقة كأنها على خشبة المسرح، رأسها مرفوع، وابتسامة صغيرة على شفتيها الدقيقتين، ونظرتها تلمس أعلى رؤوس مَن تراهم، كتفاها إلى الوراء قليلا وصدرها نافر فى افتخار ودلال محكوم. قمت لتحيّتها وجلسنا. لم أُرد خداعها أكثر، وبعد حديث قصير عن مشروعها قلت لها إنى تحدثت مع المسؤولين وتَبيّن عدم إمكانية دعمه لأن هذا المشروع تمت تجربته من قبل الثورة وتَلقّى دعما حكوميا ولم يحقق أهدافه فتَوقّف. وسياسة البرنامج الموجود بالرئاسة هى عدم دعم مشروعات فشلت من قبل أيا كانت الأسباب. تَفهّمَت ذلك، رغم غباء هذه القاعدة الظاهر كما قالت، لأن المشروع لم يفشل وإنما انهار بسبب توقُّف التمويل. كنت أكذب طبعا، لكنى وجدت فى هذه الحجة أفضل وسيلة للخروج من الوهم الذى خلقه عبده فى محاولته الجمع بيننا.

لم يعد بيننا ما نقوله، وتوقعت أن تنهض منصرفة. لكنها طلبت شايا جديدا، وبدأت تتحدث عن الوضع العامّ، والمسرح، والحياة، وتسألنى عن حياتى، وعائلتى، وأسهبَت فى السؤال عنك أنت وكيف أعيش انفصالنا هذا . كانت تعرف الكثير عنى، واضح أنها قامت ببعض البحث مثلما فعلت أنا. تحدثنا عن الماضى، ماضىّ وماضيها. وسألتها كيف صارت بنت من طنطا ممثلة مسرح مرموقة فضحكت وقالت: مثلما صار ابن المنصورة سكرتير معلومات الرئاسة. ظللنا نتحدث حتى نبّهتنى أن الساعة تجاوزت التاسعة والنصف. ابتسم كلانا فى ارتباك، ومضينا .اتصلَت بى فى صباح اليوم التالى تشكرنى على الصراحة فى موضوع »الجرن « وعلى الوقت الممتع. واتصلتُ بها فى الصباح الذى يليه دون البحث عن مبرر، وتَحدّثنا لمدة نصف ساعة. ثم صرنا هكذا، يتصل كلانا بالآخَر كل يوم، ونلتقى، دون حاجة إلى اختلاق عذر. ودخلنا فى طريق لم نخرج منه حتى لحظة كتابة رسالتى هذه.

الحلقة السادسة والثلاثون

أعرف أن هذه القصة تزعجك. لا أعرف ما قالته لك أمك عنى خلال سنوات غيابكما، ولا ما تظنه أنت بى. ربما أقنعتك أنى تخليت عنكما وفضّلت الجرى وراء الثورة وحرافيشها. سأقول لك إنى لم أتخلّ عنك ولا عنها، وربما تصدقنى أو تصدقها أو تدعك منا نحن الاثنين. كما تشاء. ليس همى الآن إثبات خطئها وصحة موقفى، لكن همى أن لا تحمل على ظهرك أثقالا من الوهم. أنزلْ ما تحمله على الأرض، ضع هذه الحقائب الثقيلة التى حمّلتها لك أمك أو أبوك أو أىّ كان. ضع كل ما تحمله على الأرض، وابدأ من جديد. فكر فى ما تريد أن تأخذه معك فى رحلتك، ودع الباقى خلفك ليحمله أصحابه. همِّى الأول أن لا تجرّ وراءك ما لا يجب أن تجرّه. للنساء طريقة فى إعادة صياغة الوقائع، خصوصا إذا ما شعرن بالجرح، أو بافتقاد الحب. لا تصدّق أبدا أن امرأة ستغفر لك رحيلك عنها. لن تغفره لك مهما قالت، حتى لو أرادت. لكن لا تدع ذلك يوقفك عن الرحيل حين يكون الرحيل هو الحل الوحيد. عليك ساعتها أن تتحمل العواقب، بما فيها اللعن والتجريح، عليك أنت أن تفعل ذلك، أن تكون الرجل.

لم يكن ما بينى وبين أمك حبا، بل عشرة وودا مثلما قلت لك. وقد قضت عليهما خلال أعوام الفرار. حين دقت ساعة القرار، أخذَت ما تهتم به -أنت وأباها- وألقت بالزوائد -أنا والحياة فى مصر- وفرّت. وبعد تيقنى من أنى لم أسئ الظن بها، وبعد أن حاولت عدة مرات إقناعها بالعودة، فهمت أن ما بيننا انتهى لكنى أبقيت على الحد الأدنى الذى يجمعنا -هذا الرباط القانونى- من أجلك. تلك أمور محزنة، لا أتمناها لك، بل أدعو الله أن تحب وتعشق وتبقيا فى الحب أنت وامرأتك طوال عُمرَيكما. لكن إن لم يحدث هذا، ووجدت نفسك فى موقف مشابه، فلا تدَعْ شبحى، وما قالته أمك عنى، يُقعداك عن التصرف السليم. ولا تدع الرغبة فى ما لم يحدث تُقعِدْك عن التصرف الوحيد اللائق فى ظرف صعب. باختصار، لا تدَع الذكريات وتشوّهاتها تقف أمام صواب قلبك.

غرقت مع نور وفيها. شيئا فشيئا دخلت ثناياى، سارت فى الماضى وعرفت الحاضر. امرأة تسير بثقة وتُؤَدة فى غابة لا تهابها، تجد حجرا فتقلبه كى ترى ما تحته، تقابل وحشا فتمسح عليه بيدها فيسكن وتسأله عن قصته، تصادف طرقات فتطرقها، أشجارا تتسلقها، فواكه تقطفها وقبور موتى تدعو لهم. تجد مركبا فى نهر فتتنزه به، أو بحيرة فتخلع ملابسها وتسبح فيها وتغرى ماءها بجمالها حتى تتعبا وتستلقى على الشاطئ بعدها وتنام. ويوما بعد يوم صارت تعرف الغابة كلها، بحلوها ومرها، وتعرف كى تسير فى أكثر طرقها وعورة دون أن تصاب أو تؤلم صاحبها. وشيئا فشيئا، تركتنى أكتشفها، وفتحت لى حكاياها .ومثلما لم تكن حكاياتى كلها مشرقة لم تكُن هى بلا خطايا. لم تولد فى بلد آخَر، ولم تشقّ طريقها فى عالم مثالى، بل تعاملت مع الأفّاقين والذئاب .أحيانا نجحَت فى صدِّهم وأحيانا نهشوها وأحيانا استسلمت لهم كى تعيش .لكننا أحبّ كلانا الآخَر، وحين تحب حقا لن تحتاج إلى أن تغفر الماضى لمن تحب، بل ستحبه بماضيه وأخطائه التى جعلته من هو.

يكفى هذا، لا أريد أن أتحول إلى واعظ. ربما سبقتَنى أنت وقفزت هذه الفقرة فى الخطاب. لا تهتمّ إن فعلت، فأنا أبوك، ولا أستطيع مقاومة الرغبة فى الوعظ والإرشاد. ربما تعود ذات يوم وتقرأ هذه الكلمات وتجدها مفيدة، أو تكون قد أتيت بحكمتك الخاصة فى الموضوع، وتطارد بها ابنك أنت. نعود إلى حكايتنا.

بينما كنت أغرق فى نور ، كان محمود بشير يصارع التنّين. وعلى عكس القديس مارجرجس الذى وضع حياته أمام التنين، فإن محمود بشير، مثل أى سياسى بارع، وضع الشعب بينه وبين التنّين. رأى محمود -وأظنه كان محقا- أن الاستقرار لن يأتى ما غاب الإصلاح الأمنى، لن يقوم الاقتصاد ولن تستقر السياسة وطبعا لن ينتهى الانفلات الأمنى وتفتُت الدولة ما لم يتم إصلاح الأمن بشكل حقيقى، لا بإعادة الداخلية لما قبل الثورة كما تريد قياداتها .ومن ثم صمّم على تعيين وزير مدنى للداخلية. وصممت القيادات الأمنية أن ذلك غير مقبول، وهكذا ظلت الحكومة بلا وزير داخلية.

انغمست مع أعضاء المجلس الرئاسى فى محاولات للتوصل إلى حل وسط، وساعدنى إلى حد ما ممثلو الأجهزة الأمنية فى الرئاسة، حيث قام بيننا من طول عملنا معا تعاون وثقة وفهم متبادَل شجّعوهم على تجاوز المواقف الضيقة التى تأخذها الجهات التى يتبعونها. وصرنا فى بعض الأحيان نتناقش بيننا ونتفق على ملامح موقف، ثم يحاول كل طرف إقناع الجهة التى يمثلها به. لكن كل هذه الجهود ضاعت هباء .صممت قيادات الداخلية على الرفض، فأعلن محمود بشير ذلك على الملأ، واضعا الداخلية فى مواجهة مع الشعب مباشرة. وهكذا دخل محمود بشير والداخلية فى مرحلة تكسير العظام.

هذه المرة لم يكن الرد من خلال إطلاق البلطجية أو إشعال الحرائق أو قتل الألتراس، إنما من خلال ما عُرف بقضية «تليفزيون المدينة .«تم القبض على سالى القصبجى صاحبة الشركة المالكة «لتليفزيون المدينة « بتهمة إدارة شبكة للدعارة. ونُشرت على الفور صور لوثائق وأذيعت تسجيلات مكالمات وكُشفت حسابات بنكية ومعاملات مالية وعقارية وظهرت اعترافات فتيات ليل... يعنى فضيحة كاملة. وطبعا تم ذكر محمود فى الإعلام، بالإشارة إلى علاقته »الخاصة» بها ولكن دون تفصيل، ودون ظهور تسجيلات له معها، لا قديمة ولا جديدة. كما لم تظهر تسجيلات لسالى نفسها، إنما وثائق تثبت إدارتها لهذه الشبكة الواسعة التى تخصصت فى توريد الفتيات لعلية القوم والمسؤولين والأغنياء والسياح ومن فى هذه الفئة المقتدرة. تم الإفراج عن سالى فى آخر اليوم بكفالة مالية، لكن التحقيق استمر وتوالى نشر الاعترافات فى المساء ووقعت موجة أخرى من القبض على المتورطين فى القضية.

فى البداية اعتقدت أن هذه القضية مفبرَكة من أولها إلى آخرها، ودهشت مع كثيرين من سرعة وكفاءة أجهزة التحرى والضبط التى لم نسمع عنها منذ سنوات .شملت الأسماء المتورطة عددا من السياسيين الصغار، أعضاء مغمورين بالبرلمان وبالأحزاب من جميع التيارات، وهو الأمر الذى أثار شهية الإعلام للغوص أكثر فى القضية وفى موضوعهم الأثير منذ ظهور السلفيين فى الحياة السياسية، وهو علاقاتهم بالنساء. انشغل الرأى العامّ بالكامل بهذه القضية فى ذلك المساء، وساد اعتقاد بأن قيادات بالداخلية لفّقت الأمر كله كى تتخلص من ضغط رئيس الوزراء المدعوم شعبيا عليهم. لكن محمود الذى التقيته مساء ذلك اليوم أسرّ إلىّ بأن للقضية أساسا. ولا بد أن صدمتى قد بدت على ملامح وجهى لأنه نظر إلىّ بحدة وسألنى بحنق إن كنت أظن أن ميرفت تعمل مذيعة عند سالى! قلت شيئا مثل «ليس إلى هذه الدرجة» فانفجر. أخرج كل غضبه علىّ، حالة السذاجة المفرطة والمزعجة التى أحبس نفسى فيها، وكيف أتعامى عن كل ما يضايقنى كيلا أراه وألتحف ببراءة لا أفيق منها، وكيف أنى -حين دهمنى الواقع ولم يعد لحاف البراءة هذا يجدى- التجأت إلى الخمر والنساء كأى تافه لا يستطيع تحمل الواقع. ثم أمسك بى من كتفى وهزّنى بعنف طالبا منى أن أفيق وأنظر حولى وأفهم أخيرا أين أعيش، وأخذ بعدها يصرخ أن هذه ماسورة مجارٍ ضخمة ونحن غارقون فى فضلاتها، وظلّ صراخه يعلو حتى دخل علينا مدير مكتبه وأغلق الباب وأمسك به يهدِّئ من حالته. دفعه محمود بعنف لكنه لم يفلح فى التخلص منه، ورغم صدمتى المركّبة فقد قمت واحتضنت محمود الذى يمسك مدير مكتبه بذراعه اليسرى، وظللنا نحن الاثنان ممسكَين به حتى هدأ.

عدت إلى البيت قرب منتصف الليل مُنهَكا جسدا ورُوحا .اتصلت بنور فارتاعت من صوتى وأخذت تحاول التسرية عنى. تغرقنى بالحنان ثم تضحك عندما لا أستجيب وتقول إن أغبى شيء هو محاولة التسرية عن أحد بأن تظل تسأله »مالك؟»، ثم عندما يحكى لك لا تجد ما تقوله له سوى «ماتزعلش». وأصمت، فتردِّد ماتزعلش، وتضحك. ثم تقول بين الجد الهزل إنهم يريدون محاكمتهن لأنهن يأخذن مالا مقابل الاستغلال الجنسى فى حين أن الداخلية تريد جعله مجانيا. فكرت أنى لو سألت عفاف أو ميرفت لقالتا هذا الكلام بالضبط. وأخذت أفكّر إلى أى مدى كان عفاف وسالى ومحمود على حق، وأنا الذى كنت أتعامى. لم تتركنى نور إلا عندما وعدتها بأنى سأخلد إلى النوم. وفعلت.

فى الصباح بدأت المناوشات حول وزارة الداخلية، وبحلول الظهيرة كان كل الغاضبين قد انضموا إليها، ويعلم الله أنهم كثيرون. أتى شباب الألتراس، المسلحون منهم والذين رفضوا العنف، وأتى شباب الأحزاب كلها تقريبا، ومن لا يجد عملا، ومن يشعر بالإحباط لاستمرار الظلم بعد الثورة بأربع سنوات، ومن ليس لديه شىء يفعله أو يشعر بالضيق لأى سبب، ومن لا يحب الداخلية، وغيرهم. اتصلت بمحمود بشير ونجحت فى الوصول إليه، وقلت له إن عليه واجبا بأن يوقف هذا فورا، فهو يعلم أن للقضية أساسا، وحتى لو كانت تُستخدم فى صراع سياسى فليس من الحكمة دفع الأمور إلى هذه الدرجة، فستقع مواجهات وسيموت ناس. رد بهدوء شديد أن قيادات الداخلية لا تفهم غير لغة واحدة، وأنهم الذين تسببوا فى هذه المشكلة، ومن ثم عليهم أن يحلوها، وأغلق الخط.

سقط أول قتيل فى الواحدة ظهرا، فاشتعل الموقف أكثر، وظلّ القتلى يتساقطون فى هذا النهار الدامى حتى بلغوا خمسة وستين قتيلا عند المغرب .والباقى أنت تعرفه. هذا هو اليوم الشهير الذى حاصر فيه المحتجون «لاظوغلى »وأشعلوا النار فى مبانى وزارتَى الداخلية والعدل ومنعوا سيارات الإطفاء من المرور وظلوا يحاصرونها حتى احترقت بما فيها ومن فيها.

الحلقة السابعة والثلاثون

لم يقتصر الأمر على هجوم البلطجية ومحاولات الأهالى تنظيم أنفسهم والتصدى لهم ، بل تبعه فى اليوم التالى رد فعل لم يتوقعه محمود بشير فى حربه مع التنين الجريح وهو انفجار غضب الناس

ظهرَت نور على باب البيت فى الصباح. أرادت الاطمئنان علىّ قبل ذهابى إلى العمل. احتضنتنى وغمرتنى برقتها فهدأت روحى قليلا .أعدّ لنا عبده قهوة وجلسَت معى فى الشمس على السطح وأخرجَت من حقيبتها ساندوتشات فول وطعمية ساخنة اشترتها فى الطريق. لم أكن قد أكلت شيئا منذ ظهر اليوم السابق، فأكلنا ونحن صامتان. لم يكن أى منا بحاجة إلى الحديث، ولم نكن نتحدث كثيرا عادة؛ نجلس متقابلَين ونتبادل النظرات كأنها ماء نشربه .أكلنا، واحتسينا قهوة عبده وشكرناه. هممت بالرحيل فاحتضنتنى مجددا وهمست فى أذنى أن لا أحمّل نفسى أكثر مما تحتمل. نظرت إليها مستفهما لكنها ابتسمت وطبعت قبلة على يدها ومسحت بها وجنتى. وخرجنا كلانا. عادت هى إلى بيتها وتوجهتُ أنا مع عبده إلى مقرّ الرئاسة.

وجدت أن إحراق وزارة الداخلية لم يزد قياداتها إلا عنادا. وبعد الصدمة الأولى ليوم القتل والحرق، أغلقت أقسام الشرطة أبوابها احتجاجا، وبدأ »البلطجية» هجومهم الكبير فى كل مدن مصر دون أن يجدوا شرطيا واحدا يوقفهم .اجتمع قادة الأجهزة الأمنية الثلاثة مع أعضاء المجلس الرئاسى عند الظهيرة، وانضم إليهم محمود بشير لفترة ثم غادر. ثم عقد القادة اجتماعا منفصلا. ثم انعقد اجتماع موسع فى الخامسة عصرا ضمّ القادة الأمنيين وأعضاء المجلس الرئاسى وممثلى القوى السياسية المشاركة فى الحكومة ومحمود بشير . وظلت المعضلة كما هى، وانفضت كل هذه الاجتماعات دون نتيجة.

فى أثناء ذلك طاحت جموع البلطجية فى أرجاء البلاد. كان ما يحدث صورة مكبرة -وأسوأ بكثير- من أحداث يوم 29 يناير 2011. تصدى للبلطجية «حرس الثورة» من الألتراس المسلحين، وعناصر «شرطة» السلفيين والإخوان، كما نجحت اللجان الشعبية فى صدّ هجمات متعددة بل والقبض على عدد منهم. وهذه المرة لم يَسْلم أحد البلطجية المقبوض عليهم للشرطة، بل تم احتجازهم بمركز شباب الجزيرة الذى اتخذه الألتراس مقرا. إلا أن شراسة البلطجية كانت بلا حدود، كأنهم جنود المماليك الذين اعتاد قادتهم إطلاقهم على مدينة حين يريدون معاقبة أهلها: عاثوا فسادا فى البيوت والمحالّ والناس لستة أيام، ولم يسلم أحد من الأذى، لا الذى تصدى ولا الذى استسلم. ستجد وصفا مفصّلا لهذه الأيام المروّعة فى الكتب وفى أفلام وثائقية بلا حصر، كلها متاح على الإنترنت. ولا أريد وصفها هنا، فما زالت نفسى تجزع حين أتذكر تفاصيلها. لم أكن -فى تعامىً عما أكره- أتصور أن للبشر كل تلك القدرة على الانحطاط، لكن هذه الأيام الستة علّمتنى، من ضمن ما علمتنى، أن الحيوان الكامن فى الإنسان أشرس وأحَطُ من بقية إخوته.

لم يقتصر الأمر على هجوم البلطجية ومحاولات الأهالى تنظيم أنفسهم والتصدى لهم، بل تبعه فى اليوم التالى رد فعل لم يتوقعه محمود بشير فى حربه مع التنِّين الجريح، وهو انفجار غضب الناس على السياسيين أيضا. حين جاءت الأنباء بالعنف الآتى من ناحية العشوائيات المجاورة لطريق »صلاح سالم» ظننّا أنه جزء من حروب البلطجية مع الأهالى، لكن تواترت الأنباء بعد الظهر عن أعمال عنف مشابهة، وفى المساء اتضحت الصورة: هناك انتفاضة كاملة للجوعى والفقراء والتعساء والغاضبين. لم يكن الناس بالغباء الذى تصوره محمود بشير؛ فهموا أن السياسيين فى الحكومة -ومحمود بشير شخصيا- يحاربون قياداتِ الأمن بهم. يبدو أنهم يعرفون ذلك من البداية، لكنهم تحملوه لما كانت كلفته مناوشات حول الداخلية أو فى العباسية أو مجلس الوزراء، وبعض القتلى من الشباب. ولأن هؤلاء الشباب كانوا يتطوعون بالانخراط فى المواجهات، فقد سهّل ذلك على كثيرين احتساب موتهم تكلفة مقبولة لصراع سياسى يشاركون هم فيه بإرادتهم. أما حين نقل السياسيون وقادة الداخلية ساحة صراعهم إلى حياة وأرزاق وأعراض الناس المسالمين الجالسين فى بيوتهم، فقد انفجر الناس وثاروا.

البعض ثار بالإحراق والنهب والتدمير لحسابه الخاص، فهاجموا ما وجدوه فى طريقهم واستولوا على ما ظنوه نافعا وأشعلوا النيران فى البقية. البعض الآخر خرج لينتقم ممن تَسبَّب فى هذه الفوضى. ولما كانت الشرطة مختفية، ووزارة الداخلية تم إحراقها بالفعل، لمَ يبقَ أمامهم سوى سياسيى الحكومة، فصبّت الجماهير جمّ غضبها على هؤلاء، وبالذات على محمود بشير.

نجا محمود بحياته بمعجزة، حين تسلل فى الوقت المناسب خارج مجلس الوزراء من باب خلفى قاده إلى مبنى مهجور ومنه إلى مبنى آخر، وهكذا حتى خرج فى شارع المبتديان وغادر المنطقة كلها واختفى عن الأنظار . أما الغاضبون الذين حاصروا المبنى فقد بدؤوا يُضرمون فيه النيران نحو التاسعة مساءً، وظلوا يحاصرونه حتى أتت النيران عليه بالكامل، وبدأت تنتقل إلى المبانى المجاورة. كان المشهد مروِّعا، واستمرت النيران مشتعلة حتى صباح اليوم التالى حين بدأت تخمد تدريجيا بعد أن دمّرت كل ما يمكنها تدميره.

انتهى محمود بشير سياسيا فى هذه الليلة، وانتهت معه حقبة كاملة من المناورات والتحالفات العقيمة، لكنه لم يكن يعرف ذلك بعد، ولا كثيرون منا فهموا ذلك آنذاك. كأن الناس عبروا خطًا غير مرئى، لفظوا عنده كل هذه الطريقة فى إدارة الأمور وصاروا مستعدين، بل يبحثون عن طريقة جديدة. لم نفهم آنذاك، تحت ضغط الكرب الذى أصاب الجميع. ولم يفهم محمود بشير وبقية السياسيين والقوى التى تقف وراءهم. حتى قادة الأجهزة الأمنية لم يفهموا .ومثل ما حدث فى أول 2011، كانت الموجة تنقلب دون أن يلحظ أحد أو يفهم بوضوح كافٍ ما يجرى. ربما شعر البعض أن شيئا على وشك الحدوث، لكن لم يستطع أحد أن يضع يده عليه بالضبط.

أما أنا فقد جمعت حاجاتى من المكتب وأخذت عبده وتركت المقر الرئاسى يواجه مصيره. كنت محطما من اليأس، وتحدثت قبل رحيلى مع أعضاء المجلس الرئاسى عديمى الفائدة وبعض رموز القوى السياسية ولم أجد لديهم سوى كلام فارغ وعبارات ممضّة ومكررة عن «ضرورة تغليب العقل والمصلحة العامة فى هذا الوقت الخطير». شكرا على البلاغة. بحثت عن العقيد لطفى مرة أخيرة ولم أجده، فقد اختفى مع قيادات الداخلية، حتى التليفونات أغلقوها. سعيد قال لى إن الجيش سيحمى منشآته لكنه لن يتورط فى أى مواجهات أو يخرج من هذه المنشآت تحت أى ظرف. وحامد قال لى إن الوضع انهار بالكامل ولا يوجد ما يمكن عمله حتى تنحسر موجة الغضب الشعبى، داعيا أن لا تكون الخسائر أفدح مما يمكن احتواؤه. أمضت مصر هذه الليلة، الثانى من يوليو 2015، بلا دولة.

كنت على اتصال دائم بنور، وحادثتها مرة أخرى وأنا أغادر مكتبى فدعتنى أنا وعبده لقضاء الليل ببيتها. وافقت على الفور. كنت قلقا عليها ولا أريد تركها وحدها. لا أدرى إن كان وجودى سيحميها ساعة الجد، لكن على الأقل نكون معا. وصلنا إلى المنيل ووجدنا أن اللجان الشعبية قد أقامت تحصينات مدهشة عند مداخل الجزيرة كلها؛ لم يبقَ سوى أن ترفع الكبارى وتطلق التماسيح فى النيل. بعد عدد من نقاط التفتيش، واتصال تليفونى أجراه مسؤول النقطة الأخيرة بمنزل نور ليتأكد من أنها تنتظرنا، سمحوا لنا بالدخول. كانت التليفونات تعمل فى معظم أرجاء المدينة، ووجد الشباب طريقة لإعادة ربط تليفونات بعض الأحياء التى تعطلت فيها الخدمة بشبكات المحمول. لا أعرف كيف بالضبط لكن شرحها لى أحدهم. وجدت نور هادئة وحزينة. احتضنتنى طويلا وأدخلتنا وأكلنا طعاما معا نحن الثلاثة. بعد العشاء دخلت آخذ دشا كى أحاول غسل كوارث اليوم عن ذهنى، وحين خرجت وجدت نور دامعة العينين وعبده مضطرب الحال. جرت إلىّ واحتضنتنى فى حين أنبأنى عبده بخبر مقتل عفاف.

لم أتحرك، لم أنطق بكلمة. شعرت بأنى أصرخ لكنى اكتشفت أن صوتى لا يخرج ثم شعرت بتلك النقطة فى رأسى تختنق وضاع الأكسجين، وسقطت.

حين أفقت كنت فى الفراش ونور جالسة بجوارى تربت على وجهى وعبده واقف عند الباب. استغرق الأمر منى ثانيتين حتى تذكرت أين أنا وماذا حدث. شربت الماء الذى أعطتنى إياه نور، وسألت عبده عما حدث فأخبرنى بأن مسلحا مجهولا هاجم عفاف فى ميدان الجيزة وضربها بسيف على رأسها فماتت على الفور، هكذا .ظللت أحدق أمامى فى الفراغ ونور ممسكة بذراعى. هذه هى النتيجة الطبيعية لمقامراتنا، فلِمَ فاجأنى ذلك؟ كل يوم يسقط ضحايا؛ فى كل مرة يفشل فيها السياسيون يُقتل أناس مثل عفاف. يفشل النظام فتضيع أرواح وأرزاق وحياة ناس، مثل عفاف؛ على يدى أنا، وتحت سمعى وبصرى. تمر علىّ الأرقام وأقيّمها كل مرة: خمسة قتلى غير خمسين، غير سبعين، غير مئة وخمسين. ثم أضع المعلومة جانبا وأواصل «العمل»: مشاورات ائتلافية جديدة، وحكومة أخرى، وإصلاح أمنى لا يتمّ، وحسابات معلّقة لا تُحسَم، وصراع آخر، ثم مناوشات أخرى وقتلى جدد. لِمَ يفاجئنى قتل عفاف إذن؟ كم عفافا قُتلت بين يدَى؟ وما الفارق بين شجّ رأسها بالسيف وشق روحها بالاستغلال والعِوَز والحرمان؟ قالت لى نور فى الصباح أن لا أحمِّل نفسى أكثر مما تحتمل، لكن ماذا كانت ستقول لو علمت أنى كنت شاهدا على المقامرة من البداية: قال محمود إنه سيضرب الفوضى بالفوضى، وقلت له إن اللعب بالنار خطر، ثم مضى فى ما انتواه وسكتُّ أنا. والآن صارت عفاف جثة، نضعها فى قبر ونقرأ الفاتحة على روحها ونمضى كأننا لسنا نحن مَن قتلها.

نظرت إلى نور ورأيتها تنظر إلىّ كأنها تقرأ ما يدور بذهنى، ودمع غزير يسيل من عينيها. انسحبَت ناحية طرف الفراش، وانكمشت فى نفسها، وأُجهشَت بالبكاء.

الحلقة الثامنة والثلاثون

صدر بيان «اتحاد شباب مصر».. وكان أهمّ ما فيه وقتها هو اتضاح قدرتهم على صيانة الوضع الأمنى بدرجة معقولة.. وطلبهم عودة الحكومة لعملها مع تعيين وزير داخلية مدنى

لم يكن حالى أفضل فى الصباح؛ نظرت إلى نور وشعرتُ كأن رُوحها غائبة .كان علىّ العودة إلى مقر الرئاسة والبحث عن مخرج من هذه الفوضى العارمة، أيًّا كان رأيى فى جدوى عملى أو مسؤوليتى عما جرى. وجدت الشوارع خالية من المارة، وبها حواجز ونقاط تفتيش شعبية لا حصر لها. ثُلل متناثرة من الشباب تحمل سلاحا، ولا تعرف إن كان هؤلاء بلطجية أم مدافعين ضد البلطجية، فبعد سبعة أيام من المواجهات أصبح الكل يتشابه فى ملابسه وسحنته و«تسليحه». وصلت إلى الرئاسة فوجدت المبنى سليما تماما؛ يبدو أن الناس نسوه من فرط انعدام قيمته. بحثت عن محمود بشير فلم أعثر له، ولا لبقية أعضاء الحكومة، على أثر.

اتصلت بعزالدين لأطمئن عليه فوجدت روحه المعنوية مرتفعة. سألته مستغربا فاستغرب استغرابى وسألنى بدوره إن كنت لا أتابع ما يحدث. سألته، وسمعت منه لأول مرة عن المعارك التى دارت والتى وصفها بـ«موقعة جمل» كُبرَى تجرى فى أنحاء البلاد كلها. دارت مواجهات عنيفة مساء أمس وطوال الليل، ولا أحد يعرف حتى اليوم عدد القتلى والمصابين، لكن بشروق الشمس كان البلطجية ينهزمون. قُتل من قُتل منهم والباقى جُرّد من أسلحته وزُجّ به فى مراكز احتجاز أقامها الشباب فى عدد من الساحات الشعبية ومراكز الشباب. كان صوته ينضح بموسيقى لم أسمعها فيه من قبل: قال لى إن شبكة «الشباب المدنى الديمقراطى» أخذت المبادرة منذ عدة أيام، ونجحت فى ربط اللجان الشعبية مع »حرس الثورة» من الألتراس المسلحين مع «شرطة» السلفيين والإخوان، ونسّقوا دفاع هذه المجموعات فى كل المدن، بل وسيّروا دوريات على الطرق السريعة، وشيئا فشيئا تَحسّن موقفهم حتى دارت المعارك الفاصلة مساء أمس وحتى الفجر .كان فى صوته شجن وفرحة فى نفس الوقت. صمت لحظات ثم قال وصوته يختنق من التأثر إن هذه الكتلة من الشباب نجحت فى استعادة الأمن فعليا، وإن لم يكن مخطئا فإن هذه هى البداية الحقيقية للخروج من الفوضى. سألته إن كان على اتصال بهم أو يستطيع توصيلى بهم فقال إنهم على اتصال دائم به وسيُصدِرون بيانا بعد قليل.

اتصلت بممثِّلِى الأجهزة الأمنية الرسمية فلم أجد سوى حامد، واتفقنا على اللقاء فى مكتبى فى الواحدة بعد الظهر. اتصلت بأعضاء المجلس الرئاسى فوجدتهم متحصنين بمنازلهم فى المنتجعات التى تحرسها شركات الأمن الخاصة .عاودت محاولة الاتصال بمحمود ولم أنجح فطلبت من عبده الذهاب والبحث عنه بطرقه الخاصة، ومعرفة ما يدور فى الشارع. بعد أقل من ساعة صدر بيان «اتحاد شباب مصر» الذى اشتهر بعد ذلك، وكان أهمّ ما فيه وقتها هو اتضاح قدرتهم على صيانة الوضع الأمنى بدرجة معقولة، وطلبهم عودة الحكومة لعملها مع تعيين وزير داخلية مدنى يقوم فورا ببناء أجهزة أمنية جديدة. كانت هذه أول مرة تطلب فيها حركة ثورية من حكومة الاستمرار فى العمل، لا الاستقالة .وشعرت أن لعزالدين يدا فى صياغة هذا البيان. اتصلت به وطلبت منه تحديد موعد لى مع قيادة الاتحاد فقال إن وفدا من خمسة أشخاص يمثّلون الاتحاد سيتوجه للرئاسة فى الرابعة بعد الظهر.

دخل حامد فور إنهائى للمكالمة. بدا متحفظا، وأخذ يكرّر أن حديثه لى شخصى، من صديق إلى صديقه ولا علاقة له بموقف الجهاز، ثم أخبرنى بوجود خلافات حادة بين الأجهزة الثلاثة، لأن كلا من المخابرات «العامة «و«العسكرية» نفد صبرهما إزاء رعونة قيادات الداخلية وتصرفاتهم اللامسؤولة، وبعد أحداث الأسبوع الماضى بات واضحا للجهازين ضرورة تنحى هذه القيادات، فحدة الفوضى هذه المرة توضح بجلاء أن هذه القيادات لن تتورع عن إحراق البلد كلها من أجل حماية نفسها، وكل من يهمه الأمن القومى يشعر بقلق شديد، خصوصا فى الجيش الذى لا يفهم ضباطه وقوفهم مكتوفى الأيدى بينما تدمّر حفنة من قيادات الداخلية الدولة.

أخبرته عن بيان «اتحاد شباب مصر «واكتشفت أنه لم يسمع به من قبل. قرأ البيان واندهش بشدة، ثم قال إنه -مرة أخرى بشكل شخصى- يعتقد أن هذا كلام عاقل ومسؤول ويمكن قبوله من «العامة «و«العسكرية». لكن المهم العثور على شخص مستقلّ، ليس طرفا فى هذه الصراعات، يتسم بالعقل والمسؤولية ويكون اهتمامه الرئيسى استعادة الأمن لا تصفية الحسابات أو بناء شعبية لنفسه، ويستطيع تمرير تفاهمات تسمح بطىّ صفحة الماضى ولكن فى نفس الوقت تكون يده ثابتة ولا يخضع للضغوط. وإذا ما توفر هذا الشخص، فإن الجهازين سيفرضانه على قيادات الداخلية .أخبرته بموعدى مع ممثلى اتحاد الشباب، وطلبت مساعدته فى إحضار أعضاء المجلس الرئاسى وأكبر عدد ممكن من الوزراء، بمن فيهم محمود بشير المختفى، لنقرر ما سنفعله بعد اللقاء مع الشباب.

اتصلت بنور لكنها لم تردّ. وفى الثالثة عاد عبده وقال إنه لا أثر لمحمود بشير، وإن الشوارع تبدو عادية ولا يوجد أعمال عنف ذات بال، وإنه اتصل بأصدقاء كثيرين له فى بقية الأحياء وقالوا له إن الوضع يهدأ تدريجيا وإن اللجان الشعبية وشركاءهم يسيطرون على الوضع بشكل كبير. حاولت مرة أخرى الاتصال بمحمود وطلبت من حامد المساعدة فى العثور عليه. حاولت الاتصال بنور فوجدت تليفونها مغلقا هذه المرة.

تم الاجتماع فى الخامسة، وشارك فيه أعضاء المجلس الرئاسى وبعض أعضاء الحكومة، وكذلك مديرو المخابرات العامة والعسكرية، لكن محمود ظلّ مختفيا .لم يقل الشباب شيئا مختلفا عما ورد فى بيانهم؛ يريدون مباشرة الحكومة لعملها، مع تعيين وزير للداخلية، بشرط تحويل اللجان الشعبية و«شرطة الإخوان والسلفيين» و«حرس الثورة «إلى قوة شرطة شعبية يتمّ تدريبها وتسليحها وتتولى مهامّ حفظ الأمن إلى حين بناء جهاز شرطة جديد، ثم يتم تحديد اختصاصات كل من جهازَى الشرطة فى ما بعد مثلما هو الحال فى كل البلاد الديمقراطية. ثم أضافوا أنهم يرشحون الدكتور عزالدين فكرى لمنصب وزير الداخلية.

دارت مناقشات طويلة، معظمها عقيم. والحقيقة أننى انبهرت بهؤلاء الشباب وبوضوح تفكيرهم ونزوعهم نحو الحلول العملية؛ بون شاسع بين ما قالوه وما كان كبار السن المشاركون فى الاجتماع يرددونه. رفعنا الاجتماع للتشاور على أن نجتمع ثانية فى التاسعة مساء، وقال الشباب وهم يغادرون، وبثقة شديدة، إن زملاءهم لن يغادروا مواقعهم، أو يسلموا أسلحتهم، أو يسلموا البلطجية الذين قبضوا عليهم، أو يسمحوا بعودة الشرطة القديمة، قبل الاستجابة لمطالبهم .ثم غادروا القاعة فى هدوء.

أعقب ذلك كثير من التفاصيل والمناورات سأوفّر عليك تفاصيلها فلا قيمة لها الآن. تم العثور على محمود أخيرا وحضر عند قرابة الثامنة مساء، وعرفت حين رأيته أن حياته السياسية توشك على الانتهاء؛ راحت زهوة القتال وحلّ محلها انكسار وهزيمة لم أرَهما فيه منذ طُرد من الرئاسة وهو شابّ بعد حادثة سالى القصبجى الأُولى. هززت رأسى أسىً وأنا أفكر، لِمَ تنتهى مغامراته دوما بفضيحة مدوّية بطلتها سالى. لكن لم يكن للأسى وقت. حيّيته برأسى وابتسم لى فى تشوش وجلس صامتا حتى نهاية الاجتماع. رفض عزالدين فكرى قبول المنصب، قائلا إنه يريد التركيز على بناء تنظيم سياسى للشباب الديمقراطى المدنى. نظر إليه الحاضرون غير واثقين إن كان كلامه مزاحا أو جنونا، لكنه كان جادا جدا. وفى مناقشة جانبية مع مديرى المخابرات قال لهم إن مساعدة الشباب على تنظيم أنفسهم أقرب لمؤهلاته من قيادة إصلاح أمنى فى بلد مفكّك، وغادر .لكن الشباب ذهبوا إلى منزله لإقناعه.

أسرّ إلىّ محمود بأنه عائد من جنازة عفاف، وهنا تذكرت. واتصلت بنور فاكتشفت أنها كانت فى الجنازة هى الأخرى: سألتنى بصوت حزين كيف لم آتِ إلى الجنازة .أخبرتها بما نحاول فعله فسألَت فى نبرة لا تخلو من تهكّم إن كنت قد توصلت إلى شىء مفيد. صمتُّ. وصمتَت. فتح عبده الباب وبدا حامد من خلفه فأنهيت المكالمة مع نور. ثم توجهت مع حامد إلى منزل عزالدين.

فى الطريق علمت منه بوجود توافق بين الأجهزة على تكليف الدكتور عزالدين فكرى بوزارة الداخلية. سألته عن محمود بشير فقال إنه فى حالته هذه لن يكون مؤثرا، كما لن تعترض القوى السياسية طالما استمرت الحكومة الحالية لأن أحدا منهم لا يرغب فى بدء مفاوضات تشكيل حكومة جديدة. فتحت أسماء لنا الباب وهى مكتملة الأناقة كعادتها، وأشارت لنا ضاحكة بالدخول أينما شئنا لوجود عشرات الشباب بالداخل وفقدانها السيطرة على البيت. مالت علىّ وهمست فى أذنى راجية منى إنقاذ عزالدين من المصير الذى يدفعونه إليه. ضحكتُ، وليتنى استمعت إليها جيدا.

أخذناه على حِدَة وتحدثنا مطوّلا. وعده حامد بمساندة الجيش والمخابرات، شريطة التعامل بذكاء مع قيادات الداخلية، بحيث يكون قويا معهم دون أن يطلب من الجيش أو المخابرات مواجهتهم، وهذا هو بيت القصيد. استمر عزالدين فى الرفض، لكن مقاومته بدأت تضعف. لم أرَ فى حياتى أحدا قاوم منصبا وزاريا هاما حتى النهاية .فى محاولة أخرى منه للمقاومة قال إنه شخص مثالى، يفعل الأشياء كما يجب فعلها، وليس له طاقة على أنصاف الحلول التى يحبها الناس، وإن تطوع للقيام بهذه المهمة فسيقوم بها بشكل كامل، بحيث يطبق القانون على الجميع، وهو أمر لن يعجب أحدا، بما فى ذلك هذا الشباب الذى يؤيده ويضغط عليه لقبول المهمة. مال علينا وأسرّ إلينا بصوت خافت أن كل هؤلاء يعجبهم فيه أنه منظّم ويفعل كل شىء بنظام، لكنهم يتناسون أنهم هم أنفسهم لا يحبون النظام ولا يطيقونه، وسيكونون أول من يشتكى حين يصل النظام والضبط والربط إلى بابهم.

واصل عزالدين مقاومة العرض، لكنى وحامد لاحظنا أنه بدأ يتكلم عن نفسه كمسؤول عن الأمن، فتبادلنا الابتسام. لم يتبقّ سوى بعض الوقت والمناقشات والوعود والشروط حتى يوافق. وفى آخر محاولة منه لإفشال الفكرة طلب دعم الجيش؛ بإنشاء قوة انتشار سريع من الجيش، يكون لها مهامّ محددة فى مواجهة الأزمات الأمنية الكبرى، وتخضع عملياتها وتحرُكاتها لسلطته. كانت هذه أصعب الطلبات، فلم يسبق أن وضع الجيش وحدة متكاملة من قواته تحت إمرة مدنى. لكن الكيل كان قد فاض بالجميع من الفوضى التى نعيش فيها. فحصل حامد على موافقة الجيش. وهكذا صار الدكتور عزالدين فكرى، أستاذُ العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية، وزيرا للداخلية فى حكومة محمود بشير الثانية.

لم يكن أحد يتصور، خصوصا أنا رفيق دربه القديم، أن أستاذ العلوم السياسية هذا، صاحب الهدوء البارد والمنطق المنظم والأناقة الفكرية، سيصبح الديكتاتور الدموى الذى تعرفه. لكن رسالتى هذه طالت عما خطّطتُ له. والشمس توشك على المغيب، ولم أتناول شيئا طوال النهار. سأستريح قليلا، وآكل شيئا، ثم أعود.

الحلقة التاسعة والثلاثون

ها أنا ذا مرة أخرى.

لا أكتب هذا الخطاب الطويل كى أحكى لك ما جرى، فأنت تعرف ما جرى. وإنما لأشرح لك ما فعلته، وما أنا على وشك فعله. ولأن حياتنا اختلطت بما جرى، ولأن ما أفعله لا يمكن فهمه دون أن أعرّج على بعض ما جرى، أجدنى مدفوعا -أيضا، ربما، بفعل العادة، ولأنى رأيت ما لم يرَه كثيرون- لأن أقصّ عليك بعض تفاصيل الأحداث التى ستجدها فى أرشيف أى جريدة أو موقع إخبارى محترم .وأكرر رجائى بأن تسامحنى إن أطلت عليك، أو إن اضطربت حكايتى وتداخلت، وأوجزت أحيانا وأسهبت أحيانا أُخَر، فليس كل يوم يجد المرء نفسه فى ظرف كهذا.

ولا تبتئس كثيرا من سواد حكايتى. واعلم أن سوادها لا يقارَن بما آلت إليه حياة الملايين غيرنا، فى مصر ومن حولها، فى زماننا وقبلنا، وأننا كنا محظوظين فى كل ما جرى. فليست الحياة نجاحات وازدهارا فقط كما تصوّر القصص، بل هى خليط من كل شىء، والمهم، كما اكتشفت وكما سأحاول أن أشرح لك، هو كيف تعيش فى هذا الخليط، وأى مسار تختار لنفسك، وهل تختاره أم تدع الآخرين يختارون لك. هناك أشياء بيدك، وأشياء لا خيار لك فيها أو سيطرة عليها، والتحدى الحقيقى أن تميز بين الأمرين. فمن العبث، بل من الغباء، أن تترك ما بيدك أمره كى تشغل نفسك بما لست عليه بمسيطر. وقد استغرق الأمر منى عمرا كاملا لأجد الطريق بين الأمرين، لكنى أزعم أنى وجدته، وأريد أن أحكى لك كيف وجدته، وهذا هو مبتغاى. لكن دعنى لا أستبق الحكاية، سنأتى إلى هذا، فما زال أمامى اثنتا عشرة ساعة كاملة. وإن كنت استطعت كتابة ما كتبت فى مثلها، فسأستطيع إكمال رسالتى لك حتى نهايتها قبل الفجر.

توقفت بك عند اللحظة التى أصبح فيها عزالدين فكرى وزيرا للداخلية؛ وفور أدائه لليمين الدستورية أمام المجلس الرئاسى عدت أنا للاهتمام بأمورى التى تنتظرنى، وأولها نور. كان قلبى يحدّثنى أنها غاضبة علىّ، منذ الليلة التى قضتها منكمشة فى الفراش تبكى وحتى اختفائها خلال المفاوضات مع عزالدين وتعليقها على غيابى عن جنازة عفاف. لكنى تجاهلت إحساسى وتظاهرت بأن كل شىء على ما يرام. ربما هو الحزن، قلت لنفسى.

ذهبت للقائها فى مسرح التحرير، حيث تتمرن على الأداء مع زملائها. جلست أنتظرها على أحد مقاعد الصف الأخير. لا أدرى من أين أتوا بهذه المقاعد الخشبية القديمة، لكنى أحبها وترتبط عندى بالمسرح.
جلست أرقبها وهى تتمرن مع الفريق. لا أمل من مشاهدتها تتحرك، وتتحدث، تؤدى جزءا من دور ثم تتوقف وتعيده. أحيانا يضحكون، وأحيانا يتململون، وأنا جالس أرقبها وأحبها أكثر .حين تغيب، أغلق روحى وأمضى لأداء شؤونى،كأنى لم أعرفها قط. وأستطيع أن أقضى أياما بكاملها دون التفكير فيها ما دمت مشغولا بأشياء أخرى تبتلع تركيزى. لكنى إن توقفت وفكرت، إن فتحت الباب لنفسى، إن فتحت تلك الطاقة ونظرت منها داخلى، فقدت السيطرة ولم أستطع المواصلة دون أن أراها. وعندها أكتشف إلى أى حد كانت روحى جافة دونها. كالصائم الذى لا يفكر فى الماء وينشغل بأشياء أخرى كى ينسى العطش، ثم يجد الماء. وتتشقق كل خلية فيه تعطّشا إلى ملمسه. هكذا كنت وأنا جالس على ذلك المقعد الخشبى فى الصف الأخير أرقبها تتحرك كالفراشة فى وسط المسرح مع بقية الممثلين. أنظر إليها، وأريد لمسها، وأعلم أنى صرت أسيرها.

حين رأتنى وقفَت التمرين وجاءتنى، وعلمتُ حين التقت عينانا أنها غاضبة علىّ. حاولتُ التظاهر بأنى لم ألحظ لكنها حدجتنى بنظرة أخرجتنى من لعب الصبية هذا. سألتها عما بها فصمتَت، وكلما ألححت فى سؤالى غابت فى صمتها أكثر. ثم وضعت يدها على ساعدى وقالت لى أن نلتقى فى وقت آخر ونتحدث، لأن هذا ليس المكان ولا الوقت الملائمَين للحديث. واتفقنا على اللقاء بعدها بيومين، لأنها كانت مشغولة فى التمرينات.
شعرت بالقلق، لكنى صمتّ. عادت هى لتمريناتها، ورحلت أنا متوجها إلى البيت لأرتاح بعد هذا اليوم الطويل.

كنت فى الطريق إلى البيت أفكر فى ما يجب على عمله لمساعدة إخوة عفاف حين اتصلت صفية وأنبأتنى بوفاة عمّك عمر. لا أدرى لِمَ تأتى المصائب صحبة هكذا دوما. لم نكُن، أنا وعمك، متقاربَين، بل إنه طالما أثار حنقى بأسلوبه وطباعه. لكنه حنق من نوع خاص؛ يكاد يكون غضبا على نفسى .كأن عمر صورة قريبة منى لا أحبها، أو كأنه يُرينى عيوبى مكبّرة أو معكوسة؛ أحيانا يبدو كأنه تجسيد لما لا أحب فى نفسى، وأحيانا لما أحب أن أكونه ولا أستطيع. لا أدرى، لكن هكذا علاقة الأخوّة، أكثر تعقيدا بكثير مما تبدو .وزاد حنقى عليه كما قلت لك أنه وجد فى نفسه من القسوة ما دعاه إلى مقاطعتى فى سنواته الأخيرة لمجرد أننا قررنا دفن أمى حين ماتت دون انتظار تشريفه من إيطاليا. وقطع أخباره وأخبار زوجته وبناته عنى. ونتيجة كل هذا، والأحداث المثيرة التى مررت بها خلال السنوات الثلاث الأخيرة، غاب عمك عمر عن تفكيرى بشكل شبه تامّ -فى ما عدا تلك المرات التى تذكره فيها صفية فى أحاديثنا التليفونية. نسيته، أو كأنى تركته مع صفية لتعتنى هى به. حدّثتنى أكثر من مرة عن مرض قلبه، وبدت قلقة أحيانا، خصوصًا فى الآونة الأخيرة حين حدثتنى عن ضرورة إجرائه عملية وتردُّد الأطباء، لكنى لم أُعِر الموضوع اهتماما، كأنى لا أصدّقه. لم أتوقع أبدا أن يكون مرضه قاتلا، وحين قالت لى إنه لم ينجُ من عملية القلب التى كان يُجريها لم أصدّق فى البداية. أعلم أنها لا تمزح، لكن كلماتها تنزلق على مسامعى دون أن تنفذ. لا، لا يمكن أن يكون عمر قد مات. عمر لا يموت. الإخوة لا تموت هكذا وهى فى آخر الأربعينيات. ماذا؟! هو فى أوائل الخمسينيات؟! بالفعل؟ ياه! لقد مر الوقت سريعا. لكن مع ذلك، لا يمكن أن يموت عمر، فعليًا، فهو أخ. الآباء والأمهات يموتون حين نكبر، لكن الإخوة؟! وشيئا فشيئا بدأ الخبر يسكننى، وبدأت أفهم أنه مات، رحل عن هذا العالم، لم يعُد له وجود مادّى، توقف عن الحياة، لم يعُد من الممكن أن يقول شيئا آخر، أو يفعل شيئا، أو يأتى للغداء، أو يخرج معنا، أو يتشاجر على التليفون، أو أى من هذا. انقطع وجوده وعمله فى هذه الدنيا. حينها، وأنا أفكر فى أننا سنضعه هو الآخر فى بطن الأرض ونُهيل عليه التراب ثم نغلق عليه القبر بالأسمنت كأننا نخشى أن يفرّ منه، حينها فهمت أنه مات. وعندها شعرت أن جزءا منى أنا قد مات.

تساءلت عندها: لماذا حين يأتى الموت يأبَى الرحيل دون أن يحصد روحا أخرى معه؟ كنت أفكر، حين سألت نفسى هذا السؤال، فى عفاف وعمر؛ لم أكن أعلم، ساعتها، أن موسم الموت يوشك على البدء، وأنه سيقيم معنا سنتين، يحصد فيهما عشرات الآلاف من الأرواح، على مقربة منى، بل تحت سمعى وبصرى .أخبرَتنى صفية أن عمر أوصى بدفنه فى إيطاليا، وفى اليوم التالى مباشرة. قد تظنّ أنى أبالغ، لكنى متأكد من أنه فعل ذلك خصيصا كيلا أتمكن من حضور جنازته؛ لم يُرِد أن يرحل دون أن يردّ لى الصاع القديم الذى يعتقد أنه بيننا. هذا الأحمق. ضحكت حين أخبرتنى صفية بوصيته تلك، لعله قصد إرسال سلام خاص إلىّ، لعله أراد أن يضحك منى ومن نفسه ومن خلافنا القاسى التافه الأسباب. اذهب يا عمر، عليك محبة قلبى، عليك السلام.

قالت صفية أيضا إن خديجة، زوجة عمر، الفلسطينية الأصل، قررت العودة إلى مصر بأبنائها الثلاثة بعد وفاة عمر. لم تكُن معرفتها بمصر تتجاوز الإجازات التى قضوها معنا عدة مرات، ولا أحد من أبنائهما الثلاثة، لارا وتمارا وزياد، يتحدث العربية أو يفهمها. لكنها، خديجة، صممت على تنشئتهم كمصريين، صَونًا لصلتهم بأبيهم الراحل وبجذورهم. فلو أكملوا حياتهم فى إيطاليا، أطفالاً لأب ميت وأم فلسطينية قد لا تعود هى نفسها إلى وطنها، فلن يكون لديهم جذور يمكنهم العودة إليها أو الانتماء. لن يكون لهم سوى أنفسهم وهو أمر لا يُطاق. ظنّت صفية أن هذه الرغبة عارضة؛ رد فعل عاطفى على رحيل الزوج ستتبدد مع الوقت، فسايرت خديجة، ولكنها أقنعتها بتأجيل بحث المسألة حتى نهاية العام الدراسى ومعرفة ما إذا كانت الأوضاع فى مصر ستستقر حسبما يتوقع الجميع من الحكومة ووزير داخليتها الجديد.

وهكذا، لم يكن قد مر أكثر من يومين على تولى عزالدين وزارة الداخلية، حين بدأت الناس تتساءل عن موعد تحسن الوضع الأمنى، بمن فى ذلك المصريون الذين يعيشون هانئين آمنين منعّمين فى إيطاليا. فما بالك بمن يعيش تحت وطأة الخوف، وينقبض قلبه كلما اقترب منه مجهول فى شارع أو بدا له ما يمكن أن يكون حاجزا وهو يقود سيارته، ويظل القلق يأكل نفسه فى كل مرة يخرج فيها أبناؤه لقضاء حاجة أو زيارة صديق أو الذهاب إلى مدرسة. فى البداية أشفقت على عزالدين من هول المهمة، ولو علمت الغيب لأشفقت علينا نحن.

الحلقة الأربعون

وصلت إلى البيت عند المغرب وأنا مشتّت الذهن. عبده الذى قضى اليوم فى البيت يعتنى به دُهش عندما رآنى عائدا مبكرا. وظلّ يطاردنى بكلمات العزاء والأسئلة حين أخبرته بوفاة عمر، حتى اضطُررت إلى إغلاق باب غرفتى فى وجهه كى أتخلص منه. أردت الاتصال بنور، لكنى قررت أن أدعها تنهى تمريناتها فى هدوء. وبالطبع اتصل بها عبده وأخبرها بوفاة عمر، فاتصلت بى. تظاهرتُ بالصلابة، وبأن كل شىء على ما يرام. لم أتظاهر بالضبط، لكنى خبأت مشاعرى داخل درع الصلابة التى استخدمها فى هذه الحالات. وفهمَت نور ذلك، فجاءت بعد نهاية التمرينات، فى نحو منتصف الليل. لم يكن الانتقال سهلا فى ظل تعدُّد نقاط تفتيش اللجان الشعبية، وإن كان أكثر أمنا. احتضنتنى حين رأتنى، وبينما كنت أنهى عناقنا ظلت هى ممسكة بى حتى بدأت درع الصلابة تتفكك، وشيئا فشيئا بكيت فى حضنها، ثم تحول بكائى إلى نحيب ورجفة وهى ممسكة بى لا تفلتنى. وظلت ملتصقة بى حتى الصباح.

أخذت اليوم التالى إجازة، ولم تكن تمرينات نور ستبدأ قبل الرابعة عصرا فقضينا الصباح كله معا. فى البداية تحدثنا عن عمر، ورغبة خديجة فى الاستقرار بمصر مع أبنائها، واستحسنت نور هذه الفكرة بشدة .سألتُها عما يمكننى فعله لإخوة عفاف، فاقترحَت عدة أفكار لم أجد أيا منها قابلا للتنفيذ، فلم أكن قد أخبرتها بعد بكل تعقيدات هذه العلاقة. سكتُ. ثم تحدثنا فى السياسة، والسؤال الذى يطرحه الجميع عما سيفعله عزالدين مع قيادات الداخلية، وما إذا كان سيستطيع تنفيذ مشروع الإصلاح الأمنى الذى يتحدث عنه، وكم يوما سيمر قبل أن تقع أول مواجهة بين الطرفين، ومصير اللجان الشعبية وكم تستطيع الصمود فى الشوارع، ومحمود بشير وما إذا كان سيعود من الهوة السياسية التى سقط فيها. وبعد كل هذا اللفّ والدوران سألتها عن سبب غضبها، ورفضَت الرد، ظلت تردد أن الوقت غير مناسب، وأنى أمرّ بوقت صعب ولا داعىَ لمناقشات إضافية فى هذا الوقت، لكنى أصررت، وواصلت الإلحاح حتى دفعتها إلى الحديث.

قالت -بعد تردد طويل- إنها تخشى علىّ من سلبيتى .بوغتُّ، فلا أذكر أن أحدا اتهمنى بالسلبية من قبل! استطردَت أنها تخشى تآكل إنسانيتى تدريجيا بفعل السلبية، التى قد تدمرنى تماما إن لم أفعل شيئا لمواجهتها. كدت أضحك، فقد ظننت أن هناك أمرا فعلته وضايقها، ولم أتوقع أن يكون ما فعلته هو أنى لم أفعل شيئا. وبعد الرغبة فى الضحك فكرت أنها مجنونة بعض الشىء، أو مثل كل النساء تبحث عن طريقة «لتحسين حال» رَجُلها. أنا سلبى؟! أين هذه السلبية؟ ألأنى أجد وسيلة لتفادى الصراعات أو حلها؟ أم لأنى أقبل بطبيعة البشر وأفهم اختلافهم؟ سألتها، وجاوبتنى بأنى لا أفعل شيئا إطلاقا، بل أقف فى وسط المأساة متفرجا عليها. سألت عما يمكن للمرء أن يفعل حين يجابه مأسى بهذا الحجم! هل يمكننى منع الفقر الذى دمّر حياة عفاف وإخوتها؟ وإن أنقذتها فهل أستطيع إنقاذ الملايين غيرها ممن فى نفس وضعها؟ أجابت بأن هذه بالضبط هى المشكلة، أنى لا أستطيع وقف المأساة لكنى أقف فى وسط الآلة التى تنتجها، وهو أمر يجعلنى شريكا، ولو بالشهادة، فى هذا الدمار. مشاركتى فى الظلم ولو بالمشاهدة والصمت تثقل على نفسى سواء أأدركت هذا أم لا، والطريقة الوحيدة أمامى للتعامل معه هى ارتداء دروع من الصلابة أو عدم الاهتمام أو التعود، وكلها دروع تأكل إنسانيتى تدريجيا، وسينتهى الأمر بأن تدمّرها تماما وتحلّ محلها، فلا يتبقى لى سوى هذه الدروع. صمتَت لحظة ثم عاجلتنى بما كنت أنتظر مجيئه فى نهاية هذا الحديث، وهو أنها تحبنى، ولا تستطيع أن تقف وتتفرج علىّ وأنا أدمّر نفسى بهذه الطريقة، وتفضّل فى هذه الحالة أن تبتعد من الآن.

شعرت لأول مرة بأن نور لا تفهمنى. وأردت أن أشرح لها، لكنى كلما حاولت الكلام تَبخّرَت الكلمات على شفتَىّ. أبدأ الجملة ثم لا أجد للكلمات معنى .تبدو الكلمة فى ذهنى مقنعة، ومفعمة بالمعانى، لكنى حين أسمعها أجدها فارغة، فأتوقف فى منتصف الجملة. ثم أهزّ كتفَى، وأعرف حينها أنى لن أستطيع مواصلة الكلام. لا أحب الكلمات، لا أثق بالكلمات، لا تحمل الكلمات، حين أنطقها، المعنى كما يكون داخلى. كيف لا ترى نور، وحدها، حين تنظر إلىّ، أن رحيلها مستحيل، أنى أحتاج إليها كى تستمر إنسانيتى التى تتحدث عنها .أحاول شرح ذلك، فأقول شيئا فى سذاجة الرجاء أن لا ترحل، أو فى بساطة النفى: «لا»، ثم تتبخر الكلمات.

مَن قال إن الكلمات يمكن أن تحمل المشاعر وتنقلها؟ أمسك بيدها، وأضعها على صدرى، وأُحكِم قبضتى عليها، فتحتضننى .لكنى أفكر أن عقلها لا بد أنه يحملها إلى أماكن أخرى غير تلك التى أريدها أن تذهب إليها، وأنى فى خطر، وأنها يمكن أن تذهب. فأمسك بها أكثر، كما يمسك المرء بما تقع عليه يده وهو فى طريقه للسقوط آملاً أن يكون ثابتًا ولا يسقط معه. بعد صمت طويل من ناحيتى قالت أن لا داعى للدراما، فهى لا تهجرنى ولا شيء من هذا القبيل، لكنها تريد تحذيرى كيلا أستمر فى إيذاء روحى، وساعتها لن أفقدها هى فحسب، بل سأفقد مشاعرى برمّتها، وساعتها لن أهتمّ إن هجرَتنى. طبعَت قبلة على جبهتى، واحتضنتنى مرة أخرى، وذهبت لتمريناتها.

ظل عبده يحدق إلىّ بعد رحيل نور من البيت، ولم يكن بى طاقة للكلام معه أو الاستماع إلى قصصه، ولا على البقاء وحيدا والتفكير فى ما قالته نور الآن، أو فى عمر أو عفاف أو أى من كل هذا الذى يحدث، فقررت الذهاب إلى المكتب ومتابعة ما يحدث من هناك. ورافقنى عبده إلى مبنى الرئاسة الخاوى تقريبا. كان هذا هو اليوم الثالث لتولى عزالدين الوزارة، وما زال الوضع الأمنى كما كان، معلّقا، وبحاجة إلى توضيح سريع. وقد جاء التوضيح فى هذا المساء. أعلن عزالدين فى بيانه الأول عن اتخاذ عدة إجراءات فورية لفك التوتر القائم وبدء عملية الإصلاح التى ينتظرها الجميع. وتَضمّن بيانه الإعلان عن الاتفاق مع اللجان الشعبية على مواصلة عملها الحالى، ودعوتها للتنسيق مع جهاز صغير أنشأه فى مكتبه وكلفه الاتصال بهذه اللجان وتقديم الدعم لها. كما أعلن عن إنشاء جهاز أمنى جديد سمّاه «الشرطة المحلية«، وفتح باب التقدم للانضمام إليه لمن يرغب دون التقيد بسن أو مؤهّل، مع دعوة أعضاء اللجان الشعبية و«الحرس الثورى» و«شرطة» السلفيين والإخوان بشكل خاص للتقدم بطلب انضمام إلى هذا الجهاز فى أقرب وقت بمراكز التسجيل التى فتحت أبوابها فى المحافظات. كما أعلن عن إنشاء جهاز «الحرس الوطنى» والمختص بالانتشار السريع ومواجهة الأزمات الكبرى ودعم الشرطة المحلية والتنسيق معها، وظهر بجواره فى المؤتمر الصحفى قادة هذا الجهاز المكوّن من رجال القوات المسلحة من أفرُع الصاعقة والعمليات الخاصة والشرطة العسكرية. وبعد هذين الإعلانين ألقى بسلسلة المفاجآت التى أوضحت للجميع أنه طراز جديد من وزراء الداخلية.

أولى المفاجآت كانت قراره نقل مصلحة السجون لتتبع وزارة العدل، وفصل مصلحة الأحوال المدنية وإدارة المرور والمطافئ عن الشرطة لتصبح هيئات مستقلة لها كادرها الخاص، مع تخيير العاملين بها بين البقاء فيها حتى تقاعدهم والعودة لهيئة الشرطة فورا دون إمكانية العودة لأى من هذه الهيئات فى المستقبل، وتعيين مديرين جدد لهذه الهيئات ومجالس إدارات .

ثـــانيـــة هذه المفاجآت كانت الإعلان عن حلّ جهاز أمن الدولة ونقل جميع العاملين به إلى ديوان وزارة الداخلية، تمهيدا لتوفيق أوضاعهم بعد دراسة حالة كل منهم على حدة. وقال الوزير فى تبرير ذلك إن جمع المعلومات عن النشاط المعادى للأمن القومى هو مسؤولية هيئة الأمن القومى التابعة للمخابرات العامة، ولا حاجة إلى تدخُّل الشرطة فى هذا العمل، ضاربا المثل ببلدان أخرى تتبع هذا النموذج، أيرلندا قال أو شيئا كهذا، لا أذكر بالضبط .كنا كلنا نتابع المؤتمر الصحفى ونحن لا نكاد نصدق، وكان يمكنك سماع التصفيق وصيحات الإعجاب على المقاهى فى الشوارع، بل وآتية من البيوت .

ثالثة هذه المفاجآت فى هذا المؤتمر المشهود كانت إعلانه عن تشكيل اللجنة القومية لإعادة بناء الشرطة، التى ضمّت قضاة وخبراء فى الأمن والتدريب والتربية والعمل وحقوق الإنسان وممثلين للعاملين بجهاز الشرطة من جميع الدرجات والفئات، وتكليفها ببدء حوار فورى مع الأطراف المعنية من أجل وضع تصوُّر عملى لعملية إعادة بناء الشرطة يتمّ تقديمه له خلال أربعة أسابيع .ثم أضاف عزالدين قنبلته الأخيرة، وهى تجميد عمل جهاز الشرطة القديم حتى الانتهاء من وضع هذا التصور، واستمرار اللجان الشعبية والحرس الوطنى بالتنسيق مع مكتبه، فى الحفاظ على الأمن خلال هذا الشهر.

مهما قلت لك لن يمكننى شرح حجم الفرحة والتأييد الذى حظى به هذا الإعلان، فى كل مكان تقريبا داخل وخارج مصر. لقد تحول عزالدين فكرى فى تلك الليلة، وهو واقف فى هذا المؤتمر الصحفى، إلى بطل شعبى. لمسَت جرأة هذه الإجراءات وترا لدى الناس، بمن فيهم كثير من الضباط، الذين سئموا ميوعة السياسيين وعدم قدرتهم على مواجهة المشكلات أو حسمها.

كما بدت الإجراءات معقولة، خصوصا أن قدرة الشرطة الفعلية على الأرض تضاءلت خلال السنوات الأربع الأخيرة. صحيح أن الجميع توقع رد فعل سلبيا من جانب قيادات الداخلية وتحديدا قيادات أمن الدولة، لكن هذا الرد السلبى كان يأتى فى كل الأحوال، ويتخذ صورا عديدة، فشعر كثيرون أنه من الأفضل الدخول فى مواجهة حاسمة معهم والانتهاء من هذا الأمر.

لكن بالإضافة إلى الجرأة، كان فى الطريقة التى أعلن بها الوزير عن إجراءاته شىء ما جذب الناس وسحرهم. هناك شىء لا يقاوم فى رجل يعتلى المنصة وينطق بكلمات يشعر الناس أنها ما يريدون سماعه بالضبط، رجل يأخذ قرارات واضحة وسط أناس يخافون الوضوح، ويفعل ذلك بثقة تُعدِى من حوله فتمنحهم الطمأنينة والثقة بالمستقبل. تَعلّق به الناس فورا، لأنه جعلهم يشعرون بهذه الثقة. أنا نفسى شعرت، وأنا أرقب المؤتمر الصحفى، بما يشبه النشوة :نعم، هذا هو عزالدين فكرى الذى أعرفه، بقدرته المذهلة على الدفاع عن مواقفنا وإقناع أهلنا ومدرسينا منذ كنا صبيانا فى المدرسة. هذا هو بطلى، أنا الصامت، يعود وقد صار رجلا، لينقذنا من الفوضى ومن التردّى وسوء الحال ومن تفاهة السياسيين وعقمهم. هناك، فى تلك الليلة، فى ذلك المؤتمر الصحفى، وُلد بطل الثورة وقائدها الذى كانوا يبحثون عنه سنوات.

الحلقة الحادية والأربعون

تحسنت الأحوال بشكل ملحوظ خلال شهرَى يوليو وأغسطس. قوة »الحرس الوطنى «التى عُرفت شعبيا باسم «الانتشار السريع» ثم اختُصرت إلى »الانتشار «أحرزت نجاحا كبيرا فى احتواء الأزمات الأمنية. كما نجحت فى تأمين الطرق السريعة وتثبيت الوضع فى المناطق النائية عندما حصلت فى أول أغسطس على الدفعة الأولى من طائرات الهليكوبتر التى أقنعنا الحكومة الصينية بإمدادنا بها بشكل عاجل وقبل إتمام إجراءات الشراء. كذلك فإن عملية إنشاء الشرطة المحلية خلقت أجواء إيجابية بين صفوف الناس والشباب بخاصة، وتطوع عشرات الآلاف للانضمام، وكوّن عزالدين لجنة وطنية متنوعة اتفقت على معايير الانضمام والشروط المبدئية لعمل هذه الشرطة، ضمّت خبراء أمنيين وممثلين للجان الشعبية والحركات الثورية المتعددة وكذلك عددا من رؤوس العائلات فى الأرياف والصعيد والمناطق النائية. وبحلول أغسطس كانت طلائع هذه الشرطة تجوب الأحياء السكنية فى المدن الرئيسية بزيّها البرتقالى وتقدّم نفسها لسكانها وتفتتح مقراتها وتتسلم مهامّ الأمن من اللجان الشعبية القديمة، التى اندمج كثيرون من أعضائها فى قوة الشرطة هذه وتطوع الباقون بإدراج أسمائهم فى كشوف «أصدقاء الشرطة المحلية» بحيث يمكن استدعاؤهم فى حالات الضرورة.

لم تكن الشرطة المحلية مسلحة فى ذلك الوقت، واعتمدت فى عملها على فض المنازعات وتعاون الناس، مع إمكانية استدعاء قوات «الانتشار «حين الحاجة، وكان أهمّ ما ميزها هو سهولة الاتصال بها لكونها مقيمة داخل كل حى، ولها أرقام تليفونات محمولة وحسابات على «تويتر» وغير ذلك. انضمّ كثير من الشباب العاطل إليها، وبعض كبار السن من المتقاعدين من الشرطة القديمة والجيش، واستقبلها الناس بترحاب شديد وتعاونوا معها. وسعدتُ شخصيا حين علمت أن حسن أخا عفاف قد التحق بها ومعه عدد من أفراد عصابة الموتوسيكلات القديمة.

لكن أهم ما حدث خلال الشهرين الأولين لتسلم عزالدين الداخلية هو تغيُّر فى مشاعر الناس وفى الجو العام. أسقط كثيرون ممن كتبوا عن ديكتاتورية عزالدين فكرى هذه الفترة من تحليلهم، وهذا خطأ كبير فى رأيى . فلا يمكنك فهم ما جرى بعد ذلك دون تمعُّن فى هذين الشهرين. صحيح أن التحسن السريع فى الأمن كان مؤقتا، وأعقبته الكوارث التى نعرفها جميعا، لكن خلال هذين الشهرين شعر الناس بالأمل من جديد، وبأن تحسين الأوضاع وبسرعة ممكن إن تَسلّم السلطة شخص منحاز إلى الشعب والثورة ويعمل بطريقة منظمة وحديثة، واتضح لهم بجلاء أن سبب المشكلات التى واجهوها هو استمرار التفكير القديم وأسلوب الحكم القديم حتى وإن ذهب رموز النظام القديم. اتضح للشعب مَن عدوّه ومَن نصيره.

شعر الناس من جديد بالقدرة على تحقيق أحلامهم، ربما لأول مرة منذ اندلعت الثورة فى 2011. ومرة أخرى أصبح الغنى والفقير يسيران معا فى دورية لحماية أسرهم وممتلكاتهم وحيّهم، وأصبح الناس يتحدثون معا : ينظرون بعضهم إلى بعض فى العين وهم يتحدثون. يرى بعضهم بعضا: يختلفون، بل يتنازعون، لكنهم يحسمون نزاعهم هذا بالحوار فى ما بينهم. ولأنهم يرى بعضهم بعضا يصعب على الواحد منهم تجاهل مصالح ومشاعر الآخر، وإن فعل، فسيجد آخرين يخطّئونه ويحاسبونه. مرة أخرى عاد الناس ليكونوا جماعة لا أفرادا يتحاشون بعضهم بعضا ويحاول كل منهم أن يقبض على غنيمة ويفر بها قبل أن يمسكه الآخرون. وعاد الشارع ليصبح مكانا عامّا، أى مكان يملكه ويتقاسمه عموم الناس، رجال ونساء، أغنياء وفقراء، صعاليك وذوات، لا غابة بلا صاحب يفر منها الناس بأسرع ما يستطيعون. وصار عزالدين فكرى وشرطته المحلية يجسّدان كل ذلك. ومن ثم، حين بدأ عزالدين يصطدم بأقطاب الأمن والنظام القديم لم يتردد الناس فى أىّ صف يقفون، وانحاز الشعب بأغلبية كاسحة خلف الرجل الذى كرس حياته لتحقيق أحلامهم. فى هذين الشهرين وُلد التأييد العارم والأعمى لعزالدين فكرى، الذى من دونه لا يمكنك فهم القوة الكاسحة التى مكّنته من فعل ما فعل.

والحقيقة أنى انجرفت فى هذا التأييد مع من انجرفوا .وسخّرت نفسى وموقعى لمساعدته على تنفيذ برنامجه الطّموح، وعملت على التوسط بينه وبين رئيس الحكومة والقوى السياسية والأجهزة الأمنية كلما وقعت أزمة . كانت ثقتى بعزالدين وبإخلاصه للمصلحة العامة مطلقة، وما زلت مؤمنا بعد كل ما جرى أن هدفه كان نبيلا. ولا ينبنى رأيى هذا على شهور من أدائه المتميز فحسب، بل على عمر كامل من الصحبة والأخوّة التى جمعتنا ونشأنا فيها معا .صحيح أننا ابتعدنا واقتربنا فى أوقات، ووقعت بيننا أشياء ووُلدت توترات، لكن هكذا حال كل الأصدقاء القدامى والإخوة.

وحتى من دون هذه الصداقة والأخوّة، لو وضعت أى عاقل مكانى لوثق بعزالدين وسانده. كنت فى وسط نظام سياسى لا يعمل؛ مجلس رئاسى ليس لأعضائه سلطات، ومكوّن من شخصيات ضعيفة تسعى لتفادى ممارسة الاختصاصات المحدودة الممنوحة لها، ورئيس حكومة فى حالة اكتئاب نفسى وهزيمة سياسية ولا يغادر منزله إلا لماما، وقوى سياسية مشاركة فى الحكومة كأنها فى مباراة جماعية للتنس كل همها أن تُلقِى بالكرة نحو الفريق الآخر لتتفادى اللوم والمسؤولية، وأجهزة أمنية متبرمة وفاشلة فى آن واحد وإحداها تسعى عمدا لتخريب الاستقرار كى تحمى نفسها. وفى وسط كل هذا تجد رجلا لا مصلحة شخصية له، لم يأخذ فى حياته جنيها من المال العامّ، بلا مطامع بل ولا حتى أولاد، وهدفه الوحيد هو «أن يُحسِن عملا»، فمن ستختار؟ وحين يصطدم هذا الرجل بهؤلاء الناس، وباللوائح والقوانين والقواعد العرجاء التى وضعوها فى أثناء صراعاتهم، فهل ستقف معه أم مع القواعد؟

لكنى أسبق الأحداث ثانية. سآتى إلى هذا الأمر بعد قليل .فى أواخر يوليو أخبرتنى صفية أن خديجة حزمت أمرها وحقائبها، وستأتى إلى مصر فى منتصف أغسطس للاستقرار بها. وطلبت منى إعداد المنزل بالرحاب ليستقروا به مؤقتا حتى يجدوا مكانا. كانت صفية قلقة، وغير مرتاحة للأمر، وحاولت طمأنتَها قدر الإمكان، لكن لا أظن أنى نجحت كثيرا. فالمصرى المقيم بالخارج يظنّ أن البلد تشتعل بالحرائق لأنه لا يسمع إلا عن الحرائق فى وسائل الإعلام. نفس مشكلة الست والدتك. المهمّ، طلعت خديجة الفلسطينية أصيلة أكثر من المصريات -لا تقل لأمك إنى قلت هذا- وجاءت بالفعل فى منتصف أغسطس. فى تلك الأثناء كنت قد أرسلت عبده ليستطلع أحوال بيتنا القديم فى منشية الطيران، فوجد عائلة الطفل نصف العارى ما زالت مقيمة به. كان بوسعى الآن إخراجهم من الشقة بسهولة، فلا سند قانونيا يسمح لهم بالعيش فيها، لكنى ما كنت لألقى بعائلة فقيرة بثلاثة أبناء فى الشارع تحت أى ظرف. تفاهمت معهم عن طريق عبده، ووجدنا لهم شقة أخرى وافقوا على الانتقال إليها، ودفعت ثمنها وساعدهم عبده على نقل حاجاتهم إليها. وبحلول نهاية الأسبوع الأول من أغسطس كانت الشقة جاهزة لاستقبال خديجة وأبنائها، وشعرت بسعادة حقيقية حين استقبلنا خديجة وأبناءها فى المطار، وأخذناهم -عبده وأنا- إلى البيت. لاحظت اهتمام عبده بخديجة منذ وقعت عيناه عليها، وابتسمت لنفسى. أحبت خديجة وأبناؤها بيتنا الفسيح، وشعرت برضا عميق أن عائلة أخى الراحل تستقرّ فى بيتنا.

لم تكن خديجة الوحيدة التى قررت المجىء إلى مصر، بل سار فى ركبها عشرات الآلاف من السياح. ارتفعت حجوزات الفنادق والجولات السياحية للشتاء بدرجة ملحوظة، وهذا مؤشر واقعى تماما يعكس لك حجم الثقة التى استُعيدت خلال هذين الشهرين. ومع تحسُّن الأمن بدأنا نفكر فى المشكلات الأعمق: كيف نبنى شرطة جديدة محترفة تقوم بمهامّ مكافحة الجريمة الأكثر تعقيدا؟ وكيف نجمع السلاح المنتشر فى طول البلاد وعرضها؟ وماذا نفعل مع عشرات الآلاف من البلطجية؟ وماذا نفعل مع حالات احتلال الطريق العام والميادين والكبارى والحالات العديدة لوضع اليد على أملاك الدولة والأفراد الغائبين وفوضى المرور؟ وفوق ذلك كله وقبله، ماذا نفعل فى السادة ضباط أمن الدولة وشبكات المتعاونين معهم فى سائر مؤسسات الدولة؟

أجابت خطة إعادة بناء الشرطة القديمة عن هذه الأسئلة، وقدمتها اللجنة لعزالدين فى آخر يوليو كما طلب. لكن قيادات الداخلية أدخلت الجميع فى مماحكات بيروقراطية وقانونية بشأنها فور الإعلان عنها. لم يعارضوها صراحة، لكنهم طالبوا بوقت لدراستها من جوانبها كافة، وأثاروا بشأنها ملاحظات مبدئية أوضحت نيّتهم.

لم يكن وقت عزالدين يسمح لنا بالحديث مطوّلا خلال هذه الفترة، واقتصر الاتصال بيننا على مكالمات سريعة من جانبه يطلب فيها أشياء محددة، أو دقائق معدودة نتبادل فيها الحديث على هامش اجتماع لمجلس الوزراء أو ما شابه. أحيانا أسأله عما سيفعله مع هذه القيادات فيُبدِى القلق. لكن، مثلما اتضح فى ما بعد، كان عنده الجواب من البداية، وأعد العدة لكل خطوة قبل أن يخطوها، ورتّب أسلحته كى يقوّى موقفه قبل الدخول فى المعارك، واختار معاركه وتوقيتها بنفسه. لكنى لم أكن أعرف ذلك وقتها، وقضيت أوقاتا طويلة أفكّر وأدرس وأتشاور، وثبت فى ما بعد عبث كل هذه الدراسات والمشاورات، كما كانت نور تردّد على مسامعى فى تلك الفترة.

توترت علاقتى بنور. كانت تُعِدّ لعرض مسرحيتها الجديدة فى أول سبتمبر، وعنى ذلك غرقها فى تمرينات طول اليوم كل يوم، بما لم يترك لنا وقتا كى نلتقى، خصوصا أننى أيضا استُغرقت فى مشاوراتى ودراساتى لمساعدة عزالدين الذى لم يكن يحتاج إلى مساعدتى. قالت لى ذلك، فى كل فرصة سنحت لها، لكن الأمر كان يتعدى مجرد ضيق الوقت، فقد فتحت مناقشتنا السابقة الباب أمام موضوع لن نغلقه تماما بعد ذلك أبدا، واستمر خلافنا فيه قائما لسنوات، ولم نحسمه حتى حسمتُه أنا منذ أسابيع قليلة. وبعد أن قالت لى إن سلبيتى تهدّد بتدمير الجانب الإنسانى فىّ وإنها لن تستطيع مشاهدتى وأنا أفعل هذا بى وبها، زادت صراحتها وضوحا وسألتنى عن رأيى الحقيقى فى جدوى عملى. وحين لجأت إلى الصمت أجابت هى بأن هذا العمل مضيعة للحياة؛ لا هو يمكّننى من التأثير على سير الأمور ودفعها باتجاه طيب، ولا هو يسمح لى بعمل شىء طيب أو مفيد أو جميل، تماما كالعشب الضارّ الذى يحتلّ التربة. وسألتنى مباشرة، وعيناها الرائعتان فى عينَىّ، لِمَ أبقى فى هذا العمل؟ لم لا أترك هذا العبث وأفعل شيئا مفيدا بحياتى أو شيئا جميلا يملأ روحى بدل هذا الاستنزاف الدائم للنفس؟ لم يكن عندى إجابة، فصمتّ. ناداها المخرج لتعود للتمرين، فقلت لها إنى غير مرتاح لالتصاق المخرج بها طوال الوقت وعينه التى لا تفارقها. ضحكَت ومالت علىّ فملأ شعرها وعيناها وشفتاها وابتسامتها حواسّى وهمست أن المهمّ ليس من ينظر إليها، بل مَن تنظر هى إليه! سارت خطوتين نحو المسرح ثم استدارت إلىّ ثانية وأضافت محذّرة أن الأهم أن لا أضيّع أنا نظرتها.

الحلقة الثانية والأربعون

لكنى ضيّعت نظرتها إلىّ.

وبغضّ النظر عن السبب المباشر لذلك، فإن انفصالى عن نور عكس خلافات عميقة بيننا وأسئلة هامّة لم أكن قد حسمتها مع نفسى آنذاك. وهذه هى الأشياء التى أكتب رسالتى هذه كى أشرحها لك. وكما سترى بعد قليل، كل هذه الأشياء مترابطة، فليست تطورات قصتى هى الأهم، لا الثورة ولا حكم العسكر ولا الثورة الثانية ولا الفوضى ولا حرب الطماطم أو ديكتاتورية الرعب التى تلتها. كل هذه الأحداث مضت وانتهت، ويمكنك القراءة عنها فى كتب تشرحها أفضل منى. ما يعنينى منها، ويعنيك، هو الأسئلة والإجابات التى فجرتها هذه الأحداث، والتى ستشرح لك ما فعلته وما أنا بصدد فعله فى الساعات القليلة القادمة.

لم يكن أحد يتصور أن تبدأ ديكتاتورية الرعب بحمولة طماطم، لكن هذا ما حدث. فى نهاية أغسطس، وبعد أن اتضح أن مماحكات قيادات الداخلية ستستمر حتى تقضى على خطة الإصلاح الأمنى، أعد عزالدين مشروعا بقانون جديد للشرطة بناء على هذه الخطة وتقدمت به الحكومة فعليا للمجلس الرئاسى القائم بمهام التشريع. كان مشروع القانون ممتازا، وبعد مشاورات مبدئية أجريتها لمست اتجاه أعضاء الائتلاف الحكومى لإقراره، إلا أن قيادات الداخلية أبلغت المجلس الرئاسى -من خلالى- برفضها للمشروع على أساس أنه لا يلائم طبيعة جهاز الشرطة ويتعارض مع اللوائح القائمة وغير ذلك. أبلغت عزالدين قبل إبلاغ المجلس الرئاسى، وعلى الفور عقد مؤتمرا صحفيا أعلن فيه تفاصيل مشروع القانون وطلب من الشعب دعمه، مذكرا الجميع أن الأمن الحقيقى لا يمكن أن يستمر بشرطة محلية وقوة انتشار سريع فقط.

فى نفس الوقت، كانت حملة التوعية التى بدأتها هيئة المرور لإخلاء الطرق والميادين من الإشغالات وإعادة تنظيمها قد وصلت إلى نهايتها، وبدأت مرحلة تطبيق القانون. مرت عملية إخلاء الشوارع الكبرى والميادين العامة بسلاسة نسبيا، وساعدت الشرطة المحلية كثيرا فى إقناع الباعة الجائلين بالرحيل إلى أماكن أخرى خصصتها الحكومة لهم أو على الأقل بالبقاء فوق الأرصفة وإخلاء الطريق. أصحاب الكراسى البلاستيك ومقدمو الشاى على الكبارى كانوا أقل تعاونا، ونشبت عدة مشادات مع رجال المرور بل ومع الشرطة المحلية .واستُدعيت قوات «الانتشار» للمساعدة فى إخلاء كوبرى عباس، وكاد الأمر يتطور إلى تبادل لإطلاق النار حين ألقى أحد باعة الشاى بزجاجة مولوتوف على القوة، إلا أن الجاز المستخدَم كان مخلوطا بالماء فلم تشتعل العبوة، وانفجر الضابط فى الضحك عندما اكتشف أن الجاز مغشوش، وتحول الأمر كله إلى فكاهة وتمت تسويته وديا. وهكذا، خلال الأسبوع الأول من سبتمبر تم إحراز تقدم كبير فى تنظيم الشوارع داخل المدن، وإن كانت قضية الباعة الجائلين ظلت بحاجة إلى إجراء أكثر جذرية لتوفير منافذ شرعية لهم للاتجار، وهو ما وعدهم به عزالدين خلال لقاءاته الميدانية مع العديد منهم.

المشكلة الحقيقية بدأت على طريق مصر الإسكندرية الصحراوى. فلسبب غامض كان سائقو مركبات النقل قد استقروا على قيادة مركباتهم فى الحارة اليسرى المخصصة للسيارات الأسرع. ولم تفلح حملات التوعية، ولا التحذيرات التى سلّمها رجال المرور للسائقين، ولا الحديث مع أصحاب شركات النقل، فى زحزحة السائقين إلى الحارة اليمنى .وكان ذلك مبعث ضجر بل وغضب حقيقى لدى قائدى السيارات الخاصة الذين عانوا طوال شهرَى يوليو وأغسطس من اضطراب المرور على الطريق من وإلى الإسكندرية والساحل الشمالى . معظم هؤلاء من الطبقة المتوسطة التى تستطيع السفر إلى الإسكندرية فى الصيف فى ظروف كهذه، والذين لم تحتمل أعصابهم قضاء ساعات طويلة على الطريق، بسرعة ستين كيلومترا فى الساعة، خلف مركبات النقل التى تحمل الطماطم، أو تعريض حياتهم للخطر بين سيارات النقل الثقيل ذات المقطورات وهى يناور بعضها بعضا بحمولاتها الضخمة من الحاويات والأخشاب وأسياخ الحديد. وهى طبقة حرص عزالدين على إبقائها راضية عنه. ومع بداية سبتمبر قررت هيئة المرور بدء تطبيق القانون وسحب رخص المخالفين، وفى خلال أسبوع كانت آلاف الرخص قد سُحبت، وبدأ الصراع مع سائقى النقل.

اتهم عزالدين ضباط أمن الدولة وعملاءهم بإشعال ما عُرف إعلاميا بـ«حرب الطماطم»، وذلك فى محاولة منهم لإسقاطه هو وخطة الإصلاح الأمنى. وقد صدّقتُه وقتها، وصدّقه الشعب معى، لكنى حين أفكر فى الأمر الآن وبعد هذه السنوات أشك أنه هو الذى نصب لهم فخا مثلما زعم العميد لطفى. ربما بدأ الصراع بشكل تلقائى، بسبب غضب حقيقى من سائقى النقل والمرتبطين بهم من التجار والمزارعين والذين مسّتهم محاولات عزالدين لتطبيق القانون عليهم بشكل شديد الصرامة ودون مراعاة لظروفهم، لكن من الممكن أن يكون عزالدين قد استغل هذا الصراع واستدرج أعداءه من قيادات الداخلية للتورط فيه كى يتمكن من حشد القوة الكافية للقضاء عليهم. لا أعرف الحقيقة بالكامل، ولا أعتقد أن أحدا يعرفها.

لكن الأحداث واضحة؛ فى ظهيرة يوم الثامن من سبتمبر 2015 أوقف ضابطُ مرور قائدَ مركبة تنقل حمولة من الطماطم، وتسير فى الحارة اليسرى للطريق بسرعة ستين كيلومترا فى الساعة، وتتساقط منها حبات الطماطم واحدة تلو الأخرى فترتطم بزجاج السيارات الآتية من خلفها، مما تسبب فى اضطراب وتعطيل لحركة السير على الطريق. طلب الضابط رخصة القيادة من السائق فتبين أنها سُحبت فى اليوم السابق لنفس السبب، فقرر الضابط تطبيق العقوبة التالية، وهى سحب المركبة وتسليمها لهيئة المرور. وهنا أخرج تابع السائق سيفا وشجّ رأس ضابط المرور ولاذ بالفرار بالمركبة. فارق الضابط الحياة وهو راقد على الأسفلت قبل أن تصل إليه النجدة.

عندما علم عزالدين بالخبر توجه من فوره إلى عائلة الضابط وقدم لهم العزاء ووعدهم بالقصاص من الجناة، وأطلق كل ما لديه من أدوات للبحث عنهم .وقامت قوات الانتشار السريع بحصار المنطقة وتوقيف وفحص السيارات المطابقة لمواصفات السيارة الهاربة. وتم تشديد الرقابة فى اليومين التاليين على كل الطرق السريعة، فوقعت احتكاكات إضافية، لكن هيئة المرور واصلت تطبيق القانون وسحب مزيد من الرخص والسيارات. كانت تعليمات وزير الداخلية تقضى بتطبيق القانون وتفادى الأذى دون ملاحقة أحد. وفى اليوم الثالث أطلقت سيارة نقل عيارات نارية على كمين، ثم تَعرّض كمين آخر لإطلاق نار، ثم وقع تراشق على طريق أسيوط وقُتل ضابط آخر وجنديان وتسعة سائقين، وتلا ذلك قيام سائقى النقل الثقيل بإضراب عامّ تبعهم فيه سائقو النقل الخفيف، وقبل أن يمر أسبوع قام السائقون المضربون بقطع الطرق كلها.

اتهم عزالدين صراحةً قيادات الداخلية وضباط أمن الدولة بالتآمر، واصفا إياهم لأول مرة بقوى الثورة المضادة وبأنهم ينظمون حملة للانقلاب على الثورة. لكنه رفض استخدام القوة لإعادة فتح الطرق، قائلا إن ذلك سيؤدى إلى نزيف دم لن يتوقف، وإن هذا فخ يريد أعداء الثورة استدراجه إليه لخلخلة الأمن مرة أخرى. وفى نفس الوقت رفض التفاوض مع سائقى النقل قائلا إن الخضوع للابتزاز سيهدر هيبة القانون. وبدلا من هذا أو ذاك، وفّر حماية إضافية لضباط المرور على مداخل ومخارج المراكز السكانية لتقليل الخسائر بينهم، وأصدر تعليماته لهم بالاستمرار فى تطبيق القانون دون أى تساهل لكن دون محاولة فتح طريق مغلق أو مطاردة هارب. وهكذا، ظل الأمن جيدا داخل المدن، لكن الطرق تقطعت ومعها مصالح الناس والتجارة. وجلس عزالدين ينتظر، تاركا الضغط الشعبى يتزايد. فى خلال خمسة أيام بدأت السلع تشح فى المتاجر والأسواق، وعزالدين لا يتفاوض ولا يغامر باستخدام القوة، وضغط الناس يزيد .سألته ما خطته فابتسم وقال إن لا خطة لديه، لكنه لو تراجع فخير له أن يجمع حاجاته ويعود إلى بيته، وخير لنا جميعا أن نسلم البلد لقيادات الداخلية، وإن هاجم سيخسر، ومن ثم سينتظر، وهز كتفيه ومضى.

ولأول مرة، ربما فى تاريخ مصر، تحتشد مظاهرة مليونية فى ميدان التحرير دعما لوزير داخلية. وعند الظهيرة أدركت القوى السياسية خطورة نموّ شعبيته إلى هذه الدرجة وبدأت تُعِدّ للانسحاب من الحكومة كى تُسقِطه وتتخلص منه، وبعضهم فعل ذلك بالتنسيق مع قيادات الداخلية. رئيس حزب الوفد وقتها هو أول من أطلعنى على نيته الانسحاب من الحكومة، تلاه محمود بشير، فأخبرت عزالدين على الفور.

وعند العصر توجه عزالدين إلى ميدان التحرير ونقلت كاميرات التليفزيون صورته وهو يعتلى المنصة الرئيسية فى الميدان (قال لى العميد لطفى إن أنصار عزالدين من «اتحاد الشباب الديمقراطى» رتّبوا الأمر كله من البداية ونصبوا هذه المنصة من الصباح أمام سلم المترو بحيث يخرج من المحطة خلف المنصة دون احتكاك بالجموع). وحين ظهر عزالدين على المنصة، دون حراس أو مرافقين سوى شباب الاتحاد، أشعل حماسة الميدان كله، وظلت الناس تهتف لمدة خمس دقائق متتالية بسقوط أمن الدولة بشكل جماعى مهيب. قال عزالدين إن المعركة الجارية هى المواجهة النهائية مع الثورة المضادة، وحذر القوى السياسية، من الإخوان حتى اليسار، من الانحياز إلى صف الثورة المضادة أو حتى الوقوف على الحياد، قائلا إن الحياد جريمة. وحين لوّح عزالدين للجماهير المحتشدة بعلامة النصر وهتف بحياة الشعب وردد الميدان كله الهتاف بصوت رجل واحد، بات واضحا أن ساعة فلول الداخلية قد أزفت.

فى صباح اليوم التالى انعقد اجتماع مجلس الوزراء بحضور قادة الجيش، وصدر القرار الشهير بالتحفظ على قيادات الداخلية والعاملين بجهاز أمن الدولة إلى حين التحقيق معهم. واجتاحت الناس فرحة غامرة وخرجوا إلى الشوارع فى مشاهد أعادت إلى الأذهان ذكرى الحادى عشر من فبراير 2011. لم يكن أحد يعرف بالضبط كيف سيتمّ اعتقال آلاف الضباط، ووفقا لأى قانون، وإلى متى. لكن الناس لم تهتم بهذه التفاصيل وخرجت تحتفل. ومع بدء الاحتفالات الشعبية، وبالتوازى مع قيام فرق من القوات الخاصة بمداهمة واعتقال قيادات الداخلية الأكثر أهمية فالأقل، والتحفظ على مقارّ أمن الدولة وتشميعها، أخرج عزالدين سلاحه السرى، فتوجهت مجموعات خاصة من روابط الألتراس القديمة وشبكة الشباب الديمقراطى التى أنشأها، مدعومة بوحدات من فرق الانتشار السريع، وداهمت المعتصمين قاطعى الطرق الرئيسية واشتبكت معهم. هذه هى نواة الحرس الحديدى للثورة الذى ذاع صيته فى ما بعد. بدأت فى تلك الليلة المواجهات الدامية مع السائقين التى استمرت ستة أسابيع، وقع خلالها قتلى لا يعرف أحد عددهم على وجه الدقة. قال عزالدين إن القتلى بلطجية ورجال أمن الدولة، لكن أحدا لم يتحقق من هذا .كانت قوات الحرس الحديدى تفتح الطرق عنوة، وتبادر بإطلاق النار الكثيف بلا هوادة أو تردد عند أول علامة على المقاومة. وبحلول الأول من ديسمبر كانت كل الطرق قد فُتحت من أعماق الدلتا وحتى أقاصى الصعيد، وتم إيداع سبعة عشر ألفا من قيادات الداخلية والعاملين بأمن الدولة فى السجن بانتظار التحقيق معهم.

الحلقة الثالثة والأربعون

عد إخراج جهاز أمن الدولة وقيادات الداخلية القديمة من الصورة، بدأ عزالدين عملية متسارعة لإعادة هيكلة الشرطة. وتعاون الجميع معه، خصوصا القوى السياسية الإسلامية التى تبين امتلاكها بيانات تفصيلية عن الضباط المتورطين فى التعذيب والقتل وبقية المخالفات الجسيمة. كما استعان الوزير بعدد من الضباط القدامى ممن أبعدتهم القيادات القديمة، وكثير ممن عملوا فى هيئات المرور والأحوال المدنية. استبعد عزالدين كل المشكوك فى ولائهم، بدليل أو دون دليل. وكان مدركا للظلم الذى لحق ببعض المستبعدين، لكن بين هذا القدر من الظلم وفتح الباب لعودة قوى الثورة المضادة، اختار عزالدين -وكلنا معه- بعض الظلم. وأسهم طلبة السنتين الثالثة والرابعة بكلية الشرطة فى العمل متدربين على أن يتخرجوا رسميا باجتيازهم اختبارات لاحقة وبناء على أدائهم خلال سنتَى التدريب العملى، وتمّت تسوية أوضاع أمناء الشرطة، وبدأت عملية إعادة النظر فى هيكل الأجور وظروف العمل، وغير ذلك من تفاصيل عملية الإصلاح الأمنى التى استمرت لسنوات حتى بعد رحيل عزالدين من الوزارة. وربما كان أهمّ تغيير حدث نتيجة كل ذلك هو تحول جهاز الشرطة إلى شرطة جنائية محترفة، تركز على مكافحة الجريمة والقضايا الأمنية الكبرى، تاركة مهامّ حفظ الأمن فى الأحياء والمخالفات الصغيرة للشرطة المحلية.

أصبحت قضية رجال أمن الدولة المتحفّظ عليهم تتطلب اتخاذ إجراء ما، خصوصا أن رموز النظام القديم كانوا لا يزالون رهن الاعتقال دون محاكمات بعد فشل الموجة الأولى من المحاكمات. وكما شرحت لك فى بدايات الخطاب، كان موقف عزالدين من هذه القضية من قبل دخوله الحكومة هو ضرورة الحسم واستنان قانون ينشئ محكمة للثورة يحاسب هؤلاء، لكن بقية القوى السياسية أحجمت خوفا وظلت كل حكومة تُلقِى بالأمر على تلك التى تليها .والآن وقد قفز عدد المتحفَّظ عليهم من ألف -هم رموز النظام القديم الموجودون منذ الثورة الثانية- إلى ثمانية عشر ألفا، لم يعد من الممكن استمرار حبسهم دون محاكمة. لكن هذا الأمر كان فى يد رئيس الوزراء لا وزير الداخلية. وكان اكتئاب محمود بشير وهزيمته السياسية وفقدانه شعبيته قد زادوه ترددا وجبنا .وتفجر الخلاف بينه وبين عزالدين فكرى فى اجتماع مجلس الوزراء الأسبوعى الذى أعقب التحفظ على العاملين بأمن الدولة وقيادات الداخلية. وكمَخرج من الأزمة شكّل المجلس لجنة لدراسة الأمر. وهكذا ظلّ الأمر يراوح مكانه حتى منتصف يناير عندما فر ستة من قيادات الداخلية من السجن وظهروا خارج البلاد بعدها بيومين، وقفز موضوع محاكمة أقطاب النظام القديم إلى بؤرة اهتمام الرأى العام.

صمت عزالدين تماما باعتبار القضية تخصّ رئيس الوزراء والنائب العامّ ووزارة العدل، وظل هؤلاء يتفوهون بترهات تثير حنق الناس أكثر، وبعد أسبوع من التظاهرات والاحتجاجات -التى تَبيّن أن «اتحاد الشباب الديمقراطى» يقف وراءها- أعلن عزالدين فكرى تأييده لإنشاء محكمة للثورة بقانون خاصّ لمحاكمة كل أعداء الثورة، ابتداء ممن أطلقوا النار على المتظاهرين فى 2011 حتى متآمرى حرب الطماطم. وبدأ التحالف الحكومى يتفكك وصعد اتحاد الشباب من حركة الاحتجاج وانضمت إليه القوى الإسلامية، ووجد محمود بشير وفصيله أنفسهم معزولين، وبعد يومين أعلن عن رغبته فى الاستقالة.

كنت أرقب كل هذا، وأشارك فى بعضه وأنا غير متأكد تماما من فهمى لما يجرى. قلبى كان مع عزالدين وضرورة الحسم، لكنى كنت متخوفا من تسارع الأحداث والطابع الجذرى الذى بدأت الأمور تأخذه نور، الغارقة فى مسرحيتها، أعلنت رفضها المبدئى لإراقة الدماء منذ عملية تصفية قاطعى الطرق التى وصفتها بالبربرية، وتناقشنا عشرين مرة فى هذا الأمر بلا فائدة. شرحتُ منطق الضرورة، ومنطق الضرر الأخف: هل تقتل مئة قاطع طريق كى تعيد الأمن لبلد أم تحفظ حياتهم وتهدّد حياة الملايين؟ قالت إنهم لم يكونوا مئة بل خمسة آلاف، وتهنا فى مناقشة الأرقام التى لا يعلم أى منا عنها كثيرا، وفى النهاية اختلفَت مع المبدأ، رافضة ولو قتل شخص واحد دون سند ودليل ومحاكمة أيا كانت الأسباب، ورفضتُ رفضها، ووصفتها بأنها تتصرف كأنها «مواطنة سويدية» وتتجاهل حالة الفوضى السائدة.

كنا نتناقش هذه المناقشة كل مرة نلتقى تقريبا، ثم تعود هى إلى المسرح حيث الحقّ والخير والجمال، وأعود أنا إلى مكتب الرئاسة حيث ضباط أمن الدولة المحبوسون وقطاع الطرق المقتولون ومحمود بشير المكتئب والقوى السياسية المتناحرة. وأحيانا أقول لنور إن هذا ليس عدلا، فتقول لى إنه لا أحد يجبرنى على هذا العمل، ومن ثم ننتقل لمناقشتنا الأولى حول الإنسانية والسلبية.

لم يكن ما يجرى بينى وبين نور أمرا جيدا، لكنى لم ألحظ، أو لعلِّى لاحظت وتظاهرت بأن المشكلة غير موجودة، أو صغيرة، وكنت مخطئا فى هذا أيضا .كنت مخطئا فى كثير من الأمور، ولا تندهش من هذا يا يحيى، فهناك كثير من الإشاعات حول الحياة والرجال، من بينها أن الرجل لا يخطئ إلا نادرا، والحقيقة هى العكس بالضبط. نحن نخطئ طوال الوقت، طوال الوقت، ولا يمكن إلا أن نخطئ، لأننا نتاج ما تَعرّضنا له، وهو بالضرورة قاصر، ولأننا نقرر فى ضوء ما نعرفه، وهو بالضرورة قاصر، ولأننا نتأثر بأهوائنا وضعفنا ومخاوفنا .حاول قدرما تريد، لكنك ستخطئ، طوال الوقت. الرجل الحقيقى ليس من لا يخطئ، بل من لديه من القوة والشجاعة ما يكفى لأن يسائل نفسه، أو يستمع إلى من يسائله. وإن وفقه الله فقد يتمكن من اكتشاف خطئه، أو فهمه. ولو أحبه الله فعلا لتعلم من هذا الخطأ. لكن كل ذلك يستغرق وقتا. ويكاد يكون من المستحيل أن يحدث لك كل هذا وأنت فى خضمّ الحدث الذى تخطئ بشأنه. ووقتها كنت فى خضمّ الأحداث التى أخطأت بشأنها. وهكذا سرت فى تأييد عزالدين ومعاونته حتى النهاية، أو قبلها بقليل، وسرت فى طريق فقدان نور حتى النهاية، أو قبلها بقليل.

أعرب محمود بشير عن عزمه الاستقاله، ورفضت القوى السياسية الأخرى ذلك مخافة تحملها وحدها مسؤولية القرارات الصعبة المطلوبة، أو اضطرارها هى الأخرى إلى الانسحاب من التحالف الحكومى مما يعيد البلاد إلى حالة عدم الاستقرار ومسلسل الحكومات الضعيفة قصيرة الأجل وعديمة الفائدة التى تلت الثورة الثانية. وناشده عزالدين البقاء فى الائتلاف، ولاحظ الجميع أنه لم يطلب منه البقاء رئيسا للوزراء. لكن محمود صمم على الاستقالة، وبدأ الوزراء يتساءلون إن كان أحد من معسكره يمكنه الحلول محله، لكن محمود كان الشخص التوافقى الوحيد داخل المعسكر اليسارى المنقسم على ذاته، وخروجه يعنى فتح باب الصراع بين فرق هذا المعسكر، وهو صراع لن يُحسَم فورا ومن ثم سيؤدِّى إلى انسحاب التكتل اليسارى من الحكومة كلية، وعودة الحكومة إلى حالة الضعف إياها، أو إلى تولى أحد قادة الأجنحة المتصارعة القيادة فتعارضه الأجنحة الأخرى بما يقضى على استقرار الحكومة أيضا. الحل الثالث كان نقل رئاسة الحكومة لتكتُّل آخر: رفضت القوى الإسلامية تولى هذه المهمة، وتوجهت الأنظار إلى التكتل الديمقراطى المدنى. لم يكن عزالدين فكرى من قادة هذا التيار أصلا، بل جاء محمولا على أكتاف الشباب والألتراس والفوضى الأمنية كما أسلفت لك. المهم، دارت المناقشات لفترة، ثم اتفق الوزراء على عقد جلسة موسعة فى صباح اليوم التالى، بحضور أعضاء المجلس الرئاسى وممثلى الجيش والمخابرات.

فى نفس اليوم أدلى عزالدين بتصريح قال فيه إن الانقسام الحكومى يهدد عملية الإصلاح الأمنى، وإنه ما لم تكن هناك حكومة قوية تتمتع بتأييد ومشاركة القوى السياسية الرئيسية الثلاث فإن الاستقرار سينهار وستعود البلاد للفوضى التى تنشرها قوى الثورة المضادة، وعاد إلى بيته. كانت هذه الكلمات كافية، إضافة إلى الترتيبات التى اتفق عليها مع أنصاره، لإشعال الموقف. وحين التأم الاجتماع الموسّع فى صباح اليوم التالى بالمجلس الرئاسى، كانت صيحات الجماهير التى حاصرت المقر تصل إلى أسماعنا بالداخل .دارت مناقشات سريعة أعاد فيها محمود بشير تأكيد موقفه، وإن كان قد لوّح بإمكانية استمراره إن مكّنته قوى الائتلاف من الحكم فعليا، لكن الكل تجاهل هذه الملاحظة وواصلوا النقاش من حيث انتهوا فى اليوم الماضى. وحين جاء الدور على ممثلى التيار الديمقراطى المدنى، بدأ عزالدين الحديث بأن أعلن استعداده لترؤُّس الحكومة، شريطة بقاء كل القوى فى الائتلاف. لم يتوقع أحد أن يتحرك عزالدين بهذه السرعة، وبهذه الجرأة، فصمت بقية ممثلى التكتل الديمقراطى، وانفضّ الاجتماع للتشاور. فى أثناء ذلك تَسرَّب الخبر، وقاد اتحاد الشباب المطالبة بتولِّى عزالدين فكرى رئاسة الوزراء داخل التكتل الديمقراطى وفى الشارع. وتم تأجيل الاجتماع إلى اليوم التالى.

فى تلك الأثناء أسرّ إلىّ العميد حامد بتفضيل المخابرات والجيش تولِّى عزالدين رئاسة الوزراء، على أساس أن يكمل ما بدأه لأن التراجع الآن سيؤدِّى إلى كارثة. ففى رأيهم قام عزالدين بتدمير الداخلية القديمة، وأصبح حفظ الأمن والاستقرار يعتمد على استمرار الشبكة التى أقامها وتأييد الشباب الذى يجعل هذه الشبكة تعمل، وهو أمر يكرهه كل مَن فى الجيش والمخابرات، لكنه واقع، وهو كل ما تبقى من أدوات لحفظ الأمن إلى حين إعادة بناء هيئة الشرطة. انسحاب عزالدين الآن سيؤدِّى إلى انهيار الجهد الذى بدأه ويترك الجميع معلقا فى الهواء، ومن ثم سيدعمونه. تحدثت مع عزالدين ووجدته هادئا كعادته، وقال إنه ليس حريصا على هذا المنصب، لكنه طُلب منه أداء مهمة، ولأدائها كما يجب طريقة، وأدوات، وسيستخدم هذه الأدوات، ما لم يقرر الناس تكليف شخص آخر بهذه المهمة. لم أشعر بأى تغيير فى حديثه أو طريقته أو منطقه عما عرفته فيه. لكنى كنت أتساءل عما إذا كان كل ذلك يحدث صدفة .عزالدين الذى يخطِّط كل خطوة يخطوها، حتى اختيار تسلسل الأطباق التى يأكل منها ونحن على مائدة الطعام، هل يُعقل أنه ترك كل هذه التطورات للصدفة؟ سألته عن تأييد الجيش والمخابرات له فهز كتفيه وقال إن ذلك شىء متوقَّع لأنهم «ناس عاقلين.«

استأنف الاجتماع الموسع فى اليوم التالى، وكان واضحا منذ بدايته أن الأمر قد حُسم لصالح تولِّى عزالدين رئاسة الوزراء. وقرر عزالدين الاحتفاظ بوزارة الداخلية إضافة إلى منصبه الجديد، كما صمّم على ضمّ محمود بشير إلى المجلس الرئاسى بدل عضو اليسار الموجود وقتها -نسيت اسمه- وبقاء بقية الوزراء كلٌّ فى موقعه. وحصل من المجلس على تفويض باتخاذ اللازم لإنشاء محكمة للثورة بقانون خاصّ، على أن يقوم بعرض المشروع على المجلس لإقراره قبل رفعه إلى المجلس الرئاسى لإصدار مرسوم به. وتم إعلان ذلك فى مؤتمر صحفى حضره ممثلو الائتلاف، وأصر عزالدين على مشاركة مديرى المخابرات العامة والعسكرية فى المؤتمر، وحين أعلن محمود بشير القرارات التى تم الاتفاق عليها ضجّت القاعة بالتصفيق المتواصل، لكن هتافات التأييد خارج المقرّ طغَت على صوت التصفيق داخل القاعة.

الحلقة الرابعة والأربعون

سألتُ عزالدين إن كان يريد منى الانتقال للعمل معه بمجلس الوزراء لمساعدته بدلا من عملى فى المجلس الرئاسى الفارغ، فابتسم وقال لى إنه يحتاج إلىّ أكثر فى موقعى هذا. لم أفهم وقتها، وظننت أنه يريد مساندتى لضمان تحرك المجلس حين يتطلب الأمر. لم أفهم إلا بعدها بسنة كاملة. تحرك عزالدين بأسرع مما تَوقع الجميع، بمن فيهم أنا. تولى عزالدين رئاسة الوزراء فى الخامس من يناير، وبعدها بعشرة أيام قدّم لمجلس الوزراء مشروع قانون محكمة الثورة الذى تَضمّن محاسبة كل من شارك فى، أو حرّض على، أو سهّل، ثلاث جرائم أساسية: الفساد المالى، وإهدار الحقوق الأساسية للمواطنين، وتزوير إرادتهم. وشملت هذه القوانين تعريفا لهذه الجرائم الثلاث بما يحترم القواعد الدستورية المتعارَف عليها وحدّدت العقوبات المتعلقة بها، ابتداء من العزل السياسى حتى الإعدام. وانتشر مشروع القانون بين الناس كالنار فى الهشيم، ومثل كل شيء فعله عزالدين فى هذه الفترة، بدا أنه أعد له تأييدا على الأرض ووسط الناس قبل طرحه، وأنه يلمس وترا فيهم يدفعهم فورا إلى الاصطفاف خلفه، ولم يستطع مجلس الوزراء ولا القوى السياسية تعطيل القانون أو تحديه، وقمت بإعداده فى شكل مرسوم رئاسى، وصدر بعدها بأسبوع.

بدا كأن القدر نفسه يساند عزالدين ضد النظام القديم، فقد تَولّى وزارة الداخلية قبل شهور معدودة من الذكرى الخامسة على اندلاع الثورة، وحين شارفنا على هذه الذكرى كان يعتلى موجة ثورية عارمة لا يعرف أحد كيف انتظمت بهذا الشكل. وهكذا، فى الخامس والعشرين من يناير 2016، وقف رئيس الوزراء الجديد على منصة ضخمة فى ميدان التحرير، وأعلن عن قيام محكمة الثورة، واعدا الجماهير بمحاكمات عادلة وناجزة، وإصلاح أمنى يعيد الطمأنينة إلى المواطن العادى، والدعوة إلى انتخابات عامة جديدة لجمعية تأسيسية تضع دستورا دائما، كل ذلك خلال عام واحد، بحيث نحتفل فى يناير التالى بالدعوة إلى انتخابات تشريعية ورئاسية تنهى الحالة المؤقتة للمؤسسات القائمة وضعفها. كما أعلن عن تشكيل لجنة ثلاثية من أرباب العمل وممثلى النقابات والحكومة لإعادة النظر فى هيكل الأجور وقوانين العمل السارية بما فيها قواعد تنظيم الإضرابات، ولجنة أخرى تضمّ ممثلين عن القوى السياسية والنقابات والاتحادات والأجهزة الأمنية والحكومة تتفق على قواعد للتظاهر والاحتجاج السياسى، وعلى بدء مجموعة من الإصلاحات فى مجالات التعليم والصحة والإسكان والمواصلات، لكنه أوضح فى نفس الوقت أن هذه الإصلاحات ستستغرق وقتا حتى تأتى بنتائج ملموسة، واختتم كلمته بالدعوة لتنظيم الانتخابات المحلية فى أول أبريل.

كتب المحللون كثيرا عن هذا الرجل وفترة حكمه، وعن الدم الذى سال والرعب الذى نشره نظامه، لكن كل ذلك يُغفِل جانبا هامًّا، هو التأييد السحرى الذى ناله فى كل ما فعل. صحيح أن عزالدين استند إلى تنظيم سياسى وأمنى يكاد يكون حديديا، لكنى لا أظن أنه كان بوسعه فعل أى مما فعله دون التأييد العارم الذى أسبغه عليه الناس. أذكر جيدا أنى وقفت فى مكتبى بمقر الرئاسة أرقبه وهو يتحدث إلى الجماهير على المنصة: أرى المشهد من بعيد من النافذة الخلفية للمكتب وأرى تعبيرات وجهه مكبَّرة على شاشة التليفزيون المجاورة لمقعدى، وأفكر؛ متى تَحوّل أستاذ العلوم السياسية هذا إلى خطيب مفوّه يُلهب حماسة الجماهير. والحقيقة أنه لم يتحول إلى خطيب حماسى، بل كان يتحدث بنفس المنطق البارد المنظم الذى أعرفه فيه، لكن حجته كانت قاضية، وناصعة الوضوح، وكان الناس قد اشتاقوا إلى الوضوح وإلى المنطق دون لفّ ودوران، ودون كذب، ودون مصلحة شخصية. ولبّى عزالدين كل ذلك، وأكثر. كان كأنه يأخذ الفكرة من رأسك ويبلورها ويعيدها إليك فلا تملك حين تسمعها إلا أن تهزّ رأسك موافقا وتقول «نعم، هذا بالضبط ما أريده». أعتقد أن سحره الطاغى أتى من هنا. وأعتقد أيضا أن إغفاله للفارق الكبير بين ما يريده الناس وما يمكنهم احتماله هو الذى قضى عليه، بعد أن قضى على ضحاياه.

أدّى حسم حرب الطماطم لصالحه، ثم وعود يناير، وتشكيل المحكمة والاصطفاف الشعبى خلف برنامج واضح وخريطة طريق لها معالم ومصداقية، إلى تدعيم الأجواء الإيجابية التى بدأت مع توليه وزارة الداخلية. وبدأت السياحة فى العودة بشكل ملحوظ، وتوافد المسؤولون الأجانب الذين عادوا للاهتمام بمصر ودَورها وفرص الاستثمار فيها، ماليا وسياسيا. بل وبدأ عديد من المصريين الذين سافروا خلال الأعوام الخمسة الماضية فى العودة، حتى صفية أختى أبلغتنى أن إبراهيم زوجها يتناقش مع شركائه الإيطاليين حول مشروعات ووكالات للسياحة يكون مركزها مصر. كانت المنطقة العربية كلها فى حالة بين التوتر والاشتعال، ومن ثم جاءت بدايات الاستقرار فى مصر لتمتصّ كل المشروعات التى تحتاج إلى استقرار. وتوالت العروض على حكومة عزالدين فكرى بإنشاء مراكز إقليمية فى مصر، من الخدمات المصرفية وموانى تسييل الغاز حتى محطات الإمداد والتموين للسفن العسكرية. كأن رئة فُتحت فى جسد كله مسدود، فتَوجّه لها الأكسيجين الفائض، وبدأت هذه الرئة تمتص كل ما تستطيعه من أكسيجين، وكلما امتصت بعضا منه تحسنت حالتها أكثر وزادت قدرتها أكثر.

قضيت الأشهر الثلاثة الفاصلة بين خطبة يناير والانتخابات المحلية فى شؤونى الخاصة، فلم يكن هناك كثير عمل فى الرئاسة، وعرضت أكثر من مرة المساعدة على عزالدين، لكنى فهمت أنه لا يحتاج إلى مساعدتى. محمود بشير استسلم لاكتئابه خلال هذه الأشهر، وبدا أكبر بكثير من سنه: جالسا على قمة تكتل سياسى يتفكك تحت وطأة صراعاته الداخلية وانقساماته، وهو فاقد الحيوية والرغبة اللازمتين لإبقائه موحّدا. ما أدهشنى حقّا هو استئنافه علاقته بسالى القصبجى. كدت ألكمه عندما عرفت: متى يتوقف؟! متى يتوقف الإنسان عن ارتكاب نفس الخطأ؟! متى يرجع عن الطريق الذى يؤذيه؟! قال لى عزالدين أن أتركه فى حاله، وظننت وقتها أنه لا يريد إزعاجه بسبب حالة الاكتئاب العميق التى دخلها محمود، ولم أفهم ما وراء الأمور إلا بعد فوات الأوان.

لم تعد صفية خلال هذه الأشهر الثلاثة مثلما قالت، لكن خديجة التى جاءت فى منتصف أغسطس حلّت محلها فى حياتى، هى وأبناؤها لارا وتمارا وزياد .والحقيقة أنى كنت فى كل مرة أراهم أفتقدكَ، وأشعر بالظلم والفشل معا .الظلم لأنك لا تعيش معى، أنا أباك، والفشل لأنى أغدق هذه الأبوة على أبناء أخى دونك. كأنى أصلِى السُنَن وأترك الفروض. كتبت لأمك مرتين؛ لم أجد فى نفسى القدرة على الحديث معها، ولم تردّ. هذه هى الفترة التى كنا نتحدث فيها مرة كل شهر، أنا وأنت، إن كنت تذكر هذه المحادثات الثقيلة التى يضيع نصفها فى الصمت والسؤال عن الأحوال دون جواب. كنت أحاول حملك على الكلام ومشاركتى أخبارك، وحين أفشل ألجأ إلى الصمت أنا أيضا علك تأخذ المبادرة وتتحدث، وفشلت فى الحالتين. كانت محادثات مؤلمة. ولطالما سألت نفسى عما كنتَ تشعر به آنذاك، لكن لعلك نسيت كل هذا؛ سقطت فى بئر التهاويم التى نحسبها ذكريات.

لارا وتمارا وزياد لم يكونوا يتحدثون العربية إلا لماما، لكنهم تَحسّنوا بسرعة. عبده تولاّهم بالرعاية فى البداية، وأخذهم فى جولات عديدة لتعريفهم بالقاهرة وأحيائها وكيفية التصرف فى المواقف المختلفة دون أن يبدوا سياحا أجانب. وانضممت إلى جولات عبده هذه أيام الجمعة التى كانت نور مشغولة فيها. فكرت فى تعريف خديجة إلى نور لكنى تراجعت؛ كانت علاقتى بنور متوترة وتبدو مرشحة للانقطاع، فقررت أن أنتظر قليلاً حتى تتضح الأمور. اهتمام عبده بخديجة وأبنائها تخطى نداء الواجب، لكن سلوكه ظل مثاليا فلم أعلّق بشىء. الأهم من عبده كان زملاء لارا وتمارا وزياد فى المدرسة، الذين أدخلوهم فى شبكة علاقات الأولاد والبنات فى مصر الجديدة بسرعة البرق. لا شىء يقف أمام الأطفال والمراهقين. وتبددت مخاوف خديجة من أن لا يندمج أبناؤها بسرعة فى المجتمع المصرى، فصاروا نجوما فى المدرسة والحى بسبب إتقانهم الإيطالية وبقية المعارف التى أتوا بها من هناك. وبدأت خديجة تبحث عن عمل، وساعدها عبده فى البحث حتى وجدت فى فبراير عملا فى المركز الثقافى الإيطالى.

فى أثناء هذه الأشهر الثلاثة تقلصت علاقتى بعزالدين فكرى الذى ابتلعته مهامُّه بالكامل. وبحلول نهاية مارس كان قد بدأ بسط سلطته داخل وزارة الداخلية الجديدة، حيث فهم الجميع أن لا رجعة عن التغيير، ومن ثم سعى من بقى لمواءمة أوضاعه مع الطريقة الجديدة، وحاول من تم استبعاده ولم يكن قد اقترف جرما جسيما العودة واللحاق بالقطار قبل أن يرحل .وفتح عزالدين ومساعدوه ومستشاروه الباب لكل هؤلاء. عين عزالدين العميد لطفى مستشارا له، رغم كونه ممثل الداخلية السابق لدى الرئاسة، وهو اختيار ذكى؛ فلطفى يريد أن يعيش، وما دامت الأمور تسير فى اتجاه واضح ودون تردد أو انتكاسات فسيسير فى نفس الاتجاه. وكانت معرفته العميقة والوطيدة بناس الداخلية، حتى هؤلاء القابعين رهن الاعتقال، كنزا أحسن عزالدين استخدامه .حيث تحول لطفى -إضافة إلى وظائفه الأصلية- إلى وسيط موثوق به مع هذه القيادات حينَ جاء حينُ التفاوض على تسويات وصفقات. كما بدأ التعاون بين الجهات الشرطية الثلاث: الشرطة المحلية، وفرق الانتشار، وما أصبح يُعرَف بالشرطة الجنائية فى الانتظام. تعارف الناس، وبدؤوا يبنون أسلوبا للعمل معا. استقرار الوضع الأمنى، وبدء عودة الشرطة الجنائية، دعَم الأجواء الإيجابية الناشئة أكثر وبدا أن قوى النظام القديم فى طريقها إلى السقوط النهائى، لكن ظلت للقلق مصادر: محاكمة الثمانية عشر ألفا، والتعامل مع أصدقائهم وأعوانهم داخل مؤسسات الحكومة والهيئات العامة، وكيفية استرداد الأموال الضخمة التى نُهبَت وتحويلها إلى الخارج خلال السنوات الأربع الأولى من الثورة.

الحلقة الخامسة والأربعون

خلال الأشهر الثلاثة الأولى من حكم عزالدين، فشلت جهوده للتوصل إلى صفقة معقولة مع أقطاب النظام السابق ممن يسيطرون على الأموال التى تم تهريبها أو يعرفون كيفية تقصِّى مساراتها واستردادها. وفى أثناء حملة الانتخابات المحلية ذكَّره المرشحون من «اشد» (اتحاد الشباب الديمقراطى (بوعده بإنجاز المحاكمات خلال هذا العام. وفى حديث بيننا قال لى إن عليه ضغوطا لعمل «شىء ما» قبل الانتخابات المحلية كى يشد أزر هؤلاء الشباب أمام الناخبين، وإلا ضعف موقفهم أمام مرشحى الإخوان والسلفيين، خصمهم الرئيسى فى المحليات. وبالفعل، فى منتصف مارس صدرت الموجة الأولى من أحكام محكمة الثورة بمصادرة أموال خمسمئة وعشرين من رموز النظام السابق فى قضايا تتعلق بالفساد.

فاجأت قسوة الأحكام الجميع، واقترح عزالدين إصدار قانون مكمّل لمحكمة الثورة يسمح لمن يتعاون مع المحكمة وجهات التحقيق ويبادر بالاعتراف بجرائمه بأن يتلقى عقوبة مخففة. ولاقى اقتراحه هذا تأييدا من عدد من القوى السياسية والدوائر المرتبطة بمؤسسات الدولة، إلا أن الرأى العام وبالذات »اشد» عارضه. كما أن رجال الأعمال المحكوم عليهم بدوا واثقين بأنفسهم ولم يتجاوبوا مع محاولاته بالتصالح.

كان عزالدين يؤيد فكرة الاعتراف مقابل الحصول على أحكام مخففة فى كل الجرائم المتعلقة بالثورة لا جرائم الفساد فقط، أسوة بلجان المصالحة الوطنية التى نجحت فى بلدان أخرى، ما دام الشخص المُدان مُدانا وحُرِم من مباشرة الحقوق السياسية .لكن القواعد الثورية كلها، سواء تلك التى كانت تؤيده أصلا أو التى كانت تؤيد آخرين من اليسار والقوى الإسلامية، رفضت هذا الموقف، وتبلورت كتلة ثورية متماسكة تضمّ تيارات متعددة تسعى للقصاص الكامل، وهذه الكتلة فى رأيى مسؤولة عن اتخاذ عزالدين مواقف أكثر تطرفا من تلك التى كان يود اتخاذها. لعلِّى ألتمس العذر لصديقى القديم .على أى حال، صدرت الموجة الثانية من أحكام محكمة الثورة فى قضايا قتل المتظاهرين والتعذيب. وجاءت هذه أشد قسوة بكثير من الأحكام السابقة، وفى 29 مارس 2016 حكمت المحكمة بإعدام ثلاثمئة وخمسة من أقطاب النظام السابق بتهم القتل العمد للمتظاهرين والتعذيب الوحشى لعدد من المواطنين.

كان عزالدين فكرى قد اختار قضاة عتاة وغلاظ القلوب، لكنه فوجئ بالمدى الذى ذهبوا إليه. ران صمت عميق على البلاد فى انتظار ما سيحدث. كان يوم ثلاثاء، والانتخابات المحلية يوم الخميس. استدعانى عزالدين ووجدته فى حالة من الاضطراب لم أرَه عليها من قبل. سألنى عما أنصحه به، فهو إن وقع على الأحكام سيوقع عليها المجلس الرئاسى وتصبح نافذة، وسيسدد بذلك ضربة قاصمة إلى قوى الثورة المضادة وينعش أنصار الثورة ويُحدِث قطيعة واضحة مع الماضى. لكنها أرواح ناس. فى نفس الوقت إذا رفض التوقيع لن تنفّذ الأحكام، وسيسدد بذلك ضربة قاصمة إلى نفسه، وإلى محكمة الثورة، وإلى عملية التطهير كلها، غير الانتخابات والروح المعنوية للشباب التى ستضيع، وستعود البلاد كلها إلى حالة الفوضى التى ظلت أسيرة لها لأربع سنوات. لم يكن لدىّ ما أقوله له. فهذا بالضبط هو نوع الأسئلة الذى لم يكن لدىّ إجابة عنه، فلكل جانب حجته: سيقول السياسيون إن هذا شر صغير يدرؤون به شرا أكبر هو الفوضى، وإن عدد القتلى والمصابين والضحايا الذين وقعوا نتيجة الفوضى يتخطى الثمانية عشر ألفا كلهم .سيقول السياسيون إن هذا ضرورى لإقرار الأمن، والانتقال إلى نظام جديد، وكل هذه الأشياء التى يقولها السياسيون والعسكريون لتبرير العنف والقتل. وما الحرب ذاتها إن لم تكن شرا صغيرا تدرأ به شرا أكبر؟ لكن بقية البشر تعاف أنفسهم القتل، سواء كان بحكم محكمة أو فى الحرب أو بدم بارد فى غرفة مغلقة. وقفت صامتا، ثم سألته إن لم يكن هذا بالضبط هو ما حال بين الحكومات السابقة وإنشاء محكمة للثورة، أومأ برأسه إيجابا. وصمتنا نحن الاثنان. وفى مساء ذلك اليوم صدّق عزالدين على أحكام المحكمة.

قضت أول موجة من أحكام الإعدام على علاقتى بنور.

فلم تصدّق نور تفهُّمى لأحكام الإعدام التى صدرت، رغم عدم تفضيلى لها .وظلت تسخر من استخدامى كلمة «تفضيلى» لأيام، وربما حتى الآن. قالت إن السلبية فى هذه الحالة تبلغ مقام المشاركة، فقلت إن هذا كلام غير المضطر إلى اتخاذ قرار. قالت ولا أنا مضطرة إلى اتخاذ قرار، ولا عزالدين مضطر، ولا القضاة الأشاوس الذين يحلون أنفسهم محلّ عزرائيل – قبض الله أرواحهم، لا أحد مضطر. كلنا نختار؛ نختار هذا الدور، هذه المشاركة، هذا القرار. قلت إن كلامها نظريا سليم، وواقعيا محض هراء، لأنها إذ تختار أن لا تختار تترك الأمر لغيرها، تفوّضه، وبذلك تترك حل المشكلة لغيرها كى تستطيع لومه براحتها. سألتها ماذا ستفعل إن وجدت نفسها أمام رجل يصوّب مسدسه إلى رأس ضحية أعزل وعلى وشك الضغط على الزناد، إذا كانت تحمل سلاحا هى الأخرى، هل تقف على الحياد وتترك المهاجم يقتل الضحية ويذهب إلى حال سبيله، أم تطلق النار عليه لتمنعه. هذا هو دور السلطات العامة، هذا هو السبب فى تزويد رجال الشرطة والجيش بالسلاح وتخويل حق القتل إليهم فى إطار من القانون. قالت إنها لا تحتاج إلى سماع درس العلوم السياسية هذا، وإن المشكلة ليست فى النظرية بل دائما فى التطبيق .مَن الذى يحمل السلاح الآن؟ من الذى سيعلق المشانق؟ وهل هذا هو الحل الوحيد؟ أم أن للمسألة علاقة بالانتخابات والائتلاف الحكومى والتأييد الشعبى وكل هذه الأمور؟ قلت طبعا لها علاقة، لكن هكذا السياسة معقدة، فلو لم تمض هذه الأحكام قدما لسقطت الحكومة، ولعدنا إلى فوضى جديدة بأضرار أكبر وأشد. سألتنى متهكمة إن كنا سنزهق ثلاثمئة وخمسة من أرواح البشر كيلا تسقط الحكومة. صمتُّ غاضبا، فأردفت أنها تعرف أن الأمر أكثر تعقيدا، لكن بسبب هذه التعقيدات تعتقد أن علىّ الابتعاد عن مقاعد الحكم والجالسين عليها، لأنهم دائما سيتخذون قرارات كهذه، فى ظروف كهذه، ولا شىء يدعونى إلى المشاركة فى هذا، خصوصا أنى لا أملك تغيير ما يفعلون. كنا نكرر ما قلناه من قبل، ونقول أشياء جديدة ثم نكررها، وشعرنا نحن الاثنان بالتعب. وصمتنا تدريجيا، ثم صمتنا تماما. ثم قلت إنى لا أستطيع التخلى عن عملى فى هذا الوقت الصعب، وإن مصير البلد على المحكّ ولن أسامح نفسى إن انسحبت. صمتت ثم قالت إنها لن تستطيع أن تنظر إلىّ ولا ترى الدم على يدَىّ. قلت أشياء وقالت أشياء أخرى، ثم افترقنا ونحن نعلم أننا لن نلتقى بعدها.

لم تكن نور الوحيدة التى عارضت أحكام الإعدام، بل سبقتها أسماء زوجة عزالدين. فاجأتنى بزيارتى فى المكتب فى اليوم التالى لتصديق عزالدين على الأحكام، وأبدت قلقها الشديد من نتائج هذا الأمر، لا على الواقع السياسى أو أى من هذا، بل على عزالدين نفسه. قالت إن معظم الناس يظنون أن عزالدين شخص بارد وبلا قلب، ولا يعرفون إلى أىّ مدى هو حساس ورقيق. أفلتت منى ضحكة فهزّت رأسها لائمة، وقالت إنه حساس وأنا بالذات أعرف هذا، لأنى الوحيد الذى عرفته وهو صبى فى المدرسة، وأعرف أنه يخفى حساسيته هذه خلف جدار من البرود والقسوة، ويلجأ إلى فرض مسافة بينه وبين الناس كى تستطيع نفسه التعامل مع هول مشكلاتهم. ابتسمت وقلت إن كان قد تبقى لديه مشاعر فعلا من أيام المدرسة فهو يخفيها فى جُبّ عميق، ولا أتذكر أنى رأيت لها أثرا خلال العشرين عاما الماضية. لكنها رأت، وموقنة، والآن يتعلق الأمر بقتل ناس، بحكم يحمل توقيعه هو. سألتنى: أليس من المفترض أن يكون المجلس الرئاسى هو صاحب التصديق. قلت بلى، لكن المجلس لا يملك أن يصدق أو يمتنع إلا وفقا لتصديق رئيس الوزراء؛ هذه هى القاعدة الدستورية التى نسير عليها منذ الثورة الثانية. نظرت إلىّ ووجهها يقطر قلقا، وقالت إن عزالدين لم يقتل فى حياته شيئا أكبر من فأر، ولم يفعل ذلك إلا مرتين ظلّ بعد كل منها ممتعضا لأسبوع، فماذا سيحدث له حين تنفّذ هذه الأحكام! لم يكن لدىّ إجابة.

محمود بشير كان لديه إجابة، هى أن عزالدين رجل نظرى، ويتعامل مع البشر باعتبارهم أرقاما وموضوعات نظرية، ومن ثم فموضوع الإعدامات لا يمثل مشكلة له؛ الفكرة هى التى تزعجه. وسيعتادها بعد قليل، وهذا بالضبط النوع الذى تحتاج إليه البلاد فى هذا الوقت؛ النوع الذى يتكدر حين يصدّق على أحكام الإعدام، لكنه لا يدع كدره يوقفه.

سألت عبده عن رأيه ونحن فى طريقنا إلى البيت فقال إنه لا يفهم كل هذه الضجة حول أحكام الإعدام، متسائلا: كم آدميا غرق فى عبارة السلام، وكم احترقوا فى القطار أو فى مسرح بنى سويف، وكم أصيبوا بفيروس سى وبالفشل الكلوى وبالتخلف العقلى...؟ ثم أضاف أن الأمر لو كان بيده لقتل الثمانية عشر ألفا وخلّص نفسه والبلد منهم. سألته عن رأيه فى كلام محمود فقلّل من أهميته، مفسرا إياه بغيرته من عزالدين الذى يحقق ما عجز عنه محمود طول حياته. لم يكن عبده هو الوحيد الذى نظر إلى أحكام الإعدام بهذه الخفة، بل هلّل كثيرون لها باعتبارها أولى علامات النصر النهائى للثورة على النظام القديم.

وعندما بدأت جثث أقطاب النظام السابق تتراصّ فى القبور، قبل التهليل، وأعرب البعض عن أسفه لإعدامهم، وصدرت إدانات من منظمات حقوق الإنسان ونداءات بتخفيف العقوبة من بعض الدول. لكن مع مضىّ الأسابيع وتواتر أحكام الإعدام وتناقص عدد أقطاب النظام الباقين فى السجن تقلصت ردود الفعل السلبية هذه، وشعر كثير من الناس بالارتياح للتخلص من أشباح النظام القديم وإن لم يعلنوا ذلك صراحة. ومع تنفيذ أحكام الإعدام تَقدّم رجال الأعمال المحبوسون بطلبات للمصالحة، انتهت باستعادة مئات الملايين من الأموال المهربة مقابل إطلاق سراحهم وغضّ الطرف عن مغادرتهم البلاد دون صدور عفو رسمى، بحيث يمكن تعقُّبهم إذا ظهرت لهم أموال أخرى أو باشروا نشاطا مضادا للثورة، كما فعل ذلك بعض ضباط أمن الدولة. وبحلول نهاية العام كانت المحاكمات قد انتهت كما وعد عزالدين فكرى مؤيديه، وصدر الحكم بالإعدام على سبعة آلاف وخمسمئة وأربعة وثلاثين، نُفذ فيهم جميعًا خلال نفس العام، فى حين صدرت أحكام بالسجن على أكثر من عشرة آلاف تراوحت بين المؤبّد وأربع سنوات مع التجريد من الحقوق السياسية، واحتُسبت فترة الاعتقال جزءا من العقوبة. وصدرت أحكام بالبراءة فى تسع حالات .وهكذا، بنهاية العام كانت محكمة الثورة قد أنهت قضية المعتقلين، وبدأت تلتفت لتعقُّب ومحاسبة كل من تسوّل له نفسه القيام بنشاط مُعادٍ للثورة.

الحلقة السادسة والأربعون

وهكذا، حين جاء يناير 2017 كنت قد صرت وحيدا، وفقدت المرأة الوحيدة التى أحببتها فعلا منذ داومينج . راحت نور. لم تعُد تنظر إلىّ. راحت العينان العميقتان اللتان تُشِعّان حنانا وفه. راحت النظرة ما التى كانت تلقّنى فتغمرنى بالدفء وتشبع فراغا فى رُوحى. راحت المرأة التى كانت تفوح أنوثة حيث حلّت وتترك ملمسها على مسامّى حتى تلقانى مجددا. راحت اليدان اللتان توصلان براحتيهما ما فى نفس صاحبتهما حين تلمسان يدى وسط جمهورها بالمسرح. راحت، لأنى ضيّعتها. صحيح أنها هى التى تركتنى، لكن الحقيقة أنى أنا الذى ضيّعتها، مثلما ضيّعت داومينج خمسة وعشرين عاما قبلها، لأنى لم أقوَ على مواجهة نفسى.

أسوأ شىء أن تكون جبانا وتتظاهر بالرجولة؛ إن علمت فى نفسك الجبن، فعل الأقل لا تتظاهر بغير ذلك فتجرح من حولك بلا داعٍ.

الشىء الوحيد الجيّد فى قصتى مع نور أنها رفضت لعب دور المرأة البلهاء؛ رأت سلبيتى وفهمتها سريعًا، فلم تنتظر حتى أحطّمها مثلما حطمت مَن قبلها .والشىء الوحيد الذى لم أفهمه حتى هذه اللحظة هو كيف استطاعت تلك المرأة أن تحبنى رغم ما رأت فى!

تركت نور ترحل وعدت إلى الحياة المملة الضيقة التى اعتدت حبس نفسى فيها، من مقر الرئاسة ومناوراتها، إلى الأوقات القصيرة التى أقضيها مع خديجة وأبنائها، أو محادثاتى الطويلة مع صفية ومحادثاتنا الطويلة أنت وأنا التى نضيّع معظمها فى الصمت. تسلمت خديجة عملها بالمركز الثقافى الإيطالى، وهو عمل يُدِرّ عليها دخلا محدودا لكنه مفيد لها، إذ يخرجها من البيت ويفتح لها قنوات لتتعرف إلى الناس وتندمج فى الحياة بمصر .تكفلتُ ببقية مصاريفها هى ولارا وتمارا وزياد الذين انطلقوا فى القاهرة .وتكفل عبده بمساعدتهم كلما احتاجوا إلى شىء. لم أقوَ على الذهاب لرؤية ميرفت أو حسن، لكن عبده واظب على الاطمئنان عليهما. وهكذا، تقلصت حياتى الشخصية والاجتماعية إلى أقصى حد، وألقيت بنفسى فى العمل كى أشغلها عن التفكير فى ما يقضّ مضجعها. وكانت هذه هى الفترة التى اقتربت فيها من عزالدين أكثر من أى وقت مضى، حتى أشركنى فى خططه وتفاصيلها، قبل أن نتباعد ويحدث ما حدث بعد ذلك.

أحيانا أفكّر أنى تركت نور ترحل لأنى أردت ذلك، لأنى أردت تجربة الانغماس فى السياسة حتى أقصى حد. كان مشروع عزالدين ملهما، ورأيت فيه إمكانية تكاد تُلمَس باليد لتحقيق أحلام طالما راودتنى وإن لم أفصح عنها .هذه هى الفرصة، إن كان هناك فرصة، لتحقيق العدل بين الناس ولنهضة المجتمع والدولة. ماذا تريد أفضل من هذا، إن كنت قد حلمت يوما مثل كل الشباب بعالم سعيد، لا يُطحن فيه الفقير أو الضعيف، بل يجد له نصيرا يساعده كى يقف على قدميه ويأخذ حقه؟ ماذا تريد أفضل من حاكم قلبه مع الضعفاء لكنه ليس ضعيفا، حاكم يسخّر المكر والقسوة وأدوات القوة لخدمة الحرية والكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية؟ وفوق كل هذا، حاكم لا يفعل ذلك لمجد شخصى أو سلطة، بل يبنى قوته على مشاركة أجيال متعددة من الشباب تتأهل لتولِّى القيادة؟ بدا الأمر كأنه تحقيق لأحلام الصبا والشباب، وكان من المستحيل على شخص مثلى قضى عمره كله فى كواليس سلطة غاشمة أو غبية أو الاثنتين معا أن ينسحب فى نفس اللحظة التى بدأ فيها هذا الحلم يتحقق. ولم أرَ فى قتلى حرب الطماطم غير أعداء هذا الحلم الذين يحاولون إجهاضه. وحين بدأ تنفيذ أحكام الإعدام فى أقطاب النظام السابق شعرت بالأسى لمصيرهم، لكنه أسى على ما لا يمكن تجنُّبه. بل إنى شعرت بظلم لعزالدين ولأنصار الثورة، كأن أقطاب النظام القديم لم يكفِهم تدمير الدولة والمجتمع عبر ستة عقود من التخلف، بل يسعون لتلويث أيدينا بدمائهم حين يذهبون، لأنهم يأبَون التنحِّى فى هدوء. هم الذين قاتلوا الثورة، ولم ينقضّ عليهم أنصار الثورة إلا بعد خمس سنوات كاملة من التردد ومحاولة البحث عن طرق أخرى. هم الذين كتبوا علينا هذا المصير، نحن السلميون، وهم الدمويون، حتى إن كانت رؤوسهم هى التى تتدلى على المشانق.

هكذا قلت لنفسى، وهكذا قلنا جميعا لأنفسنا. وبعدها ارتاح ضميرنا، ولم يعُد عدد الرؤوس يقلقنا كثيرا. وكلما زاد الضحايا زاد تمسُّكنا بإنجاز مشروعنا وبعدالة موقفنا، وأصبح التراجع مستحيلا أكثر .وهكذا، خطوة خطوة، دخلنا بأقدامنا فى نهر الدم ثم سبحنا فيه.

أسفرت الانتخابات المحلية عن فوز الديمقراطيين بنحو أربعين فى المئة من المقاعد، وحاز الإخوان والسلفيون معا على خمسين فى المئة، وتوزعت العشرة فى المئة المتبقية على مستقلين محليين. لم تفُز أحزاب اليسار بمقعد واحد فى أى مجلس محلى، ولم يفاجئ هذا الأمر أحدا من العالِمين ببواطن الأمور، فلم يكن للأحزاب اليسارية -على كثرتها- وجود على الأرض أو كوادر تعمل على مواجهة مشكلات الناس فى القرى والأحياء، ومن ثم حين جاءت الانتخابات صوّت الناس لمن يعرفونهم. لكن «صفر المحليات» هذا شكّل فضيحة لمحمود بشير والقوى التى تدعمه وظل يلاحقهم وسهّل عملية القضاء عليهم حين حانت لحظة المواجهة الأخيرة.

كتب كثيرون عن نظام الرعب الذى قاده عزالدين، مستعينا بالحرس الحديدى وبمحكمة الثورة سيئة السمعة، والدم الذى سال من آلاف الضحايا الذين دفعوا حياتهم ثمنا لهذه المرحلة. ولن أكرر عليك تفاصيل هذه المرحلة، لكنى سأشرح لك ما أعتقد أن المحللين قد أغفلوه، وهو الأسباب والظروف التى قادت عزالدين فكرى إلى فعل كل ذلك. ليس هذا دفاعا عنه، ولكن كى تفهم القيود التى تأتى مع العمل بالسياسة ومع البشر، وتختار، حين تختار حياتك، طريقك على بيّنة. أقص عليك قصة العذاب هذه، لا لكى أسدّ الأبواب فى وجهك، بل على العكس، لكى أريك طريق الخروج. فلا تستسلم لليأس، أو تضيع فى التفاصيل الدامية، بل خذ خطوة إلى الخلف، وانظر إلى ما خلف التفاصيل، واصبر قليلا حتى أنهى رسالتى.

بعد ظهور نتائج الانتخابات المحلية، وبالتزامن مع تنفيذ أحكام الإعدام، بدأ الإعداد لانتخاب الجمعية التأسيسية. نجح عزالدين الذى تحالف مع الإخوان فى فرض نظام انتخابى يتبع الخريطة السكانية، فانتخبت كل محافظة عددا من النساء والرجال، المسلمين والأقباط، من مختلف المهن، بنسب مقاربة لتمثيل هؤلاء بالمحافظة. ولم يختلف الانتماء السياسى للفائزين كثيرا عن نتائج الانتخابات المحلية. ومن ثم قام اليساريون -بدعم غير معلن من محمود بشير- بالتظاهر والاحتجاج مطالبين بتمثيل أفضل لهم. إلا أن الجميع تجاهلهم حتى خفتت حدة احتجاجاتهم واقتصرت على وسائل الإعلام. المشكلة الحقيقية بدأت داخل اللجنة التأسيسية نفسها مع طرح القضايا الدستورية حيث تَبنّى السلفيون مواقف تتنافى تماما ومبادئ الدولة الحديثة. واحتدم الخلاف بينهم وبين بقية الكتل السياسية، وبدا أن مصير هذه اللجنة لن يختلف عن سابقاتها.

جلست ذات مساء فى نهاية صيف 2016 مع عزالدين نتداول فى الأمر. ووجدته مترددا، قال إن ثمن تحقيق أهداف الثورة يتزايد، وقد قبِل ضميره تحمُّل هذا الثمن فى حياته وبعد مماته. لكنه أصبح يخشى من ضياع كل ذلك هباء بسبب قِصَر نظر ومصالح السلفيين واليساريين والعسكريين وموظفى الدولة. ضحكت وقلت له إن هذه أغلبية، فنظر إلىّ مطولا وردّ بجدية تامة بأن هذه هى المشكلة، وأنه يستحيل عليه مواجهة الأربعة معا. لم يرَ فرقا بين السلفيين والطالبان؛ كلاهما ضحية لتعليم فاسد ومضلّل وغائب، لكن السلفية لا تتطور بالحوار ولا بالتعليم، لأنها تضخمت وتحولت إلى سلطة فكرية مغلقة لا تراجع نفسها ولا تستمع إلى نقد من خارجها. ومن ثم فإنه إن آجلا أو عاجلا سيقاتل السلفيون الباقين إن لم يستجيبوا لرؤيتهم الرجعية للمجتمع. أما اليساريون فكان يقول عنهم أنهم «سلفيُو الحداثة»؛ لا يختلفون عن السلفيين إلا فى استبدالهم الاشتراكية بالدين. وبالنسبة إلى العسكريين، لم يكن لدى عزالدين أى رغبة فى السيطرة على شؤون الجيش كما زعم اللواء القطان فى ما بعد. كل ما كان يسعى إليه هو تقليص سيطرة العسكريين على الأمور المدنية، من الإعلام إلى القضاء إلى الحياة الاقتصادية. وهى نفس المشكلة التى كان يواجهها مع بيروقراطية الدولة المتحصنة خلف ترسانة من اللوائح والإجراءات غير المفهومة لأحد سواها، والتى استغلها كبار العاملين بالدولة لوقف برامج الإصلاح وإعادة الهيكلة التى بدأ رئيس الوزراء يطرحها.

فى هذه الليلة وجدت عزالدين أكثر صلابة وحدة من أى وقت رأيته فيه. وحين حاولت التسرية عنه ببعض السخرية من الموقف نظر إلىّ بصرامة فتوقفت عن المحاولة. سألته ليلتها كيف سيواجه ذلك فكرّر أنه لا أحد يستطيع مواجهة الأربعة معا، وفى نفس الوقت لا بد من مواجهتهم إن قُدّر للثورة تحقيق أهدافها أو لمصر أن تنهض. كان غاضبا فى هذه الليلة، وقال لى إن كل ما حققه حتى الآن لا يتجاوز العودة إلى الأحوال التى سادت قبل الثورة. هل هذا هو ما مات الناس من أجله؟ هل هذا ما أضاع الناس سنوات عمرهم لتحقيقه؟ أين النهضة التى أردناها لأنفسنا وبلدنا؟ أين الحريات التى قُتل الناس من أجلها؟ وأين العدالة الاجتماعية بعد ست سنوات من الثورة وعدم الاستقرار؟ سألنى عزالدين، وهو ينظر إلىّ بتركيز شديد حتى خِلت أن مقلتيه توجّهان سهاما لا نظرات؛ هل قتلنا هذه الآلاف كى نستقرّ على كرسى الحكم بدلا منهم أم كى ننهض بالناس ونُقِيم العدل بينهم؟ كان متأكدا أن المهادنة أو المنهج المتدرج طويل المدى لن تؤدِّى إلى شىء. فالمحاولات التدريجية للإصلاح لن تأتى بثمار تكفى الجميع، وستتفاقم المشكلات الأصلية وتبتلع كل تقدم. مصر، كما وصفها لى عزالدين فى تلك الليلة، مثل مركب يحمل صناديق يفوق وزنها حمولته القصوى، ويحاول الإبحار ببطء على أمل تفادى الغرق، كأن المياه لن تنتبه لحمولته الزائدة بسبب بطئه. لا يمكن لهذا المركب النجاة من الغرق، أو الوصول إلى الميناء المنشود، إلا بالتخلص من حمولته الزائدة. المشكلة، كما قال عزالدين، أن كلا من السلفيين وموظفى الدولة واليساريين والعسكريين يجلس فوق جزء من هذه الصناديق، وهو لا يستطيع التخلص من الأربعة فى نفس الوقت، فبمن يبدأ؟

الحلقة السابعة والأربعون

لم يكن قرار عزالدين فكرى مهادنة العسكريين اعتباطيا، بل نتيجة منطقية لحسابات الواقع من حوله ولأولوياته. فعلى الرغم من استقرار الأمن وانتعاش الأحوال الاقتصادية إلى حد كبير، فإن هذا التحسن كان هشا .فلا يمكن للأمن أن يستقر إلا إذا استند إلى استقرار سياسى، أى إلى قواعد تلتزم بها القوى السياسية والأفراد كافةّ، وهو ما يتطلب إقرار دستور دائم وعودة المؤسسات المعطلة وتطهير المؤسسات القديمة كالإعلام والقضاء، وأهمّ من كل ذلك خلق توافق بين القوى السياسية حول قواعد اللعبة. أما الانتعاش الاقتصادى فيعود معظمه إلى السياحة، وفيض الأموال العربية التى دخلت مصر بسبب الاضطرابات التى يشهدها الخليج وسوريا ولبنان، وتدفّق المعونات الأجنبية على مصر، مع عودة الاستقرار وإلغاء وزارة التعاون الدولى. كل هذا جميل ولكنه مؤقت، فالنمو الاقتصادى الحقيقى، كما ظل عزالدين يردد طوال العام، يحتاج إلى إصلاح الزراعة والتجارة والأطر القانونية التى تنظّم الاستثمار والسوق، بل وإصلاح التعليم والصحة، وهى كلها أمور تتطلب تغيُرات أعمق فى أجهزة الدولة، تتطلب إلقاء الحمولة الزائدة من المركب.

فى تلك الأمسية التى فتح فيها عزالدين قلبه وحدّثنى عن نيّته، أسرّ إلىّ بأن الخطر الآنىّ والفورىّ على تحقيق أهداف الثورة لا يأتى من العسكر، بل من السلفيين وموظفى الدولة واليساريين. فالسلفيون يَحُولون دون التوصل إلى اتفاق على قواعد مستقرة للنظام السياسى، فى حين يُجهض موظفو الدولة، بمساندة اليساريين، أى محاولة جادة للإصلاح الاقتصادى. ومن ثم قرر عزالدين تركيز كل قوته على مواجهة السلفيين أولا، ثم موظفى الدولة وحلفائهم بعدها، والاكتفاء بدفع العسكريين إلى الوراء قليلا حتى لا يعترضوا طريقه. كانت مقتنعا أن هذه المواجهات ضرورية لبدء الإصلاح وتحقيق أهداف الثورة، وأعتقد أنه كان محقا. تماما مثلما كانت مواجهات الشهور السابقة ضرورية لبدء الإصلاح الأمنى. سألته ماذا سيفعل فتَجهّم وقال إن كل الخيارات مؤلمة: ستؤدى هذه المواجهات إلى سقوط ضحايا كثيرين، لكنه إن أحجم فستفشل الثورة ونعود تدريجيا إلى ظلم يشبه ما كان قائما، وتضيع كل الدماء التى سالت.

فى البداية حاول عزالدين التفاهم مع قيادات السلفيين على أساس كفالة الدستور حقّهم فى العبادة والدعوة بالشكل الذى يريدونه، لكنهم أرادوا فوق هذا تقييد حقوق الآخرين وتغيير طابع الدولة، بحيث تتحول لأداة للدعوة .طلب من الإخوان مساعدته فاعتذروا، فهم لا يقدرون عليهم، بل ويعانون من مزايدة السلفيين عليهم. حاول تجاهلهم فلم يفلح، وبات واضحا له ما كان يخشاه من البداية وهو أنهم لن يقبلوا إلا بفرض رؤيتهم الطالبانية .حذّرهم من المواجهة فسخروا علناً من تحذيره ومن «الشباب الرقيع» الذى يستند إليه .وبدا أن المواجهة قادمة، مسألة وقت ليس إلا.

لكن الظروف تدخلت فى تحديد مجريات الأحداث، ففى أول فبراير 2017 طبعت دار نشر فى لندن مذكّرات عدد من ضباط أمن الدولة الذين غادروا البلاد. من غير الواضح ما إذا كانوا أرادوا الانتقام من زملائهم العسكريين أم زعزعة الوضع الأمنى فى البلاد أم فعلوا ذلك بغرض الشهرة والمال. أيا كان السبب، فقد تضمنت هذه المذكرات اعترافات تفصيلية عن التعاون بين أمن الدولة وعدد من العسكريين -ذكروهم بالاسم- خلال موقعة الجمل وأحداث البالون وماسبيرو ومحمد محمود وشارع مجلس الوزراء والعباسية والعتبة وشبرامنت وأرض اللواء وغيرها. وقامت الدنيا ولم تقعد فى مصر فور نشر هذه المذكرات، ولم يكن من الممكن لرئيس الوزراء تجاهلها. بدأت سلسلة من الاحتجاجات شارك فيها كل ألوان الطيف السياسى، وكلها تطالب بالقصاص من العسكريين وفتح تحقيقات فى كل الأمور التى جرت. كانت هذه واحدة من اللحظات الفارقة، وساندت أغلبية الوزراء فتح هذا التحقيق فورا والقصاص من القادة العسكريين. إلا أن عزالدين عارض ذلك، وفض الاجتماع لإجراء مشاورات جانبية.

أخذت هذه المشاورات يومين، ولا أظن أن كثيرين يعرفون بما جرى فيها .استغلّ عزالدين الضغط الشعبى والسياسى الهائل للحصول على مكاسب من العسكريين، معظمها لم يُعلَن، لكنه فى نفس الوقت وقف بجانب العسكريين وساعدهم على إلجام الضغط الشعبى. وقد فعل ذلك حفاظا على وحدة الجيش واستقلاله، وفى نفس الوقت من أجل الحصول على دعم الجيش له فى معاركه المستقبلية. وافق العسكريون على تقديم الأسماء التى وردت فى اعترافات ضباط أمن الدولة للتحقيق ثم للمحاكمة، وفى المقابل وافق عزالدين على أن يضطلع القضاء العسكرى بالموضوع، لكنه انتزع علنيّة جلسات المحاكمة كلها. فى نفس الوقت حصل على موافقة قادة الأسلحة على تغيير وزير الدفاع، وهكذا أصبح العميد سعيد -الذى صار لواء، والذى كان ضابط اتصال الدفاع بالرئاسة- أصغر وزير للدفاع وأقربهم إلى فهم السياسيين. كذلك وافق القادة على تعيين اللواء توفيق، قائد قوة «الانتشار السريع» المقرب من عزالدين، مديرا جديدا للمخابرات العسكرية. واتفق الجانبان على عزل مدير المخابرات العامة القديم وتعيين اللواء حامد -صديقى والمقرب أيضا من عزالدين- محله. كما وعد القادة بدعم عزالدين فى معركته الوشيكة مع السلفيين. فى المقابل وافق عزالدين على عودة اللواء القطان للحياة فى مصر، شريطة عدم مزاولته أى نشاط عامّ.

تمت هذه الصفقة المركّبة خلال يومين، وحضرت معظم مشاوراتها، فى ما عدا الجزء الخاص بعودة اللواء القطان والذى لم يخبرنى به عزالدين إلا بعد الاتفاق عليه. ولاحظت أن عزالدين لم يتشاور مع أحد من الوزراء فيها، ولكنه كان دائم الرجوع إلى مجموعة قيادات اتحاد الشباب التى تعمل بمكتبه منذ تَولِّيه منصبه. وبعد التوصل إلى هذا الاتفاق قام عزالدين بإطّلاع مجلس الوزراء على الأجزاء الخاصة بالمحاكمات العسكرية العلنية للمتهمين، وبتغيير وزير الدفاع ومدير المخابرات العامة. هدّأت هذه القرارات الناس، وأشعرتهم أن زمن الإفلات من العقاب قد ولّى، وأكد ذلك الإعلانُ السريع عن بدء المحاكمات، ثم ما تلاه من أحكام قاسية.

لم أعرف كيف أستقبلُ خبر عودة القطان، لا على المستوى الشخصى ولا على المستوى العامّ. أول ما فكرت فيه أمك، وعودتها، وانقبض قلبى من هذه الفكرة. لا أدرى لِمَ بالضبط، ففى كل مكالماتنا كنت أحاول إقناعها أن تعود. لكنى ربما اعتدت غيابها، وارتحت لرحيلها بعد أن استسلمت له. كان ما بيننا العِشْرة، ولما رحلت وأمعنت فى الغياب ورفضَت محاولاتى كلها ذهب ما بيننا. ذهب دون قرار منّى، بل دون أن أدرى أنه راح. أدركت ذلك حين فهمت أنها ستعود، وشعرت أنى سأدخل فى مواجهة معها، ومع أبيها الذى لا أحبه وأخشى خشونته. فكّرت فيك أنت وارتبكت؛ كيف ستلقانى وكيف ستنظر إلىّ وفيمَ ستفكر، ماذا قالت لك أمك عنى طوال هذه السنوات، لا بد أنها قد أساءت الحديث عنّى كى تبرر لك انقطاعنا. فكرت طبعا أنى سأراك، لكن مجرد الرؤية لا يحلّ المشكلة. سألَتنى صفية أكثر من مرة لِمَ لا أسافر كى أراك، وفكّرت فعلا أكثر من مرة فى ذلك. لكن الأبوة ليست رؤية. ليست لقاء فى مطعم أو متنزّه وتمشية بجوار نهر أو زيارة للسينما. بل صحبة، وتعلّم، وارتباط، وقدوة، ونظرات تسأل وتجيب وتنقل ما فى القلب. كيف نستعيد كل هذا بعد كل هذا؟ وهل نستعيده أم نصبح غريبَين يجلسان متجاورَين؟

أكثر ما لم أفهمه هو عودة القطان. لم أفهم أولا أهمية عودته للعسكريين بحيث يدرجونها فى هذه الصفقة. كان وزيرا للدفاع أيام حكم العسكر، ثم رحل .لا يكاد أحد يذكره، وحتى أيام فترة الحكم العسكرى لم يكن فى صدارة المشهد، ويقينى أنك لو سألت عشرة أشخاص فى الشارع عمن يكون لما تَعرّف عليه أكثر من ثلاثة. فلمَ لا يعود بهدوء إذا أراد؟ حتى اسمه لم يكن مُدرَجا على قوائم المنع. ولِمَ يحرص قادة الأسلحة على عودته إلى هذه الدرجة؟ سألت عزالدين الذى ضحك هازئا وقال إنى سكرتير معلومات بلا معلومات .ثم شرح لى الدور الذى لعبه القطان فى الجيش أيام كان وزير الدفاع، وقاعدة النفوذ الواسعة التى بناها بفضل هذا الدور، والتى حوّلته لأهم شخص فى القوات المسلحة وأكثر قادتها شعبية. سألت عزالدين لِمَ يحتاجِ القطان إلى موافقته كى يعود، ولِمَ وافق هو، فأجاب بأن عودته دون اتفاق قد تفسَّر كتحرك عدائى من قِبَل الجيش، وهم يعلمون ذلك وأرادوا طمأنته.

أما هو فقد وافق، لأنه يفضل التعامل المباشر مع أصحاب النفوذ على التعامل مع وكلائهم، كما أن القطان أفضل مَن يوحد صفوف الجيش ويمنع ظهور منافسين متعددين، وتلك كارثة إذا حدثت. احتاط عزالدين للأمر مع ذلك بتعيين اللواء توفيق مديرا للمخابرات العسكرية، وهو قائد قوات الانتشار الذى عمل تحت إمرته منذ إنشاء القوة. لكنه ابتسم وراهننى أن توفيق هذا سيكون أول ضحايا القطان. وقد كسب هذا الرهان.

أدت المحاكمات العسكرية للقادة المتورطين فى قتل المتظاهرين والتنكيل بهم، وأحكام الإعدام رميا بالرصاص التى صدرت فى حق بعضهم، إلى انكماش الجيش وقادته وانسحابهم أكثر من الحياة العامة. تفادى الجميع بذلك شرا أكبر، وساد ارتياح الأوساط السياسية والشعبية. لكن أسماء لم تكن مرتاحة، على الإطلاق. طلبت لقائى خارج المكتب وقالت إنها تريد الحديث براحتها، فذهبتُ للقائها فى النادى الذى ترتاده فى القاهرة الجديدة، وسرنا نتحدث فى الممشى الرياضى. وجدتها متوترة وعصبية، وقالت إن حدّة الأحداث وكثافتها، وهموم المنصب الضخمة، والاختيارات شديدة الصعوبة التى عليه القيام بها تؤثر على عزالدين، وإنها باتت شديدة القلق عليه. دمعت عيناها وتوقفت فى الممشى، ثم بدأت ترتجف وتبكى بصوت مسموع. أخذتها إلى مقعد قريب وأجلستها وربت عليها حتى هدأت، ووعدتها بالمساعدة دون أن يكون لدىّ أدنى فكرة كيف .ظللت بجوارها حتى تمالكت نفسها، وربتت على يدى بمودّة، وابتسمت معتذرة، وطلبت أن أظل على اتصال عسى أن نستطيع كلانا حمايته .ابتسمتُ وأومأتُ موافقا.

قضى عزالدين شهر فبراير فى البحث عن مدخل لمواجهة السلفيين. لم يكن يستطيع فعل ذلك على خلفية عملية كتابة الدستور، لأن مواقفهم قريبة من مواقف الإخوان -على الأقل فى العلن- ومن ثم سيُضطرّ هؤلاء للوقوف معهم وإن لم يرغبوا فى ذلك. نفس الشىء ينطبق على قضايا الحريات العامة والسلوك الاجتماعى. لجأ إلى اللواء حامد، وبذلت المخابرات العامة جهدا كبيرا، كى تجد لهم خطًا يمكن محاسبتهم عليه، وبالفعل وجدوا كثيرا من قضايا التمويل الأجنبى وتهريب السلاح، لكن كل ذلك كان يمكنهم إنكاره، ولن يخلق التعاطف الشعبى المطلوب. وجدت المخابرات عددا من المسائل الأخلاقية التى تُدين بعض الرموز السلفية، لكن هذه المسائل أيضا ستبدو غير ذات مصداقية. وفجأة، وجد عزالدين المدخل الذى يبحث عنه: شبه جزيرة سيناء.

الحلقة الثامنة والأربعون

بدأت المواجهات مع السلفيين فى شهر مارس، واستمرت حتى شهر يونيو، وخلفت بقسوتها ودمويتها جرحا فى كل بيت. كان منطق عزالدين واضحا وحادا، كالسيف: وضع السلفيون أنفسهم فى مواجهة مع بقية فئات الشعب برفضهم القاطع لمبادئ الدولة الحديثة. ومن ثم أصبحنا أمام خيارات ثلاثة: مواجهتهم وإخضاعهم بالقوة، أو الاستسلام لهم وتحويل مصر إلى دولة طالبانية، أو التسويف واستمرار حالة الفوضى وعدم الاستقرار التى عاشتها مصر لست سنوات بعد الثورة. وحين استقر رأيه وأتباعه فى الكتلة المدنية الديمقراطية على المواجهة، قرروا اللجوء إلى أقصى درجات الحسم الجراحى، بحيث ينهون عذاب المواجهة فى ثلاثة أشهر بدلا من عشر سنوات مثلما حدث فى الجزائر وغيرها.

لم تبدأ المواجهات بعربة طماطم هذه المرة، بل بحزمة من الألياف الضوئية. وهذه المرة كنت أعلم أن عزالدين قد خطّط للأمر كله. اختار سيناء ميدانا لبدء المواجهة لحساسيتها للشعب والمجتمع الدولى، واخترع قصة الألياف الضوئية اختراعا كى تتم المواجهة على أساس مشروع للتنمية لا أمر يتعلق بالأمن أو الدستور . كان الوضع فى سيناء أكثر هشاشة من بقية المناطق، وكان يسودها هدوء حذر، فمنذ تولى عزالدين وزارة الداخلية استعادت قوات الشرطة المحلية والجنائية بعض السيطرة الأمنية، وذلك إلى جانب قوات الجيش، وإلى جانب القبائل وعصابات التهريب والجهاديين الإسلاميين، دون أن يكون لأحد اليد العليا. استمر التهريب قائما لأنه أصبح عبر السنوات مصدر الرزق الرئيسى للقبائل، لكنهم توقفوا عن تهريب السلاح تفاديا لجرّ الجيش إلى مواجهات معهم أو مع حكام غزة المتشددين أو مع إسرائيل. وفى نفس الوقت انكفأ الجهاديون على معسكراتهم فى المناطق المعزولة دون أن يقفوا فى طريق أحد أو يعترضهم أحد من قوات الأمن. راقبت القوة المتعددة الجنسيات الوضع بدقة، وحفظ هذا التوازن درجة من الاستقرار سمحت بعودة السياحة إلى جنوب سيناء بعد المواجهات العنيفة التى حدثت إبان الثورة الثانية.

بدأ عزالدين بهز ذلك التوازن بالإعلان عن مشروع قومى لتحويل شمال ووسط سيناء إلى قاعدة كبرى لتكنولوجيا المعلومات، وإنشاء مدن جديدة فى نخل والقسيمة والحسنة والشيخ زُوَيّد يستوعب كل منها مليون نسمة. ويقوم هذا المشروع على إقامة بنية تحتية متقدمة من الاتصالات، ومراكز بحثية ومراكز تدريب وجامعة تقنية، إضافة إلى تقديم إعفاءات ضريبية وقروض للمشروعات الصغيرة والمتوسطة، وذلك لتشجيع الاستثمار فى مجالات تكنولوجيا المعلومات .وأفرد هذا المشروع جانبا هامًا لحل مشكلات أهل سيناء، سواء بتمليكهم الأراضى أو بتخصيص عديد من المشروعات المصاحبة له لدعم وتطوير الحياة المحلية، ومن ذلك مشروع لدعم الصناعات والمشغولات البدوية وتدريب أصحابها على تسويقها باستخدام تقنيات أحدث وأرخص، وإعطائهم الأولوية فى التدريب والتوظيف بالمشروعات المقامة، وغير هذا من الإجراءات. وعلى الفور تحركت الجرّافات لشقّ وتحسين وتطوير شبكة الطرق، ومعها مشروع مد شبكة من الألياف الضوئية فى ربوع شمال ووسط سيناء كلها.

ثم وقع المحتوم؛ تَعرّضَت مجموعة من العمال تقوم بحفر وتركيب كابلات الألياف الضوئية فى بقعة نائية وسط سيناء للمنع، وحين أصرّت على القيام بمهمتها واستدعت قوة من الشرطة لمساعدتها تعرضت القوة لإطلاق نار. لم يُصَب أحد، لكن القائمين على المشروع عاودوا الكَرّة فى اليوم التالى بعد استدعاء قوة أكبر من الشرطة، وحينها اشتبك مجهولون مع القوة ووقع قتيل من جانب الشرطة. فاستدعت الشرطة قوات الانتشار، وبدأت أولى المواجهات مع الجهاديين المتمترسين فى منطقة جبلية وسط سيناء. تطورت المواجهات بسرعة، وفى خلال أسبوع كانت قوات الأمن والجيش قد دخلت فى قتال حقيقى وشامل مع الجهاديين بوسط وشمال سيناء.

أعلن عزالدين فكرى حالة الطوارئ، وطلب دعم القوى السياسية فى مواجهة هذا الهجوم على نظام الثورة ومشروعها لتنمية سيناء. تَلَقّى دعما من الجميع عدا السلفيين الذين انتقدوا سياسته الصدامية مع الجهاديين. وأدّى هذا الانتقاد إلى امتعاض شعبى واسع، فلم يكن لهؤلاء الجهاديين أو لسيطرتهم على بقع من سيناء أى شرعية، بل كان معظم الناس يجهل وجود هؤلاء الجهاديين بسيناء أصلا.

وبينما استعر القتال فى شبه الجزيرة، تَقَدّم عزالدين بمشروع قانون لتجريم حمل السلاح من قِبَل أى فصيل سياسى، وتجريم الحض على المساس بالمساواة بين المواطنين أو تغيير الطابع الجمهورى للدولة، وإحالة مرتكبى أى من هذه الجرائم إلى محكمة الثورة. أيد الديمقراطيون واليساريون مشروع القانون، وامتنع الإخوان، وعارضه السلفيون ونزلوا للشوارع محتجين عليه .وهكذا اعتمد المجلس الرئاسى مشروع القانون بأغلبية اثنين وامتناع الثالث، وأصبح قانونا نافذا من اليوم التالى لنشره، أى فى 14 مارس. وفى نفس اليوم أطلق عزالدين يد حرسه الحديدى من الشرطة المحلية والجنائية وقوات الانتشار ضد السلفيين المعتصمين فى الشوارع، وضد مقارّ الجمعيات المرتبطة بهم، والصحف، والقنوات التليفزيونية، ومواقعهم على الإنترنت، والمساجد، والمؤسسات الاقتصادية، وحساباتهم بالبنوك، كل شىء.

لم تكن هذه مجرد مواجهة، بل حربا شاملة. مَن حمل السلاح ضد قوات الأمن قُتل، ومن لم يحمل سلاحا قُبض عليه وأحيل إلى محكمة الثورة التى حكمت بإعدامه، ونُفّذت الأحكام خلال أسبوع من صدورها. فى سيناء استخدمت قوات الأمن كل ما لديها، ابتداء من قنابل الغاز «المسموح بها دوليًا» والمشكوك بها محليا، إلى الطائرات الصينية، إلى أقمار صناعية أمدّتها بصور حية عن أهدافها. وغضّت الأطراف الخارجية الطرْف عن نشر أعداد هائلة من القوات قامت بعملية تمشيط دقيقة لوسط وشمال سيناء، ولاحظ الجميع أنه لم ينتج عن هذه الحرب أى أسرى أو سجناء. لكن وحشية القتال فى سيناء لا تقارَن بالمجازر التى وقعت فى بقية مدن مصر وريفها. لم يكن لدى أجهزة الأمن الجديدة معلومات دقيقة عن الأعضاء النشطين بالجماعات السلفية، أو حتى عن نوعية نشاط الجماعات السلفية المختلفة. قيل إن بعض ضباط أمن الدولة القدامى ساعدوا، وبعض من شاركوا فى «الحرب على الإرهاب» بالصعيد فى التسعينيات .لكنى لم أشهد أى دليل على هذا. ما أعلمه أن حملات المداهمة كانت تتحرك عند تلقِى بلاغ بوجود سلفيين مطلوبين لمحكمة الثورة، دون التحقق من مصدر البلاغ ولا شخصية الهدف المطلوب القبض عليه. وحين تصل قوة المداهمة تبدأ بإطلاق النيران بشكل احترازى لحماية نفسها، فإذا تعرضت لنيران مضادة أغرقت الهدف كله بالنيران حتى تقضى عليه، وإذا لم تتعرض لإطلاق نار واصلت التقدم، مع إطلاق نار من وقت آلى آخر تفاديا لأى خطأ. كانت تعليمات هذه القوات عدم المخاطرة بسلامة أفرادها، بغضّ النظر عن عدد الضحايا. وكان قادة هذه القوات ممن قادوا حرب الطماطم قبلها بعام، ومعظمهم تبلدت مشاعرهم وماتت قلوبهم من قسوة ما شهدوه وما فعلوه وقتها. وهناك اعتقاد أنهم قرروا فى ما بينهم أن لا يأخذوا أسرى أو سجناء.

ومثل ما حدث فى حرب الطماطم، أسفرت المواجهات عن تصفية السلفيين فى البلاد، وقيل إن عدد القتلى تجاوز مئة ألف، لكن لا يوجد تعداد رسمى للضحايا، ولا نعرف حتى من منهم كان سلفيا ومن قادته الصدفة أو ضغينة جاره إلى حتفه. لا أعرف كيف أصف لك ما حدث فى هذه الأشهر الثلاثة، لكنه كان أشبه بعملية اقتلاع جزء من الجهاز العصبى لمريض دون تخديره ودون رؤية واضحة لجهازه العصبى. مصر كلها كانت تئنّ وتتوجع من هذا الاقتلاع، لكن عزالدين لم يتراجع ولو قيد أنملة، وظل مطبقا على رقبة الجميع بيد لا تهتز، مستخدما حرسه الحديدى والأجهزة الأمنية ضد أعدائه حتى نهايتهم، دون رحمة أو شفقة، وممسكا ببقية القوى السياسية من تلابيبها كيلا تنقلب ضده. لم تفلح الانتقادات فى وقفه، ولم تلبث تلك أن خمدت أو أخمدتها آلة القتل العمياء، وساد رعب حقيقى غذّته محكمة الثورة بأحكامها القاطعة ضد كل من «يهدِّد المال العامّ، أو حقوق المواطنين، أو يسعى لتزييف إرادة الجماهير، أو يحرّض ضدّ النظام الجمهورى، أو المساواة بين المواطنين.«

ستسألنى أين كنتُ من كل هذا. لا أعرف كيف أشرح لك دورى. من السهل علىّ الحديث عن معارضتى لما حدث، وعن أحاديثى مع عزالدين التى ذكّرته فيها بتعارض أفعاله مع المبادئ التى وقفنا من أجلها طوال حياتنا. لكن الحقيقة أن معارضتى هذه لم تتجاوز الكلام، بل إنى لم أصمد كثيرا فى الكلام، حين كان يسألنى عن البديل الذى أقترحه للتعامل مع السلفيين العازمين على تحويل الجمهورية إلى سلفيستان. كلما سألنى تذكرت حديث نور عن سلبيتى، وتهت .اتصلت بى نور فى خضمّ هذه المذابح، حاولت سؤالها إن كان لديها بديل لما يفعله عزالدين، لكنها رفضت الحديث فى الموضوع، وقالت بصوتها الرخيم إنها تريد الاطمئنان علىّ لا غير. عنيدة تلك المرأة، ولا يخلو حنانها الطاغى من قسوة. كنا كلنا تائهين: أنا ومعاونو عزالدين ومستشاروه والوزراء ومحمود بشير المندفع بلا فائدة، حتى أسماء الحزينة على فقدان زوجها لما كان قد بقى عنده من مشاعر.

ما زلت أذكر هذه الأمسيات المتأخرة، حين أذهب إلى مكتب عزالدين فى نهاية يوم العمل الطويل. تُدخِلنى السكرتاية فور وصولى لأجده يتابع ردود الفعل على مواجهات اليوم فى التليفزيون. يأكل سندوتش جبن رومى وزيتون ويشرب شايا، وقد حل رباط عنقه. نتحدث قليلا، وقلبى يعتمل بأكثر مما أقول .يسألنى عن رأيى فى آخر الحوادث :السلفيون هاجموا نقطة حصينة للجيش عند بلدة كذا فقتلوا كل من فيها؛ «ماذا نفعل؟»، أنظر إليه وأفكر فى آلاف القتلى الذين سقطوا حتى تلك اللحظة، وأسأله إن كان أحد قد حاول التواصل مع قياداتهم أو البحث عن حل.

فيسألنى فى ضجر عن أى قيادات أتحدث، وأين هم؛ إما أعدمتهم المحكمة وإما اختبؤوا وحملوا السلاح، ثم نتناقش حول حكمة قضاة محكمة الثورة ويقول لى إلى أى درجة هم حمقى وبلا رؤية سياسية، لكن من يستطيع وقفهم؟ وماذا نفعل نحن فى هذا الاعتداء؟ هل نسكت؟ هل ننسحب ونسلّمهم البلد؟ وما من جواب غير إرسال التعزيزات، ومزيد من سفك الدماء. أجلس أمام مكتبه وهو يحدثنى، بين السندوتشات والشاى والتليفزيون والتليفون الذى لا يصمت ومعاونيه الذين يدخلون من حين إلى آخر. ماذا تقول لرجل وضع خلاصة عقله وروحه فى عمله، وهو فى وسط معركة، وخلفه ملايين المؤيدين؟ نعم به عيوب ويخطئ، وأحيانا لا يستمع إلى أحد وأحيانا أخرى تأخذه العزة بالإثم .لكنه فى ذلك مثل الجميع، مثل أى شخص آخر قد يجلس محله، فماذا تقول له، وسط الحرب؟ كيف تطلب منه التوقف دون إعطائه بديلا صلبا يمكن الوقوف عليه؟ أم تطلب منه الاستقالة عند أول مواجهة حقيقية؟ وإن رحل، فهل سيحل ذلك المشكلة؟

كنت أجلس أمام المكتب وأشعر أننا دخلنا فى نفق لولبى، ننزلق فيه ويدوس بعضنا بعضا ونقتتل ونحن نواصل السقوط داخله، والنفق ضيّق يخنقنا، ولا أحد منا يعرف بابًا للخروج

الحلقة التاسعة والأربعون

فى 14 يونيو، أى بعد ثلاثة أشهر بالضبط من بدء الحرب، أعلن عزالدين فكرى إنهاء حالة الطوارئ، ودعوة المواطنين للاستفتاء على الدستور الجديد فى أول سبتمبر، بحيث تجرى الانتخابات الرئاسية والتشريعية الجديدة فى الأسبوع الأول من يناير، كى تحتفل مصر بعيد الثورة السابع بتدشين برلمانها الجديد وتنصيب الرئيس. فاجأ الإعلان كثيرين. صحيح أن اللجنة الدستورية واصلت عملها خلال فترة المواجهات (من دون أعضائها السلفيين الذين قُبض عليهم وأُحيلوا إلى محكمة الثورة)، لكن كثيرين توقعوا أن يستغلّ عزالدين حالة الحرب ويؤجل العملية الدستورية ويفرض حكمه الفردى .هؤلاء، فى رأيى، أساؤوا فهمه. فلم يكن عزالدين، فى ظنى، يسعى لاستمرار حكمه إلى الأبد. كل ما أراده هو قدر كافٍ من السلطان وحرية الحركة لتنفيذ المهمة التى أخذها على عاتقه، وهى مهمة لم يكن مستعدا للتخلِى عنها مهما كان الثمن. وكلما سال الدم، أصبح التراجع أصعب، وبالتالى زاد استعداده لسفك مزيد منه.

هدف عزالدين من إعلانه هذا طمأنة الناس والسياسيين أنه لا ينوى الخروج عن مسار التحول الديمقراطى الذى من أجله أُريقت كل هذه الدماء، لكن السياسيين شعروا بمزيد من القلق، فنجاح عزالدين ومعسكره »الديمقراطى» فى القضاء على النظام القديم ثم على السلفيين، وحكم الرعب الذى يقيمونه، ينذر باكتساحهم الانتخابات. تناول عزالدين هذا القلق فى أحاديثه العامة، وبدأ حوارا موسّعا مع القوى السياسية الأخرى للبحث عن إجراءات تبعث الطمأنينة فى قلوبهم ولو بعض الشىء. لكن مرة أخرى، كان كل ذلك سحابة من الدخان هدف منها إلى شغل الناس فى قضايا السياسة، تمهيدا لدخوله معركته النهائية والحاسمة مع عدوه التالى: موظفى الدولة والقوى اليسارية المتعيشة عليها.

من ناحيتى، شعرت براحة عميقة لإنهاء حالة الطوارئ، وكنت أود لو حل عزالدين محكمة الثورة كى ننهى ميراث هذه الفترة الدموية. لكن عزالدين فضل التأجيل، متعللا بأنها وبقية متعلقات الفترة الانتقالية ستنتهى فى كل الأحوال مع إقرار الدستور الجديد خلال ثلاثة أشهر، ومن ثم فلا داعى لإثارة الجدل بشأنها الآن. كنت كمن حبس أنفاسه لمدة ثلاثة أشهر، وكل ما يهمّنى الآن توقف القتل، وفرصة العودة للحياة الطبيعية. لكنى كنت مخطئا، فقد كان الجرح الذى أصابنا أعمق من أن يندمل. لقد غيرت هذه المواجهات شيئا فينا، تماما مثلما غيرت ثورة يناير الأولى الناس. لم يكن الجديد فى هذه المواجهات حدة العنف ووحشيته فحسب، بل قبول الناس له وتعاونها معه. لم يقتل عزالدين المئة ألف ضحية وحده، بل من خلال آلاف من أنصاره الذين يسمون أنفسهم الديمقراطيين، وبتواطؤ وقبول مئات الآلاف من الشعب، هؤلاء الذين أبلغوا عن جيرانهم، والذين دخلوا بيوتهم وأغلقوا الأبواب والنوافذ حين تصل القوات المداهمة، والذين هزُّوا كتفهم مثلى وقالوا «ما البديل؟». كلنا كنا شركاء فى هذا، وسواء اضطُررنا إلى هذه المواجهات أم اخترناها، فقد دخلنا فيها، وتلوثت أيدينا وقلوبنا بدماء جيران وأقرباء وأصدقاء. لا أدرى كيف أصف لك التغير الذى أصابنا بدقة، درجة من الاستخفاف بالموت واعتياده، درجة من تبلد المشاعر والقسوة، ودرجة من الشعور العميق بالذنب المدفون تحت طبقة سميكة من المبررات تجعلنا عدائيين لأى تشكيك فى صحة موقفنا.

رغم التحفظات والمخاوف، فإن أغلبية الناس قلبت صفحة الماضى بسرعة .أصدرت القوى السياسية بيانات رحبت فيها بانتهاء المواجهات وبالخطوات الدستورية الجديدة، وبدأت المناقشات حول مواد الدستور المقترحة، وشرع البعض فى الإعداد للانتخابات التشريعية. كما انهالت عروض المساعدات على مصر، وقفزت السياحة حتى وصلت إلى المستوى الذى كانت عنده فى 2010. شعرت بغصة مما بدا كأنه احتفال يتم فوق قبور لم تبرد جثثها بعد. لكنى كنت فى معسكر الأقلية. أراد الجميع نسيان ما حدث، لا أدرى كيف استطاعوا. لكنى ربما أظلمهم، ربما كنت أنا أيضا سأنسى لو لم تقع حادثة حسن.

عبده هو الذى أخبرنى بنبأ القبض على حسن. لا أدرى كيف تحول هذا الفتى، العاطل منذ تخرجه، صاحب الكُلية المسروقة والأخرى الفاشلة، إلى زعيم عصابة. حين أنشأ عزالدين الشرطة المحلية انضم حسن إليها وجاء معه بعصابة الموتوسيكلات التافهة التى كانت تعمل معه. ولم يكن ذلك أمرا غريبا وقتها، فالحقيقة أن كثيرين ممن انضموا إلى هذه الشرطة كانت لهم أنشطة مخالفة للقانون قبلها. وكان جمع هؤلاء وإعادة تأهيلهم وتوجيه طاقاتهم نحو حفظ الأمن أحد أهداف إنشاء الشرطة المحلية. وأقام عزالدين إدارة تحريات داخلية تولت تَقَصِّى ومراقبة سلوك أفراد الشرطة المحلية للتأكد من حسن استخدامهم سلطاتهم. ويبدو أن حسن ظل حسن السلوك طوال العام الأول. لكنه تعاون خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة مع بعض العناصر السلفية فى منطقة أرض اللواء. بدأ الأمر فى ما يبدو -ووفقا لاعترافاته- بإيواء وتسهيل فرار بعض المطلوبين أو المبلغ عنهم، ثم تطور إلى إمدادهم بالسلاح. لم يكن واضحا إن كان قد تَلقّى أموالا مقابل ذلك أم تَطوَّع به، إيمانا بعدالة قضيتهم .لكنه حين انكشف أمره اعترف بكل شيء.

أخبرنى عبده بالأمر فور القبض عليه، وفاجأنى الخبر ولم أعرف ماذا أفعل .وقبل أن أجد الإجابة كانت التحريات الداخلية قد أحالته إلى محكمة الثورة .طلبت من عبده الاتصال بميرفت فأجاب بأسى أنها رفضت التدخل فى الموضوع .أدهشنى رد فعلها. وحين حدثت عزالدين فى الأمر كانت محكمة الثورة قد حكمت على حسن بالإعدام شنقا. هز عزالدين رأسه وقال إنه لم يعد بوسعه شيء. لجأت إلى محمود بشير، لكنه رفض التدخل هو الآخر قائلا إن حسن ليس طفلا، وأى شخص يساعد السلفيين بالسلاح فى وسط مواجهة من هذا النوع يعرف جيدا ما يفعله .لم أعرف بمَ أرد عليه، كما لم أعرف بمَ أردّ على عزالدين، ثم انشغلت بأمور أخرى، وحين عدت إلى الموضوع بعدها بأسبوع كان حكم المحكمة فى حسن قد تم تنفيذه.

لم أسامح نفسى. كيف «نسيت» الموضوع لمدة أسبوع بعد صدور الحكم وأنا أعرف جيدا سرعة هذه المحكمة فى تنفيذ أحكامها؟ أعرف أنى لم أكن أستطيع تغيير الحكم، لكن ربما استطعت الضغط على عزالدين كيلا يصدّق عليه، أو اللجوء إلى أسماء، أو فعل شيء ما، لكنى تركت الموضوع، تجاهلته، تركته يمر من تحت أنفى حتى شنقوا حسن. تملكنى شعور طاغ بالذنب، لكن أيضا بعدم الفهم لرد فعل كل من عزالدين ومحمود حين طلبت منهما التدخل فى البداية، وكذلك فى استقبالهما الفاتر لخبر إعدامه، ولغياب ميرفت عن المشهد كله. سألت عبده إن كان يعرف شيئا فنفى، لكنى شعرت أنه يعرف ولا يقول. وكحلٍّ أخير أرسلت فى طلب نسخة من محاضر التحقيقات وجلسة المحاكمة، فقالوا لى إن المحاضر فُقدت! عند هذه النقطة استسلمت. لكنى عندما عرفت تفاصيل «جريمة «حسن فى ما بعد فهمت كل ذلك، وزاد شعورى بالذنب أكثر، وظل معى حتى اليوم.

كانت السنة كلها أوجاعا، وكل ما أردته هو بعض الراحة، وقت ألتقط فيه أنفاسى. لكن حتى حين حدث ذلك أوجعت الراحة قلبى. فقد غطّى صخب الأحداث وجنونها على كل شيء آخر، واستغرق كل ذرة من تفكيرى خلال الأشهر الثلاثة الماضية، فلم أفكر فى نور ولا فى نفسى دونها. وظننت أنى تجاوزت فراقنا، ظننت أنى صرت بلا قلب مثل صديقى صاحب القبضة الحديدية. لكن حين توقف القتل وخرجنا من العاصفة التى ابتلعتنا، عادت مشاعرى لا أدرى من أين .وشعرت فجأة بهذا الفراغ الموجع داخلى، هذا النقصان الذى يئن حتى تملؤه هى .هى، ولا أحد غيرها. لا أدرى كيف ستقرأ هذا، لا أحسبك فكرت أن رومانسية كتلك التى تصيبك يمكن أن تصيب أباك أيضا. أو لعلك تظننى فقدت عقلى، وانتابتنى مراهقة متأخرة. وقد ساورتنى شكوك مماثلة لفترة، مع شكوك أخرى، كلها لم أعترف بها لنفسى، بل ظلت هناك قابعة تحت السطح، تدفع بأفكار ومشاعر وتمنع أخرى. هذه هى الأفكار التى عليك الحذر منها أكثر من أى شيء آخر تقوله لنفسك.
هذه هى الأفكار التى تقولها لنفسك دون أن تسمعها، وغالبا ما يكون لها اليد العليا فى ما تفعله.

لم ينفع شيء فى إخماد افتقادى نور، لا صورها على الإنترنت، ولا تتبُّعى لتصريحاتها ومقابلاتها، ولا إعادة مشاهدة مسرحياتها، ولا حتى قراءة التعليقات التى تضعها على «فيسبوك». لم يكن كل هذا كافيا على وفرته، لم يسدّ الفقد، لم يملأ النقصان. لا شيء يفعل هذا. لا شيء يمكنه إزاحة الصخرة القابعة على صدرى سواها هى، حين تُهلُّ علّىّ، وحين تنظر إلىّ، وحين تلمسنى يدها. أين ذهب كل هذا؟ أين ذهبت كلها؟ ليتنى حتى أملك حق توجيه هذا السؤال. «كيف أضعت كل هذا؟» هو سؤالى الحقيقى. كيف تركتها تذهب بعد أن كانت هنا، بين يدَىّ؟ أسأل نفسى وأعرف الجواب: تركتها ترحل، لأنى خشيت عواقب استبقائها، وما زلت أخشاها، ولذا لم أحاول الاتصال بها، قلت يكفى وجع قلبى أنا، لا داعى لجرحها هى الأخرى، مرة أخرى.

ثم جئت أنت بوجع آخر.

فى آخر يونيو وصل اللواء القطان إلى مصر، ومعه ابنته ندا، وأنت. كان عمرك سبعة عشر عاما وستة أسابيع حين رأيتك. وكان عمرك ثلاثة عشر عاما حين اختطفتك أمك وأبوها. هل رأيت صورك؟ هل ترى الفارق بين الشخصين؟ الفتى الذى سافر لم يعد، ظل هناك، فى الغياب. وعاد أخوه الأكبر، الذى لم أرَه من قبل، ولا أعلم من أين أتى وكيف نما ومن هو وماذا يدور داخل روحه. ذهب ابنى يحيى، وجاء شاب يشبهه ويحمل اسمه لكنه ليس هو. وحين رأيتك أول مرة أوجعنى قلبى على ابنى الذى مضى، وأوجعنى بنفس الدرجة أن عينيك تَحوّلَتا عنى كأنهما لا تريدان رؤيتى. ابتسمنا، وعانقتَنى حين عانقتك، لكنى شعرت بك تتراجع إلى الوراء قليلا، وظللتَ متماسكا فى نفسك ونحن متعانقان، وكلما ضممتك ازداد تمسُّكك بانفصالك. أطلت العناق علّك تنفتح، علّك تضمُّنى وأشعر بهذه اللحظة التى يندمج فيها المتعانقان معا، لكنك ظللت حيث أنت، ثم أنهيت أنت العناق الذى طال بلا فائدة. نظرتُ إليك ووجهك فى وجهى فابتسمتَ وأشحتَ بعينيك مرة أخرى، بحرج من لا يعرف ماذا يقول للآخر الذى ينظر إليه، بحرج من لا يعرف كيف ينظر إلى الآخر أصلا. وأدركت ساعتها حجم الهُوّة التى يتعين علىّ عبورها كى أصل إليك مرة أخرى.

الحلقة الخمسون

حين رأيتُ ندا أدركتُ إلى أى حد تباعدنا. وكلما تكلمنا أدركت أننا افترقنا وانتهى الأمر بيننا. لا دراما، مجرد شعور مستقرّ بأن ما ضاع لن يعود، وربما لم يكن موجودا وتخيلته أنا أو تمنيته. فى أول لقاء ظننتها جفوة البعاد والغضب والمناقشات الثقيلة عبر الإنترنت، لكن لقاءاتنا التالية لم تترك مجالا للشك فى أن الأمر أكبر من ذلك وأعمق. لا أعرف كيف شعرت هى، لم تقُل لى، ربما أخبرَتك. لكن من المؤكد أنها هى الأخرى شعرت بالإحباط وبالفشل. ففى أول الأمر وآخره، تلك هى حياتنا التى كانت تفلت من بين أصابعنا، سنوات قضيناها معا، بكل تفاصيل الزوج والزوجة، بكل حنانهما حين يحتوى أحدهما الآخر، بكل الأسرار التى أفضى بها بعضنا إلى بعض، بكل الضعف الذى كشفه كل منا للآخر. لا أحد يعرف أحدا آخر، ويجهله فى نفس الوقت، مثل الزوجين. حين تقول لك زوجتك إنها تعرفك أكثر مما تعرف نفسك صدِّقها، فهى تراك من حيث لا ترى أنت نفسك. وحين تشعر أن زوجتك لا تعرف عنك شيئا صدِّق نفسك أيضا، ففيك جوانب لا تراها هى أو تفهمها. والحل؟ لا أعرف، ليتنى أعرف، ليت أحدا يعرف، لَسَهَّل علينا كلنا حياتنا.

عادة ما يصل الأزواج إلى نقطة لا يحبون فيها حياتهم دون أن تتشكل بالضرورة جحيما لا يطيقونه؛ بعضهم يتجاهل الأمر ويستمر، وقد ينتهى بهم الأمر إلى أن يعتادوا هذه الحالة التى لا هى باردة ولا ساخنة، لا سعيدة ولا تعيسة. وبعضهم ينتهى به الأمر إلى أن يحبوا حياتهم بشكل جديد. لكنى أنا وأمك تجاوزنا هذه النقطة، وصار بيننا، إضافة إلى هذا الفتور، حالة من عدم الثقة ومن العداء والغضب المتبادل. لكن لا أنا ولا هى تحدثنا عن الطلاق؛ قد نقول أننا تفاديناه من أجلك لكنى لا أظن ذلك صحيحا. أظن أننا فقط لم نرد ذلك الإعلان المدوّى بالفشل، لا أمام الناس ولا أمام أنفسنا .وفى نفس الوقت لم نحاول العودة للعيش معا. استقر اللواء القطان فى بيته ومعه ندا وأنت، وكان ذلك طبيعيا فى البداية بحكم مجيئكم من السفر معا، لكن لا هى سألت عن بيتنا ولا أنا اقترحت عليها الانتقال. بل ظللت على سطح بيت أختى، مع رفيق سكنى عبده، وظلّت زوجة عمك وأبناؤهما فى بيتنا القديم، وهى مع أبيها، وأعفانا ذلك من عناء البحث عن مبرر للانفصال. لكنى كنت أتردد كثيرا عليكما، كى نلتقى أنا وأنت.

ولعلك تذكر هذه الشهور الصعبة، ولقاءاتنا المرتبكة، الصامتة، ومحاولاتك المستمرة للتهرب من لقائى. صدقنى أنى لم أغضب منك، وحين عرفت أنك قلت لابنة عمك لارا إنك لا تحبنى، إنك ترى فىّ أبًا فحسب، لكنك لا تكنّ لى حبا، غضبت من نفسى لا منك، وعلمت أنى قصرت فى حقنا. أنا المخطئ، فلا تلُم نفسك على عدم محبتك لى، أو حتى على الضغينة التى قد تحملها إزائى، فكلنا نحمل ضغينة على والدينا وإن كبتناها. فأخرج ضغينتك فى الهواء ولا تكتمها داخلك؛ فكر فى أسبابها، وتَذكّر أنى مثلك تماما لكنى سبقتك بسنوات ليس إلا، حاولت قدر استطاعتى، وإن كنت قد جرحتك أو أهملتك، فليس هذا لأنى لم أحبك، بل لأنى فقط لم أنتبه بما يكفى، أو لم أفهم بما يكفى. وإن لم تسامح غفلتى فاعلم أنى أسامحك، وأنى أحبك بنفس القدر.

لكنى لا أحب جدك القطان. وحين رأيته لأول مرة بعد عودته ساءنى أن أجده كما هو؛ رقبته الغليظة لم تنحف، سحنته الصفراء كما هى، وخداه اللذان يحمرّان حين يتحدث لم تؤثر فيهما السنين. ظلت نظرته الثاقبة الساخرة التى توترنى كما هى، وظل له هذه السطوة التى للناس الواثقين من صوابهم. تبادلنا التحية بمجاملة يعلم كلانا أنها زائفة، وتحدثنا عن الأحوال العامة، وأبدى سعادته بـ«المركز الذى وصلت إليه»، مضيفا أن لى سمعة طيبة لدى «الجماعة «يجب المحافظة عليها، وفهمت من نظرته أنه يعنى الجيش أو الأمن.
واستمعت فى صبر إلى رأيه فى ما يحدث وما حدث منذ رحيله، وهى كلها آراء فلولية عن الفوضى التى تسببت فيها الثورة، وغباء الإطاحة بأمن الدولة الذى حرم الدولة من أعيُنها وتسبب فى قتل آلاف الأبرياء دون داعٍ، وأن أمن الدولة فى أشرس أيامه لم يقتل سوى عشرة آلاف من الإسلاميين المسلحين لا مائة ألف، لأنهم كانوا يعرفون شغلهم، وكيف أن فوضى الثورة هى التى أدّت إلى كل هذه الدماء، ثم إشادة بشجاعة عزالدين الذى يتحمل أخطاء هذه الفوضى، وأهمية العودة إلى النظام والانضباط لتفادى مزيد من الدماء، وهكذا.

انتابتنى الرغبة فى الرحيل من أمامه فورا، فلم يكن بى طاقة لهذه الآراء. أدرك عبثها وعبث الرد عليها، ومن ثم أقول أقلّ عدد من الكلمات على أمل إنهاء الحديث بسرعة، ثم أتحجج بضرورة الحديث إلى ندا أو اصطحابك إلى مكان ما، وأنصرف من حضرته.

خلال أشهر الاستراحة التى منحنا إياها عزالدين بين يونيو وسبتمبر تم الانتهاء من إعداد الدستور الذى عُرف بـ«دستور 17»، وبغض النظر عما حدث فى ما بعد فإن وثيقة حقوق المواطن التى تَضمّنها ظلت إنجازا رئيسيا لا أعتقد أن أى نظام قادم سيمكنه تجاهل مبادئها أو سَنّ تشريع يناقضها. ورغم الرعب الذى كان سيف محكمة الثورة يبثّه فى قلوب الناس، ورغم جرح حرب السلفيين الغائر، فإن اللجنة الدستورية نجحت فى إجراء سلسلة من المناقشات بطول البلاد وعرضها: فى القرى والمدن الصغيرة، فى الوادى والصحراء، شمالا وجنوبا. استمعت اللجنة إلى آلاف الآراء، وأخذت هذه المناقشات فى الاعتبار وهى تعد المسوّدة الأخيرة للدستور، مما جعل قبوله فى الاستفتاء مسألة مضمونة.

وقد كان. أعلنت القوى السياسية تأييدها لمشروع الدستور الدائم، وتم الاستفتاء عليه فى 1 سبتمبر. وفور الإعلان الرسمى لنتيجة الاستفتاء، أعلن عزالدين فى مؤتمر جماهيرى بميدان التحرير وبحضور ممثلى الائتلاف الحكومى وأعضاء المجلس الرئاسى إقرار الدستور الدائم لمصر، ووقعه أعضاء المجلس الرئاسى فى هذا الاحتفال المهيب، ثم أعلن المجلس الرئاسى توجيه الدعوة لإجراء الانتخابات الرئاسية والتشريعية فى 3 يناير وسط تصفيق حادّ ومتواصل من الجماهير التى احتشدت بالميدان .وكانت هذه هى آخر مرة يشاهَد فيها أعضاء المجلس الرئاسى وممثلو الائتلاف معا.

فى اليوم التالى طرح عزالدين مشروع قانون إصلاح الوظيفة العامة، وفهمت فورا أن الإجازة انتهت وعدنا لاستكمال برنامجه لتصفية أعداء النهضة الذى حدثنى عنه منذ شهور. تضمنت الإصلاحات منح العاطلين عن العمل معاشا قدره سبعمئة جنيه شهريا. فى المقابل، نص مشروع القانون على تخفيض عدد الوظائف فى الجهاز الحكومى إلى النصف خلال العام الأول، ثم الربع خلال العام التالى. قال محمود بشير إن هذا جنون، فمن أين سيعيش هؤلاء الملايين الأربعة وأسرهم؟ وردّ عزالدين بأن البديل هو غرق الاقتصاد وأجهزة الدولة، وأن المشروعات التدريجية للإصلاح الإدارى مضيعة للوقت والجهد والمال ولا يمكن أن تنجح. سيكون الأمر مؤلما لهؤلاء الملايين الأربعة، لكنه سينقذ مصر كلها. أضاف عزالدين أن معظم موظفى الدولة لديهم مصادر أخرى للدخل، وكل من يفقد وظيفته سيجد معاشا أو إعانة بطالة لا تقل كثيرا عن راتبه، ويمكنه البحث عن عمل فى القطاع الخاص أو بدء مشروعه الخاص دون أن يعيق عمل أجهزة الدولة ببطالته المقنّعة .لم يقنع هذا الكلام أحدا غير مؤيدى الإصلاح الجذرى الذين يمثلهم عزالدين، وكان واضحا أن هذا «الإصلاح» لن يمرّ دون معارضة شرسة من نقابات العاملين بجهاز الدولة وحلفائهم اليساريين، وهم أعضاء فى الائتلاف الحكومى. وهو ما يعنى جولة أخرى شرسة من المواجهات .وبدأت أشعر بالتعب؛ البلد كلها تعبت من حربين متعاقبتين فى عام واحد، ودماء غزيرة سالت. ما كان يمكن لأحد تصديق حدوث كل هذا، فما بالك بحدوثه فى أقل من عام؟ وأيا كان الهدف من وراء هذه المواجهات، وأيا كانت سلامة المنطق الكامن خلفها، فإن الناس قد تعبت، وأنا معهم. ذهبت تلك الليلة إلى عزالدين وانتظرت ساعات حتى استطعت مقابلته وقلت له هذا، فنظر إلىّ بهدوء بارد وهزّ كتفه فى لا مبالاة ولم يردّ. لم أحتَجْ إلى أكثر من هذا كى أفهم.

قال محمود بشير إن هذا المشروع جنونى، وحين رأى إصرار عزالدين عليه قال لى إن هذا إعلان للحرب، واستقال من المجلس الرئاسى. انسحبت المجموعات اليسارية معه من الائتلاف الحكومى رغم محاولات عزالدين المستميتة لاستبقائهم، ولم يعد فى التحالف غير الديمقراطيين والإخوان. كانت تلك مقامرة كبرى: فحتى إن نجح عزالدين فى هزيمة النقابات واليسار فستؤدِّى الصعوبات المعيشية الناتجة عن مشروع الإصلاح إلى خسارته للانتخابات. من ناحية أخرى، فإن القضاء على اليسار سيترك الديمقراطيين وحدهم أمام الإخوان والعسكريين. قلت هذا الكلام لعزالدين، وحذرته من أنه قد يقع ضحية نجاحه وينتهى الأمر باتفاق العسكر والإخوان ضده، فلم ينكر الخطر.

دخلنا فى مناقشات مطولة حول أفضلية هذا السيناريو على الحلول الأخرى، وكان رأيه هو ومعاونيه من الشباب الديمقراطى أن كل السيناريوهات متشابهة الخطر والفائدة، لكن الإصلاح واجب وطنى، وأولوية.

وقّع المجلس الرئاسى مشروع القانون فى منتصف سبتمبر وسط احتجاجات عارمة نظّمتها النقابات والأحزاب اليسارية التى أطلقت يد أنصارها فى معارضة عزالدين وحكومته. قال لى عزالدين إن الأمر يبدو كأنه انتقام شخصى من محمود، الذى شعر بأنه كان أسيرا لديه طوال الفترة السابقة. كان فى هذا الوصف جانب من الصدق، لكن كانت هناك أيضا الانتخابات الوشيكة، ومن المنطقى أن تحاول كل كتلة توسيع وتقوية قاعدة تأييدها فى الشارع تمهيدا للانتخابات. أما لماذا لم ينتظر عزالدين حتى نهاية الانتخابات فأمر آخر؛ كان يعمل كأنه ليس لديه يوم آخر، ولست متأكدا مما إذا كان هذا بسبب الزخْم الثورى الذى يدفعه وأنصاره أم فقط، نتيجة افتقاره إلى الصبر. كلما سألته ردّ علىّ بأنه لا يملك الوقت ليضيعه فى الانتظار، حتى كففت عن سؤاله.

لم يُلق عزالدين بالا لتحذيراتى ولا للاحتجاجات الواسعة. وبدأ الإصلاح بإنهاء عقود العمالة المؤقتة بالكامل، بما فيها المعينون بعقود منذ سنوات .وحين اعتصم الموظفون وأغلقوا مداخل ومخارج الأجهزة الحكومية ألقت قوات الشرطة القبض عليهم لمخالفتهم قانون الاحتجاجات الذى تم إقراره من قبل، والذى يقضى بعدم جواز قيام المضربين عن العمل باعتراض طريق غير المضربين .كما أن المعتصمين كانوا دائما ما يخرقون القانون بشكل أو بآخر، بالاعتداء على أحد كبار الموظفين أو بتحطيم باب أو جدار، فتنقضّ عليهم الشرطة وأحيانا قوات الانتشار وتشحنهم جميعا إلى السجن

الحلقة الحادية والخمسون

ألقى عزالدين بآلاف المضربين فى السجون. لم يتعرض أحد منهم لسوء معاملة، بل ظلوا جالسين فى الحبس الاحتياطى فى انتظار التحقيق معهم فى التهم المنسوبة إليهم. لكنه أوقف مرتباتهم بسبب إضرابهم عن العمل أو تسريحهم، فقطع بذلك أرزاقهم تماما وأنهك قدرتهم على المقاومة. وكلما صعّدت النقابات الإضرابات ألقت الشرطة القبض على مزيد، وإذا قاوم المعتصمون الشرطة تدخلت قوات الانتشار. وبنهاية نوفمبر خمدت الإضرابات والاعتصامات التى نظمتها النقابات داخل المصالح الحكومية، لكن الغليان الشعبى استمر، وغذّاه وقاده أحزاب اليسار. وهنا وجّه عزالدين ضربته القاصمة إلى صديقه وحليفه القديم والكتلة التى يقودها.

فى أول ديسمبر ألقت الشرطة القبض على محمود بشير بتهمة الفساد وتسهيل الاستيلاء على المال العام من خلال شركة الإنتاج التى تملكها شريكته السابقة سالى القصبجى. لم أعلم بالخبر إلا من وسائل الإعلام، وصُدمت .حاولت الاتصال بعزالدين لمدة يومين ولم أفلح، فاتصلت بأسماء ووجدتها منقبضة وعازفة عن الحديث. كانت جرائم الفساد من اختصاص محكمة الثورة اللعينة، ولم أصدق أن ذلك تم بمعرفة عزالدين؛ لا يمكن أن ينحدر إلى هذا المستوى، لا بد أن هذا مِن فعل الشباب الذين ملأ بهم مكتبه. ولم يجدوا غير سالى القصبجى مرة أخرى؟! ألم يُسعِفهم خيالهم بطريقة أفضل لمحاربة محمود؟! وقبل أن أستطيع الحديث إلى عزالدين كانت بكرة الفضيحة قد بدأت تكر :عادت إلى السطح قضية تنظيم الدعارة الذى تورطت فيه سالى، ثم ورد اسم ميرفت باعتبارها الفتاة التى خصّصتها سالى للترفيه عن محمود مقابل توسطه لتسهيل حصولها على تسهيلات ائتمانية. ثم تم القبض على ميرفت وسالى باعتبارهما شريكتين فى جرائم ضد الثورة. وهنا تسربت أنباء أخرى عن علاقة عزالدين نفسه بميرفت، وظهرت على الإنترنت تسجيلات صوتية تتحدث فيها ميرفت مع سالى عن اكتشاف زوجة عزالدين لعلاقته بها وطردها من خدمتهما، ثم تناثرت إشاعات أخرى عن إعدام حسن أخى ميرفت، وتم ربط ذلك بعلاقات أخته المريبة، وامتلأت الإنترنت بقصص وإشاعات لا حصر لها فى نفس هذا الاتجاه.

كان ما يحدث كارثة، لكنها كانت كارثة تنبئ بأن كارثة أكبر على وشك الوقوع، وحين رأيت عزالدين وجدته صامتا، وفى عينيه إصرار بارد ومخيف. لم يبتسم، بل افترّ ثغره عن حركة تشبه الابتسام كأنها تقلص فى عضلات الوجه، وربت على كتفى وهو يردّد أنى أزعج نفسى بما لا داعىَ له .سألته عما سيفعل فقال إن محمود قد أسقط الحواجز وأصبحت الحرب الآن مفتوحة، لكنه سيحاول قدر الإمكان احتواء الموقف، فهو لا يرغب فى التصعيد ويجد كل هذا صبيانيا .رجوته أن لا يترك الأمر لمحكمة الثورة، ولا يطلق العنان لغضبه، فربَّت ثانية على كتفى وطمأننى أن محكمة الثورة لن تفعل شيئا لمحمود، ولكنها ستضمن احتجاز كل هؤلاء اليساريين أطول فترة ممكنة إلى حين تجاوز مرحلة الإضرابات التى تهدد بشلّ اقتصاد البلد كلها والعودة إلى سيناريو الفوضى .أبديت تفهُّما لصعوبة الظرف، لكنى رجوته أن يقاوم ميله للذهاب حتى نهاية الطريق. أومأ إلىّ مطمْئِنا، وقبّلنى على وجنتى وودّعنى .خفت أكثر، فلم يقبّلنى عزالدين على وجنتى منذ عشرين عاما على الأقل.

مع القبض على محمود بشير ارتفعت حدة المظاهرات التى تنظمها أحزاب وجماعات اليسار، وانضمّ إليها بعض الشباب الديمقراطى الذى بدأ ينزعج من القبضة الحديدية لعزالدين وحرسه الحديدى. وردّ عزالدين بتوسيع المواجهة، فقامت قوات الأمن بحملة من الاعتقالات ضد كل مجموعات اليسار شملت الاشتراكيين الثوريين والثوريين الاشتراكيين والتروتسكيين ونقابيين وآخرين، كلهم بتهمة التحريض ضد الطابع الجمهورى للدولة. كانت تلك عملية تصفية كاملة تشبه تصفية السلفيين لكن دون قتال: تأتى بلاغات مجهولة وغير دقيقة للشرطة عن نشاط يستهدف الطابع الجمهورى للدولة، يعقبها اعتقالات .يكفى أن تكون قد حضرت اجتماعا لإحدى هذه المجموعات أو أسهمت فى تنظيم مظاهرة أو فاعلية كى ينتهى بك الأمر فى السجن وبملفك على منصة قاض من قضاة محكمة الثورة. لم يترك عزالدين أحدا ممن يستطيع تنظيم إضراب أو اعتصام إلا اعتقله. استمرّت بعض المظاهرات، لكن الأعداد قلّت كثيرا.

رأى عزالدين وأنصاره فى ذلك بداية الانتصار، لكنهم كانوا مخطئين. فقد انتشر عدم الرضا، لا بسبب القبضة الحديدية وممارسات القمع التى تشبه أيام ما قبل الثورة فحسب، بل أساسا بسبب تدهور الظروف المعيشية، وبحدة، لقطاع كبير من الشباب الذى كان يعمل فى الحكومة بعقود مؤقتة. وانضمّ إلى موجة السخط هذه قطاع أوسع، من الموظفين الذين يعرفون أن الدور آتٍ عليهم خلال شهور. وأيا كان المنطق الاقتصادى أو الإدارى الذى يتحدث عنه عزالدين ووزراؤه، فإن الحقيقة الماثلة أمام أعيُن هؤلاء هى قرب فقدانهم لوظائفهم التى ظنوها آمنة، وللعالم الذى يعرفونه. وسريعا، تَعمّق هذا السخط وامتد ليشمل بقية قرارات عزالدين. وتذكر الناس فجأة أحكام الإعدام التى نُفّذت فى حق أناس من النظام السابق لم يكونوا كلهم مذنبين، والسائقين المعتصمين الذين سقطوا على الأسفلت برصاص الحرس الحديدى، والسلفيين الذين لحقوا بهم، وبدأ السخط يتحول إلى غليان.

رأيت كثيرا من التقارير الأمنية التى تشير إلى تنامى هذه الحالة، وأعلم أن عزالدين رآها وقلل من أهميتها. اتصل بى اللواء حامد وحادثنى فى الموضوع، وذهبت لزيارته واستمعت إلى شرح منه ومن بعض مساعديه، ورجونى شرح الموقف لرئيس الوزراء ومحاولة إقناعه بالتهدئة أو تأجيل »إصلاحاته «الإدارية، أو على الأقل إعلان تأجيل الجزء الثانى منها والاكتفاء بفصل العمالة المؤقتة. وقد حاولت كل ذلك وفشلت. قال عزالدين إن جهاز المخابرات العامة يبالغ، وإنهم لا يريدون نجاحه فى هذه العملية لأنها ستزيل من أمامه آخر العوائق وهم يريدون إبقاء كل شيء كما هو ليستمروا فى السيطرة على الأمور. لم يبدُ قلقا، على الإطلاق، وحين رجوته التهدئة على الأقل حتى تمر الانتخابات الرئاسية والتشريعية قال إن الشعب سيختار فى هذه الانتخابات ما إذا كان يريد الإصلاح الحقيقى أم لا، وإن كان الشعب يريد التهدئة فلينتخب شخصا غيره.

لكن الشعب لم ينتظر الانتخابات، وانفجر الغليان فى منتصف ديسمبر. لم تكن المظاهرات التى اندلعت منظمة من قِبل قوى اليسار، فهذه كلها كانت تقبع فى السجن فى ذلك الوقت. بل كانت فى معظمها عفوية، ربما ساعد اليساريون والإخوان فى تأجيجها، لكنها كانت فى معظمها عفوية. وسرعان ما تحولت المظاهرات إلى عاصفة كبرى من الاحتجاج. وبدا كأننا عدنا سنوات إلى الوراء؛ إلى يناير 2011. واصل اللواء حامد نصح عزالدين بتقديم تنازلات، لكنه رفض .وبعد التشاور المطول مع الشباب الديمقراطى قرر الصمود والمواجهة . لم يقتنع عزالدين وأنصاره أن هذه المظاهرات تعكس غلياناً شعبيا واسع النطاق، بل ألقوا باللائمة على اليسار والإخوان. وفى الخامس عشر من ديسمبر بدأت القوات الخاصة عمليات القبض على قادة المتظاهرين بحجة انتهاكهم قانون الاحتجاجات، ووقعت مصادمات عديدة بين قوات الأمن والمتظاهرين راح ضحيتها تسعة قتلى. ثم انضم العديد من الشباب الديمقراطى أنصار عزالدين للمواجهات، وتدهور الموقف أكثر. وكردّ فعل أعلن الإخوان انسحابهم من الائتلاف الحكومى، فاشتعلت المظاهرات أكثر. وبدا واضحا أن حكومة عزالدين فى طريقها إلى السقوط...

لكنها لم تسقط. قال عزالدين إن هذه المظاهرات التى تتمّ قبل الانتخابات الرئاسية والتشريعية بأقل من شهر ستؤدّى إلى إجهاض الانتقال الديمقراطى، وهو ما لن يسمح بحدوثه، وإن القوى المستفيدة من مثل هذا الإجهاض هى قوى الاستبداد التى تتأهب للانقضاض على الثورة، ولن يستسلم لهم. ومن ثم أعلن حالة الطوارئ لمدة ثلاثة أشهر وتأجيل الانتخابات إلى حين عودة الهدوء أو نهاية فترة الأشهُر الثلاثة أيهما أقرب. لكن الناس استقبلت خطابه هذا بالسخرية، وسمّوه «خطبة الإجهاض»، وبدأت المظاهرات تطالبه بالاستقالة وتشكيل حكومة وحدة وطنية. شكّلنا غرفة طوارئ شاركت فيها الأجهزة المعنية بالدولة وممثلون عن الكتلة الديمقراطية التى لم يبقَ سواها فى الحكومة، وفى كل اجتماعاتنا قال عزالدين إنه لن يسمح تحت أى ظرف بالعودة إلى حالة عدم الاستقرار الحكومى التى سادت مصر لأربع سنوات، وإنه مستعد للخروج فور إجراء الانتخابات، لكنه لن يتراجع عن أى من إصلاحاته قبلها .واستمرت قوات الأمن فى حملات القبض على من تعتقد أنهم قادة المظاهرات، وبعضهم من جماعة الإخوان، لكن تعليمات عزالدين بتجنب الصدام مع الإخوان ظلت قائمة.



وجدت اللواء حامد قلقا أكثر من المعتاد، وأسرّ إلىّ بأن الأمور على وشك أن تفلت من السيطرة، وكنت أعرف مدى حرص هذا الرجل ودقته فى اختيار ألفاظه فانتقل قلقه إلىّ. لكنى لم أفلح فى نقله إلى عزالدين.

وفى العشرين من ديسمبر أصدرت محكمة الثورة أحكاما بالإعدام على سبعة من قادة «محاولة إجهاض الجمهورية»، وعلى رأسهم محمود بشير.

الحلقة الثانية والخمسون

فى البداية لم أصدِّق الخبر. وحين أرانى عبده إياه ظللت لوهلة أحدق فى الورقة التى مد يده بها دون أن أرى الجملة التى تنصّ على إعدام محمود بشير. ثم رأيتها، ثم قرأت نص الحكم بأكمله، ووجدت أن سالى القصبجى من ضمن المحكوم عليهم بالإعدام، كما حكمت المحكمة على ميرفت بالسجن لمدة عام .بقيّة المحكوم عليهم كانوا مجرد أسماء بالنسبة إلى ولم أقابل أحدا منهم فى حياتى، لكن لا يساورنى شك فى أنهم بمثل درجة «ذنب» محمود وسالى. كان هذا جنونا محضا. نظرت إلى الورقة، وكل ما استطعت التفكير فيه أن عزالدين قد فقد عقله.

لم أنبس بكلمة، بل توجهت مباشرة إلى مكتب رئيس الوزراء، وبالطبع لم أجده، وظللت أطارده من مكان إلى آخر حتى عثرت عليه فى بيته. قال الحرس إنه بالداخل، وقابلتنى أسماء ودعتنى للجلوس معها حتى ينتهى من مكالمات يُجريها بغرفة المكتب. سألتها إن كانت قد سمعت بالخبر فأومأت إيجابا وجلست صامتة .سألتها عن معنى ما يحدث، فدمعت عيناها ثم أشاحت بوجهها وجففتهما، وعادت تنظر إلى وهمّت بالحديث. ثم صمتت. بلعَت ريقها، وحين تكلمت جاء صوتها غريبا ومتقطعا. قالت إنها لم تعُد تعرف ماذا يمكنها فعله، فمنذ شهور وعزالدين لا يستمع لها، منذ ما قبل حرب السلفيين. تتكلم ويتهدج صوتها ثم تصمت، وتعاود الكلام. قالت إن الجزء القاسى فيه قد استولى على بقيته، ولم يعد عزالدين القديم يظهر إلا فى لحظات قليلة: وهو يفتتح مدرسة ويتحدث مع طفلة، أو يدشن مشروعا للسكن لمحدودى الدخل، تلك الأشياء التى يفعل ما يفعله من أجل تحقيقها، أو ما يظن أنه يفعل ما يفعله من أجل تحقيقها. سألتها إن كانت لم تعُد تصدقه فبكت، وقالت إنها لم تعد تعرف، لم تعد تعرف الصواب من الخطأ ولا الحقيقى من المزيف ولا تعتقد أنه هو نفسه يعرف. ضاعت الحقيقة، قالت، أو ربما لم تضع لكنها لم تعد مهمة؛ المهم هو هذا، وأشارت إلى حكم المحكمة، وهؤلاء القتلى، وكل هذه الدماء. انهارت باكية، ووقفتُ عاجزا لا أعرف ماذا أفعل وأنا فى بيتهما وهو بالداخل وهى ترتجف وتشهق من البكاء. مرّت خادمة فى آخر الصالة ثم قامت أسماء ودخلت، وجلستُ وحدى أنتظر.

جاء عزالدين بعد قليل مرتديا روبا بيتيا أزرق اللون ويبدو عليه هدوء وسكينة الرجل الجالس فى بيته بعد الظهر يستريح. نظر إلى فى ترحاب ممزوج باللوم والترقب لمعرفة ما أتى بى هكذا بلا موعد ولا اتصال. جلس أمامى ونظر مستفسرا فى ودّ لكن دون ابتسام. أشرت إلى حكم المحكمة فهز كتفيه وسألنى عما أريد منه فعله. وبعد حوار قصير بدأ عزالدين يشرح ما جرى فى نفاد صبر وغضب، كيف تآمر محمود عليه منذ شهور، وحاول إسقاطه وحكومته ومشروعه لإعادة بناء مصر من أجل حسابات انتخابية ضيقة. وكيف حاول هو احتواءه طوال هذه الفترة، وفضّل استبقاءه فى الرئاسة علما بأنه كان يستطيع التخلص منه فى أى وقت، لكن محمود لم يكن يرى سوى نفسه ومجده الشخصى... قاطعتُه سائلا إن كان أى من هذا يوجب إعدامه، فرد عزالدين بأن هذا حكم محكمة الثورة، وهو شخصيا كان يفضل الاكتفاء بسجنه لفترة طويلة... فقاطعته مرة أخرى مستنكرا كل هذا: ألا يكفى إخراجه من المجلس الرئاسى؟ فضحك عزالدين ساخرا، وربت على ركبتى عدة مرات وهو يقول إنه يحسدنى على احتفاظى ببراءتى هذه رغم السنوات ورغم ما مررنا به.

استُغرق فى رواية تفاصيل المؤامرات التى حاكها محمود: مع العسكر، ومع الإخوان، ومع النقابات، وكلها مؤامرات دنيئة تهدف إلى تحطيم ما بناه هو وأنصار الثورة خلال سنوات، لا لشىء إلا ليعود محمود زعيما. ثم دخل فى تفاصيل موضوع سالى، وميرفت، وادّعى أن محمود لطّخ سمعته، هو البرىء، وأوشك على تدمير علاقته بأسماء وهدم بيته بقصص مختلَقة عن علاقته بميرفت، وهكذا .كنت أعلم أنه غير محق على الأقل فى هذه النقطة، لكن ماذا أقول له. ظللت أحاول إيجاد مخرج لمحمود، ثم استعطفته، لكنه لم يَلِنْ. قال إن ما يجرى الآن معركة حياة أو موت؛ إما تنجو الديمقراطية وتنتقل مصر إلى مصافِّ الدول والمجتمعات الطبيعية، وإما تسقط مرة أخرى فى البئر التى يحاول إخراجها منها.

وفى سبيل إنقاذ مصر، لن يتوقف أمام حياة سكير منحلّ لا هم له إلا ذاته المتضخمة. قال ذلك، وهمّ واقفا، متحججا بموعد لديه. قام ومضى نحو الطابق الأعلى حيث غرفته ليغير ملابسه. وراقبته وهو يسير نحو السلم وقلبى يوجعنى من الألم، وكانت هذه آخر مرة رأيته.

قضيت المساء أحاول زيارة محمود فى سجنه، لكن مدير مصلحة السجون رفض التصريح لى قائلا إن الأمر يتطلب إذنا من محكمة الثورة نفسها، وبالطبع كان ذلك يقتضى موافقة عزالدين. حاولت من خلال مكتبه، ومن خلال أسماء، وظلوا يقولون لى إنهم يحاولون الحصول على الإذن، لكن الوقت مرّ دون أن يصدر . اتصلت باللواء حامد وطلبت مساعدته، ولو بصفة شخصية، فى التصريح لى برؤية محمود، لكنه لم يستجِب، بل دعانى إلى التخلى عن الفكرة قائلا إنها ستكون قاسية أكثر من اللازم على وعلى محمود، خصوصا أن عزالدين قد اعتمد الحكم وسيجرى تنفيذه فى الصباح. صُدمت مرة أخرى: بهذه السرعة؟ قال اللواء حامد إنه فى مثل هذه الأحوال يُستحبّ عدم إضاعة الوقت كيلا يتحول الموضوع إلى مادة للإثارة السياسية. كدت أنهار وأنا أحدثه، ولم أعد أجد الكلمات لوصف غضبى واشمئزازى من هذه القسوة غير المبررة، فغلبنى الصمت من حنقى، واللواء حامد على الجانب الآخر من الخط يدعونى إلى قبول الأمر الواقع، فهذه سياسة، ومحمود هو الذى صعّد الموقف إلى هذه النقطة، وعزالدين لا يستطيع التراجع بعد كل الدم الذى سال، ولا تحمّل نفسك فوق طاقتها، وعُد إلى بيتك واسترح ونَم قليلا. قال هذا فعلا، قال لى أن أعود إلى بيتى وأنام ريثما يشنقون صديقنا المشترَك.

لم أعد أعرف ماذا يمكننى فعله، وظللت أنا وعبده نجوب الشوارع ليلا دون وجهة محددة، صامتين، ثم عدنا إلى البيت. وبالطبع لم أنَم. ظللت بين فراشى وبين المكتب والوقوف فى برد السطح والتطلع إلى السماء. أوجعنى قلبى حتى شعرت بألم حقيقى فى صدرى، والعبرات تخنقنى لكنها لا تأتى وتريحنى. لا شىء يزيح مثل هذا الهمّى عن الصدر. لكنى فى وسط الحزن والعجز والرثاء لنفسى ولأصدقائى ولكل ما حدث شعرت أنى أرى شيئا لم أرَه من قبل. فجأة أحسست بجدية ما يجرى؛ ليس هذا لعبة نلهو بها ثلاثتنا، ليس حلما أو مشروعا نجرّبه وننجح فيه أو نفشل. فجأة شعرت أن هذا قتل حقيقى، وصراعات جدية، ودماء بشر تسيل . ستسألنى إن لم أكن قد فهمت هذا من قبل، حين سقطت الآلاف قتلى، وأعترف لك أنى لم أفهم إلا ساعتها، حين كان صديقى فى طريقه لحبل المشنقة. كان الباقون بالنسبة إلى أرقاما، أما هذا فلا. ساعتها شعرت أن عزالدين قاتل، لا صديق حالم يحاول تحقيق حلمه بوطن أجمل ويواجه أشرارا يحاربونه ويحاربهم. تبا له ولحلمه، ولأصدقائه وأتباعه وكل من أسهم فى عمله الدموى. ساعتها فقط أحسست بحقيقية كل هذا القتل، ولا أدرى ما الذى أخّرنى إلى هذا الحد. ساعتها شعرت بغضب عميق إزاء عزالدين، ونمت من الإعياء وهذا الغضب يتراءى لى أحلاما مزعجة.

عندما استيقظت كانت الساعة التاسعة والنصف، وعلمت من عبده أن الحكم تمّ تنفيذه فى الثامنة. وران صمت عميق على مصر كلها. حتى المظاهرات توقفت ولزم الناس بيوتهم، كأنهم لم يصدقوا أن عضو المجلس الرئاسى ورئيس الوزراء السابق وزعيم التيار اليسارى قد أُعدِمَ. هل هذا هو الأثر الذى أراد عزالدين إحداثه؟ ربما، فقد انتشرت الشرطة فى كل الميادين وأماكن التجمع الفارغة واحتلتها، وأقامت الحواجز للحيلولة دون عودة المتظاهرين إليها. وظلت الأمور هادئة صامتة لعدة أيام، حتى رأس السنة الميلادية مر دون احتفال. شخصيا لم أغادر بيتى، ولم أذهب أو أتصل بالمكتب. لم أكن أستطيع رؤية عزالدين أو الحديث إليه؛ ستفضحنى عيناى. لكن الصمت لم يدُم سوى أسبوع. وفى 3 يناير، موعد الانتخابات الأصلى، عادت المظاهرات من جديد. ولم تسعف ساعتها تحصينات الشرطة فى شىء، وظلت المظاهرات تكبر دون توقُف، واشتبكت مع قوات الشرطة، وسرعان ما فقد المتظاهرون سلميتهم...

استمرت المواجهات العنيفة ستة أيام، فى اليوم الرابع كفّت الشرطة المحلية -معقل نفوذ عزالدين وأنصاره- عن محاولة منع المظاهرات أو تفريقها مكتفية بحماية الأحياء والمنشآت العامة من التخريب. وفى اليوم الخامس توقفت قوات الانتشار عن التدخل، ولم يعد هناك من يواجه المتظاهرين سوى الشرطة الجنائية، وهى غير مؤهلة لفض التجمهر أو التعامل مع المتظاهرين مما رفع عدد القتلى من الجانبين. وبعد يوم واحد من انسحاب قوات الانتشار أعلن عضو المجلس الرئاسى الوحيد المتبقى عن إحالة عزالدين فكرى إلى محكمة الثورة بتهمة تهديد الطابع الجمهورى للدولة.

كتب كثيرون فى تحليل هذه الأيام وتفسير خلفية هذا القرار الانقلابى. ولا أعرف شخصيا التفاصيل من قُرب، حيث كنت معتكفا فى منزلى طوال هذه الأيام .قيل إن العسكر اتفقوا مع الإخوان ضده، وهذا مؤكد. لكن من المستحيل فى رأيى نجاح اتفاقهما دون موافقة ولو ضمنية من جانب الديمقراطيين أنفسهم. لا أعتقد أن أحدا كان يمكنه الإطاحة بعزالدين لو دافع عنه أنصاره الديمقراطيون، خصوصا الحرس الحديدى وقضاة محكمة الثورة الذين شكّلوا قوته الضاربة. ومما يؤكد لى ذلك أن قلة من القيادات الشبابية الديمقراطية -أنصار عزالدين -أُطيحَ بها معه. فباستثناء عدد محدود من المقربين له والعاملين بمكتبه، لم يتعرض أحد لأنصاره، بل وتراهم اليوم فى صدارة المشهد السياسى. هل تعبوا هم أنفسُهم من عزالدين وقبضته الحديدية فسلّموه لخصومه؟ هل استخدموه من البداية فى أداء المهامّ الصعبة نيابة عنهم بحيث يتخلصون منه عند إتمامها ويتولون القيادة دون تحمّل ذنب الماضى؟ أم أنهم اضطرُوا تحت ضغط تحالف الإخوان والعسكر وقرروا المهادنة لإنقاذ معسكرهم السياسى من مواجهة قد تكلفهم شعبيتهم؟

لست متأكدا، لكن دعنى أكمل قصتى وسأعود إلى هذا لاحقا إن تبقى لدى وقت .أحيل عزالدين إلى محكمة الثورة التى نظرت قضيته فى جلسة عاجلة ومغلقة، وحكمت عليه بالإعدام شنقا، ونُفذ فيه الحكم بعدها بثلاثة أيام، ودُفن فى مقبرة متواضعة بطريق الفيوم.

الحلقة الثالثة والخمسون

شعرتُ أن حياتى شارفت على نهايتها. فى أقل من شهر، قُتل أقرب صديقين لى، فى ظروف بالغة الظلم والبشاعة، وكلاهما بيد الآخَر، تقريبا. وقُتلت وسُجنت امرأتان قريبتان منهما ومنى، فى نفس الظروف.
وانهار معهما عالمى كله؛ لم يكن لى حياة شخصية منذ ماتت علاقتى بأمك وقتلتُ أنا علاقتى بنور .لم أكن مهتما بجاه أو مال، واستعضت عن الحياة الشخصية بدورى فى قلب الدولة الذى كبر حتى صار جزءا من مشروع كبير لإعادة بناء وطن ومجتمع، ثم صغر حتى صار مجرى من الدم الملوث بالفساد والمؤامرات.
هرمتُ، فى قلبى وفى نظرتى، بل وأظن أن الانحناءة التى أصابت ظهرى حدثت لى فى هذه الأيام. هل توجد كلمة تصف الشعور بالاختناق، والحزن العميق، والفقد، والضياع معا؟ ربما الفجيعة هى الأقرب، ومعها إحساس أنى خُدعت، فى كل شىء صدّقته وعملت من أجله. ومعها شعور أن العالم ملىء بالشر والقبح وعديمى الإنسانية، وأن الباقى سُدى.

ولأن رحمة الله واسعة فقد عادت صفية إلى مصر فى هذه الأيام، فاحتضنتنى .وانتبهت ونحن ومتعانقان أنى لم يحضنِّى أحد منذ وقت طويل جدا. وتذكرت نور وغالبت دموعى، وضحكَت صفية وهى تدمع هى الأخرى وقالت ساخرة إننا صرنا رومانسيِّين. كنت أبكى حالى، وأفكر فى نور، ففيمَ يا تُرى كانت تفكر هى؟ وانشغلت معها فى ترتيب أحوالها وأحوال أبنائها. ظل إبراهيم زوجها بإيطاليا ليدير عمله من هناك، وقررت هى العودة مع الأولاد، على أن يأتى لزيارتهم من وقت إلى آخَر. لم أسألها إن كان بينهما أمر ما، مكتفيا بالسعادة التى يسبغها على وجودها هى وأبنائها. طلبَت منى البقاء بالمنزل، وقررت الاحتفاظ بعبدُه، ووافقتُ لكن عبده لم يشعر بالراحة وأصرّ على الرحيل. حاولت قدر الإمكان ثنيه عن ذلك لكنه تَمسّك برغبته. ظننت أنه غاضب منى بسبب ما حدث لميرفت ومن قبلها حسن، لكن اتضح أن هناك أمرا آخر، أكثر بهجة من ذلك. غادر عبده، متخذا لنفسه سكنا مستقلا فى شقة صغيرة فى إسكان الشباب بالتجمع الأول بحيث يكون على مقربة منى وأيضا على مقربة من خديجة وأبنائها، وحيث إنى استمررت فى التغيب عن المكتب فقد انتهز هذه الفرصة لقضاء أوقات أطول مع عائلة خديجة وفى مساعدة أختى وأبنائها، وسرعان ما أحبوه مثلما أحبّته خديجة وبناتها، وصار كأنه واحد من العائلة.

فكرت كثيرا فى أسماء، لكنى لم أجرؤ على زيارتها أو الاتصال بها .تَكَفّل عبده بذلك، وقال لى إنها بخير؛ خصصوا لها حراسة لائقة وتركوها فى حالها. لم يكن لها عائلة بمصر، ولا أصدقاء فى من أعرف. وكان الواجب يدعونى إلى الاتصال بها والسؤال عنها لكنى لم أقوَ على ذلك. طلبت من عبده، مبعوثى للشؤون الإنسانية الصعبة، الاطمئنان عليها من حين إلى آخر، وابتلعت شعورى بالذنب وسكتّ.

كنت أعلم أنه يتوجب علىّ العودة للعمل، أو الاستقالة، أو على الأقل طلب إجازة، لكنى ظللت أؤجل الأمر.
أريد بعض الراحة، أريد أن أطفئ النور وأنام، لسنة أو سنتين، دون أن يزعجنى أحد. زهدت فى كل شىء : الحكومة والدولة والديمقراطية والحرية وكل هذا. كل هذا هراء وعبث وموت. ولم أعد أريد منه شيئا. كل ما أبغيه هو بعض الراحة. لكن أين أجدها هذه الراحة؟ أريد الفرار من السياسة وأهلها وتوابعها، لكن إلى أين؟ تذكرت نور طبعا، ورأيها فى انعدام جدوى العمل بالسياسة. لكن إلى أين نذهب إن نبذنا السياسة؟ أين نختبئ؟ هل تنجو هى من السياسة، هى ومسرحها المتنقل بين القرى والنجوع، أم تتظاهر فقط بأنها لا ترى السياسة وتوابعها على حياتها كل يوم؟ وحين ترتطم بها، أين تذهب؟ للتمثيل؟ هل هذا هو الحلّ: أن نعيش كلنا فى عالم متخيّل، بين قوسين، بين ستارَى الافتتاح والنهاية؟ لن أنجو من السياسة وتوابعها ولو أغلقت علىّ بابى؛ ستجىء إلىّ وإن لم أذهب إليها. لا يوجد مكان محايد، لا يوجد ملاذ.

كنت حزينا ومصدوما حتى النخاع. فكل من محمود وعزالدين كان أخا لى، وأكثر. كان عزالدين قرينى كما يقول الفراعنة، كأنه أنا آخر، اختلفنا فى شخصياتنا لكننا تشاركنا فى كل شىء آخر تقريبا: كبرنا معا وأحببنا نفس الأشياء وحلمنا بنفس الأشياء واعتنقنا نفس القيم والأفكار .وحين حدث ما حدث انهارت ثقتى فى كل هذا الذى تشاركناه، فى أحلامنا وقيمنا وأفكارنا .انهار البناء الذى أستند إليه، وظللت عالقا هكذا وحدى فى فراغ.

لُذت بالصمت، فلم يعُد عندى ما أقوله، لم يعُد عندى أجوبة على أى من الأسئلة التى يواجهها المرء فى يومه. هل هذا جيد أم سيئ؟ هل يجب تأييد هذا أم ذاك؟ هل تختار هذا أم ذاك؟ لم أعُد أدرى كيف أختار. ما أدرانى ما سوف يقود إليه هذا الاختيار؟ لعل القطان على صواب، لعل خبرته بالناس والنفس البشرية أصدق، ولعل كل ما آمنت به مجرّد نظريات لا تتفق وطبائع البشر فى الحياة الحقيقية. كلام كتب عن الحرية وعن المساواة، أما فى الواقع فينتهى الأمر بالناس وهى تتقاتل على النفوذ والسيطرة. لعل الإخوان على حق، ولا يمكن ترك كل شيء للإنسان كى يقرره. من قال إن المساواة بين البشر ممكنة؟ من قال إن العدالة ممكنة؟ ومن قال إن الإصلاح الاجتماعى ممكن؟ إن رضى الناس بالفوضى، أو بالظلم، أو بالتمييز فى ما بينهم، أو بالتدهور فى أحوالهم، فلِمَ يأتى أحد ويحاول تغيير هم رغما عنهم؟ لعل هذه هى طبيعة البشر كما يقول هذا المعسكر وذاك، ومَن أنا كى أعارضهم، أنا الذى انتهت معتقداته وأفكاره إلى اقتتال الإخوة حتى آخر نفس فيهم؟ صحيح أن الناس يطالبون بالحرية والمساواة والإصلاح، لكن ربما كانت هذه المطالب -كما يقول اللواء القطان- مجرد كلام يقوله الناس للتسرية عن أنفسهم دون أن يكونوا على استعداد لدفع ثمنها. قد يكون هذا هو الأمر: ليس الناس على استعداد لدفع ثمن ما يطلبونه، وسواء كانوا يعلمون بذلك أو لا فالواجب يقتضى عدم الاستجابة لمطالبهم، حماية لهم، والتظاهر بالعمل على الاستجابة لهم كيلا يشعروا بالإحباط. هى لعبة من التظاهر المتبادَل بين الحاكم والمحكوم، كما يقول القطان، مثل الوفاء والخيانة الزوجية، مطلب لا بد منه غير قابل للتحقيق، وشر لا بد منه، ومن إنكاره.

لم أجد ملاذا، لكنى اخترت الاختباء داخل فقاعتى الخاصة ولو مؤقتا. قضيت الشهر الذى تلا مقتل عزالدين ومحمود فى العناية بك، وبصفية أختى، وبيتها، وخديجة، وأبنائهما. هذا هو الشهر الذى كنت آتى فيه كل صباح لاصطحابك لقضاء اليوم مع العائلتين المجتمعتين. ولا أدرى إن كنتُ أتخيل أم أنهم بحكم إقامتهم الطويلة فى إيطاليا صاروا يشبهون فى تجمعهم مشهدا من الأفلام الإيطالية، بالمائدة الخشبية الطويلة الممتدة فى حديقة منزل صفية، عامرة بشتى أنواع المأكولات والمشروبات التى أعدتها المرأتان الصديقتان المتنافستان، والعائلتان من حولهما يأكلون ويتحدثون ويتشاجرون ويتصالحون وتتصالح، والأبناء من كل الأعمار يقومون ويجْرون ويرجعون، وكل أم ترمق أبناءها وسلوكهم وأكلهم وملابسهم والطعام وتقارنهم بأبناء الأخرى، والكل يتحدث ويضحك ويتشاجر فى نفس الوقت، وعبده ينضمّ أحيانا إلى هذا المولد ويختلس نظرات إلى خديجة التى تتظاهر بأنها لا تلاحظه وصفية تُخفِى تعبيرات وجهها تماما كأنها لا ترى أيا منهما، وأنا جالس فى نهاية المائدة صامتا وشارد الذهن، أنظر إليهم كأنى جالس أرقبهم من فوق السطح لا بينهم. أحيانا أتساءل مَن منهم سيَقتل مَن حين يكبر، وأحيانا أفكِّر أنهم يعيشون هنا فى فقاعة من الجمال والبراءة ورغد العيش سرعان ما سيغادرونها، وأحيانا أفكر أن الحياة تجد طريقها رغم كل هذا الموت.

وجدت الحياة طريقها المعتاد خارج الفقاعة أيضا، فعلى عكس صدمتى فيما حدث شعر عموم الناس بالارتياح لاختفاء عزالدين ونظامه الحديدى المرعب .وبدأت ملامح الارتياح هذه فى الظهور سريعا وفى أبسط الأشياء، كعودة الباعة الجائلين، والركن صفا ثانيا، واللحى والجلابيب السلفية فى المصالح الحكومية، كأن الناس تتنفس الصعداء بطريقتها؛ تمد أرجلها، وتأخذ راحتها، وتستيقظ متأخرة، تسترخى بعد نهاية كابوس النظام الصارم الذى أطبق على رقابها أكثر من عامين.

قادت البلادَ حكومة تسيير أعمال ائتلافية رأسها العضو المتبقى بالمجلس الرئاسى. وأعلن فى أول بيان له إنهاء حالة الطوارئ ونهاية »عصر الرعب والإرهاب« كما سمّاه. كما أعلن عن حلّ «محكمة الثورة» وتعليق العمل بقانونها إلى حين انتخاب مجلس تشريعى يراجع هذا القانون. وفى الخامس والعشرين من يناير (عيد الثورة) دعت الحكومة لإجراء الانتخابات الرئاسية والبرلمانية بالتوازى كما ينص الدستور الجديد، وحددت الحادى عشر من فبراير موعدا لها. وعنى ذلك أن الفترة المتاحة للدعاية الانتخابية لن تتجاوز أسبوعين، لكن الناس كانت منهكة، ولا أحد يريد دعاية انتخابية أو حديثا فى السياسة برمتها. كل ما أراده الناس هو تجاوز هذه المرحلة ونسيانها بأسرع وقت ممكن، ومن ثم قوبل إعلان حكومة التسيير بارتياح عامّ.

احتفظ وزير الدفاع بمنصبه، لكنه أقال مدير المخابرات العسكرية الذى عيّنه عزالدين فى اتفاقه مع العسكريين. ولم ينضمّ أى من الوزراء الموالين لعزالدين إلى هذه الحكومة، كما أُقيلَ مديرو الشرطة الشعبية والجنائية وقائد قوات الانتشار وعُيّن نوابهم محلّهم بصورة مؤقتة إلى حين إتمام الانتخابات وتشكيل حكومة جديدة، ولكن اللواء حامد احتفظ بموقعه مديرا للمخابرات العامة.

جرت الانتخابات فى جو من الهدوء يكاد يصل إلى عدم الاهتمام، واكتسحها الإخوان المسلمون الذين حصلوا على أكثر من نصف المقاعد بقليل، يليهم المستقلون الذين حصلوا على الثلث، وتراجع الديمقراطيون الموصومون بالإرهاب الثورى فلم يفوزوا إلا بخُمس المقاعد، فى حين فشل المرشحون اليساريون الخمسة فى الحصول على أى مقعد. وفى نفس الوقت، فاز مرشح الإخوان سعيد بيومى بمنصب الرئاسة، ليصبح بذلك أول رئيس منتخب فى اقتراع حر ومباشر منذ ثورة 2011.

الحلقة الرابعة والخمسون

سافرت أسماء إلى الولايات المتحدة، وكان ذلك أفضل حل لها وللجميع. فلم تكن تستطيع مواصلة حياتها فى مصر بشكل طبيعى. حتى أنا، أقرب الناس إنسانيا إلى زوجها، لم أستطع حمل نفسى على زيارتها أو حتى الاتصال بها تليفونيا .لن يراها أحد دون التفكير فى جرائم زوجها الذى صار يُعرف بـ«السفاح». كلنا تبرأنا مما حدث، ابتداء من قادة الحرس الحديدى الذين نفذوا عمليات القتل، وانتهاء بالناس الذين قدّموا البلاغات ضد جيرانهم، وألقينا بالمسؤولية كلها على عزالدين، السفاح، الديكتاتور، الدموى. أزلناه من تفكيرنا ودفنّاه فى خلفية الذاكرة كسفّاح أسطورى مر من بيننا، لا علاقة لنا به، نحن ضحايا جنونه. لكن بقاء أسماء بيننا يحول دون إتمام هذا الدفن، فلن ينظر إليها أحد دون التفكير فى أن هذه المرأة كانت تعيش معه، تأكل معه، تنام فى حضنه، تراه وهو يحلق ذقنه فى الصباح، وهو بملابسه الداخلية، بالبيجاما. بقاء أسماء يذكِّرنا بأن هذا السفاح واحد منا، وأننا جميعا كنا معه. ومن ثم رحّب الجميع بقرارها السفر، بمن فيهم أنا. قلت لنفسى إنها تربت وتعلمت هناك، ولا بد أن لها أصدقاء ومعارف، وحتى لو لم يكن لها أحد فأمريكا بلد الغرباء ولن تجد صعوبة فى الاستقرار هناك والعيش بحرية، بل والبدء من جديد إن أرادت. لكنى لم أملك نفسى من الشعور بأننا ندفنها هى الأخرى.

قتلت عقلى تفكيرا فى كل ما حدث، خصوصا فى ما فعله عزالدين وكيف انتهى الحال بما انتهى به. لكنى لم أصل إلى نتيجة مُقنِعة .ليس لدىّ شك حتى اليوم فى نياته. كان عنيدا بعض الشىء، ومعتزا بنفسه أكثر من اللازم، لكن ليس بدرجة غير عادية. كل المعارك التى خاضها فُرضت عليه فرضا. هل كان ينبغى عليه أن يقاتل بشراسة أقل؟ أكان من الأفضل أن ينجح أقل؟ وماذا لو فشل؟ ألم يكن ذلك ليعيدنا إلى ما كنا نشكو منه؟ هل شكوانا هى المشكلة إذن، وكان علينا القبول بالحلول الوسط؟ أعرف أن إراقة الدماء حين تبدأ لا تتوقف، لكن أليست ضرورية حين لا يكون هناك حل آخر؟ هل كان ما فعله إذن ضروريا، بما فى ذلك نهايته هو؟ أليس هذا ما حدث فى كل الثورات الأخرى؛ مرحلة من العنف تجتث النظام القديم وعوالقه ثم تنتهى بعنف مشابه ليبدأ الجميع من جديد؟ قال البعض هذا، وأحيانا كان يبدو لى أن عزالدين نفسه تعامل على هذا الأساس. لا يمكن تفسير إصراره على المضى قدما فى مواجهاته الأخيرة إلا بهذا: كان يعلم بقرب نهايته، ويقبل بها ثمنا للتغيير، ويحاول إنجاز أكبر قدر من هذا التغيير قبل أن يقضوا عليه. لكن من المستفيد إن كان عليك قتل الناس جميعا كى تصلح أحوالهم؟ لم أقتنع بأى مما قيل فى هذا الأمر، وظللت أتساءل بينى وبين نفسى، ولم أجد الإجابة إلا متأخرا جدا، لكن ليس بعد فوات الأوان.

كان لا بد لى من حسم موقفى فى الرئاسة، خصوصا وقد أصبح هناك رئيس حقيقى لا مجلس رئاسى مهلهَل من أشخاص بلا سلطة أو نفوذ. لم أرغب فى العودة إلى عملى القديم سكرتيرا للمعلومات، فلم يعد بى طاقة لذلك العمل ومتطلباته، كما أن «الريس بيومى»، كما صار الشعب يسميه، سيأتى ولا ريب بأناس يثق بهم كى يتولوا مثل هذه المناصب. ومن ثم آثرت المبادرة وطلبت من رئيس الديوان الجديد، الدكتور سيد قناوى، إعفائى من هذه المهمة. لم يتمسك بى كثيرا، لكنه طلب منى البقاء فى الرئاسة كى يمكنهم الاستعانة بى عند الضرورة، خصوصا أنى الوحيد الذى شهد العهود السابقة كلها دون التورط فى أى منها بالكامل. صحيح أنى كنت صديقا شخصيا لعزالدين، السفاح، والكل يعلم هذا، لكنهم أيضا يعلمون أنى لم أكن من معاونيه السياسيين. اقترح قناوى أن أختار الوظيفة التى تناسبنى فوافقت، وهكذا عدت إلى وظيفتى القديمة مترجما خاصا للرئيس، تاركا لرئيس الديوان تحديد مدى الاستعانة بى وفقا لما يراه مناسبا.

وكما أخبرتك، شعرت أن العمر تَقدّم بى كثيرا فى هذه الأيام، وبأن حياتى تُشرف على النهاية. لم يكن عمرى قد تجاوز الثامنة والأربعين، لكن قلبى هرم، ولم أعد أنتظر شيئا من الدنيا أو أتوق إلى شىء فيها. ومن ثم جاء التغيير فى إيقاع عملى متناسبا مع هذه الحالة: أذهب إلى مقر الرئاسة فى الصباح، إلى مكتب آخر، أصغر بكثير ولا يطل على النيل، وأظل به عدة ساعات .أتأكد من خلوّ جدولى من مقابلات أو مهامّ تتعلق بالرئيس، ثم أعود إلى البيت وأقضى بقية اليوم هناك.

أحيانا أذهب لرؤية خديجة وأبنائها وأحيانا تكون هى عند صفية فنلتقى جميعا هناك. هذه هى الفترة التى حاولت فيها إقناع أمك بالعودة للعيش معى فى بيت واحد. لم يكن قد جدّ شىء بيننا، لكنى أردت لمّ شملنا معا ولو فى حياة خالية من العواطف ومن الثقة. ربما استطعنا استعادة بعض الودّ، بعض الودّ قد يكفى لإبقائنا تحت سقف واحد: هى وأنت وأنا. لكنها رفضت. فاستعَضْت عن ذلك بقضاء أكبر وقت ممكن معك. لم يكن ذلك يروق لك، قضاء الوقت معى، لكنك كنت تحب قضاء الوقت مع لارا ابنة عمك .هل تظن أنى لم ألاحظ ذلك؟ كلنا لاحظنا، خديجة وصفية وأنا، ولارا طبعا .وابتسمنا وصمتنا مثلما يتعين على الأهل فى هذه الأحوال.

تحدثت كثيرا مع جدك اللواء القطان فى هذه الأيام. لم يقلّ الجفاء بيننا، لكنه لم يمنعنا من الحديث، خصوصا أنه اتفق معى فى محاولة إقناع ندا بالعودة للعيش معى. بدا عليه أيضا كأنه ينظر إلىّ بنوع ما من الاحترام . أعلم أنه لم يحترمنى فعلا فى يوم من الأيام، لكنه فى ما يبدو بدأ يقتنع أنى لست عديم القيمة تماما، وأظن أن صداقتى باللواء حامد مدير المخابرات، واستبقاء الريس بيومى لى بالرئاسة، أسهما فى ذلك. فجدك كان دائما -دون مؤاخذة- رجلا انتهازيا محبا للمناصب ومكبرا لأهلها. وهكذا بدأ شيئا فشيئا يتخلى عن نغمة السخرية والاحتقار حين يحدِّثنى، وبلغ به الأمر -مرة أو مرتين- أن فتح لى قلبه وناقشنى فى رؤيته للمستقبل. كنت قد فهمت من مجريات الأمور أن نفوذه فى الجيش لا يزال كبيرا، ولم يقلّل منه طول غيابه .فكل هؤلاء الذين يحتلون مناصب قيادية هم من الضباط الذين عيّنهم هو ورقّاهم فى الفترة التى تَولّى فيها وزارة الدفاع. وترك الريس بيومى أمر القوات المسلحة لقادتها فى مقابل بقائهم بعيدا عن مجريات السياسة. كانت هذه هى المعادلة السائدة منذ الثورة الثانية، كما أن الجيش ساند الإخوان ضد عزالدين السفاح فى عملية انتقال السلطة، ومن ثم سعى الطرفان لإبقاء التوازن بينهما كما هو. وأعتقد أن جزءا من رغبة الريس بيومى ورئيس ديوانه سيد قناوى فى الإبقاء علىّ بالرئاسة كان إكراما لصهرى، كأن كل طرف ظنّ أنى مقرّب إلى الطرف الآخر.

هدأت الدنيا كثيرا بتولى الريس بيومى مقاليد السلطة، وسعى هو ومن خلفه جماعة الإخوان إلى طمأنة الناس وتهدئة الخواطر وتفادى أى أمر من شأنه إثارة صراع سياسى أو حتى إطلاق مظاهرة أو وقفة احتجاجية. فهموا أن البلد كلها مُنهَكة، وعملوا على إراحتها. ومن ثم لم يقوموا فى الشهور الأولى من حكمهم بأى أمر قد يستفز الناس أو يثير احتجاجهم. أدخلوا بعض التغييرات فى المناصب العامة، خصوصا قيادات القضاء ووسائل الإعلام والهيئات العامة، بحيث يزيحون الوجوه المعروفة بقربها من السفاح أو التورط فى أى من »جرائمه«، وشمل ذلك بعض القضاة ومسؤولى الأمن. لكنهم فعلوا ذلك دون عنف أو إيذاء حتى لمن أزاحوهم. وأحلّوا آخرين محلهم دون أن يكونوا بالضرورة من الإخوان أو الموالين لهم، بحيث لا يتهمهم أحد بالسعى للاستيلاء على أجهزة الدولة. حتى التشكيل الحكومى جاء معتمدا بدرجة كبيرة على الخبراء المستقلين، ولم يقُم البرلمان بإدخال تعديلات تُذكَر على التشريعات السارية.

القرار الوحيد الهامّ الذى اتخذه الريس بيومى وحكومته خلال الأشهر الستة الأولى كان رفض القرض المقدم من صندوق النقد والبنك الدوليّين، والذى كان مصحوبا بشروط صعبة تتعلق بإلغاء الدعم على الوقود والطاقة وبعض المواد الأساسية، والاستمرار فى «إصلاحات» الوظيفة العامة التى بدأها السفاح. اتفق الاقتصاديون المصريون مع خبراء الصندوق والنقد على أهمية الالتزام بهذه الشروط لاستعادة الاقتصاد عافيتَه. لكن مَن الذى كان يستطيع تنفيذها؟ من الذى كان يستطيع المضى قدما فى إنهاء خدمة مليونين من الموظفين، أو رفع الدعم عن الطاقة ومضاعفة سعر الوقود أو الخبز أربع أو خمس مرات؟ لا أحد سوى السفاح نفسه. حاولت الحكومة شرح الأمر للمؤسسات المالية الدولية، وأبدى القائمون عليها تفهُّمهم للظروف السياسية والاجتماعية الصعبة، لكنهم قالوا إنه يستحيل عليهم منح هذه القروض لمصر دون التزامها بتلك الشروط.

من ثم، وبعد مشاورات سريعة، قرر الريس بيومى رفض العرض الدولى بالمساعدات الدولية، وسعى بدلا من ذلك لإقناع دول الخليج بتقديم مساعدات مالية وضمانات مصرفية دون هذه الشروط.

فى نفس الوقت اعتمد الريس بيومى على موارد الإخوان الخارجية لتقليل أثر الانكماش الاقتصادى، فتوسع الإخوان فى شبكة المساعدات الاجتماعية وتقديم الإعانات والخدمات المجانية للفقراء، ودفع المهنيين كالأطباء والمدرسين والمهندسين للتبرع بجزء من وقتهم لتقديم الخدمات المجانية فى المراكز الملحقة بالمساجد. بل نشأت مراكز جديدة مُلحَقة بالمساجد تقدِّم خدمات أكثر تنوُّعا وبالمجان أو مقابل أجور زهيدة، كإصلاح الكهرباء والسباكة والنجارة وغير ذلك من الحرف. وأصدرت دار الإفتاء فتوى تشجع الناس على إخراج الزكاة فى اللجان العامة للزكاة دون غيرها، وأباحت استخدامها من قِبَل سلطات الدولة لتمويل الخدمات الاجتماعية .وقد قامت هذه الشبكة الواسعة بدور هام فى منع انهيار مستوى معيشة الفقراء، لكنها لم تحُلْ دون زيادة نسبة البطالة أو ارتفاع مستوى التضخُّم وأسعار السلع الأساسية، وبدأت وزارة المالية تحذِّر من عدم قدرتها على دفع مرتَّبات الموظفين فى نوفمبر إن استمرت حالة الانكماش الاقتصادى فى الربع الثالث من العام.

الحلقة الخامسة والخمسون

فى أول يوليو قرّر الريس بيومى فتح معبر غزة للأفراد والبضائع بشكل رسمى ومستقر، رغم التحفظات التى أبداها اللواء حامد. وتم الاحتفال بتدشين المعبر الجديد الذى يسمح بمرور السيارات والبضائع مباشرة بين غزة ومصر لأول مرة منذ عام 1967، باعتباره إنهاء للوضع الشاذّ الذى جعل مصر تبدو شريكة لإسرائيل فى حصار غزة. ونقل التليفزيون صورا للمواطنين المبتسمين وهم يختمون جوازات السفر الجديدة التى أصدرتها حكومة غزة ويعبرون إلى رفح، وصورا لأرتال من السيارات المكتظة بعائلات وأطفال على وجوههم علامات الترقُّب وآباؤهم يلوّحون بعلامة النصر ونساء متشحات بأغطية رأس ملونة يزغردن إيذانا بنهاية حصار غزة، وسيارات النقل الثقيل الفارغة تتأهب فى طابور منفصل لدخول شمال سيناء والعودة ببضائع مصرية دون تهريب ودون موت فى الأنفاق. بدت السعادة على الجميع، رغم التعب وساعات الانتظار الطويلة والزحام، وتساءل الجميع فيمَ كان الانتظار طوال هذه السنوات، ولماذا لم تفتح مصر المعبر من قبل. اللواء حامد أعرب لى عن قلقه ونحن نشاهد الحفل على شاشة التليفزيون، وقال ساخرا إن هذه الابتسامات ستتلاشى حين تبدأ المتاعب.

لكن لم يكن هذا وقت المتاعب، بل على العكس، بدا أن مصر قد وجدت حكومة عاقلة وشعبية فى الوقت ذاته. الوضع الاقتصادى هو الذى أقلق الجميع، فقد اضطرت الحكومة إلى إعادة الموظفين الذين فصلهم السفاح إلى أعمالهم بالحكومة، بل وتثبيت من كان منهم مؤقتًا. بلغ عدد هؤلاء مليونًا، وقال خبراء الاقتصاد من الإخوان إن إضافة مليون على الملايين الثمانية العاملين بالحكومة لن يضير كثيرا، لكن رفض تثبيتهم له عواقب سياسية غير محمودة .هذا، بالإضافة إلى توسيع نطاق الخدمات الاجتماعية، وجهود رفع مستوى المستشفيات العامة، وزيادة موازنة التعليم، أثقل كاهل ميزانية مختلّة من الأصل. لكن وجهة نظر الحكومة كانت وجيهة؛ فما دامت الميزانية مختلّة، وتحتاج فى كل الأحوال إلى دعم خارجى، فمن الأولى زيادة الإنفاق الاجتماعى الضرورى، والبحث عن مصادر لسد العجز كله. لكن لم يستطع أحد العثور على مصدر خارجى، وبعد رفض القروض الدولية المشروطة لم تفلح الزيارات المتعددة لدول الخليج والأحضان التى أغدقها الريس بيومى على شيوخه فى حملهم على مد يد المساعدة للميزانية غير الموزونة.

وهنا ظهرت إيران. الريس بيومى الذى أكد ضرورة استعادة العلاقات الدبلوماسية الكاملة مع إيران فى أثناء انتخابه تراجع حين مالت عليه دول الخليج مطالِبة بتأجيل ذلك، وأيّدهم فى هذا اللواء حامد وجهاز المخابرات الذى اعترض بسبب عدم تعاون الجانب الإيرانى فى عدد من الملفات العالقة سواء ما يتعلق منها بمصر أو بالعراق أو سوريا أو حتى الخليج. وكانت إيران جريحة منذ القصف الجوى العنيف لمنشآتها النووية واحتلال المنطقة الساحلية من قِبَل القوات الأمريكية فى 2013. صحيح أن هذه القوات انسحبت بعد عدة شهور، ووجهت المقاومة الإيرانية إليها ضربات موجعة أسهمت فى مسارعتها بالانسحاب، إلا أن الأضرار الجسيمة التى لحقت بها هزّت صورتها وأضعفت مكانتها فى المنطقة إلى حد كبير. كما أن الوجود العسكرى الأمريكى المكثّف على الشواطئ الشرقية للخليج، والقواعد الجديدة التى أقاموها بطول هذا الساحل، قد قضيا تقريبا على نفوذ إيران العسكرى هناك. وأكملت الحرب الأهلية السورية، والضربات التى وجهتها إسرائيل إلى حزب الله فى جنوب لبنان على هذا النفوذ. لم تقض هذه الضربات على النفوذ الإيرانى بالكامل، لكنها حجّمَته، تماما كالعقوبات الاقتصادية المفروضة عليها. وفى وسط كل هذا، وبسبب كل هذا، فإن استئناف العلاقات مع مصر وتحسينها كان مهما لإيران، وكان استعدادها لدفع ثمنه كبيرا. وهكذا تلاقت المصلحتان، وأسهم التسويف الخليجى فى تقديم المساعدات لمصر، والتأييد الشعبى لاستئناف العلاقات مع إيران، فى التوصل إلى الاتفاق الذى تم فى آخر يوليو والذى بموجبه أُعيدَت العلاقات بين الدولتين إلى مستواها الطبيعى بعد نحو أربعين عاما من الانقطاع.

وفى حين حلت الأموال الإيرانية مشكلة عجز الميزانية، فإنها أتت بمشكلات أخرى، فالأمريكيون الذين أخذوا يرقبون كل هذا بدؤوا فى القلق لتسارُع معدل التقارب. فتح الحدود مع غزة كان فى حد ذاته مقلقا لهم ولحلفائهم الإسرائيليين، فمن يضمن عدم عبور السلاح مع البضائع؟ لكن الحكومة طمأنتهم أنها لن تسمح بهذا. واستئناف العلاقات مع إيران، عدوتهم الرئيسية فى المنطقة، كان أيضا مبعث قلق. لكن الحكومة طمأنتهم أن الموضوع لا يعدو تصحيحا لوضع شاذّ، فمصر هى الدولة العربية الوحيدة التى لا تحتفظ بعلاقات مع إيران. أما حين تَطوَّر الموضوع إلى تدفق مساعدات مالية إيرانية على مصر، واتفاقات تعاون اقتصادى وتجارى ونفطى، وظهور متزايد لرجال أعمال وأكاديميين إيرانيين فى مصر، فإن التطمينات الحكومية المصرية لم تعُد تجد آذانا صاغية فى واشنطن.

كنت أرقب كل هذا من موقع المتفرج، واستقيت معظم أخبارى من اللواء حامد مدير المخابرات الذى كنت ألتقيه كثيرا على هامش اجتماعات الرئيس. فهذه الاجتماعات عادة ما تأتى بكبار رجال الدولة إلى مقر الرئاسة دون أن يتمكنوا من حضور كل الاجتماعات، فينتهى بهم الأمر منتظرين لساعات طويلة فى قاعات المقر، وهى فرصة ذهبية لتقَصِّى الأخبار منهم. الجزء الذى حضرته بنفسى هو اللقاءات الصينية، التى تَكثَّفَت مع الوقت، إذ بدأ الريس بيومى وحكومته يهتمُّون بالصين، ربما استجابةً للقناعة السائدة فى أوساط الرأى العامّ بأن الصين هى القوة العالمية القادمة وضرورة توثيق العلاقات معها، من أجل إحداث توازن مع النفوذ الأمريكى. ولم يكن هناك غيرى يعرف اللغة الصينية، فصرت أحضر كل المقابلات التى تتمّ مع مسؤولين صينيين، سواء فى مقر الرئاسة أو فى مكاتب الوزراء. وانتابت الوزراءَ حالة أشبه بالولع بالصينيين، لأنهم كانوا يسهلون الأمور بدرجة غير معهودة: إن طلبت منهم أى شيء سألوك عن المواصفات التى تريدها، وموعد التسليم، والكمية، ووافقوا. كل الصفقات تمت من خلال مِنَح وقروض، وتَوسّع الوزراء فى استخدامها: هكذا بنى الصينيون كل المستشفيات والمدارس والمساكن التى تراها اليوم فى الريف والتى يشبه بعضها بعضا، وهكذا بنوا معامل تكرير البترول ووفروا البنزين والسولار والغاز المنزلى ومدُّوا خطوط الأنابيب التى تصل إلى السودان وإلى ميناء مطروح، وهم أيضا مَن بنى ميناء مطروح بالكامل. تم الاتفاق على كل هذه المشروعات فى العام الأول للريس بيومى، قبل أن تظهر مشكلة المديونية الصينية.

لاقت هذه الإجراءات استحسانا شعبيا واسعا، ولم يُلق أحد بالا إلى القلق والتوتر مع الولايات المتحدة أو حلفائها فى المنطقة، فلم يكن أحد ينتظر منهم خيرا فى كل الأحوال. لكن المخابرات العامة كانت قلقة، ليس من هذه الإجراءات فى حد ذاتها، ولكن من التبعات التى يمكن أن تقود إليها .وشاطرهم العسكريون القلق، ولكنهم لم يُبدوا معارضة. وبدأت الحكومة تتحسس خطواتها نحو ما سمته تحديث الأمن والقضاء، وهو اسم حركى للتطهير. لكن الحق أنها فعلت ذلك بأقصى درجات الحرص. فقد طلبت إلى القيادات الأمنية والعسكرية فتح باب القبول بالكليات العسكرية والشرطية لكل الناس دون تمييز بسبب الانتماء السياسى، مع استبعاد أى شخص يُشتبه فى استخدامه العنف أو حتى اقتناعه بشرعية رفع السلاح على الحاكم. سألتُ القطان ذات يوم عن رأيه فى كل هذا فهز كتفيه وقال إن من حق النظام الجديد أن يثبّت أقدامه، وليس أمامهم طريق آخر، والمهمّ أن لا يسرفوا.

تفجرت أولى مشكلات حكومة الريس بيومى بسبب مسرحية، بطلتها نور .والحقيقة أن تلك المشكلة فاجأتنى، وأعتقد أنها فاجأت الريس بيومى نفسه، وأنه اضطرّ إليها اضطرارا تحت ضغط بعض الغلاة من الإخوان . فرغم تَوقع الجميع وقوع مواجهة بين الحكومة الإخوانية وأهل الفن، خصوصا السينما فإن شيئا لم يحدث خلال العام الأول، بل استمرت دور العرض كما هى واستمر إنتاج الأفلام والمسلسلات دون تدخُّل من جانب الحكومة. صحيح أن المنتجين أنفسهم بذلوا مجهودا فى تحشيم الممثلات وتفادى المشكلات، وظهر عدد من الأعمال الدينية يفوق المعتاد، إلا أن عددا من الأفلام «العاديّة» ظهر فى دور العرض دون مشكلات.

أن تحدث هذه المواجهة بسبب مسرحية كان مفاجأة، خصوصا أن موضوع المواجهة لم يكن مشهدا عاريا أو فجاء، بل كان حول مضمون المسرحية الذى ادّعى البعض أنه يشكِّك فى الثواب والعقاب واليوم الآخِر .لن أعيد عليك تفاصيل هذه القضية السقيمة التى اشتهرت وقتها، لكن المهمّ بالنسبة إليّ أن قرار وقف عرض المسرحية وما تبعه من إجراءات قاد إلى تجميد عمل فرقة نور المتجولة، مسرح الجرن الذى بدأت به علاقتنا. اتصلت بها وسط الأزمة، والتقيتها عددا من المرات. لم يكُن لدى شك فى أنى ما زلت أحبها، ولكنى فوجئت بحجم هذا الحب. فحين رأيتها مجددا شعرت بأنى كنت جافا وعاد الماء يجرى فى عروقى مرة أخرى. لكن ليس هذا ما أقصّ عليك القصة كى أشرحه -وإن كنت لا أستطيع ذكرها دون توضيح كم أحبها- بل لأقول لك إنها حين صدر القرار بوقف عرض مسرحيتها وإنهاء مشروع مسرح الجرن بكامله فاجأتنى هى برد فعلها. سقطت فى بحر من الاكتئاب لم أشهدها فيه من قبل. سألتها عما تنوى فعله فلم أجد لديها جوابا. سألتها إن كانت ستنضم إلى الوقفات الاحتجاجية التى نظّمها البعض فرفضت قائلة أن لا فائدة من هذه الوقفات. هل سترفع قضية على الحكومة؟ لا، لن تفعل. ماذا ستفعلين إذن؟ لا شىء. وتتهمنى أنا بالسلبية! قلت لها هذا فابتسمت هازئة وقالت إنها لن تتعامل مع السياسة وأهلها، هذا مبدأ. فالسياسة لا فائدة منها، وهى تحب الفن لأنه جمال ولأنه عكس السياسة، ومن ثم لن ينتهى بها الأمر بالخوض فى ما تكرهه باسم ما تحبه .حتى إن أغلقوا عالم الفن أمامك؟ سألتها، فقالت إن عالم الفن لا يمكن إغلاقه، ستفعل شيئا آخر، قد تجد فرصة أخرى فى المستقبل، فى فرقة أخرى، أو حتى ترسم، «أما السياسة فقد تركتُها لك». قالت هذا، وابتسمت هازئة مرة أخرى، وأزاحتنى جانبا ومضت.

الحلقة السادسة والخمسون

قضيتُ أياما كثيرة بالقرب من نور فى هذه الفترة، وأريد أن أقول لك إنى مَدين للريس بيومى وغُلاة الإخوان برُوحى. هم الذين أنقذوها وهم لا يعلمون. كنت أظن أنى أعرف نور، لكنى لم أعرفها تمام المعرفة إلا حين أغلقوا مسرحها. ساعتها رأيت الجانب الذى لم أرَه من قبل. رأيت نور السلبية، الضعيفة، المستسلمة لليأس. تفعل هذا بطريقتها الأبيَّة، فتُحيِل اليأس إلى سخرية من الأمل، وانسدادَ الأفق إلى استهزاء بالمعنى، وضياع البهجة إلى استمراء للألم. لكن هذه العدمية لم تَخِل على، بل رأيتها كما هى، ضعفا واستسلاما لواقع شرس. فهمت، ساعتها، حدّتها فى اتهامى بالسلبية .جاءتنى نور وهى تتوسم فى القوة التى يظنّها الناس بالقريبين من صُنَّاع القرار، حتى إن لم يدركوا ذلك. جذبها ناحيتى ما ظنّت فى أعماقها أنى أكمل به نقائصها، ما أحميها به من عالم لا تقوى هى على مواجهته. افترضَت فى هذه القوة التى تسدّ ضعفها، وبعد أن أحبّتنى وانتهى أمرها راعها أن تجدنى شاهدا صامتا لا أحرّك ساكنا أو أسكّن متحركا. تَحوّل شعورها بالضعف إلى فزع، وجاء انتقادها لى فى حدة شعورها بخيبة الأمل.

لم أفهمها، عندئذٍ. فى غرامى بها لم أرَها كما هى بل كما أحببتها، شمسا مشرقة، لمسة تهدئ روحى، نورا كاملا يدفئ الوجود من حولى .كل هذه المشاعر كانت عنى أنا، لا عنها. كل هذه المشاعر كانت عن احتياجاتى أنا، لا احتياجاتها. لم أرَها هى، لم أرَ نواقصها. رأيت ما أردت. وأقول لك الآن إنك لا تحب امرأة حقا حتى ترى نواقصها واحتياجاتها ولا يفزعك منها شيئا .وبفضل الريس بيومى ورابطة كارهى الفن التى أتت به إلى الرئاسة، رأيت نواقص نور، ولم أشعر برغبة فى إخفائها أو تجاهلها أو الفرار منها، بل أحسست برغبة عارمة فى احتضانها وحملها وحمايتها مما تخاف. كل هذا الحديث عن السلبية والسياسة كان خوفا ورجاء، لماذا لم تقولى هذا صراحة يا بنت الناس!

ظللت بجوارها هذه الفترة. لم يكن لدى حلّ عملى لمشكلتها، فلا أستطيع إعادة المسرح ولا يمكننى حملها على النضال من أجل إعادته ولا كان النضال طريقى أصلا. لم أحاول إقناعها بفعل شىء، لكنى بقيتُ بجوارها. ظلّت غارقة فى الاكتئاب أسابيع طويلة؛ لا حاولت التمثيل فى فرقة أخرى، ولا حتى رسمت مثلما علّقت ذات يوم فى سخريتها اللاذعة. وكلما اقترح عليها أحد شيئا أشاحت بيدها أو بوجهها أو هزّت كتفها مستبعدة إياه، كأنها لا تريد حتى الإسهام بكلمة «لا». كففتُ عن الاقتراحات العملية، واكتفيت منها بقربها، وخروجنا معا لشاى أو عشاء، واحتضنتها كثيرا، وأعتقد أنى سرّيت عنها بوجودى حتى حينما جلست صامتا. كنت موقنا أنها ستخرج من هذه القوقعة التى حبست فيها نفسها، وظللت جالسا على الباب حتى تمدّ يدها يوما وتقوم خارجة، حين تكون مستعدة لذلك. كل ما أردت فعله هو طمأنتها أنى سأظل معها، وسأنتظر هنا. وإن كنت لا أستطيع إعادة المسرح الذى أغلقه الريس بيومى فإنه لا يستطيع إزاحتى عن بابها، لا هو ولا جماعة الإخوان كلها.

وعلى كل حال لم يكن لدى الريس بيومى وجماعته وقتا يضيعونه على، فشهر العسل مع الجمهور شارف على الانتهاء، وكرم الإيرانيين قارب حدوده العليا وبدأ محصّلِوهم يدقون الباب ويقدِّمون الفواتير، وقلق الأمريكيين يعلو صوته كل يوم عن اليوم الذى سبقه. شبكة الخدمات الاجتماعية التى أقامها الإخوان فى الأحياء والقرى أدّت دورا كبيرا فى تحسين أحوال الناس، لكنها بعد عام صارت تئنّ تحت ضغط الطلبات المتزايدة من قِبل الجمهور ومحدودية الموارد واستنزاف قدرتها على استنهاض العمل التطوعى. فى نهاية الأمر، لم يكن ممكنا لتطوع الأطباء أن يحلّ محلّ المستشفيات والعيادات والخدمات الصحية الغائبة، ولا كان من الممكن للمدرسين المتطوعين التعويض عن انهيار المدارس، وهكذا. اتضح أن هذه الإجراءات كلها تصلح لسدّ عجز مؤقت، لكنها لا تحلّ محلّ الدولة وخدماتها المنهارة. بل على العكس، فتحت هذه الخدمات شهية الناس للمطالبة، وما دمت قد أعطيت خدمة لواحد فكيف تنكرها على الألف الباقين؟

والحق يقال، إن الإخوان سعوا لمواجهة هذه الصعوبات بإخلاص وتفانٍ، لكن أحدا لم يساعدهم. أجهزة الدولة لم تستجب لمحاولات إعادة الهيكلة التى قام بها مديروها الجدد، وبعد شهور طويلة من المناقشات والمماحكات وتغيير اللافتات وإلحاق الأقسام بأقسام أخرى بدل تلك التى كانت تابعة لها عاد كل شىء كما كان ولكن بأسماء ولافتات جديدة. لم يكن ذلك عن عمد، لكن لأن العاملين بهذه الأجهزة لا يعرفون طريقة أخرى للعمل، ومهما قلت، ومهما سميت طريقة العمل، فإنهم سيقومون بما يعرفونه. أما إذا أصررت، ووقفتهم عن عمل ما يعرفونه، فسينتهى الأمر بتوقفهم تماما. وقد حدث هذا كثيرا، فقد توقف معظم مديريات الرى عن العمل نحو شهر بسبب عدم قدرة الموظفين على تنفيذ الإجراءات الجديدة، واستعانت الوزارة بفرق من المتطوعين لمواجهة أزمة المصارف فى الدلتا التى نشأت نتيجة توقف فرق مديريات الزراعة عن العمل، حتى عادت المديريات للعمل بطريقتها القديمة، لكن بعد استيفاء متطلبات الإجراءات الجديدة من الناحية الشكلية.

لم يكن تقاعس أجهزة الدولة الخدمية مقصودا، بل نتيجة طبيعية لترهلها وعدم قدرتها على التطور أو الاستجابة للتطوير. أما اتحاد الشباب الديمقراطى «اشد» فقد بذل جهدا مقصودا ومنظما يهدف إلى إفشال شبكة الخدمات الاجتماعية التى اعتمدت عليها حكومة الريس بيومى. فقد بنى هذا الشباب قواعده فى المحليات كما قلت لك، وتوسع دوره كثيرا فى عهد صديقى السفاح، ثم انكمش، لكنه لم يندثر. وحين جاء بيومى خشى هؤلاء الشباب على موقعهم، فقرروا النشاط من جديد مع الابتعاد عن ذكرى عزالدين وأى شىء يقرنهم به .كان أمامهم طريقان: إما التنافس مع شبكة الإخوان، وإما محاولة إضعافها، وقد قرروا اللجوء إلى الحل الثانى. وهكذا، بدلا من محاولة اجتذاب الناس إليهم، قرروا إغراق الشبكة الخدمية للإخوان بالمطالب، بحيث لا تقوى على الاستجابة لها. وساعدهم التوسع المبالغ فيه لهذه الشبكة بهدف سد عجز أجهزة الدولة التى صارت الآن مسؤولية الإخوان وحكومتهم. فتحولت فروع «اشد» إلى مراكز لتجميع المحتاجين للخدمات وتوجيههم إلى مراكز الإخوان الملحقة بالمساجد، ومتابعة أداء هذه المراكز لدورها، وجمع الشكاوى ممن لم يتلقّ خدمة مناسبة ورفعها إلى وسائل الإعلام، ومراقبة العاملين بهذه المراكز ومدى التزامهم بالقواعد المهنية وبحسن معاملة الجمهور، وهكذا، تحولوا إلى كابوس متكامل وحمل لا يطاق على هذه الشبكة.

أُرهِقت شبكة الخدمات الاجتماعية للإخوان، وساءت سمعتها. حتى أختى صفية التى عادت إلى نشاطها بالمسجد المجاور لبيتها أعربت عن خيبة أملها، وقالت إن السُلطة أفسدت الإخوان. وقصّت على قصصا تشبه تلك التى كانت تحكيها عن السلفيين قبل سفرها. قالت إن السلفيين فسدوا فى تفكيرهم والإخوان فى ضميرهم، والآن تَسلّف كثير من الإخوان وجمعوا المفسدتين .انزعجتُ بشدة من حكمها هذا، وكانت هى أشد انزعاجا، وقالت إن أملها الوحيد فى الشباب الذى لم يتلوث إيمانه ولا تفكيره ولا ضميره، لكنها تخشى على هذا الشباب من الكبار. كان إحباطها شديدا، فقد عادت وهى تظن أن الثورة قد قضت على هذه المفاسد، فوجدتها هى هى ولكن فى أثواب جديدة. قالت صفية إن الوضع إذا استمر هكذا فستعود إلى إيطاليا، وهذه المرة دون رجعة. لم يعجبنى كلامها، وقرّعتها بشدة. قلت لها أن تكفّ عن المنّ علينا بإقامتها بيننا، وأن هذه بلدنا وإن لم تكن هى بعلمها وتديُّنها قادرة على الوقوف فى وجه المفسدين باسم الدين فمن يستطيع؟ وما فائدة تديُّنها هذا إذن؟ لا أدرى لِمَ انفعلت عليها ذلك اليوم، ربما لأنى كرهت فكرة مغادرتها مرة أخرى، هى كلُّ مَن بقى لى من عائلة وأصدقاء. دمعت عيناها وصمتت.

لم يكن التذمر فى الداخل فحسب، فقد بدأ محصلو الفواتير الإيرانية يطالبون بمقابل للمساعدات المالية التى يقدمونها. وتساءل بعضهم فى استغراب كيف تسمح حكومة بيومى للسفن الأمريكية بعبور قناة السويس وهى فى حالة حرب مع حليفتها الإيرانية، وكيف تستمر فى علاقاتها الرسمية بإسرائيل التى قصفتها، وكيف لا تعطيها ميزات تجارية كتلك التى تعطيها للصينيين، وكيف تضطهد الشيعة المصريين البسطاء الذين لا يريدون سوى حرية العبادة. وربما اتفق معهم الريس بيومى فى استغرابهم، لكنه لم يكن يستطيع الاقتراب من أى من هذه الموضوعات دون إثارة عداء فصيل مهمّ لا يملك ترف مواجهته.

اللواء القطان بدا عليه القلق. التقيت عنده ذات مساء اللواء المنيسى الذى صار مديرا للمخابرات العسكرية، وكان عائدا لتوّه من واشنطن. ذكرت لك فى بداية خطابى أنى عملت معه لفترة أيام الثورة الأولى والحكم العسكرى المقنّع، أليس كذلك؟ المهمّ، قال المنيسى إن الأمريكيين قلقون بسبب التوجه العامّ الذى تأخذه الأمور. حتى الآن يتفهمون ظروف الحكومة، لكن الانتقادات فى الكونجرس تتزايد، وسيتزايد الضغط على الإدارة لمراجعة مساعداتها لمصر ما لم تقُم الحكومة بإجراء يهدِّئ أعضاء الكونجرس .ضحك القطان هازئا، وقال إن أعضاء الكونجرس سيهدؤون حين يقول لهم أسيادهم فى إسرائيل أن يهدؤوا، وهؤلاء من مصلحتهم إبقاء الضغط على مصر مستمرا. هز المنيسى رأسه وقال إن هذه عاقبة تعدُّد الزوجات؛ صحيح أنه حلال، لكن يستحيل إرضاؤهن جميعا فى نفس الوقت. مصمص القطان شفتيه معترضا، ورشف من شايه ثم قال كمن يُلقِى حكمة معروفة، إن الغبى هو من يحاول إرضاءهن جميعا، أما الرجل الصحّ فعليه أن يعرف كيف يضحك عليهن جميعا فى آن واحد.

الحلقة السابعة والخمسون

طلبت من نور أن تتزوجنى، لكنها رفضت، وسخرَت من الفكرة قبل أن ترفضها .شملت السخرية فكرة الزواج نفسها، وكونها مقبرة للحب، والتساؤل عن الفارق بين زواجى بأمك وهذا الزواج المقترَح، وتوقيته وما إذا كان نوعا من العلاج النفسى لها من اكتئابها أم تسرية وقضاء للوقت باعتبارنا نحن الاثنين بلا عمل حقيقى وتعيسين، أم لأن الإخوان تولوا الحكم ولم يعُد من الممكن مواصلة علاقتنا إلا فى إطار شرعى، وهكذا. وحين حاولت مناقشتها لم أحظَ إلا بمزيد من السخرية، وقالت إن موقفها إزائى لم يتغير منذ ترك كلانا الآخَر، وإن موقفى أنا إزاء نفسى لم يتغير؛ ساعتها لم تُردْ مشاهدتى أدمِّر نفسى بالتدريج بالانغماس فى السياسة، وأثبتت الأيام أنها محقة حين تَحوّلت السياسة إلى عمليات قتل بدم بارد، وجلست أنا فى وسطها كأن الأمر لا يعنينى. والآن لا تريد مشاهدتى أدمِّر حبى لها بتحويله إلى زيجة ميتة مثل كل الزيجات. ضايقنى ردُّ فعلها هذا، ولكنى فهمت مصدره. وقلت أنتظر حتى تخرج من حالة اليأس تلك.

فى بداية العام الثانى من حكم الريس بيومى، وبالتحديد فى 5 فبراير 2019، وقعت حادثة غزة الأولى التى لم يُعلَن عنها، ثم تلتها حوادث عديدة أُعلِنَ عن بعضها وتم الاتفاق على إبقاء بعضها طى الكتمان فى محاولة لتلافى الإحراج. لكن الإحراج وقع، وتزايد، وتحول إلى أزمة مستحكمة .الحادثة الأولى كانت عملية تهريب لصواريخ أرض جو من الجيل الثالث، دخلت عبر سيناء إلى قطاع غزة فى شحنة بضائع، ولكن علم بها الجيش الإسرائيلى من مصادره بغزة وقصف الشحنة قبل وصولها إلى المقاتلين الذين كانوا ينوون استخدامها لقصف أهداف فى العمق الإسرائيلى. احتجّت إسرائيل لدى مصر باعتبار هذا خرقا لتعهد الحكومة بعدم السماح بدخول السلاح لغزة. وردّت الحكومة ردا مرتبكا، بين إنكار وجود الشحنة ثم إنكار دخولها من سيناء ثم تبرير ذلك -حين قدمت السلطات الإسرائيلية الدليل على دخول الشحنة من رفح -بأن مصر لا يمكنها تعقُّب كل صندوق يدخل فى كل شاحنة. سكت الإسرائيليون، لكن الأمريكيين تحدثوا بالنيابة عنهم. سألت اللواء حامد فقال لى إن هذه هى بالضبط التداعيات التى حذر منها، فالهدف الأصلى من عدم السماح بعبور البضائع من رفح والإصرار على دخولها من المعبر الإسرائيلى الفلسطينى المشترك كان تفادى مثل هذه المواقف التى لا بد ستحدث. فلا يمكن منع الفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال من السعى للحصول على السلاح، ولا تستطيع حكومة مصرية أن تمنعهم بالقوة، ولكن فى نفس الوقت لا يجب أن يتحول ذلك إلى مواجهة بيننا وبين إسرائيل. وجدت حكومة بيومى نفسها فى مأزق؛ إما أن تمنع دخول الأسلحة فتتهمها المقاومة الفلسطينية -وجمهورها نفسه- بالتقاعس ومساعدة العدو، وإما أن تسمح بمرورها وتصطدم بالأمريكيين والإسرائيليين.

قرر الريس بيومى تفادى هذا الاختيار الصعب وتجاهل الموضوع. لكن الموضوع لم يتجاهله، وفى المرة التالية التى وقع فيها تهريب مماثل تسرب الخبر إلى الصحافة الإسرائيلية، ثم دخل الكونجرس على الخط بانتقادات حادة للحكومة المصرية وتهديدات بقطع المعونات العسكرية ووقف إمداد الجيش بقطع الغيار .
وتوترت قيادة الجيش، واجتاح الغضب الرأى العام إزاء الصفاقة الإسرائيلية الأمريكية؛ كيف يطلبان من الحكومة المصرية الدفاع عن الاحتلال الإسرائيلى والعمل على إدامته؟ وإن لم تقم مصر بالسعى لتحرير فلسطين، أليس من واجبها على الأقل ترك الفلسطينيين يدافعون عن أنفسهم؟ كان هذا هو السؤال الذى يردده الجميع، ولم تستطع الحكومة، حكومة الثورة، حكومة الأغلبية الإسلامية المنتخَبة، أن تفعل غير ذلك. لكنها فى نفس الوقت لم تستطع أن تفعل ذلك، فالجيش يعتمد فى تسليحه على الأمريكيين، وحتى لو كان يعتمد على الصينيين أو الروس أو التايلانديين، فهو ليس فى حال يسمح له بالقتال، وحتى لو كان فى حال يسمح له بالقتال فهو لا يريد القتال فى هذه الظروف، وبهذه الكلفة، ومن أجل هذا الهدف. والحكومة، الثورية، الإسلامية، المنتخبة، تعلم ذلك جيدا، لكنها لا تستطيع أن تقوله صراحة لجمهورها وإلا اتُّهمت بالتخاذل والخنوع والفشل. وأذكى الإيرانيون وأصدقاؤهم وأصدقاء الحكومة الجدد غضب الرأى العامّ. هذا هو ما حدث يا بنى، واللهُ على ما أقول شهيد. هكذا، بهذه الطريقة، وبسبب هذا الجبن، انتهى بنا الأمر فى حرب، وفقدنا من فقدنا، لأن الرجال، فى اللحظة الحاسمة، لم يكونوا رجالا.

وقفت أنا أشاهد هذا يحدث من حولى، ولم يكن بوسعى عمل شىء. لم يكن الأمر سرا؛ الجميع كان يعلم – مجلس الوزراء، والريس بيومى، والمخابرات والجيش والسياسيون. كل من كان يفهم عرف خطورة الأزمة. بل إن بعضهم قارنها بالأزمة التى سبقت حرب 67، لكن لم يفعل أحد شيئا كى يوقف انزلاقنا نحو نفس الهاوية، بل أسهم البعض فى دفعنا نحوها، من أجل مكاسب شخصية، كما سيتضح .قال الريس بيومى وإخوانه إنهم سيتفاهمون مع الفصائل الفلسطينية كى يوقفوا عمليات «استيراد السلاح» من جانبهم، بحيث لا تُضطرُ الحكومة إلى مواجهة معهم. لكنهم بالطبع لم يستطيعوا «إقناع» الكل بذلك، ولا أحد يدرى ما إذا كانت هذه القيادات مخترَقة أم لا من جانب الجيش الإسرائيلى. لكن اللواء القطان كان يؤكد إن الإسرائيليين هم الذين خطّطوا لهذا الأزمة كلها، وهم الذين دفعوا عملاءهم فى «المقاومة الفلسطينية «لاستيراد هذه الكمية من الأسلحة كى يختلقوا أزمة تقود مصر وإسرائيل إلى الحرب. اللواء حامد لم ينفِ ولم يؤكد، وقال إن الأمران سيان. المهم أن الحكومة المصرية وقفت تتفرج، وسلمت السيطرة على الأمر لعدد من «قيادات «الفصائل الفلسطينية، وهؤلاء، بحسن نيتهم أو بسوئها، جرُوا مصر إلى الحرب رغما عنها.

لم يكن قصف مطار بن جوريون فى سبتمبر مفاجئا لمن يعرفون بما يجرى منذ فبراير، فمحاولات تهريب الصواريخ لم تنقطع، وبات واضحا أن المسألة مسألة وقت قبل أن تنجح إحدى هذه المحاولات. لكن حجم القصف ودقته كانا مفاجئين .وادّعى الإسرائيليون والأمريكان أن هذا القصف لا يمكن للمقاتلين الفلسطينيين القيام به، وأنهم قد اعتمدوا على خبراء إيرانيين، دخلوا من مصر. وقدموا ما أسموه معلومات وأدلة استخباراتية تثبت ذلك. اشتعل الرأى العامّ العربى فرحا بهذا القصف، وقامت مظاهرات فى مصر والدول العربية والإسلامية تؤيد الريس بيومى وحكومته لنصرتهم القضية الفلسطينية ولوقوفهم فى وجه الصلف الإسرائيلى والأمريكى. وفى نفس الوقت، تقدمت إسرائيل باحتجاج شديد وطلبت إغلاق المعبر فورا وتسليم عدد من الفلسطينيين والإيرانيين الموجودين على الأراضى المصرية، والعودة لاستخدام المعبر القديم الذى كانت تشرف عليه، وتنظيم دوريات مشتركة على الحدود لمنع تكرار ذلك فى المستقبل، وطبعا رفضت الحكومة المصرية كل هذه الطلبات، فذهبت بها إسرائيل إلى مجلس الأمن، وساندتها الدول الكبرى كلها، عدا الصين التى امتنعت عن التصويت .وفعلا أصدر مجلس الأمن القرار 2266 الشهير، الذى يطالب مصر بتنفيذ هذه الإجراءات، وبنشر بعثة مراقبة للأمم المتحدة على الحدود تشرف على مراقبة التزامها بتنفيذ تعهداتها.

قامت قيامة الرأى العامّ ضدّ قرار مجلس الأمن الظالم، وضد المعايير المزدوجة للدول التى صوّتَت لصالحه، وتجاهلته الحكومة على أمل نسيانه .لكن الحادثة كانت ضخمة، زلزلت إسرائيل كلها، وارتفعت الأصوات فى تل أبيب تطالب بشنّ ضربات فورية ضد غزة وسيناء. وساندت هذه الحملة أصواتٌ كثيرة فى واشنطن. وبالفعل بدأت إسرائيل حملة قصف عنيفة ضد قطاع غزة، ووجهت كل الضغط الذى استطاعت حشده فى واشنطن ضد مصر لإرغامها على إغلاق المعبر والاستجابة للطلبات الأخرى. لكن رد الفعل المصرى والعربى على الحادثة، والتأييد الواسع الذى حظيت به حكومة بيومى بسبب موقفها جعلا من الصعب عليها التراجع. وجاء القصف الإسرائيلى العنيف لغزة ليثير موجة أكبر من الضغط الشعبى على حكومة بيومى لمد يد العون إلى أشقائها الفلسطينيين الضحايا، الذين كانوا يتوافدون على مصر من البوابة الوحيدة المفتوحة أمامهم فى رفح، ومن ثم رفض بيومى قرار مجلس الأمن، واحتشد الشعب خلفه يسانده.

كنت أعلم يقينا أن بيومى يريد الاستجابة للقرار، وعرض من خلال اللواء حامد على الجانبين الأمريكى والإسرائيلى وضع ضوابط على عملية العبور من وإلى غزة، والاستعانة بتقنيات أمريكية لمراقبة الحدود والكشف عن الأسلحة، ولكن بعد أن تهدأ الأزمة. لكن هذه الاستجابة لم تعُد كافية بعد أن وصلت الأمور إلى حد قصف المطار الرئيسى لإسرائيل بالصواريخ وتدمير عدد من الطائرات الواقفة به بمن فيها. وفى أول أكتوبر، أى فى اليوم التالى لردِ بيومى من خلال اللواء حامد، أعلنت الولايات المتحدة نشر أسطولها حول شبه جزيرة سيناء، فى البحرين الأحمر والمتوسط وعلى مداخل ومخارج القناة، وتفتيش أى سفينة تشتبه فى حملها السلاح، تنفيذا لقرار مجلس الأمن.

حبسنا أنفاسنا، واجتاحت الرأى العامّ روح قتالية وتصميم على مقاومة الظلم الدولى حتى آخر الطريق. اجتمع مجلس الأمن القومى الذى نص عليه الدستور الجديد لأول مرة لدراسة كيفية التعامل مع هذه الأزمة .وسألت نفسى حين علمت بانعقاده إن كان قد خطر ببال عزالدين فكرى حين اقترح إنشاء هذا المجلس أن يكون ذلك أول اجتماعاته. لم أحضر بالطبع، فلم يعد ذلك من مهامِّى، لكنى علمت من اللواء حامد ثم من اللواء المنيسى والقطان بما دار .دُهشت قليلا من معرفة اللواء القطان بما دار فى الاجتماع السرى، ثم ضحكتُ من نفسى ومن دهشتى. اتصل بى حامد وطلب منى المرور على مكتبه فى الرئاسة، ووجدته شديد القلق. قال إن هذه الأزمة تتجه نحو الأسوأ، وإنه لم يكن يصدِّق أن يتصرف الريس بيومى ومساعدوه ووزراؤه بهذه الحماقة، لكن من الواضح أنه أخطأ التقدير.

سألنى عن رأيى، فطلبتُ منه الإيضاح فأخبرنى أنهم قرروا رفض التحرُّك البحرى الأمريكى باعتباره عدوانا لم ينصّ عليه قرار مجلس الأمن، وهو لا يعرف كيف يمكن الخروج من هذه الأزمة دون التفاهم مع الأمريكيين. صمت ثم أضاف أنهم ينوون مهاجمة البارجة الأمريكية الرابضة عند مدخل القناة الجنوبى،كى يكسروا شوكة الأمريكيين ويجبروهم على الانسحاب أو على الأقل يحرزوا انتصارا كبيرا يمكّنهم من التفاوض مع الأمريكيين من موقع قوة فلا يلومهم الشعب. سألته وأنا لا أكاد أصدق إن كانوا قد قرروا فعلا إعلان الحرب على الولايات المتحدة فضحك بمرارة وقال: ليس بالضبط، فالذى سيوجه الضربة إلى البارجة الأمريكية وحدة من العمليات الخاصة، ستطلق صواريخها فى الليل من ناحية العين السخنة وتختفى فى حين تعلن مجموعة جهادية مسؤوليتها عن العملية. كان يعلم أن هذه فكرة صبيانية وستؤدِّى إلى كارثة، وأكد لى أنه عارض هذه العملية لكن الباقين وافقوا عليها. الغريب، كما قال، أن اللواء المنيسى قد دعم هذه الفكرة الخرقاء.

الحلقة الثامنة والخمسون

لم تكن البارجة الأمريكية هى الضحية الوحيدة لهذه العملية الجنونية، بل عشرات من المصريين الذين لقوا حتفهم فى القصف المتبادَل. من بينهم صفية أختى وزوجها إبراهيم وأبناؤهما الثلاثة.

كانوا نائمين فى الشاليه الخاص بهم فى العين السخنة حيث جاء إبراهيم لزيارة زوجته وأبنائه منتهزا فرصة إجازة رأس السنة فى إيطاليا. وحين أخطأ صاروخان هدفهما وأصابه الثالث، ردّت البارجة فورا على مصدر النيران دون تردد أو تفكير فى المدنيين الذين قد يدفعون حياتهم ثمنا .دمّرت النيران الكثيفة عددا كبيرا من الشاليهات على الشاطئ، ولكنها لم تفلح فى القضاء على مصدر القصف. فنجحت الخلية فى إطلاق موجة ثانية من الصواريخ، أصاب اثنان منها البارجة فأعطباها، ثم فرت الخلية وواصلت البارجة قصف المنطقة بعد ذلك لمدة عشرين دقيقة على الأقل. قُدر عدد الضحايا بتسعة وسبعين قتيلا من الجانب المصرى ونحو مئتَى جريح. حدث ذلك فى الثانى من يناير الماضى، كما تعلم.

لن أحدثك عن حزنى، فلا بد أنك تذكر كيف كنا فى هذه الأيام. ما لدىّ لم يكن حزنا بالضبط بل ذهولا، ذهولا يبلغ حدّ عدم التصديق .حين أخبرنى حامد بالعملية لم أستوعب ما قاله، وصمتّ. وحين بلغتنى الأنباء فى الصباح التالى وأنا فى مكتبى لم أستوعب ما قيل لى: بارجة، وقصف، وضحايا مدنيين، والبقية فى حياتك، خبر سيئ، أختك، الشاليهات. استمعت إلى كل هذا، ثم بانصات أكبر إلى خبر مقتل صفية وأولادها وزوجها، وعشرات آخرين، دون أن تدخل هذه الأخبار فى عقلى. كأنها مزحة ماسخة. وظللت هكذا فى أثناء التعرف على الجثث، والدفن، والعزاء، صامتا ساهما، غير فاهم أو مستوعب لما يحدث حولى .ربّت الجميع علىّ واحترموا صمتى واعتبروه حزنا وحدادا، لكنه فى حقيقة الأمر كان غيابا عما يدور من حولى. لم أستوعبه، لم يتسلل إلى عقلى، إلا بعد ذلك بأسابيع، بعد أن وضعَت الحرب أوزارها واستولى الجيش على السلطة.

جاءت نور هذه المرة وحدها، دون أن يتصل بها أحد. طلبتُ من عبده أن يظلّ مع خديجة وأبنائها أطول وقت ممكن، فقد أصابتهم الصدمة بعنف ولم أكن فى حالة تسمح لى بمواساتهم. جاءت نور وظلت بجوارى. كانت صامتة، لم تخرج من اكتئابها، بل وضعته بجوار ذهولى وصرنا نحن الاثنان كشبحين، صامتين، ننظر إلى ما يحدث حولنا كأننا لا نراه.

تلاحقت الأحداث بسرعة لم تدع لأحد فرصة كبيرة للتفكير أو التمعن .وساعد التهاب المشاعر على تسريع وتيرة الأحداث وتمرير أشياء ربما لم يكن من الممكن أن تمر فى الظروف العادية. فبينما غرقت أنا فى ذهولى هبّ الشعب ألما وحزنا على الشهداء الأبرياء وصبّ جامّ غضبه على المعتدين الظالمين الذين لا يريدون لنا خيرا، المتربصين بنا من قديم الأزل. وتساءل بيومى وهو يدقّ المنصة أمام الميكروفونات: لِمَ الآن؟ لِمَ تركَتنا أمريكا وإسرائيل فى حالنا حين كنا نتخبط فى طريقنا وحين كنا يقتل بعضنا بعضا؟ ولماذا ينتبهون إلينا الآن حين صار لدينا دستور وحكومة منتخَبة تمثّل الشعب؟ وردّت الجماهير مع رئيسها بيومى: لأنهم لا يريدون لنا الخير، لأنهم يريدون إبقائنا حيث نحن، ضعفاء ومنقسمين. لكن هيهات، قال الجميع ذلك، وشعر الناس مرة أخرى بأن مصيرهم على المحكّ فاتحدت صفوفهم. وجاء قصف البارجة الأمريكية وصورها وهى تُسحَب من أمام الشواطئ المصرية غير قادرة على الإبحار وحدها ليُلهب شعور الناس بالنصر.

ركز الإعلام العربى على قيام البارجة بقصف منطقة مدنية دون تمييز، واعتبره جريمة حرب أخرى تضاف إلى قائمة طويلة من جرائم الحرب الأمريكية .وصوّر قصف البارجة باعتباره عقابا لها على عدوانها. أما فى بقية العالم فقد صُورت القصة بترتيب مختلف، كانت البارجة فيه هى المعتدى عليها .وصُوِّر ذلك التصوير نفسه فى مصر باعتباره جزءا من الحملة الغربية علينا نحن وشهدائنا الأبرار. كنت من بين القلائل الذين يعلمون أن هؤلاء الأبرار ضحايا لمعتدين آخرين، يجلسون فى مجلس الأمن القومى ويتخذون القرار باسم الشهداء. لكن هؤلاء القتلة لم يعترفوا بجرمهم، ولا حتى بفشلهم.

اللواء المنيسى، بعد أن قدم واجب العزاء فى الضحايا «الذين سقطوا بنيران الغدر والخيانة»، أشاد بالعملية «النوعية» التى أصابت واحدة من أكثر البوارج الأمريكية تقدُما، وأدت إلى انسحاب السفن الحربية الأمريكية من البحر الأحمر. لم يسأله أحد عن دم الضحايا. كانوا سعداء «بانسحاب» السفن الأمريكية، ولم يهتموا كثيرا باستمرارها أداء مهمتها من مكانها الجديد عند مدخل البحر الأحمر وعند الحدود مع السودان. ركز الإعلام العربى كله على ابتعاد السفن عن الشواطئ المصرية، غير مبالٍ باستمرارهم فى فرض الحصار البحرى وتفتيش السفن الداخلة والخارجة إلى قناة السويس ومنها ، واحتفل الجميع، حكومة وشعبا، بالنصر المُبين على الأمريكيين الأشرار.

لكن الاحتفال لم يدُم، مثلما هو الحال دوما حين يغلق الناس أعينهم عن الواقع. وبعد عدة أسابيع إضافية من الحصار، والضغط، والمماطلة، والمناوشات والمساعى والوساطات الفاشلة، وقعت عملية قصف »ديمونة» الشهيرة فى أول مارس، وشن الجيش الإسرائيلى هجوما على سيناء فى اليوم التالى. لم تدُم العمليات العسكرية طويلا، فقد تقدمت القوات الإسرائيلية واحتلّت شرم الشيخ وشرق سيناء تحت قصف جوى عنيف، وأحكمت سيطرتها على المناطق التى احتلتها خلال ثلاثة أيام. استمرّت المناوشات بعد ذلك نحو عشرة أيام بين قصف مصرى وعمليات إنزال وقصف إسرائيلى مضادّ. وأصبح واضحا بعد الأيام الأولى أن الهدف الإسرائيلى هو احتلال المنطقة الشرقية من سيناء والتمركز فيها ومنع القوات المصرية من إعادة تحريرها. اجتمع مجلس الأمن الدولى وطلب من الطرفين وقف إطلاق النار فورا، داعيا إسرائيل إلى سحب قواتها للحدود الدولية، ومصر إلى تنفيذ القرار 2266، وهو ما رفضته إسرائيل ومصر. وأعلن رئيسها محمد بيومى أنه لن يقف القتال حتى تسحب إسرائيل آخر جندى لها فى سيناء دون قيد أو شرط.

رغم الحرب الدائرة فى سيناء فإن الوضع فى القاهرة وبقية المدن ظل طبيعيا إلى حد كبير، فلم تحدث ضربات أو مواجهات فى العمق وبدا أن الطرفين راغبان فى حصر المواجهة العسكرية بينهما فى سيناء. لكن الغضب الشعبى، والصدمة والرغبة فى الانتقام كان عميقا وقويا، وتكاد تلمسه باليد .ناشدَت الحكومة المواطنين الالتزام بالهدوء والبعد عن التظاهر أو الإتيان بأى عمل من شأنه زيادة الأعباء الأمنية عليها، والتزم الناس بذلك، وتَطوّع آلاف للمساعدة فى المستشفيات والمجهود الحربى والقتال. لكن الحقيقة أن القتال كان قد توقف، عدا بعض المناوشات بالمدفعية على الحدود الخارجية لمناطق انتشار الجانبين. ستجد تفاصيل كل ذلك على الإنترنت، لكن الذى لن تجده هو ما حدث فى مقر الرئاسة، تحت سمعى وبصرى، والذى أحكيه لك كى تفهم إلى أى مدى يمكن للخسة والطمع وعمى القلب أن تقود أصحابها.

كنا فى العشرين من مارس، ومجلس الأمن القومى فى حالة انعقاد دائم. وأنا فى البيت، جالسا على السطح بجوار نور الصامتة. فجأة أرسل اللواء المنيسى يستدعينى، وطلب منى حضور اجتماعات المجلس من الآن فصاعدا وتولى كتابة محاضرها وتسليمها له. لم أفهم ساعتها السبب. تركت نور وذهبت إلى المقر الرئاسى ودخلت الاجتماع وجلست فى جانب قصىّ من الطاولة البيضاوية. كان الريس بيومى جالسا ومن حوله وزراء الدفاع والخارجية والداخلية والمالية، وقادة الأسلحة الرئيسية ومديرا المخابرات العسكرية والمخابرات العامة. لم أرَ حامد فى هذه الهيئة من قبل، وجهه صغر، ودكن لونه وازداد نحافة، وتجهمت نظرته حتى لم أعُد أعرفه.

طلب الريس بيومى من المشاركين عرض تقييم جهاتهم للوضع فى سيناء، وما توصى به من تحرك، دبلوماسى أو عسكرى. بدأ وزير الدفاع بعرض الموقف، طالبا من قادة الأسلحة بيانا بموقف أسلحتهم وتقييمهم لموقف العدو .وكانت خلاصة ما قالوه أن الوضع الحالى لا يمكن تغييره بالوسائل العسكرية، فقد دفع العدو بتعزيزات لمواقعه، وأعاد تنظيم قواته بحيث أصبح خط العريش- رأس محمد - هو محور دفاعاته، وكل ما يمكن عمله عسكريا فى الوقت الحالى هو شَغله بمناوشات فى المنطقة الواقعة غرب هذا الخط ، وإن كان استمرار ذلك يهدد بنقل المعركة إلى بقية سيناء وتهديد منطقة القناة بكثافتها السكانية العالية

.وجِمَ السياسيون عند سماع هذا، وسأله الريس بيومى فى ضيق إن كان معنى كلامه هذا هو أن نستسلم لاحتلال شرق سيناء، فردّ الوزير بأن هذا قرار سياسى، وهو يعرض الموضوع من الناحية العسكرية. فكرر الرئيس سؤاله، بنبرة لا تخلو من سخرية، فردّ وزير الدفاع هذه المرة بلفت نظره إلى أن قرارات سيادته هى التى أوصلت البلاد إلى ما هى فيه. احتدم النقاش سريعا، وتبودلت الاتهامات والنعوت. ثم طلب الريس بيومى إعداد خطة هجوم كبير على أماكن تمركز القوات الإسرائيلية لدفعها إلى الانسحاب، واحتجّ قادة الأسلحة بأن مثل هذا الهجوم لم يعد ممكنا، وعاد النقاش مرة أخرى، وفى النهاية أصرّ الرئيس بيومى على طلبه، وحين واصل القادة اعتراضهم نبّههم لكونه هو القائد الأعلى للجيش. وانفضّ المجلس على أن يعاود الاجتماع فى الثامنة مساء.

قال لى حامد بين الاجتماعين إن ما يحدث هو مزيج من القتل العمد والانتحار. بعد حديث طويل مع حامد بدأت أفيق شيئا فشيئا من الذهول المستولى علىّ وأفهم ما يدور حولى. عدنا للاجتماع المسائى الذى عرض فيه قادة الأسلحة الخطة التى طلبها الريس بيومى، وأعادوا تذكرته بمخاطر مشروعه، فهم سيستخدمون الاحتياطى الاستراتيجى للقوات، بما فى ذلك الفرق المخصصة لحماية المراكز السكانية فى الدلتا والعاصمة، وهى ليست جاهزة لقتال عدو متمترس فى مواقعه ومدرب وفى حالة استعداد قتالى أعلى. لكن بيومى لم يتزحزح: لا بديل عن القتال، قال، وتم تحديد فجر الثانى والعشرين من مارس، أى بعد الاجتماع بأقل من ثمان وأربعين ساعة، موعدا لبدء العملية.

لم يعلم أحد بهذه العملية، لأنها لم تتمّ. فالقوات التى تحركت مع أول ضوء يوم 22 مارس قامت بحصار المنشآت الحيوية فى القاهرة والمدن الكبرى، بما فى ذلك مقر الرئاسة والبرلمان ومجلس الوزراء وبقية المؤسسات، وأعلنت الإذاعة فى الثامنة صباحا قيام الجيش بإنهاء عصر الفوضى، وإزاحة الطغمة التى جثمت على صدر البلاد وأهدرت أمنها وسلامة ترابها الوطنى، والتى تهدد اليوم بتدمير ما بقى لها من قوة فى سبيل تحقيق أهداف شخصية ومغامرات غير محسوبة العواقب.

الحلقة التاسعة والخمسون

أدهش الرفض الشعبى للانقلاب كثيرين، وأنا من بينهم. فقد اعتقدنا أن الشعب قد أنهكَ من حالة الفوضى، من تقلب الحكومات، من دموية السفاح وفشل السياسيين الآخرين وانقساماتهم، ومن أزمات الاقتصاد وتعثر الخدمات، ثم من الهزيمة المروّعة واحتلال شرق سيناء. وتوقعت أن تستقبل الجماهير، الأغلبية الشهيرة بصمتها، العسكريين بالورود والأحضان والزغاريد. كما توقع البعض رد فعل عنيفا من جانب قواعد الإخوان المسلمين وأنصارهم ردا على الإطاحة بالريس بيومى ووزرائه. لكن لم يحدث هذا ولا ذاك. لا استقبل الناس العسكريين بالورود، ولا بالطوب. لكنهم وقفوا فى وجوههم وقالوا لهم أن يعودوا من حيث أتوا.

كانت المشاهد الآتية من المدن والقرى مذهلة بحق، فرغم الحرب، والتعبئة، والغضب، واليأس، والفوضى، والعداء القديم، والدم الذى أُريقَ، تعاون اتحاد الشباب الديمقراطى مع شباب الإخوان فى أنحاء مصر كلها، وأقاموا كتلا بشرية على مداخل المدن والقرى والطرق لمنع قوات الجيش من التقدم. وأحاطوا بالمبانى العامة للهيئات والوزارات والمصالح الحكومية لحمايتها من استيلاء العسكريين عليها. حدث كل هذا بتلقائية فور انتشار أخبار الانقلاب، وفى الأماكن التى سبقت إليها قوات الجيش أحاط بهم الناس فى أطواق بشرية لمنعهم من الحركة. وفى خلال أيام قليلة، أعلنت جماعات وائتلافات ومبادرات الشباب الديمقراطى والإسلامى عن قيام الجبهة الموحدة لاستعادة الحكم المدنى. رفضت هذه القيادة الدعوة التى أطلقها البعض لـ«العصيان المدنى» وقرروا بدلًا منها دعوة المواطنين كافة لـ«الطاعة المدنية»، أى دعوة المواطنين لتسيير أمورهم والاستمرار فى أعمالهم كما هم، ومن خلال القيادات المدنية الشرعية دون غيرها، وعدم الالتفات إلى أى تعليمات تصدر من جهات عسكرية. وكانت الاستجابة لهذه الدعوة شبه تامة، فاستمرت كل المصالح فى عملها دون الالتفات إلى العسكريين وتعليماتهم، ولم يتمكن قائد عسكرى واحد من دخول مصلحة أو هيئة عامة، وبعد أيام من الاضطراب وعدة محاولات فاشلة لاقتحام المؤسسات العامة قررت القيادة العامة للانقلاب التماشى مع هذه الدعوة إلى حين.

اجتمع قادة الانقلاب بعد عدة أيام وأعلنوا قبول وقف إطلاق النار بشكل مؤقت، وتشكيل مجلس لإنقاذ مصر، وطلبوا من اللواء القطان رئاسته. وافق اللواء القطان بشرط انضمام ممثلى القوى السياسية إلى المجلس، وهو ما رفضه كل من الإخوان والديمقراطيين، لكن حزبى الوفد والتجمع اللذين نجحا فى البقاء كل هذه السنوات رغم اختفاء عضويتهما بشكل شبه تام، وافقا على الانضمام، ومعهما بعض المسنين من السياسيين السابقين. إلا أن الأطواق المدنية التى أحاطت بمقر الرئاسة منعتهم والعسكريين من الدخول. وبعد عدة أيام من الانتظار، تم نقل هؤلاء المسنين إلى مبنى تابع لوزارة الدفاع، ووقف اللواء القطان فى وسطهم وأمام الكاميرا الوحيدة التى سمحوا لها بالتصوير، وأعلن موافقته على رئاسة مجلس الإنقاذ وقيادة البلاد لمرحلة انتقالية حتى يتم تحرير سيناء وتقنين العلاقة بين المدنيين والعسكريين بشكل يحمى الأمن القومى المصرى ومنع تكرار الأخطاء والمآسى التى وقعت. وأعلن الرئيس القطان، كما صار يُدعى، تعهُّده بعدم إراقة نقطة دم واحدة، وإدارة شؤون البلاد بالتشاور مع الجميع، وعدم المساس بالطابع المدنى لأجهزة الدولة، مشيدا بالدعوة التى أطلقها الشباب لـ«الطاعة المدنية». وخلال أيام قليلة تم الإفراج عن معظم الوزراء، فى حين استمر الريس بيومى وبعض المقربين منه رهن الإقامة الجبرية فى منازلهم، وظلت المؤسسات العامة محاصَرة من الجيش، دون أن يتمكن من دخولها.

وكما ترى، انقلبت حياتنا رأسا على عقب فى أشهر معدودة؛ فقدت أختى وأبناءها، ودخلنا حربا وخسرناها، ووقع انقلاب عسكرى، كل ذلك فى ستة أشهر .كنت كراكبٍ فى قطار الملاهى، غير أنى لم أركبه باختيارى، ولم يكن فى الأمر ملهاة. أُفاجأ بكارثة، وقبل حتى أن تمر أجد نفسى فى كارثة أخرى، وهكذا .ظللت أترنح فى قطار المآسى هذا ستة أشهر، حتى توقف القطار ووجدت نفسى مُلقًى على الأرض والدنيا تدور بى ولست أعرف لا أين أنا ولا ما حلّ بى بالضبط. لم أكن قد استوعبت مقتل صفية وأبنائها بعد، ولا استوعبت الطريقة التى ماتت بها، وعلمى بالعملية التى أودت بحياتها. ولم يُتَح لى الوقت كى أفكر فى حقيقة دورى أنا فى مقتلها.

ظللت ذاهلا، وصامتا، وممتنعا حتى عن التفكير فى الأمر، كأنى أغلق عقلى أمامه، ثم توالت الكوارث وكنت شاهدا عليها كلها، فصار الأمر كأنه عبث أنا المقصود به، كأن الأقدار تصفعنى كى توقظنى من ذهولى. هكذا كنت أفكر أحيانا، حين أستيقظ فى الليل وأمنِّى نفسى بأن كل هذه كوابيس، وأنى سأقوم الآن من فراشى فأجد عبده قد أعد القهوة وجلس ينتظرنى على السطح، ثم نذهب إلى المكتب، وأتحدث إلى صفية على «سكايب « وتحكى لى عن أبنائها وزوجها والحياة فى إيطاليا. لكنى ألتفت فأجد نور بجوارى، مستيقظة، وصامتة، وشاحبة، فأدرك أن ما أهرب منه لم يكن حلما، أن هذه الكوابيس كلها حقائق: صفية قُتلت، بصواريخ بارجة أمريكية قرر المجانين الذين أعمل معهم قصفها، وسيناء احتُلّت، وأعداد لا أعرفها على وجه الدقة ماتت، قُتلت فى معركة لم يكن لها ضرورة، وهناك انقلاب عسكرى كأن كل السنوات التى مرت راحت سُدًى. كأن كل شىء كان سُدًى. لم يبقَ لى أحد فى هذه الدنيا. كل من أعرفهم قُتلوا، والقلة الباقية شاحبة صامتة تنتظر دورها .أحاول النوم ثانية لكنى لا أفلح. أعلم أنى لن أفلح، فأطرد هذه الأفكار كلها وأقوم.

لكن إلى أين أطرد هذه الأفكار؟ أخرج من غرفة النوم إلى الصالة فأجد نور تحدق إلىّ والأفكار ماثلة فى ذهنى. أخرج من الصالة فأرى السطح وأتذكر كيف جئت هنا من منشية الطيران وشقتنا التى استولت عليها عائلة الطفل نصف العارى، والثورة الثانية، وركلى بالأقدام، والأمل والإحباط، ومحمود وعزالدين، وعفاف وميرفت وحسن، والمشانق والسجون والقتل. وآخرتها الرئيس القطان، وحفنة دبابات، ومفاوضات انسحاب؟ أطرد الأفكار وأخرج إلى الحديقة، تلك التى زرعت صفية نباتاتها، واحدا واحدا، بيدها، وكانت تختار لى منها زهورا للمائدة! أخرج إلى الشارع، لا أريد أن أرى الشارع، لكن إلى أين أذهب؟ أأعود إلى البيت؟ ولِمَ؟

لا أحب هذا الشعور السقيم بالرثاء لما آل إليه حالى وحالنا. أكره هذا الشعور. الذهول كان مريحا لأنه يحول بينى وبين استيعاب ما حدث. لكنه بدأ ينقشع حين توالت الكوارث وثقلت فوقه فانهار تدريجيا. ووجدت نفسى ملء نفسى، أواجهها، وأواجه ما جرى وما يجرى، وماذا عساى أن أفعل؟ تلك هى الأسئلة التى تفاديتها أعواما طويلة، ثم لم يعُد من الممكن تفاديها. لم يعد ثمة مكان أختبئ فيه أو أخفيها فيه. ليس هناك، حرفيا، مكان يمكننى الذهاب إليه دون أن أواجه هذه الأسئلة، لا البيت ولا العمل ولا الشارع، لا مع نور ولا معك، ولا مع عبده وخديجة وأبنائها، ولا مع أمك أو أبيها الرئيس وتابعه المنيسى. لا مخبأ.

لا مفر من مواجهة الأسئلة: أين كنت أنا حين وقع كل هذا؟ هل كنت شاهدا مترجما بين مقعدين، فحسب؟ هل، كما زعمت نور منذ سنوات، لم يكن بيدى فعل شىء ومن ثم كان علىّ الانسحاب حماية لروحى؟ أم هى مخطئة، وكان علىّ فعل أشياء لا الانسحاب؟ هل كان يجب علىّ الهمس بالنصيحة فى أذن الرئيس مثلما طالبنى عزالدين فكرى قبل الثورة الأولى؟ وهل كان يجب علىّ الهمس أو الصراخ فى وجه الرئيس عزالدين حين أعملَ سيفه فى الرقاب؟ هل كان من واجبى منع هؤلاء الحمقى من مهاجمة بارجة حربية وسط مساكن المدنيين؟ هل كنت أستطيع أيا من هذا أم أنى كنت مجرد شاهد، مترجم، كاتب لمحضر الجلسة؟

لكن ما الفارق؟ ما الفارق بين محاولتى التدخل وعدم التدخل؟ ألم يحاول عزالدين، بكل تصميمه وتخطيطه واحتياطاته ودراسته وعقله وحذره، ففشل فشلا ذريعا وانتهى به الأمر سفّاحا؟ ألم يحاول محمود بكل جنونه واندفاعه ومشاعره وإخلاصه ففشل أيضا وانتهى به الأمر على نفس حبل المشنقة كصاحبه؟ كيف كان يمكن لى أنا، أنا المترجم الهادئ الساكت الذى لا يعرف كيف يصوغ مشاعره وأفكاره فى حُجَج مقنعة، كيف يمكن لى، أنا، غير المتأكد دائما، أن أتدخل وأن يكون فعلى أنجع من أفعال هؤلاء؟ وبمَ كنت سأنصح لو اخترت التدخل؟ كنت سأنصح الريس بيومى والمنيسى بأن لا يهاجموا سفينة حربية من شاطئ ملىء بالسكان.
وساعتها، لو افترضنا أنهم استمعوا لى، ألن يهاجموها من مكان آخر، فيقتلوا ويقتلوا ونجد أنفسنا بعد قليل فى نفس النقطة التى نجد أنفسنا فيها الآن؟ وإن كان عزالدين قد استمع لتمتمتى المترددة الناصحة بالتخلى عن فكرته الناصعة الوضوح باستئصال شأفة السلفيين، هل كان شىء سيتغير أم كان السلفيون سيستأصلون شأفته هو وأتباعه وينتهى بنا الأمر عند نفس هذه النقطة أو أسوأ منها؟

طوفان الأسئلة هذا لم يأتِ دفعة واحدة، بل قطرة قطرة. جاءت القطرة الأولى وأنا أفكر بين وبين نفسى فى ما قالته نور عن السلبية والفن والبعد عن السياسة عندما أغلقوا لها مسرحها، ثم تزايدت القطرات بعد الانقلاب العسكرى. وكلما سألت نفسى ولم أجد الجواب زادت الأسئلة، حتى صارت لا تنقطع .وفى وسط ضجيج الأسئلة هذه طلب منى المنيسى المرور عليه فى مقر المخابرات العسكرية بشارع الطيران فى المساء. أظن أن هذا المبنى كان مقر المواجهة بين اللواء محمد نجيب والبكباشى جمال عبد الناصر فى مارس 1954. هل يُعقَل هذا؟ ستة وستون عاما وما زلنا فى نفس الموضوع! ذهبت للقاء المنيسى فوجدت الرئيس القطان فى انتظارى، وقال لى إنه يعمل هنا فى المساء ليتفادى الإزعاج فى مقر الرئاسة المؤقت بوزارة الدفاع. طلب منى العودة لعملى القديم سكرتيرا للمعلومات، ولم يترك فرصة لترددى مؤكدا أنى الشخص الوحيد الذى يعرف أين توجد الملفات وماذا حدث فى الموضوعات الرئيسية خلال سنوات الفوضى السابقة، كما سماها، ومن ثم فمن واجبى المساعدة ولو إلى حين. ثم أضاف أننا أهل، ولن يجد أحدا يثق به أكثر منى. اللواء المنيسى حضر هذه المناقشة كلها وظل يومئ موافقا ومشجِّعا. وفى طريقى للخروج مالّ علىّ وقال إنه سيطلب منهم تجهيز مكتب لى هنا للعمل به مساء حين يأتى الرئيس هنا، فى حين يمكننى الاستمرار فى العمل بمقر الرئاسة صباحا. وطلب منى إبقاء الملفات والأرشيف وكل شىء فى مكانه بمقر الرئاسة، مؤكدا أن الرئيس القطان سينتقل إليه قريبا.

الحلقة الستون

حين قلت لنور إنى سأعمل مع الرئيس القطان نظرَت إلىّ نظرة أعرفها، ولم تعلِّق. كان لا بد من كسر هذا الصمت، واستعادة الحوار بيننا، دون أن يفضى إلى شجار أو فراق. أمسكت بها وأجلستها أمامى وقلت لها إنى أحبها، ولا أريد جرحها، ولا فراقها، وإنى أسمعها، وأظن أنى أفهمها، وكل ما أطلبه منها هو بعض الوقت. اعترفت لها بأنى أراجع نفسى وأسائلها، ربما بأكثر مما تسائلنى هى، لكنى لم أجد الإجابة بعد، فالذى يجرى من حولى يسبقنى ويفوق قدرتى على الاستيعاب والفهم. كل ما طلبته منها هو البقاء بجوارى، ومنحى بعض الوقت.

لم أكذب عليها ولا على نفسى هذه المرة. كنت قد فهمت أن فرارها منى حب، وغضبها على رغبة، وسخريتها اللاذعة منى ومن الحياة أمل ممعن فى التنكر .هذه المرأة ليست يائسة، بل تدّعى اليأس على أمل أن أُريها طريقا آخر .وحتى الآن لم أفعل ذلك. كان باستطاعتى أن أعِدَها بالحماية وبالأمل وبالسعادة، وراودتنى نفسى، لكنى منعتها. تعلمت الدرس. قلت لك إن أسوأ شىء أن يكون المرء جبانا ويدّعى الرجولة. كن جبانا إن لم يكن هناك بد، لكن لا تضلِل من تحب فتجرحه مرتين. ارتكبت هذا الخطأ من قبل، فى حق داومينج البريئة، وفى حق عفاف، وفى حق نور نفسها، وربما حتى فى حق أمك .ولكنى كبرت، وعزمت على أن لا أكرره. قلت لنور الحقيقة دون وعود: أنى أسائل نفسى ولا أفهم كثيرا مما يجرى لى، وأحتاج إلى وقت كى أتعامل مع طوفان أسئلتى هذا، ثم أعود إليها وأخبرها بما قررت فعله. أومأت موافقة، وأحسب أنها فهمتنى. ولم يأخذ الأمر منى سوى بضعة أشهُر حتى عدت بالإجابات.

لم يأخذ الأمر وقتا طويلا لفهم ما يفعله القطان، وسبب إعادتى إلى العمل. لم يتغير الرئيس القطان فى شىء عن اللواء القطان أو عن العميد القطان. الرجل الذى رأيته فى صالون أبى منذ ثلاثين عاما هو هو الذى عمل فى حراسة الرئيس والذى تولى العلاقات العامة بمكتبه بعد ذلك، وهو هو الذى »طهّر» الجيش بعد الثورة الأولى. الفارق الوحيد أنه كبر ثلاثين عاما وصار أكثر «حكمة»، فتصلبت أعصابه أكثر، وضاق خلقه بالناس أكثر، وقلّ استعداده للاستماع إلى الآراء الأخرى. تَولّى القطان الرئاسة ومصر وسط تحديات عصيبة داخليا وخارجيا، وكان لا يملّ من تكرار ذلك. تابعه الملتصق به، اللواء المنيسى، هو ولا شك صاحب فكرة إعادتى. وقد أعادنى خِصيّصا يوم اجتماع مجلس الأمن القومى كى أشهد، أنا «المحايد»، على جنون الريس بيومى الذى كان سيدمر بقية الجيش فى مغامرة عسكرية فاشلة لو لم يتدخل القادة وينقذوا الموقف. وأظن أن بقائى كان مفيدا أيضا لإضفاء الطابع المدنى على الرئاسة، وربما للتواصل مع القوى السياسية التى تأتمننى بحكم العشرة وجسور الثقة التى بنيتها معهم خلال السنوات الماضية. وأعتقد أيضا أن الرئيس القطان، الذى لم يحترمنى فى يوم من الأيام، ولم يرَ فىّ غير شخص حالم يغلب عليه العَبَط وضعيف، قد أرادنى فى هذا المنصب الحساس لهذه الصفات تحديدا .وكونى زوج ابنته وأبا حفيده، حتى لو كانت علاقتى بالابنة متوقفة، أعطاه طمأنينة ناحيتى؛ هكذا هو القطان فى نهاية الأمر، لا يثق إلا بالضعفاء ومن يسيطر عليهم وأهله الأقربين، وقد ظن أنى الثلاثة معاً. كان يثق بالمنيسى، وبى، لكنى متأكد أنه كان يشكّ فينا نحن الاثنين فى نفس الوقت، ويحتاج إلى وجود كل منا كى يطمئنّ أن الآخر لن يبيعه. لهذا أرسلَنا نحن الاثنين فى هذه المهمة القاتلة.

سألنى الرئيس القطان عندما تسلمت عملى عن رأيى فى التحدى الأكثر استعجالا الذى ينبغى له مواجهته، وعندما أجبت «الاحتلال الإسرائيلى لشرق سيناء» ضحك حتى دمعت عيناه. هز رأسه وهو يمسح عينيه من دمع الضحك وسألنى عن عاقبة احتلال إسرائيل لسيناء لأكثر من عشرين عاما، أو عما فعلناه نحن بسيناء حينما «حررناها» لمدة عشرين عاما! ووسط صمتى المرتبك قال إن الأولوية الأولى والقصوى هى إعادة الاستقرار، وهيبة الدولة، وسلطة الحكومة، أما بقية الأمور فيمكن أن تنتظر. لفتُّ نظره إلى أنه لن يستطيع فعل أى من هذا دون رد العدوان الإسرائيلى، فردّ مصحّحا أن المهم هو إحساس الناس أننا نفعل ذلك، لكن فعل ذلك وحده لن يعيد الاستقرار، على العكس.

ثم أضاف حكمة أخرى، أنه من غير المهم حل أى مشكلة، فمعظم هذه المشكلات غير قابل للحل، ومن الغباء استهداف حلها بشكل جادّ لأنك ستزعج الناس كلهم وتؤلمهم وتنكد عليهم عيشتهم ثم تفشل فى نهاية الأمر، هذا إن لم ينقلبوا عليك فى الطريق ويزيحوك. ذلك كان، فى رأيه، خطأ صديقى السفاح. ومن ناحية أخرى، فإن بقاء هذه المشكلات يساعد فى تحقيق أهداف أخرى. هذه كانت حكمة وطريقة القطان، بسيطة وواضحة ومباشرة. ولم أسمعه فى يوم من الأيام يبوح بها بهذا الوضوح لأحد غيرى. ربما لرأيه المتواضع فى شخصى، وربما يكون الآخرون قد فهموا هذه القاعدة وحدهم، مثل المنيسى الذى كان يتصرف على أساس هذه الحكمة دون قولها صراحة. كذلك كانت كل المناقشات التى حضرتها فى عصر القطان تدور فى فلك هذه القاعدة، لكن دون الإقرار الصريح بها. ربما احتاج القطان أن يفسر لى قاعدة يعرفونها جميعا، فى دوائر القائمين على الانقلاب؛ ربما يعلمونهم هذه القاعدة فى أكاديمية الانقلابات العسكرية.

أيا كان الأمر، فقد طبّق القطان وأعوانه هذه القاعدة بنشاط وإخلاص وعزيمة يُحسَدون عليها. رفض تسمية ما حدث انقلابا أو حتى ثورة، وقال إنها مجرد «عملية إنقاذ»، مؤكدا طابعها المؤقّت. وبدلا من الصورة العسكرية المنضبطة القوية قرّر القطان تَبنِّى الصورة المعاكسة بالضبط: صورة الجد الحنون الذى يسعى لإرضاء الجميع ولا يعرف كيف يواجه طلبات أبنائه المتعارضة. كنت تراه فى كل مكان، فى الشمس يتصبب عرقا ووجهه يزداد حمرة ولغده يكاد يسقط من فرط شعوره بالإجهاد، وفى الليل يزور مواقع للجيش لا أحد يعرف أين هى ويبدو ساهدا مُتعَبا، وبين هذا وذاك يلتقى مع الأطراف السياسية ووفودا شعبية ويفتتح أشياء ويزور مقرات، وهو دائما يلهث، دائما مكروب. وفى تعبه وكربه هذا يبتسم ابتسامة حنونا وقلقة على مستقبل الناس، ويؤكد وحدة هذا الشعب أمام المصائب والتحديات، وعزمه إعادة ترتيب البيت من الداخل بحيث نبنى مصر حديثة وديمقراطية على أسس متينة، ونحرّر قبل كل هذا ترابنا الوطنى من دنس الاحتلال.

ولم يكن الأمر كله كلاما وصورا، بل كان هناك كثير من الأفعال، خصوصا تجاه القوى السياسية. أول مهمة واجهها القطان كانت حالة »الطاعة المدنية «التى أعلنها اتحاد الشباب الديمقراطى والإخوان الذى صار يعرف باسم حركة »معا«. سار فى خطى قادة الانقلاب الذين لم يحاولوا كسر هذه الدعوة، ثم مضى أبعد منهم بخطوة، فدعا ممثلى حركة معا إلى لقائه، ولما رفضوا أعلن قبوله الرسمى للمطالب التى استندت إليها هذه الدعوة، وإعادة تعيين كل رؤساء الهيئات والوزارات المدنيين، بمن فيهم الوزراء السابقون، فى مناصبهم. ودعا القوى السياسية للاتفاق على رئيس وزراء مدنى، ولما رفض الإخوان والديمقراطيون حاول الاتفاق مع حزبَى الوفد والتجمع، لكن قيادات الحزبين كانت كلها تشارف على التسعين وتنام فى الاجتماعات إن طالت عن ساعة، ولم يكن بينها مَن يصلح حتى لوظيفة رئيس وزراء شكلىّ. من ثم ظل القطان رئيسا للبلاد والحكومة معا. أطلق القطان أيضا مبادرات لكتابة دستور جديد دائم، وعقْد حوار وطنى لرسم معالم مرحلة انتقالية جديدة بما فى ذلك تحديد موعد للانتخابات البرلمانية والرئاسية الجديدة، وغيرها. وأهمّ من ذلك كله، أطلق سراح الريس بيومى، وأفرج عن بقية قادة الإخوان المعتقلين.

فعل القطان كل ذلك وهو ممسك بقبضة الأمن الداخلى بيد من حديد، وكانت تعليماته هى السماح لمن شاء بالتعبير عما شاء، وعدم التدخل إلا فى حالة تهديد حياة الناس أو قطع الطرق السريعة. أما إن أراد الشباب التظاهر وسد طريق فى القاهرة أو ميدان فى الإسكندرية فليتظاهروا. وإن أرادوا حصار مبنى ومنع الموظفين من الدخول، إن شاالله عنهم ما دخلوه. دعهم يفعلوا ما يشاؤون، ولا تتدخل إلا لحماية الأرواح والطرق السريعة. وحين احتجّ بعض القادة الأمنيين من أصحاب اليد الثقيلة أسكتهم، وقال لهم ساخرا أن يلتزموا بمهمة الشرطة والأمن فى الدول الديمقراطية، وهى «التنفيث» كما ادّعى .ولما سألوه ماذا يعنى بهذا أجاب إن الحرية التى يتحدث عنها الغرب وهْم، فالناس هنا مثل الناس هنا؛ يعيشون فى قبضة نظام حديدى. لكن الفرق أنهم هناك يتركون الناس تنفث عن غضبها وإحباطها، وهذا هو ما يسعى إلى تحقيقه :السيطرة مع «التنفيث».

وحين اعترض البعض بأن التنفيث هذا قد يقود إلى فقدان السيطرة، ردّ بأن البلد لم يعد بها سوى قوتين: الإخوان، وهم سيقدّرون مساحة الحرية التى يعطيها لهم، خصوصا وقد رأوا عواقب تصدُّرهم لتحمل مسؤولية مشكلات البلد بأسرها، والديمقراطيون وهم على كراهيته لهم سينقسمون كلما أعطاهم فرصة للاختيار، «وهكذا نكسب وقتا». سألته فى ما بيننا عما سيحدث بعد كسب الوقت، فابتسم وقال إنه فى الرابعة والسبعين، وغاية ما يتمناه المرء فى هذه السن هو كسب الوقت.

وفى هذا الإطار، وبنفس المنهج، بدأ القطان المفاوضات مع الإسرائيليين .ونظرا إلى حساسية هذا الموضوع فقد أعلن عن تشكيل «اللجنة الوطنية لتحرير سيناء»، ودعا كل القوى السياسية للمشاركة فيها، ولم يستطع أحد مقاطعة هذه اللجنة بالطبع، حتى شباب حركة معا. وقد حضرت اجتماعات هذه اللجنة كلها، وأشهد أنها كانت غاية فى الديمقراطية، فلم يتخذ القطان قرارا واحدا فيها إلا بأغلبية الأصوات. ولكن كل هذه القرارات كانت فارغة من المضمون، وكان يعلم هذا جيدا، ويضحك منه بعد انتهاء الاجتماعات.

الحلقة الحادية والستون

رفضت أغلبية القوى السياسية التفاوض مع الإسرائيليين قبل انسحابها من كل شبر احتلته فى الحرب الأخيرة، فقبل اللواء القطان بموقفهم وأبلغه لوسيط الأمم المتحدة المكلّف بمتابعة تنفيذ القرار 2266، »كارل فون كالتنبورج«. استغرب الوسيط هذا الموقف، وحاجَّ القطان؛ كيف سينسحبون قبل التفاوض؟ وإذا انسحبوا فما الحاجة إلى التفاوض؟! سوّفه القطان، فقد كان مقتنعا بما يقوله الوسيط، لكنه لا يريد اتخاذ موقف تلومه عليه إحدى القوى السياسية، لأن هذه هى الأولوية كما قال، أما سيناء فيمكنها الانتظار .وهكذا، ظل كالتنبورج يذهب ويجىء، وفى كل مرة نقول له كلاما ويقول لنا كلاما، ونكتب أوراقا ونعطيه إياها، ويعطينا أوراقا. وتنعقد اجتماعات فى نيويورك، وغيرها، وتنفضّ. ثم أتى الأمريكيون، والأوروبيون، والصينيون، والروس، حتى رئيس سنغافورة أتى للتوسط، وفى كل مرة نقوم بعرض موقفنا، الانسحاب ثم التفاوض، ونضيف إليه كلاما كثيرا أعفيك وإياى من إضاعة الوقت فيه.

وبحلول أغسطس كانت سياسة القطان «الحكيمة» قد آتت أُكلَها، هدّأت القوى السياسية واستقرّ الوضع الداخلى إلا من بعض الاحتجاجات والمظاهرات من وقت إلى آخر، وتاه السياسيون والرأى العامّ فى المناقشات المتعلقة برسم معالم المرحلة الانتقالية ودستور الوضع الدائم .واستمر خطاب القطان اللّيّن داخليا والقويّ الحماسى فى ما يتعلق بالاحتلال الإسرائيلى والقوى الدولية الظالمة، التى حملها أيضا مسؤولية التدهور الاقتصادى وارتفاع الأسعار وشح السلح وتأخُّر المرتبات، التى قُدِّمت للناس باعتبارها نتيجة »الحرب الاقتصادية« التى يشنها المجتمع الدولى علينا لتركيعنا.

لكننا -والقطان أولنا- كنا نعلم أن هذا الهدوء لا يمكن أن يستمرّ، فمهما كسب من الوقت فستعود المطالب وتعود المشكلات وتطرق بابه .ولاحظت أنا بصفة خاصة أن حركة «معا» أخذت تنحو منحى مختلفا كليا عن القوى السياسية، بما فيها القوى التى «تتبعها» نظريا. فقد بدأت الحركة تنسِّق عملها فى الأحياء والقرى والمدن الصغيرة، كما فعل الشباب الديمقراطى الذى بدأ السفاح مشواره معه. هذه المرة كان الأمر مختلفا وجديدا، فلم يعُد هذا النشاط قاصرا على الديمقراطيين، ولم يكن يستهدف الانتخابات المحلية. هذه المرة شمل التحرك شباب الديمقراطيين والإسلاميين معا، من داخل وخارج الإخوان، وانصبّ على بناء توافقات حول القضايا الأساسية التى تطرحها المرحلة الانتقالية. علمتُ ذلك -أول ما علمتُه- من تقارير الأمن القومى التى رصدت هذه التحركات وأعربَت للقطان عن قلقها منها. حاول الأمن إعاقتهم ثم وقفهم، لكن الشباب احتجّ بكون هذا النشاط جزءا من «الحوار الوطنى» الذى يقوده القطان، والتقطت وسائل الإعلام العامة بدء هذه المواجهات المحلية فقرر القطان التساهل وأصدر تعليماته للأمن القومى بالاكتفاء بمواصلة الرصد وتفادى المواجهة مع الشباب، والعمل بدلا من ذلك على الاتفاق مع قيادات الكتلة الديمقراطية والإخوان، من أجل تحجيم هذه الجهود التى ستضرّ بقيادتهم لتكتلاتهم كما ستضرّ بالنظام. وقال القطان لرئيس هيئة الأمن القومى فى اجتماع حضرتُه إن مواجهة الشباب ستزيد من أهميتهم ومن شعورهم بهذه الأهمية، ومن الأفضل تصغير الموضوع لا تكبيره.

وسواء كان القطان مصيبا أو مخطئا فى هذا التقدير، فإن تحرك الشباب لم يكن سوى مؤشر واحد لعدم إمكانية استمرار الحال على ما هو عليه، خصوصا فى ضوء الوضع الاقتصادى المتدهور. وهذا ما ركز القطان على مواجهته، فالوضع الاقتصادى فى نظره يمكن التعامل معه بشكل أفضل من القضايا الأخرى. لكن كعادته، وبنفس طريقته، لم يكن هدفه هو تطوير الاقتصاد، فهذا فى نظره أمر يحتاج إلى معجزات. بل سعى لضخّ بعض الأكسيجين كى تدور العجلة أفضل قليلا :بعض القروض لتمويل استيراد كميات أكبر من السلع الرئيسية ومواجهة عجز الموازنة، وربما رفع المرتبات قليلا، والعمل على اجتذاب مزيد من السياح، وبعض الاستثمارات الجديدة... هذا النوع من الإجراءات. لكن لتحقيق أى من هذا لم يكن أمامه سوى التصالح مع الأمريكيين، قلت. فردّ علىّ بأن هذا هو أسهل شىء.

وقد كان، وسلك فى ذلك نفس الطريق الذى اتبعه سابقوه من «الحكماء.«

فمن ناحية، استمر القطان فى رفض استئناف المفاوضات مع الإسرائيليين، وأبلغ مبعوث الأمم المتحدة كالتنبورج باستيائه الشديد من عودته إلى المنطقة خاوى الوفاض، وطلب منه أن لا يعود إلى القاهرة دون إقرار رسمى من الإسرائيليين بقبولهم الانسحاب من الأراضى المصرية المحتلة فى مارس 20 دون قيد أو شرط، وإعادة جميع الأسرى والمحتجزين، وإعادة بناء فنادق شرم الشيخ المدمرة، وتعويض مصر عن الأضرار التى لحقت بها جراء العدوان الإسرائيلى الغاشم، وهى الصيغة التى أقرّتها اللجنة الوطنية لتحرير سيناء .ومن ناحية أخرى، أبلغ الجانب الأمريكى استعداده للتفاهم معهم هم على كل الأمور المطلوب التفاهم عليها، كى تنسحب إسرائيل من هذه الأراضى، ما دام هذا التفاهم مع أمريكيين فقط ودون أى لقاء مباشر مع الإسرائيليين. وقال لهم، فى الاجتماع الذى حضرتُه، إنه لا يهمه ما يفعله الجانب الأمريكى مع الإسرائيليين كى نصل إلى هذا التفاهم، شريطة أن لا نسميه مفاوضات، لا مباشرة ولا غير مباشرة. وشدّد القطان على محورية هذه النقطة، وضرورة بدء المبعوث الأمريكى مهمته بالإعلان فى مؤتمر صحفى أن ما يفعله ليس مفاوضات غير مباشرة، بل حديث ثنائى بين واشنطن وعواصم المنطقة.

قد تظنّ أنى أمزح، أو أبالغ بسبب كراهيتى واحتقارى للقطان. وأنا قطعا أكرهه وأحتقره، لكنى لا أبالغ، للأسف. كان هذا بالضبط ما حدث، وليس هذا تفسيرا مِنِى بل وصف. وحين كنا نتداول فى الأمر، القطان والمنيسى وأنا، أو أنا وحامد، فإننا كنا نتداول فى الأمر من هذا المنطلق، وبهذه المعايير؛ كان المطلوب حفظ المظاهر، لا أكثر. والحقيقة أن هذا الأمر ليس جديدا؛ فهكذا كانت الأمور تُدار منذ بدأتُ العمل فى الرئاسة، منذ كنت أترجم مقالات للرئيس بينما تدكّ أمريكا مدن العراق وقراه. ولما جاءت »حكومات الثورة» أدارت الأمر بشكل أسوأ. لم يكُن أى من هذا بجديد، الجديد هو شعورى أنا به. ففى حين صدمتنى هذه الطريقة وأنا شاب فى سنك، فإنى تقبلتها ساعتها باعتبار أن هذه هى حقائق الحياة وما عداها أحلام الصِّبا .تَعوّدت عليها وقبلتُها مثلما يقبَل الأطفال حقائق الحياة إذ يكبرون: أن السنّة التى تسقط ليست للجاموسة ولا التى تأتى من العروسة، وأن أنف الكذاب لا يفضحه، بل غالبا ما ينجو بكذبته ويدفع الصادقون الثمن، وأن كونك على حق لا يضمن نجاتك من العقاب، وأن بابا نويل غير موجود أصلا، فضلا عن متابعته سلوكك طول العام وإتيانك بالهدايا إن أحسنت. مثلما نتقبل خيبات آمال الطفولة والصبا، تعلمت تقبُّل حقائق حياة الكبار التى وخزت عينى وضميرى وقلبى أول مرة رأيتها فى مكتب الرئيس.

لكن ثورة قامت منذ ذلك الوقت، وصدّقت مع من صدّقوا أن »الحقائق «القديمة لم تكن إلا أكاذيب راسخة، وأن هناك حقائق أخرى ممكنة :مثل أن نصبح كالناس الآخرين الناجحين، وأن نعمل بصدق لحماية حياتنا ومصلحتنا وأولادنا، وأن نحسم خلافاتنا معا كى نسير كلنا إلى الأمام، وأن يوسع بعضنا لبعض ونفسح مكانا للآخرين، وأن الآخرين إخوة وأخوات لنا، وأن الحق يسطع فى النهاية، والخير يربح، والجمال يشرق، وأن العدل ممكن. صدقت هذا، وما زلت أصدقه، رغم حكم العسكر، والثورة الثانية بعماها وغبائها، ومحمود بشير ومهاتراته التى حطمتنا، والسفاح مهندس القتل المنظم، والريس بيومى وبلاهته، رغم كل ذلك، ما زلت أؤمن بالحياة الأخرى التى خلنا جميعا أنها صارت بين أيدينا. وحين عاد القطان ورجاله، أعاد الأمور إلى نِصابها الذى يعرفه، نِصاب الكبار العاقلين، بعيدا عن الهبل ولعب العيال. لكنى لم أستطع الانغماس فى تلك الحياة القديمة كأن شيئا لم يكن. أول مرة لم أكن أعلم أن هناك حياة أخرى ممكنة، أما الآن فما حجتى؟

هكذا تضاعف طوفان الأسئلة، وبدأتُ أطرح على نفسى إجابات وأفكر فى مدى صوابها. قد تسأل نفسك، وتلومنى، لماذا لم أترك هذا العبث المأساوى وأستقِلْ من فورى، إما لأفضح أفعالهم الشنعاء وإما على الأقل كى أفكر فى أسئلتى وإجاباتها. وأجيبك بأن الفضيحة أمر تفعله لمرة واحدة، وهو لا يغير الكثير. أما التفكير فهو أمر لا أفعله بمعزل عن الحياة؛ لست من النوع الذى يجلس عند شاطئ البحر كى «يفكر». وحين أفعل ذلك لا أفكر فى شيء ذى قيمة .أفكارى تأتينى من حوارى مع نفسى، وأنا فى العمل، وأنا وسط الناس، وأنا أحيا. وهذه هى الحياة التى أعرفها، وكنت أحتاج إلى البقاء فيها وأنا أفكر .أحتاج لرؤية القطان والمنيسى وحامد وغيرهم وهم يعملون كى أستطيع حسم أمرى والإجابة عن أسئلتى.

سألت اللواء حامد عن رأيه فى ما يجرى، فقال لى: «كل سنة وانت طيب .«وحينما استوضحت منه ما يعنيه قال لى إن ما حدث حدث وانقضى، وللأسف يذهب البلد فى الاتجاه الخاطئ. سألته عن رأيه فى «المفاوضات» فهز كتفيه وسألنى :لمَ ستنسحب إسرائيل؟ ما الذى يدفعها؟ وماذا سنفعل إن لم تنسحب؟ سألته إن لم تكن الحرب ممكنة، بعد شهور أو سنة أو حتى أكثر، فنظر إلىّ مطوّلا وابتسم، وسألنى من الذى سيحاربها. ولمّا لم أُجبه، مال علىّ أكثر وسألنى مباشرة إن كان من أعرفهم لهم مصلحة فى محاربتها أو فى احتلالها لشرق سيناء. تمتمت بعبارات غير واضحة، فطلب منى استعادة تسلسل الأحداث منذ بدايته، منذ حادثة غزة الأولى، وسؤال نفسى عدة أسئلة بسيطة: من الذى يسيطر على الحدود وترك الصواريخ تعبر من الحدود مرات عديدة؟ ومن صاحب القرارات الغبية التى قادت إلى ضياع شرق سيناء؟ قلت له بيومى والإخوان، فسألنى: هل كان بيومى والإخوان هم من بدأ عمليات التهريب أم دخلوا على الخط بعد تحولها لأزمة؟ وهل كانوا على علم بعواقب مواقفهم الخشنة أم اندفعوا تحت تأثير الحماس والغوغائية؟ قلت الأغلب أنهم اندفعوا، فسألنى ومن الذى كان يعلم بالعواقب؟ من الذى كان معرفة العواقب من صميم عمله؟ ومَن الذى شجّع بيومى وإخوانه على هذه السياسة؟ من الذى شجّعه على ضرب البارجة؟

صُعقت، ونظرت إليه سائلا إياه بعينى إن كان يعنى ما فهمت فأومأ. سألته منذ متى وصل إلى هذه القناعة فقال منذ بدأت الأزمة، ونبّهنى أنه ألمح إلى ذلك من قبل عدة مرات. سألته عن دوره هو فى هذا فقال إنه يرأس مؤسسة تعمل لصالح صانع القرار، ولا يمكنها تَخطِّيه أو الالتفاف عليه. سكتَ، وسكتُ .ثم قال إنه قرر ترك منصبه، واتفق مع الرئيس القطان على ندبه للعمل سفيرا فى فنزويلا، ونصحنى أنا الآخر بالبحث عن باب للخروج من هذا المركب السائر إلى المجهول.

الحلقة الثانية والستون

كان اللواء حامد محقا فى نقطة واحدة على الأقل، وهو أن الإسرائيليين رفضوا الانسحاب من شرق سيناء. فى البداية قالوا إنهم سينسحبون، لكنهم طلبوا تأكيدات وضمانات بشأن منع تهريب الأسلحة والأفراد »الخطِرين» إلى غزة، وإحكام السيطرة على الحدود بين مصر وإسرائيل بحيث لا يستغلها أحد لتوجيه ضربات ضد المراكز السكانية والحيوية جنوبىّ إسرائيل .أبدى المنيسى -الذى تولى «المفاوضات» مع الجانب الأمريكى- استعداده لمناقشة الضمانات المطلوبة، ثم اكتشف أن تعريف الإسرائيليين لكلمة «الضمانات «يختلف عن تعريف القواميس لها، فهم لم يكتفوا بالتعهدات، شفوية كانت أو كتابية، وإنما أرادوا إدارة الحدود بأنفسهم. فى البداية اقترح الجانب الأمريكى الاتفاق على الإجراءات التى يتم تطبيقها على الحدود ثلاثيا، أى بين مصر وأمريكا وإسرائيل، ثم تلتزم بها مصر. قال المنيسى إن ذلك سيكون صعبا قبوله، لكنى كنت أعلم أنه سيقبله إذا قبِله الإسرائيليون. إلا أن الإسرائيليين لم يقبلوه، فمن يضمن التزام مصر بتنفيذ ما يُتفق عليه؟ وأشاروا إلى اتفاق سابق بشأن غزة تم بالطريقة التى يقترحها الأمريكيون ثم لم تلتزم به مصر ولم يستطع الإسرائيليون فعل شىء أمام ذلك، وانتهى الأمر بمطارهم مضروبا بالصواريخ.

من ثم اقترح الإسرائيليون بالإضافة إلى ذلك مراقبة تنفيذ الجانب المصرى لالتزاماته من خلال غرفة عمليات ثلاثية، مصرية-أمريكية-إسرائيلية، تراقب من خلال كاميرات ومجسّات وصور القمر الصناعى مدى تنفيذ الاتفاق على الأرض فعليا. كان هذا يعنى وضع حدود مصر مع غزة وإسرائيل تحت رقابة إسرائيلية وأمريكية مباشرة. صُدم القطان لما سمع بهذا، ثم استخفّ به باعتباره مناورة تفاوضية إسرائيلية. لكن المبعوث الأمريكى عاد بعد أيام ليضيف تفصيلا »نَسِيَه»، هو أن الإسرائيليين يشترطون إعطاء غرفة العمليات المشتركة السلطة لتوجيه التعليمات إلى حرس الحدود والشرطة المصريين فى حالة اكتشافهم خرقا لالتزامات مصر أو تهديدا ما للحدود. لم تكن تلك تفصيلة، بل تغييرا للعرض، فهذا يعنى أن غرفة المراقبة لن تكتفى بمراقبة حرس وشرطة الحدود، بل ستتحكم فى أدائهم. كان هذا احتلالا من بُعد لا انسحابا بضمانات.

جُنّ جنون القطان. وبعد أن اتصل بوزير الخارجية الأمريكى ولم يصل معه إلى شىء دعا رئيس هيئة الأركان المشتركة لزيارة القاهرة لبحث المسألة. لكن هذا أوفد قائد المنطقة الوسطى، المسؤول عن العمليات الأمريكية فى الشرق الأوسط أولا «لاستطلاع الموقف»، ولم يكن لديه جديد. وتأخرت زيارة رئيس هيئة الأركان أسبوعا إضافيا، مما جعل القطان يتوتر ويستشعر الغدر كما قال .ثم شرّفه رئيس هيئة الأركان بالزيارة أخيرا، وتم الاجتماع على جزأين، حضرت الأول منهما مع المنيسى وعدد آخر من قادة الجيش، وكان اجتماعا روتينيا شرح فيه الطرفان مواقفهما وتبادلا الأمنيات الطيبة .ثم كان هناك الجزء الثانى. الذى اقتصر على الزائر والقطان، ولا أعلم إلى اليوم ما دار فيه، لكنى حين رأيت القطان فى نهاية الاجتماع شعرت أنه شخص آخر، دون مبالغة. كأنه انطفأ. راح البريق من عينيه، وتهدلت كتفاه، وهبط مستوى نظرته، فصار ينظر إلى أقدام الناس لا وجوههم. اغتصب ابتسامة وسلّم على الوفد الزائر وأعضاء الوفد المصرى وعاد إلى غرفته، ولم أرَه بقية اليوم.

قضيت المساء مع بعض أعضاء الوفد الزائر. ذهبوا بعد الاجتماع لزيارة الأهرام والمتحف وشراء بعض التذكارات لأصدقائهم، ثم التقينا على عشاء نظمه رئيس الأركان المصرى على شرف نظيره الزائر. كانت المناسبة مراسمية بحتة، نوعا من المجاملة المتعارَف عليها بدلا من ترك الزوار يحدقون إلى سقف غرفهم بينما يتمّ تجهيز طائرتهم للرحيل فى الرابعة صباحا. قضينا العشاء فى كلمات باهتة ودعابات مكررة من الطرفين، ثم انتقلنا إلى الصالون لتناول بعض المشروبات. هناك تَقدّم منى شاب فى منتصف الثلاثينيات وقدّم لى نفسه» :توم رايلى»، الضابط المسؤول عن ملف مصر والشرق الأوسط فى مكتب رئيس الأركان. سلّمت عليه بأدب لكن دون اهتمام، ولما لاحظ عدم اهتمامى مال علىّ وقال إن بيننا صديقة مشتركة. نظرت إليه متسائلا فمال على وهمس: «سارة رمسدل.«

توم رايلى! لم أملك نفسى من الابتسام وأعدت السلام عليه بحرارة. هذا هو الشخص الذى اتصلت به سارة، تلميذة عزالدين فكرى بالجامعة، والذى دبّر لى الاتصال بكَ وبأمك وجدِك اللعين أثناء اختفائه من مصر عقب الثورة الأولى .كنت سعيدا بمقابلة الرجل، وشاكرا له، وعبّرت له عن امتنانى العميق وشعرت كأن تلك الأيام عادت. من كان يصدّق أن أتذكر تلك الأيام باعتبارها أياما جميلة تبعث ذكراها على الابتسام والفرحة! وكان توم سعيدا بنفسه بشكل صبيانى. مثل فتى أصلح درّاجة صديقه التى استعصت على الفنيين .ظلّ يهز رأسه ويبتسم لفترة حتى انتهى مخزون الابتسام والشكر، فعَلِقنا لحظة فى صمت لا نعرف ما نقول عنده. ثم سألته عن سارة، وما إذا كانت لا تزال فى الخليج العربى كما ذكرَت عند رحيلها، فهز رأسه نافيا ومال علىّ وقال بصوت خفيض إنها نُقلت إلى اليابان. سألته مستغربا: لم؟ ألم يكن يتمّ إعدادها للخدمة فى الشرق الأوسط؟ هز رأسه وقال إن ذلك كان المفترَض، لكن ظهرت عليها علامات مقلقة ففضّل قادتها نقلها بعيدا عن المنطقة.
سألته باستغراب أى علامات يقصد، فقال إنها بدأت «تتوحد مع السكان الأصليين»، فلما شاهد تعبير وجهى غير الفاهم قال إن المفترَض فى الضباط فهم ثقافة المنطقة التى يعملون فيها وظروفها وخلفياتها كى يمكنهم التعامل مع أهلها والتنبؤ بسلوكهم، وطبعا مع الفهم يأتى قدر من التعاطف. لكن البعض يغلب تعاطفه مع المنطقة التى يخدم بها على كفة تعاطفه مع الاعتبارات الاستراتيجية للولايات المتحدة، وهنا يعبر الخط الفاصل بين «الرجل الأبيض» الغازى و«السكان الأصليين». لم يحدث هذا تماما لسارة، ليس بالضبط، لكن انتقاداتها لـ«عملهم فى الخليج «زادت على المستوى المعتاد، وبدأت تتحول إلى مصدر قلق لرؤسائها المباشرين الذين لم يتمتعوا فى ما يبدو بكثير من حس الفكاهة أو الروح النقدية. ولذا قررت قيادة البحرية نقلها حماية لها من الصدام مع هؤلاء، وتم بالفعل نقلها إلى قاعدة «يوكوسوكا» البحرية المسؤولة عن التعامل مع الصين وكوريا الشمالية. استغربت أن يكون كل ذلك قد حدث لسارة، فقد كان الكل هنا يظنّها جاسوسة. ضحك توم عندما قلت له ذلك، وعلق بأن الجواسيس لا يقدّمون أنفسهم عادة باعتبارهم ضباطا فى البحرية الأمريكية؛ الجواسيس الحقيقيون لا تعرف مَن هم، وأحيانا لا تعرف حتى أنهم أمريكيون. انتبهت لجملته ولاحظ انتباهى فضحك وسألنى إن كان لدى أسرار أريد إفشاءها له، وضحكتُ بدورى وغيّرنا الموضوع.

فى تلك الأثناء لم يحدث أى تقدُّم فى «المفاوضات«، واستمرّ القطان مكتئبا والمنيسى مترددا حائرا. حاولت كسر القوقعة التى يختبئان فيها ومعرفة ما يجرى أو ما يدبّران، ولم أفلح. كل ما قاله لى القطان عندما سألته عن المفاوضات أن الإسرائيليين لن ينسحبوا طواعية، ثم سبّ الأمريكيين والإسرائيليين معا بأقذع الألفاظ، وهو أمر ليس من عاداته .سألته عما ينوى فعله فاحتدّ علىّ طالبا منى بسخريةٍ القيامَ بواجبات وظيفتى ولو مرة واحدة وتقديم الحلول بدلا من الأسئلة المزعجة.

انعقدَت بعد ذلك «اللجنة الوطنية لتحرير سيناء» وحضرها المنيسى ممثلا للرئيس القطان، وقدّم تقريرا عن المفاوضات لم يأتِ فيه على ذِكْر ما دار، بل قال إن المناقشات مع الأمريكيين مستمرة، وهم بدورهم يتناقشون مع الإسرائيليين، ونأمل أن تصل تلك المناقشات إلى حل. احتدّ بعض ممثلى القوى السياسية، وقال ممثل الإخوان إن علينا أيضا إعداد أنفسنا لوضع تفشل فيه المفاوضات ونُضطرّ إلى العودة للقتال، فأمّن المنيسى على كلامه، وطلب من المشاركين بدء التفكير فى كيفية إعداد البلاد والشعب لظروف نُضطرّ فيها إلى الحرب.

سألت المنيسى عما يعنى بكل ذلك، وعن سبب عدم مصارحتهم بما دار فى المفاوضات، فقال إن هذه هى تعليمات القطان، وجمع أوراقه وأضاف بنبرة ساخرة إنه لم يكذب فى كلمة واحدة. سألته عن الإعداد للحرب، فقال إن ذلك أفضل لهم من مطاردتنا نحن بالمطالب، كما أن أنباء الإعداد النفسى للحرب ستتسرب إلى إسرائيل وقد تدفعهم إلى تليين مواقفهم. «أو إلى التشدُّد أكثر»، قلتُ، فنظر إلىّ وقال إن الأمرين سيّان، وفى كل الأحوال ليس من هذا مخرج إلا بمواصلة التفاوض، حتى لو لم يؤدِّ إلى شىء، لكن فى هذه الأثناء يجب شَغل الناس فى شىء مفيد. غنىٌّ عن البيان أن كل هذا العبث لم يعجبنى .

وبدأت أشعر أن القطان يدبّر شيئا، فلا يمكن أن يكون هذا الكلام الفارغ هو كل استراتيجيته. لكن سؤاله لم يعُد مُجدِيا، واللواء حامد لا يبدو أنه يعرف شيئا. لا أحد يبدو أنه يعرف شيئا سوى المنيسى والقطان نفسه. وقررتُ الانتظار قليلا حتى تَبينَ الأمور.

لم يكن الأمريكان عديمى الفائدة تماما، فقد ساعدوا بالفعل فى الحصول على بعض المساعدات الاقتصادية، كما أوعزوا إلى أصدقائهم فى أوروبا والمؤسسات المالية الدولية فأبدوا تساهلا معنا فى تقديم التسهيلات المصرفية والائتمانية. ونجحت حملة الترويج السياحى فى روسيا وأوروبا الشرقية والصين فى رفع عدد السائحين بشكل ملحوظ مما أحدث بدوره رواجا اقتصاديا، وهكذا تحسنت أحوال الناس قليلا، وقدم القطان ذلك التحسُّن باعتباره أول الغيث، بداية مسيرة الإصلاح الاقتصادى التى ستجعل مصر تلحق بالنمور الإفريقية التى حققت معدلات نمو غير مسبوقة فى السنوات العشر الماضية. لكنى كنت أعلم أن كل هذا مؤقّت، كل هذا تظاهُر، كل هذا فُقّاعة، تُعطِى القطان ونظامه بعض الوقت، لكنها حتما ستنفجر.

الحلقة الثالثة والستون

لم تنفجر الفقاعة هذه المرة فى شكل ثورة، ولا احتجاجات، ولا عنف، ولا حتى مطالبات بتغيير الحكومة، بل جاءت فى شكل موجة هادئة، متدرجة، غمرت الأرض ببطء، ثم علَت وانقلبت، فغمرت الدرجة التى تعلوها، ثم الدرجة الأعلى، وهكذا، حتى باتت تهدِّد القطان نفسه ومَن معه بالغرق. أو هكذا ظن الجميع.

ابتسمتُ حين أخبرَتنى نور بما يفعله الشباب. ذكرَت الأمر فى إشارة عابرة، دون تحمُّس أو سخرية. قالت إنها حضرت معهم بعض الجلسات و«لم تكن سيئة». سألتها كيف انتهى بها الأمر هناك فقالت إن صديقة لها من الفرقة مرت عليها وأخذتها. هذه أول مرة تحدثنى نور عن التقائها أحدا من الفرقة منذ إغلاق المسرح. وقد أسعدنى ذلك، فهى بلا عائلة فى القاهرة، ومن بقى من عائلتها بعد وفاة أبويها أقارب بعيدون فى طنطا انقطعت صلتهم بها منذ أيام الجامعة. أعضاء الفرقة وأصدقاؤها فى المسرح هم كل عائلتها، وأسعدنى أن تعاود الاتصال بهم وتخرج قليلا من قوقعتها. لكنى وجدت ما قالته مشجعا لسبب آخر أيضا، فأنا، مثل كل الناس، تعبت من الفوضى وأردت أن أرى أخيرا ثمارا للثورة التى بدأت منذ تسع سنوات. وحين علمت بما يفعله هذا الشباب فهمت فورا أن هذه الموجة ستنتجح، أن هذه المرة هى المرة الصحيحة .وجزء آخر، خفى، كان سعادة شخصية بأن يأتى الخلاص على يد هؤلاء الشباب الذين درَّبهم وراهن عليهم صديقى وأخى، نصفى الآخر، قبل أن يتحول إلى قاتل منظَّم .وابتسمتُ أيضا، كصبىّ مشاكس، لأن القطان على ادعائه الذكاء وقع فى خطأ قديم قِدَم الفراعنة، وجاءته الضربة القاتلة على يد الطفل الوحيد الذى لم يُغرقه.

ما فعله الشباب كان بسيطا فى ظاهره، ويمكن لأى عارف بمصر أن يفكر فيه، لكن تنفيذه يتطلب سنوات من العمل. الخطوة الأولى اللافتة للنظر كانت تحوُّلهم من التنافس مع شباب الإخوان إلى التعاون معهم، وهى خطوة لم تكن تتطلب ذكاء فقط، بل تغييرات فى ميزان القوة كى تصبح ممكنة .فالشباب الديمقراطى لم يكن ليتعاون مع أقرانهم من الإخوان إلا بعد تثبيت قواعدهم المستقلة والاطمئنان للتأييد الذى يحظون به واكتسابهم الثقة الكافية التى تمكِّنهم من العمل مع خصومهم السياسيين. كذلك لم يكن من الممكن لشباب الإخوان التعامل معهم بندِّية إلا حين يكونون أندادا حقيقيين لهم. ثانى التغييرات هو تحوُّلهم عن السعى لإسقاط السلطة السياسية إلى التركيز على بلورة تفاهمات مع الجماعات والقوى الأخرى حول القضايا الرئيسية، بحيث يمكن لأى منهما الحكم إن وصلوا إلى مقاعده. فدخلوا فى مناقشات طويلة -بدت عقيمة للجميع، خصوصا ضباط الأمن القومى- حول كيفية التعامل مع التحديات الاقتصادية والاجتماعية، من مشكلة الفقر إلى تمويل التعليم والصحة، والاستثمار. وكيفية إعادة بناء أجهزة الدولة المختلفة، من وزارات التعليم والصحة إلى القضاء والإعلام، بالتفصيل وبشكل عملى. كما شملت تفاهمات حول شكل الدستور، ونظام الحكم، والعلاقات الخارجية، وهكذا. كانت هذه المناقشات فى حد ذاتها مهمة لخلق إحساس بين الجماعات المتفرقة بالجماعة، بأنهم يشكلون جزءا من كل، وكذلك لتركيز أنظار الناس، السياسيين منهم وغير السياسيين، إلى المشكلات الحقيقية والعملية التى تنتظر أى حكومة، ومن ثم كانت تلك المناقشات أشبه بعملية تعليم جماعى، ولم يستطع أحد وقفها، لأنها لم تكن مرتبطة بتحرُّك سياسى محدَّد، وحرص الشباب من الجانبين على إبقائها فى هذا الإطار التعليمى وعدم تعجُّل القفز إلى السياسة.

لكن المناقشات والتفاهمات تحولت إلى تحرُّك سياسى فى ما بعد. شيئا فشيئا، تحولت شبكة الحوارات هذه إلى جذور حركة سياسية قوية، معظمها من الشباب، وبدأت تدفع الطبقات التى فوقها وتضطرها إلى العمل بطريقتها. ومع الوقت اضطُرّت القيادات القديمة الممتعضة إلى الاستجابة لهذه الجذور الفتيّة، لأنها فى نهاية الأمر لم تكن تستطيع إنجاز شىء دونها. هذه العملية بدأت منذ ما قبل الانقلاب العسكرى، وكانت عملية «الطاعة المدنية «أول تجلياتها. ومن خلالها ثبتت صحة وجهة نظر الشباب فى أن الشعب سئم الاحتجاجات والمظاهرات، بل سئم الثورة نفسها واسمها ورائحتها وكل ما يذكِّره بها. فهم هؤلاء أخيرا أن الأغلبية الكاسحة من الشعب لا تريد العودة إلى الماضى، لكنها فى نفس الوقت لا تريد الثورة. كل ما تريده هو الالتفاف حول قيادة تقودهم للتغيير، لا تعيدهم إلى الماضى ولا تغرقهم فى مزيد من الثورة.

وحين دعا ائتلاف الشباب من الناحيتين إلى حركة «الطاعة المدنية» كانت الاستجابة الشعبية كاملة: كأن الناس تصرخ بالسياسيين أنهم يريدون حياة طبيعية، حياة حرة وكريمة لكن طبيعية.

ومن هنا تطورت حركة «معا»، ونقلت الحركة السياسية كلها إلى اتجاه آخر.

حققت مبادرة الطاعة المدنية هدفها، وهو الحفاظ على الإدارة المدنية للدولة من التوقف ومن السقوط فى يد العسكريين. صحيح أن القطان استغلها لصالحه، لكن الشباب لم يمانع ما دام فى الأمر فائدة أكبر .وكان هذا فى حد ذاته جزءا من طريقة التفكير الجديدة التى تَبنّوها. استمرت مبادرة الطاعة المدنية شبكةً للتعاون بينهم، ثم طوّروها إلى شبكة للرقابة على أداء أجهزة الدولة والمحليات، وهى الشبكة القديمة التى أنشؤوها فى أثناء عملهم مع السفاح. ثم طوّر الشباب الديمقراطى مراكز الخدمة الجماهيرية التى بدأها حين كان يسعى لإجهاض حكم الإخوان، والتى كانت تجمع طلبات غير القادرين على الحصول على الخدمات وتساعدهم، طوّرها مع شباب الإخوان إلى مراكز خدمة متكاملة.

وهكذا، صارت حركة «معا» أشبه بحكومة افتراضية، لديها فهْم دقيق بمشكلات الناس على اختلافها واختلافهم، ولديها معرفة واقعية بما تستطيع أجهزة الدولة القيام به، وما تستطيع الجمعيات الأهلية والمتطوعون القيام به، وحجم المطالب الشعبية غير المستجاب لها، وأنواعها، وتوزيعها .وصار شبابها على اتصال بالناس ومشكلاتهم فى أحيائهم ومدنهم وقراهم. هكذا صارت حركة »معا» جماعة سياسية جماهيرية بالمعنى الدقيق للكلمة: تعبّر عن مطالب قطاعات من الشعب، تعرف مشكلاته وتعرف ما يمكنه التضحية به وما لا يمكنه احتماله، ويعرفها ويثق بها وبناسها الذى يختلط بهم فى حياته اليومية وعاشرهم واختبرهم. حينما تتحرك جماعة كهذه، فإنها لا تتحرك وحدها، بل تجرّ وتدفع قطاعات عريضة من الشعب معها، لذا يصعب الوقوف أمام حركتها.

عندما بلغوا هذه النقطة، بدأ شباب «معا» يوسعون المناقشات والتفاهمات التى شرحتها لك على مستوى المحليات. وبحلول شهر مايو عقدوا العزم على التحرك بشكل أسرع لإنهاء حكم العسكر. ولكنهم قرروا فعل ذلك بشكل سلمى ودون اللجوء حتى إلى احتجاجات أو مظاهرات. بنوا اتفاقا عامًا حول ضرورة تفادى المواجهات مع القطان والطغمة المحيطة به والعمل على إزاحتهم سلميا من خلال عملية انتقالية تستند إلى الوعود التى قدّمها القطان نفسه وتبدو سلسة ومرنة لعموم الشعب، أى أنهم بدلا من المواجهة قرروا بناء نفق يدفعون الجميع فيه، بحيث تؤدِى الحركة نفسها إلى دفع العسكر خارج النفق. ثم بدؤوا مناقشات حول ملامح وخطوات المرحلة الانتقالية التى تلى حكم العسكر، ومن هنا، ومع التقدم فى تحقيق توافق على العملية الانتقالية، أطلقوا مبادرة المؤتمرات التأسيسية.

لم تكن المؤتمرات التأسيسية إلا امتدادا طبيعيا للمناقشات والحوارات التى دارت عبر الشهور التى سبقتها، لذا نجحت، فى اعتقادى. نظّم الشباب، من الديمقراطيين والإخوان، معا، مؤتمرا فى كل مركز ومدينة فى مصر، شارك فيه ممثلون من «معا» وآخرون انتُخِبوا. الأمن القومى الذى هاج وماج حاول بكل السبل تخريب هذه العملية، نجح فى بعض الأحيان، لكنه لم يستطع وقف العملية كلها دون الدخول فى مواجهة شاملة مع شباب «معا»، وهو ما رفضه القطان. ومع انعقاد المؤتمرات التأسيسية فى المدن والمراكز، اكتسبت العملية زخما أكبر، وبدأ الإعداد لعقد مؤتمر فى كل محافظة يكون تمهيدا لمؤتمر قومى عامّ ينتخب جمعية تأسيسية. ساعتها أدرك القطان الخطر، وبدأ يبحث عن وسيلة لإجهاض هذه العملية. وفى أول سبتمبر، بينما كان القطان يتلقى الصفعات من الأمريكيين والإسرائيلين الذين رفضوا كل مقترحاته للتسوية، كانت المؤتمرات التأسيسية تتشكل فى المحافظات، وحددت لنفسها أول أكتوبر موعدا للانعقاد. قضى القطان سبتمبر يدرس مع قادة هيئة الأمن القومى وسيلة للقضاء على هذه المؤتمرات، ولكن والحق يقال، فإن هيئة الأمن القومى لم تكن فى ذكاء وتغلغل مباحث أمن الدولة، لا كان عندها شبكتها القديمة من المخبرين والمتعاونين، ولا القدرة على مكافأة وعقاب الناس مثل أمن الدولة، ولا حتى الخبرة اللازمة للتعامل مع الناس. ومن حين إلى آخَر كنت أسمع القطان وهو يلعن اليوم الذى اجتثّ فيه عزالدين السفاح أمن الدولة وأعدم معظم قادتها.

لكن اللعن لم يُفِده كثيرا، وانتهى الأمر بأن نجحت القيادات الأمنية فى إفشال المؤتمرات التأسيسية فى المنوفية، والبحر الأحمر ومصر الجديدة (التى أصرّت على عقد مؤتمرها الخاص)، لكنها انعقدت فى كل المحافظات الأخرى. حددت هذه المؤتمرات ملامح المرحلة الانتقالية ومدتها، واتفقت على تبنِّى «الإعلان المصرى لحقوق المواطن» وثيقة دستورية حاكمة، واختار كل مؤتمر عشرة ممثلين ليشاركوا فى مؤتمر قومى تأسيسى ينعقد فى منتصف نوفمبر، وتكون مهمته بلورة الاتفاق النهائى على هذه الموضوعات وانتخاب جمعية تأسيسية تضع الدستور وتشكِّل حكومة مؤقتة، والعمل كبرلمان مؤقت إلى حين إجراء انتخابات جديدة.

كان وجه القطان محمرّا طوال هذا الشهر، وأصبح واضحا للعيان أن أيام الحكم العسكرى باتت معدودة، ولا مخرج أمامهم إلا التسليم أو استخدام القوة الصريحة لقمع الشعب. وحتى ذلك «الحل» لم يكن حلا، فالعملية التى بدأها شباب «معا» تحولت إلى عملية سياسية واسعة شاركت فيها كل القوى السياسية وشارك فيها الناس العاديون، وأصبحت مثل حية موسى التى ابتلعت كل الأفاعى الصغيرة التى ظل القطان وأمنه يحاولون إطلاقها. كبرت العملية، واحتلت كل الفضاء السياسى والاجتماعى، وكانت جاذبة للجميع، داخل مصر وخارجها، بهدوئها وشمولها وتدرجها. وربما أهم من كل هذا كانت ثابتة، متجذرة فى واقع الناس، اهتزت حين هاجمها الأمن، لكنها لم تسقط. دخل الناس فى النفق الكبير الذى بناه شباب «معا»، وصاروا يدفعون العسكر أمامهم ويتطلعون إلى النور الآتى من آخر النفق. ولم يكن أمام القطان وعساكره إلا الاستسلام أو تفجير النفق بمن فيه. وجلست أرقبه وأنتظر ردّ فعله. ولم يتأخر، إذ استدعانى ذات يوم ووجدت عنده المنيسى، وطلب منا الخروج للتمشى فى باحة المقر الرئاسى المؤقت بوزارة الدفاع، لأن لديه أمرا هاما يريد الحديث فيه دون أن تلتقطه أى وسائل تنصُّت.

الحلقة الرابعة والستون

فى البداية كدت أضحك، لكن أظن ذلك من فرط عدم استيعابى لما قاله القطان. لم أشكّ لحظة أنه يمزح، فأنا أعرفه حين يكون جادًا. وقد كان جادًا جدًا. لكن سماع الفكرة تخرج من شفتيه أضحكنى، خصوصا عندما استخدم تعبير »شوية قنابل نووية صغيرة«. ماذا ستفعل بشوية القنابل النووية الصغيرة هذه يا سيادة الرئيس؟ سألت وأنا فعلا أقاوم الرغبة فى الضحك، فشرح لى فكرته الجنونية ونحن نتمشى فى الباحة، والمنيسى يسير بجوارنا يهز رأسه من وقت إلى آخَر دون أن ينبس بكلمة، والجنود الواقفون أمام مداخل المبانى المختلفة يؤدون التحية فى إخلاص واحترام كلما مررنا بهم. آه لو عرفوا الحقيقة!

ها نحن أولاء، فى باحة وزارة الدفاع، وقد وصلنا إلى قمة الجنون. الرئيس القطان فهم أخيرا أن الإسرائيليين لن ينسحبوا من شرق سيناء، لأن انسحابهم يعرض أمنهم للخطر، فهم لا يمكنهم الوثوق بقدرة السلطات المصرية على حماية الحدود ولا برغبتها فى ذلك، خصوصا فى ظل القوة السياسية المستمرة للإخوان والتى ستضمن لهم تأثيرا. ستظل مصر فى رأيهم مصدرا للتهديد، إما بشكل مباشر إن وصل الإخوان إلى الحكم ثانية وإما بشكل غير مباشر بإغماضها العين عن تهريب الفلسطينيين للسلاح والأفراد عبر الحدود .ومن ثم سيبقون هم فى شرق سيناء ليقوموا بالمهمة بأنفسهم. والأمريكان يتفهمون موقفهم، وحتى لو لم يتفهموها فلا أحد فى واشنطن يريد الضغط على إسرائيل. نظرت إلى القطان وعيناى تسألان ما الجديد فى هذا؟ لكنه تجاهل النظرة وأكمل «تحليله «للموقف: لن يمكننا مواجهة الإخوان دون تحرير سيناء، فهم يستغلون هذا الوضع لتصوير أنفسهم كأبطال مغاوير يوشكون على تحرير فلسطين لولا منعنا لهم، كأننا نحن عملاء إسرائيل وهم الفدائيون المحررون للأرض. ويساعدهم فى هذا البُله الديمقراطيون من أتباع السفاح الذين يتلقون التمويل والتدريب من الأمريكيين وبتشجيع من الإسرائيليين، لأن وصولهم إلى الحكم يعنى استمرار حجة إسرائيل فى احتلال سيناء. الإخوان لا يعنيهم ذلك ما داموا سيعودون إلى السلطة، وقد رأيت بنفسك كيف قادنا الريس بيومى نفسه إلى الهزيمة وكيف أوشك على تدمير الجيش، لكن لا أحد يفهم، والديمقراطيون غوغائيون ويسيرون فى ركابهم. كلٌّ من الإخوان والديمقراطيين يتصرف بشكل غير مسؤول وغير وطنى.

ظللت أستمع فى انتظار دخول القنابل الصغيرة، ومغص حاد يعتصر معدتى» .وحده الجيش، وأجهزة الأمن القومى، هى التى تسهر على مصلحة هذا الوطن بتجرُّد، ومن ثم عليها مسؤولية إنقاذ الوضع»، وفى ضوء هذه المسؤولية، قرّر القطان اللجوء إلى مواجهة عسكرية مع إسرائيل لإخراجها من سيناء وردعها نهائيا عن مجرّد التفكير فى العودة. فى نفس الوقت، سيجرد تحرير سيناء الإخوان من «الكارت» الذى يضحكون به على الناس، ويعيد الأمور إلى نصابها الصحيح، ويمكن ساعتها تشكيل حكومة مدنية تهتمّ بمشكلات الناس الحقيقية وتحسن التعليم والصحة والاقتصاد المنهار بدلا من الجرى وراء شعارات الحرية والكلام الفارغ الذى لم يجرّ على الناس سوى الخراب.

و«القنابل النووية الصغيرة؟» سألت. قال إنه كلّف المنيسى منذ ثلاثة أشهر باستكشاف إمكانية شرائنا قنابل نووية تكتيكية، وذلك لاستخدامها ضد القوات الإسرائيلية فى شرق سيناء، بحيث يتم القضاء على هذه القوات فى لحظة واحدة دون الدخول فى مواجهة عسكرية ممتدة لا نملك مقوماتها فى الوقت الحالى. وماذا عن ردّ الفعل الإسرائيلى والأمريكى لهذا؟ ألن ينتقموا باستخدام أسلحة مماثلة؟ وماذا عن السكان المدنيين؟ وماذا عن آثار التفجيرات النووية على بقية مصر وعلى المنطقة المحيطة بشرق سيناء وجنوب إسرائيل؟ وماذا عن القوات والسفن الأمريكية الموجودة فى المنطقة؟ أجاب القطان عن كل هذه الأسئلة بالاستخفاف الذى اعتدته منه، لن يرد الأمريكان ولا الإسرائيليون باستخدام النووى، فسيكون لدينا مخزون يكفى لردعهم عن ذلك، وما دامت الضربة اقتصرت على شرق سيناء فلن يدخلوا فى حرب شاملة.

سألته عن رد فعله هو لو كان لديه ترسانة نووية وضربت دولة قواته بالقنابل النووية، هل سيردّ على الضربة أم يمتنع؟ فقال إنهم سيمتنعون طبعا لعلمهم أنهم لو ردُّوا لاستخدمنا مزيدا من القنابل ضدهم وساعتها لن يبقى هناك إسرائيل» .وأمريكا؟» سألت، قال قد يُصاب بعض القطع البحرية الأمريكية الموجودة فى خليج العقبة لكن هذا أمر يمكن الاعتذار عنه وسيكون من مصلحتهم احتواء هذا الجانب والاهتمام بالمشكلة الأكبر بيننا وبين إسرائيل. سكتُّ فسألنى إن كان لدىّ اعتراضات أخرى، فذكّرته بالضحايا المدنيين، فتنهد وقال إن سقوط ضحايا مدنيين أمر لا يمكن تجنُّبه تماما، ولكن سنسعى قدر الإمكان لاستخدام هذه القنابل ضد مناطق تركز القوات الإسرائيلية، وبالذات مقرات قيادتها فى العريش وشرم الشيخ ونخل، بحيث نقلِل تعرض المدنيين للأذى، «ولا تنسَ أننا نتحدث عن تحرير مصر من الاحتلال، ولو سألت الناس لتطوعوا بالتضحية بحياتهم من أجل ذلك». أما حكاية الأثر البيئى على المنطقة فقد أضحكَته، وسألنى أى بيئة أعنى، «هذا شعب يأكل الزلط.«

وهكذا، كلما أثرت نقطة ردّ عليها بالاستبعاد أو الاستخفاف أو الوعود البيّنة الزيف. كان منطقه مُغلَقا ومتكاملا ولا يمكن النفاذ إليه، فما فائدة الحديث معه؟ لم أعد أجد ما أقوله له، فصمتُّ. لدىّ مليون شىء أقوله ومليون اعتراض، لكنى لم أعد أجد ما أقوله له، فصمتُّ .أخبرنى بتفاصيل العملية: اتفق المنيسى مع وسيط صينى على شراء أربع وعشرين قنبلة نووية »صغيرة» سيحصل عليها من مصادره الخاصة فى كوريا الشمالية .سيتمّ تحميل هذه القنابل يوم 14 أكتوبر فى حاويات على سفينة تجارية تحمل آلاف الحاويات الأخرى، من بينها أربع حاويات تحمل حاسبات آلية متقدمة مسجلة باسم وزارة الدفاع ويفترض أننا نصاحبها لحساسيتها. ستبحر السفينة بشحنتها لمدة ثلاثة أسابيع حتى القاعدة العسكرية فى ميناء النصر شمال مرسى علم .طاقم هذه السفينة صينى، ولا يعلم شيئا عن الشحنة لكنه سيلتزم بتعليمات دقيقة تتعلق بخط السير وبفترات الصمت اللا سلكى الواجب عليه الالتزام به وذلك بما يجب عليهم فعله إن اعترضتهم أى من السفن الأمريكية الرابضة عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى. وسيرسلنى أنا واللواء المنيسى لمصاحبة الشحنة، وليس لنا دور سوى التصرف وقت الأزمات، من خلال اتصال مباشر بين المنيسى والقطان ليس لنا استخدامه إلا عند الضرورة القصوى. غير ذلك علينا البقاء هادئين على السفينة حتى تصل إلى الميناء يوم 5 نوفمبر. عند وصولنا إلى ميناء النصر سنجد الوسيط الصينى فى استقبالنا ليحضر عملية تحميل القنابل على الصواريخ، ثم تنطلق هذه الصواريخ فى ساعة الصفر. لا أحد غيرنا نحن الثلاثة يعرف بأمر العملية من الجانب المصرى، والوسيط الصينى لا يعرف سوى المنيسى، وليس بين أى طرف والآخر أى رابط، ومن ثم إذا قدّر الله وتمّ اكتشاف أمر الشحنة فعلينا إنكار معرفتنا بها تماما والتمسك بأننا نرافق شحنة الآلات الحاسبة الموجودة على متن السفينة.

نظر القطان إلينا ووضع يديه الاثنتين على كتفينا وقال لنا بحماس مبتذَل أن ننتبه لأنفسنا ولشحنتنا لأننا نحمل مستقبل مصر بين أيدينا. لو لم أكن أنا الواقف فى باحة المقر الرئاسى المؤقت بوزارة الدفاع، مع الرئيس القطان ومدير مخابراته العسكرية المنيسى، لظننت أن الأمر يتعلق بسيناريو فيلم من نوع الخيال العلمى. تَحوّل المغص إلى غثيان. وتحاشيت النظر إلى القطان، فمال علىّ وقال إنه سيرسلك أنت وأمك إلى بيته فى لندن لعدة شهور ريثما ينتهى الأمر كله. نظرت إليه بدهشة فقال معتذرا إن هذا من باب الاحتياط فقط.

مشينا ثلاثتنا حتى باب مكتب القطان ثم انصرفت مع المنيسى. سرنا معا وهو نصف مبتسم ولم أكن واثقا أسعيد هو بـ«إنجازه» المذهل أم يشاركنى الاعتقاد بأن القطان قد فقد رشده تماما؟ سرنا حتى خرجنا من المبنى وسألته إن كان لديه بعض الوقت فأومأ مجيبا، واستكملنا السير خارج المبنى فى الهواء الطلق. سألته عن رأيه فى هذا فوجدته متحمسا تماما للفكرة، مشددا على أن هذه العملية ستقلب موازين القوة فى المنطقة وتعيد مصر إلى موقعها الطبيعى وتقضى تماما على أسطورة إسرائيل التى لا تحيا إلا بالقوة، بل ستقضى على الوجود الأمريكى فى المنطقة وتعيد صياغتها وصياغة العلاقات العربية المصرية. لا أدرى متى أصبح المنيسى خبيرا فى السياسة الخارجية .

عاودت سؤاله عن الجوانب التى أشرت إليها مع القطان فجاءت إجاباته مطابقة لإجابات القطان. أخذت أبيّن له فساد منطقهما: كل هذه العملية قائمة على حسابات وافتراضات هشّة، وحتى لو كان بعضها معقولا فإنها غير مؤكّدة، ونحن نتحدث عن حرب نووية، والخطأ فيها لا يمكن إصلاحه. استرسلتُ فى بيان الخسائر المتوقعة فى الأرواح: نحن نتحدث عن مدينتين، العريش وشرم الشيخ !مال علىّ وقال بصوت خفيض إن هذه ميزة إضافية لـ«المشروع»، فسينهى ذلك مشكلة الدولة المزمنة مع البدو، ولما أبديت امتعاضى قال إنه يعلم أنها أرواح وكل شىء، لكن هؤلاء البدو شوكة فى حلق الدولة المركزية منذ الأزل. قلت له: أيا كان، فلا يمكن التضحية بسكان مدينتين هكذا، والمخاطرة بآثار لا نعرف حتى حجمها أو كيفية مواجهتها؛ ليس لدينا العلم ولا التقنيات ولا الأجهزة لمعالجة مثل هذه الآثار. هوّن اللواء المنيسى، الذى تحول أيضا إلى خبير فى الفيزياء النووية، من هذه المخاطر، مستشهدا بدراسات وعلماء لا أعرف عنهم شيئا.

سألته إن لم يكن من الأجدى على الأقل التريث، ودراسة الأمر مع مختصين، خصوصا قادة الأسلحة والفرق لمعرفة رأيهم، فهذه حرب ولا يمكن أن يقرر شخص واحد شنها؟ فقال لى إنه كمدير للمخابرات العسكرية يعرف تفكير ضباط الجيش كلهم تقريبا، وبالذات القادة ومساعديهم، ويستطيع أن يؤكد أن مثل هذا العمل سيلقى تأييدا واستحسانا من الأغلبية العظمى منهم. صمت وعاد المغص بقوة؛ لا أعرف أى كارثة أكبر، أن يكون حديثه هذا افتئاتا أم حقيقة! اقترحت مرة أخرى أن نؤجل، على الأقل حتى نُعِدّ أنفسنا ومستشفياتنا ومدننا لمواجهة الاحتمالات السيئة، فوافقنى على استحسان التأجيل، لكنه عاد وقال إنه لا وقت لدينا، فيجب إتمام العملية وتحرير سيناء قبل منتصف نوفمبر، بحيث نمنع انعقاد المؤتمر القومى التأسيسى ونقضى على كل العملية المرتبطة به، ونعيد صياغة الوضع السياسى «بشكل سليم وعلى أسس موضوعية دون مهاترات ومزايدات.«

الحلقة الخامسة والستون

افتقدت حامد كثيرا وسط هذه المهزلة. أعرف المدير الجديد للمخابرات لكن علاقتنا لا تسمح بالحديث الصريح الذى كنت أحتاج إليه الآن وبشدة. اتصلت بحامد فى كاراكاس وكنت حريصا جدا، فالمكالمات يسهل تتبُّعها .بعد التحية والسلام والسؤال عن فنزويلا واستقراره بها، سألنى عن الأحوال هنا فقلت له إنها أسوأ مما تركها. صمت ثم سألنى عن أحوالى أنا، فقلت إنى لا أعرف ما أفعل. سألته عن رأيه فى الأحوال هنا، فقال إن تقييمه الذى قاله لى قبل سفره، ونصيحته الشخصية لى لم يتغيرا، وهو لا يرى حلا آخر. سألته إن لم يكن هناك مخرج آخر، فقال لو كان قد وجده لما تَردّد، لكن قلة العقل تمكنت من الناس، ولم يعد هناك حل. وكرّر ما قاله بشأن نصيحته الشخصية. أذكرها جيدا تلك النصيحة، قال لى أن أبحث لنفسى عن باب للخروج من هذا المركب السائر نحو المجهول. غريب أمر حامد، فدائما ما يقول أشياء تثبت صحتها فى ما بعد، كأنها نبوءات. لا أعرف إن كان يقول هذه الأشياء بالصدفة، أم أنه يعلم دائما أشياء لا أعلمها. ظللت أفكر فى هذا وأتساءل إن كان حامد يعرف بأمر مشروع القطان النووى الجنونى؟ هل يمكن أن لا يعلم به، وهو مدير المخابرات العامة؟ أيكون قد علم به وحاول وقْفه فأبعدوه؟ هل هذا ما قصده بحديثه وهل هذا سبب رحيله المفاجئ، فقد الأمل فى القطان ومن معه كلهم؟ هل هذا ما قصده فعلا حين تَحدّث عن الخيانة: هل كان يعنى أن القطان والمنيسى وربما آخرين استدرجوا الريس بيومى إلى فخ الحرب مع إسرائيل؟ وهل يعنى هذا اتفاقهم مع الإسرائيليين أم أنهم استدرجوا بيومى إلى سياسة يعلمون أنها ستؤدِّى إلى هذه الحرب؟ فى الحالتين، أليست هذه هى بعينها الخيانة، جر البلاد إلى حرب من أجل أغراض سياسية داخلية، والتضحية بجزء من أرض مصر فى نفس الأثناء؟

تذكرت الاستخفاف الذى تحدث به القطان عن احتلال سيناء، والثقة التى بدت عليه فى البداية من انسحاب إسرائيل عن طريق التفاوض، ثم الغضب والحنق اللذين تَملّكاه حين تَعنّت الإسرائيليون. هل وعدوه ثم خذلوه؟ هل كل هذه الأشياء مرتبطة أم أنى وقعت فى خيال نظريات المؤامرة؟ ولكن أليس هذا معنى حديث حامد لى قبل سفره؟ أم أنه كان يقول كلاما عامّا مثل الكلام الذى يقوله الناس وهم يغادرون مناصبهم؟ ألم تكن نصيحته لى أن أغادر مصر مثلما فعل؟ فى محاولة أخيرة للتيقن، سألته على التليفون إن كانت المشكلة فى شخص أو اثنين أم أنها أكبر. صمت لحظة، وأظنه فهم سؤالى جيدا وعرف من أقصد، وعرف أن إجابته ستوضح لى إن كان يعلم بالأمر أم لا، ثم أجاب أن المشكلة أكبر من الاثنين اللذين أرمى إليهما، أكبر بكثير.

والآن، ما العمل؟

لا أدرى لِمَ حضرتنى صفية وبقوة فى هذه اللحظات. فى كل مرة سألت فيها القطان أو المنيسى عن الضحايا المدنيين رأيت صفية وأبناءها فى ذهنى. يوم البارجة دُهشت من عقم وسذاجة الخطة، تماما كتلك الخطة النووية. يومها لم أحرّك ساكنا، وظننت أن هؤلاء القادة الكبار، العاقلين، أصحاب النياشين والأوسمة، يعرفون ما يفعلونه. وانتهى الأمر بأختى وعائلتها وأربعة وسبعين شخصا آخر قتلى. ثم وقعت سيناء فى قبضة الاحتلال. فهل يُفترض بى الآن أن أثق بالقطان وحكمته؟ ماذا كنت لتفعل أنت يا يحيى إذا وجدت نفسك فى موقف كهذا؟

ماذا كان محمود بشير ليفعل لو كان مكانى، أو عزالدين فكرى؟ محمود كان سيصرخ فى القطان والمنيسى ومَن معه، ويقول لهم إنهم حمقى وفاشلون وتافهون ومجرمون عديمو المسؤولية. ثم يخرج من الاجتماع ويعقد مؤتمرا صحفيا يعلن فيه خطة القطان الحمقاء ويتهمهم بالخيانة ويدعو الناس إلى التظاهر وإسقاط الحكومة، وقد ينتهى به الأمر فى السجن تلك الليلة، هو وسالى القصبجى، وتبدأ الاحتجاجات، ثم ينكر القطان كل شىء.

عزالدين كان سيسأل إن كان الإعلان والضجة والاحتجاجات ستمنع القطان من تنفيذ العملية سرا، ويخلص إلى أن ذلك قد يغير تفاصيلها، لكن ما دام القطان فى السلطة فلن يثنيه عن هدفه شىء. ربما حاول التحالف مع الإخوان سريعا والإطاحة به، أو حتى اغتياله هو والمنيسى. لكن هذا لن يفيد بشىء أيضا، فأى صفقة مع القطان ستؤجّل الأمر ولن تنهيه، وأى محاولة للإطاحة به فى الوقت الحالى لن تنجح لأن العملية السياسية التى يؤيدها الشعب سائرة فى اتجاه آخر وبطريقة أخرى مختلفة تماما عن جو التحالفات والانقلابات القديم، وإن قام أحد بمثل هذه الانقلابات الآن فلن يغير فى الأمر شيئا، بل سنعود إلى نفس الدائرة، وينتهى بنا الأمر عند نقطة مشابهة بعد شهر أو سنة، وبمجنون عسكرى آخر يبحث عن حل نووى لمشكلاته، حتى دون إعداد. لا الصراخ سيفيد، ولا المؤامرات والعنف.

ظللت أفكر وأنا فى الطريق إلى مكتبى فى مقر الرئاسة .لكن الأفكار ظلت تتداخل فى رأسى حتى عجزت عن التفكير. فجلست فى المكتب أتابع بعض الأمور الروتينية وأحاول تصفية ذهنى من كل هذه الأفكار. قضيت بقية اليوم أحاول التركيز على الأشياء البسيطة واليومية كى أمنع نفسى من التفكير فى »القنابل النووية الصغيرة«، لكن ينتهى بى الأمر وأنا أتخيلها .ما حجم هذه القنابل بالضبط؟ وما شكلها؟ وهل هى «صغيرة» فعلا أم أن هذا مجرد مصطلح له علاقة بقوتها التدميرية؟ إلى كم حاوية نحتاج لشحن 24 منها؟ وكيف نحافظ عليها من الانفجار أو التلف فى الحاوية. لم يخطر ببالى يوما ما أن القنابل النووية تُحمل فى حاويات، سمعت عن قاذفات نووية، غواصات نووية، صواريخ، أما حاويات فلا. ومَن هؤلاء الذين «يبيعون» قنابل نووية؟ من هذا الصينى المجهول؟ وكيف يضمنون صدقه؟ وكم دفعوا له؟ تتزاحم هذه الأسئلة فى رأسى ثم أهزها وأعود للأشياء الأخرى عسانى أنسى الأمر برمته: خطة إجازات العاملين معى فى المكتب، جدول اجتماعات الأسبوع، طلبات المقابلات، دعوات موجهة من السفارات لحضور حفلات استقبال وعروض فنية، الأوبرا، وأبتسم وأنا أتذكر دعوة الأوبرا الأولى ونور -ألم يحِن الوقت لعودة نور للتمثيل؟- السير الذاتية للمرشحين لوظائف فى القسم، طلبات تخصيص حاسبات آلية. حاسبات آلية، وأتذكر شحنة الحاسبات الآلية الآتية للتغطية على الشحنة النووية، وأعود مرة أخرى للتفكير فى «القنابل الصغيرة.«

وأسأل نفسى مرة أخرى: ماذا يمكن أن يحدث؟ أسوأ شىء هو حدوث سيناريو مشابه لعملية البارجة، يطلقون بعض الصواريخ ويفشلون فى بقيتها، فلا يدمرون عدوهم بل يجرحونه ويثيرون جنونه، فيصب غضبه الأعمى على المدنيين، مع الفارق طبعا أن الهدف هذه المرة أكبر والصواريخ نووية، ومن ثَم سيكون الجنون والغضب وعدد الضحايا نوويا. هناك سيناريو آخر، هو نجاح المهمة، ومحو القوات الإسرائيلية المحتلة، لكن معها أيضا عدة ملايين من المصريين يسكنون فى العريش وشرم الشيخ ونخل وحولها، وإصابة أعداد غير معروفة بأمراض غير معروفة فى البحر الأحمر، ومدن القناة، وشمال السعودية وجنوب الأردن وإسرائيل. وربما تلويث مياه البحر الأحمر بإشعاعات نووية لا أحد يعرف إلى أى مدة من الزمن. وغير كل هذا، فإن إسرائيل سترد، بكل تأكيد، وربما باستخدام أسلحة مماثلة أو على الأقل بدرجة من العنف تماثل أثر تلك الأسلحة. فلو لم ترد لفقدت أى قوة ردع لديها، كأنها تدعو أعداءها إلى محوها من الوجود. لن يقبل الجيش الإسرائيلى بترك هذه الضربة دون ردّ، عمره ما ترك ضربة دون رد. على العكس، سيرون فى هذا الهجوم النووى دليلا قاطعا على ضرورة مواجهة الخطر المصرى بكل السبل، بما فيها احتلال سيناء، حتى لو أدّى ردُهم إلى رد نووى آخر من ناحيتنا. ثم ماذا يحدث حين نستهلك الأربع وعشرين قنبلة؟ نقف عُراةً أمام عدو شرس وجريح ومدجّج بالسلاح؟ هل هذه هى الخطة؟ وماذا عن أمريكا؟ ستقف وتتفرج علينا؟ والنفوذ الإسرائيلى الذى نقول صباح مساء إنه يتحكم فى واشنطن، هل سيختفى فجأة؟ أم سيدفع أصدقاء إسرائيل فى أمريكا فتنزل علينا كجلمود صخر حطه السيل من عَلِ؟ لا أصدق أصلا أن رئيس الدولة ووزير دفاعها ومدير مخابراتها يقولان هذا الهراء، بل وينفذانه!

لا، لا أستطيع تحمُّل هذه المصيبة كلها وحدى.

فكرت فى اللجوء إلى قيادة حركة «معا»، وربما دفعهم لتسريع وتيرة تحضيراتهم وعقد المؤتمر القومى فى منتصف أكتوبر بدلا من نوفمبر. لكن علاقتى بهم لا تسمح، وليس لدىّ ما أقنعهم به، وحتى إذا أقنعتهم، أشك فى قدرتهم أو قدرة أى شخص على تحريك الماكينة الثقيلة التى أطلقوها بسرعة أكبر من هذا. لم يكن هذا الحل، على وجاهته، عمليا.

اختلط علىّ الأمر بشدة، وكان علىّ إشراك أحد معى فيه، هل أحكى لنور؟ وماذا لو عملّت فيها مجنونة وقررت إبلاغ الصحافة وإعلان الأمر؟ أو قالت لأحد أصدقائها من فرقة المسرح؟ لو كانت صفية على قيد الحياة لحكيت لها :عاقلة كانت، رحمها الله، ولديها من صدق الإحساس وصواب القلب ما يهديها إلى الطريق الصحيح. ليتها كانت حية لأحكى لها. ولم يكُن فى الأمر من خطر، فهى تعرف كيف تفرق بين ما تراه صوابا وما أراه أنا صوابا وتحترم اختلافنا، ولن تفشى السر حتى لو رأت أن إفشاءه مطلوب ما دمت طلبت منها ذلك .لكن صفية لم تعد على قيد الحياة، لأن المنيسى والقطان قتلاها بمشروع مشابه لذلك الذى يخططان له الآن، وكنت شريكا لهما بصمتى عندئذ. يومها صمتُّ لأن الصمت من واجباتى، كنت أؤدى عملى. لكنى فى أدائى لعملى تركتُ الصواريخ التى قتلت أختى تمر من بين يدَىّ. فهل أؤدِى عملى وأصمت هذه المرة أيضا؟ ومن سأقتل هذه المرة بالقنابل التى يُفترض بى مرافقتها فى البحر لمدة ثلاثة أسابيع؟

الحلقة السادسة والستون

إذا صمتُ ونفّذت تعليمات الرئيس القطان وتابِعه المنيسى، فسيموت عشرات الآلاف إن لم يكن الملايين، وإن لم أنفِذ التعليمات -قل إنى رفضت واستقلت أو سافرت أو هربت- فسيذهب المنيسى وحده أو مع شخص آخر ويتمّ تنفيذ العملية ويموت نفس العدد من الناس. إذن كيف أكون مسؤولا إن شاركت إن كانت هذه المشاركة مثل عدمها؟ لو كنت قد عارضت عملية البارجة بشدة، وظللت أصرخ فى الاجتماع أن لا تفعلوها، فهل كان ذلك سيوقفهم؟ هل كنت سأجد صفية وأولادها جالسين فى حديقة بيتهم اليوم يعدون العشاء وينتظرون عودتى؟ ستقول نور إن عدم مشاركتى لن يمنع الفعل نفسه، لكنها ستحميني أنا من ذنب المشاركة. أى أن كل ما تحققه استقالتى هو إعفائى من رؤية الجريمة، كأنى أغمض عينى. وما الفائدة من إغماض العين إن كان انسحابى لن يفيد أيا من الضحايا؟ كل ما سيفعله أنه يسمح لى بادِّعاء البراءة، براءة كاذبة لأنى أعلم بالجرم قبل وقوعه، فما الفائدة؟

جاءتنى أولى الإجابات وأنا فى الطريق من المكتب إلى البيت، وأنا أفكِّر فى قنابلى النووية الصغيرة التى سأذهب لأحملها بين يدَىّ حتى هنا وأقتل بها أعدادا لا أعرفها، من بشر لا أعرفهم، لفترة لا أعرفها. مرحى أيها الرئيس. المعارضة والاستقالة ليسا حلا، لا يا نور، ليس هذا هو الحل. لم يكن ليفيدنى فى شيء لو أنى استقلت ليلة البارجة، ثم قُتلت أختى فى الفجر. لم يكن ذلك ليخفف من وقع المصيبة علىّ. المطلوب شيء آخر، المطلوب منع الجريمة نفسها، لا مجرد البعد عنها. معرفتى بالأمر جعلتنى شاهدا ومشاركا، ولا فرق بين الفئتين. لم أطلب هذه المعرفة بل فرضها على القطان فرضا. وثق بى، لغبائه أو اعتقاده في ضعفى وسذاجتى وخوفى أو لصلة القربى التى لم تنفصم بيننا، كونه جد ابنى الوحيد، أو لأنه لا يثق بأحد آخر أكثر. أيا كانت أسبابه، فقد ورطنى فى الأمر، ولم يعد يمكننى ادعاء الجهل أو البراءة. الشاهد على التخطيط للقتل مشارك، سواء مد يده بالنصل فى عنق الضحية أو نظر فى الناحية الأخرى وقت النحر. حين أخبرنى القطان بالأمر، جعلنى شريكا، ولا رجوع عن هذه الصفة. لا شيء يمكن أن يجعلنى محايدا أو حتى ضحية بريئة. العلم بالجريمة كشَف غطاء البراءة، وصار علىّ الاختيار بين المشاركة والمقاومة، لم يعد أمامى اختيار ثالث. فهل أشارك، أم أقاوم؟

لن أستطيع المشاركة. لن أستطيع المساهمة فى قتل كل هؤلاء الناس، أيا كانت الدواعى والمبررات. ربما كان يمكن إقناعى بضرورة العملية فى الماضى، وأنا شابّ، قبل عزالدين فكرى وقتل الناس بالآلاف من أجل تطبيق المشروع الثورى تطبيقا مثاليا. ربما كان يمكن إقناعى بضرورة التضحية بالأبرياء قبل أن أرى المشروعات كلها تتهاوى ولا يبقى بين يدَىّ سوى الدم. ربما كان يمكن إقناعى بضرورة العملية قبل أن أرى كيف تُتّخذ القرارات، وبأى خفة، ودون أن تحقق أهدافها أبدا. ربما كان يمكن إقناعى بضرورة العملية لو لم أكن أعلم بالظروف التى تم فيها الاحتلال، والخيانة، وبيع الضمير من أجل السيطرة. ربما كان يمكن إقناعى بضرورة العملية لو لم أكن أعلم أن هدفها الرئيسى هو منع الأغلبية المدنية من دفع العسكريين خارج السلطة التى أدمنوها. لا شيء يستحق قتل الآلاف والآلاف من البشر فى سبيله، لا شيء. لن أستطيع أن أشارك فى خنق هذه الأرواح كلها، لا ضميرى يحتمل هذا ولا ما بقى فىّ من إنسانية.

لكن لِمَ لا أنجو بنفسى ومن أحب وأسكت؟ هل عيّننى أحد مسؤولا عن العالَم؟ هل انتخبنى الناس وأمّنونى على حياتهم؟ أليس لهم رب يحميهم ويعاقب من يحاول إيذاءهم؟ فما شأنى أنا؟ أنا مسؤول عن عائلتى، عنك أنت وعن امرأتى وزوجة أخى المرتاعة وأبنائها، وربما عن عبده الذى يعيش فى كَنَفى. هذه هى حدود مسؤوليتى، ويجب أن تكون هذه أولويتى، فلِمَ لا أحميهم وأنقذهم وأفر بهم جميعا من هذا المركب الذى يسير إلى الدمار؟ لم لا آخذ بنصيحة حامد، اللواء، المتمرس، مدير المخابرات العامة، الذى يعرف كل شيء، ويعرف النظام ودواخله ومخارجه وشخصيات القائمين عليه واحدا واحدا؟ ألم يقُل لى بوضوح شديد إنهم خونة، باعوا الوطن والمصلحة العامة من أجل مصلحتهم هم، وترك منصبه، والبلاد كلها، وذهب حتى فنزويلا ليبعد عنهم أقصى ما استطاع؟ لِمَ لا أفعل مثله وأرحل إلى فنزويلا؟

ويستطيع القطان ساعتها شراء ما يريد له جنونُه من قنابل نووية، صغيرة أو كبيرة، ويفجرها حيثما شاء. له رب يعاقبه، ولهؤلاء الناس مؤسسات وأجهزة ودول تحميهم، فلِمَ أتطوع أنا؟ وإذا كان قادة هذه المؤسسات والأجهزة والدول مجانين، أو خونة ومأجورين، أو حتى أغبياء حسنى النية، فما الذى يحشرنى أنا وسطهم؟ ولِمَ أتحمّل عواقب أفعالهم؟ لِمَ لا أفرُّ أنا، ومن أحب، وأترك الناس تفعل ما يحلو لها بعيدا عنى؟

ثم ما النتيجة الحقيقية لو تَدخّلت وحاولت منع هذه العملية؟ لنقُل إنى منعت القطان والمنيسى من إتمام هذه الصفقة تحديدا، وضحّيت بحياتى ثمنا لهذا، هل هناك ما يمنعهما من معاودة الكَرّة بعد «استشهادى»؟ وحتى إذا نجحت فى إقصائهما هما الاثنين من الحكم، وتمت محاكمتهما وحبسهما بالمركز الطبى الدولى أو مستشفى المعادى العسكرى أو حتى ظلوا بمستشفى سجن طرة، هل سيمنع ذلك من يأتى بعدهما من تكرار نفس الجريمة، بنفس الشكل أو بشكل مغاير؟ أو أسوأ من هذا وذاك؟ هل هناك من يمنع مجنونا يشبههما على الجانب الإسرائيلى أن يفعل شيئا مماثلا، وأكون بذلك قد ساهمت من حيث لا أدرى فى تقديم أهلى وناسى لُقمة سائغة لعدوّ لا يقل جنونا عن القطان؟ ألم تؤدِ كل المشروعات السياسية التى رأيتها إلى كوارث أكبر من الظلم الذى كانت تحاول إصلاحه؟ هل نجحت ثورة واحدة فى التاريخ فى تحقيق العدل؟ حتى الرسول اختلف صحابته من بعده وقتل بعضهم بعضا. ألم تؤدِ ثورة 2011 إلى قتلى وإلى ضياع حياة الملايين فى فوضى وصراعات لا لزوم لها دون أن تأتى بالحرية والكرامة والعدالة التى كانت تنشدها؟ ألم يؤدِ مشروع عزالدين فكرى، المنظّم، المهندَس بحرص، إلى قتل عشرات الآلاف غير الثكالى واليتامى والجرحى؟ فيمَ المحاولة مرة أخرى إذن؟ وما الفائدة، إن كانت كل محاولة لتحقيق حرية أكبر وكرامة أشد وعدالة أكبر تنتهى إلى عكسها؟ أليست الحياة معقدة بدرجة أكبر من أن تصلحها مشروعات السياسة وأفكارها؟ ألم أفهم بعد أن لا فائدة من كل هذا؟ أن السياسة عبَث بالأقدار لا يمكن إلا أن يؤذى؟ لم لا أترك العالم لمصيره إذن؟ لم لا أترك التاريخ يأخذ مجراه مثلما تقول الكتب؟ ألم أتعلم هذا الدرس بعد كل ما رأيته؟ فلم إذن لا يزال بداخلى هذا الصوت الرفيع الذى يحثّنى على المقاومة ومنع الأذى عن آلاف الأبرياء ولو اقتضى الأمر التضحية بنفسى؟ لِمَ؟

ثم، ألا يمكن أن يكون القطان على حق، وتكون الناس فعلا لا تحتمل تطبيق ما تنادى به؟ ينادون بالحرية والعدل والمساواة، فهل يحتملونها فعلا، تلك القيم؟ هل يقبلونها لغيرهم أم يريدونها لأنفسهم فقط؟ ثاروا من أجلها منذ تسع سنوات، فأين هى تلك الحرية التى منحوها لخصومهم؟ مَن منهم تَوخّى العدل حين استطاع الظلم؟ مَن منهم عامل الآخرين بالمساواة التى كان يطلبها؟ لا أحد، لا الإخوان ولا السلفيون ولا اليساريون ولا الديمقراطيون. نادوا بالإصلاح وإعادة بناء الدولة، فمَن منهم تَحمّل ثمنه حين حاول عزالدين تطبيق إصلاحاته؟ لا أحد، اصطفُّوا فى عُرض الطريق، فقاتَلهم، ثم لفُّوا حبل المشنقة حول رقبته وتَخلّصوا من تصميمه المزعج على تنفيذ ما ينادون به. أيكون اللواء القطان على حقّ؟ ويكون هو، ومن معه، من فهموا نفسية هذا الشعب أكثر منا جميعا؟ هم الآتون من قلب الشعب والذين يشاركونه ثقافته المتوارَثة جيلا بعد جيل منذ فلاحى الدولة الفرعونية، ونحن الحالمون الذين نحاول تطبيق الحلم على الواقع قسرا، حتى حين يئنّ الواقع ألما من حلمنا وضيقه. ماذا فعل «الشعب الحر» صباح اليوم التالى لإعدام السفاح؟ ركنوا «صف تانى»، وكسروا الإشارات، وتأخروا فى مواعيد العمل؛ «أخذوا راحتهم». فلِمَ نضايقهم نحن، ونحرجهم بالسعى لتنفيذ كلام يقولونه كى يسرُّوا به عن أنفسهم؟ لم لا يكون القطان على حق، ويكون هو الذى يتقى الشر الأكبر بهذا الشر الذى نسمِّيه الاستبداد؟ أيكون اللواء القطان سيدنا الخضر وأكون أنا موسى، الغر، المتعجل؟

الحلقة السابعة والستون

من وسط هذه الأسئلة التى لا تنقطع، من التمزُّق بين اختيارات كلها مخيفة، ومن قلب الحيرة أمام نفسى وما تريد وما تستطيع وما يجب عليها، وجدت الإجابات، شيئا فشيئا. عرفت أنى لن أشارك فى مشروع الانتحار المصحوب بالقتل الجماعى الذى يخطِّط له القطان وأعوانه. وفى الطريق من المكتب إلى البيت وجدت الإجابات عن الأسئلة الأخرى. كنت ذاهبا إلى خديجة التى لم أرَها كثيرا منذ مقتل صفية. رؤيتها صارت تعذبنى؛ اقترنت بصفية التى حاولتُ تجاهل ذكراها خلال هذه الشهور. حمانى ذهولى من التمعُّن فى ما حدث لها وفى دورى فيه، وأكملت على الذهول بتجنُّب رؤية خديجة وأولادها، وأى شىء آخر يذكِّرنى بها. حتى البيت صرت أخرج منه فى الظلام ولا أعود إليه إلا متأخرا فى الليل. لكن الآن، خرجت من غيبوبة الذهول ووجدت نفسى مُلقًى على الأرض أنظر إلى الدمار الذى لحق بحياتى وحياة مَن حولى، ومَن كانوا حولى . ربما ساهم احتلال سيناء والانقلاب العسكرى فى إفاقتى، لكن الأكيد أن مشاهدتى من قرب للطريقة «الحكيمة» التى يدير بها القطان البلاد دفع عنى بقية ذهولى، كخزان ماء بارد أُلقِىَ علىّ. وجاء المشروع النووى كصفعة جعلت أذنى تَصفِر لحظات، ثم سكتت الصفارة، واستعدت حواسى.

لن أشارك، قطْعا لن أشارك.

ولن أنجو بنفسى فقط. جاءت إجابتى الثانية وأنا أعبر النفق الصغير خارجا من ميدان العباسية إلى شارع الخليفة المأمون. نظرت إلى طلبة جامعة عين شمس وهم يعبرون الطريق، وإلى اللافتات المعلقة على أسوار الجامعة تعلن دعم الطلبة لمرشحين للمؤتمر التأسيسى القادم، وخفق قلبى تعاطفا مع هؤلاء الذين لا يزال أمامهم العمر كاملا، وحضرتَ أنتَ فى عينى .كل واحد من هؤلاء الشباب مثلك. ولن أتركهم يضيعون، لن أترك القطان يقتلهم أو يقتل عملهم وتخطيطهم ومستقبلهم ومؤتمراتهم بقنابله الصغيرة. قالت نور إن على النجاة بنفسى من السياسة وآثامها، وكانت مخطئة. ولا يعنى كونها جميلة، ورائعة، ومشرقة، وتحيل الأشياء إلى كائنات أجمل حين تلمسها، وتلمّ شتات نفسى بنظرتها ولمستها وحضنها، لا يعنى ذلك كله أنها على حق. بل على العكس، حين انقضّ الريس بيومى وأتباعه المخلصون على مسرحها وقضوا على الفقاعة الجميلة التى أنشأتها لنفسها وفرّقتها، غرقت فى الاكتئاب. وحتى لو لم تكتئب، حتى لو أنشأت فقاعة أخرى، فسيأتى الأتباع المخلصون ويقضون عليها .لا مفرّ يا نور، لا مفر من المواجهة.

فهمت، وأنا فى شارع الخليفة المأمون أن خيار الفرار بنفسى ومن أحب وهم .كل فرار مؤقت، حتى يرتطم بك نيزك آخر من الاستبداد وضيق الأفق. وإن واصلتَ الفرار ستعيش فى فرار دائم. لا وجود لذلك الحلم الذى باعه لنا عمر الخيام ومن سار فى خطاه: لا وجود للحديقة الغَنّاء التى تستلقى فيها مع حبيبتك على بساط آمن وتأكلان وتشربان وتلهوان وتتحابان وتنامان على وقع الموسيقى وتستيقظان فى حبور، دون أن تشغلا بالكما بالعالم وشروره. لا مكان يا يحيى لهذا الحلم إلا فى المنام. أما هنا، فلا أمان لك دون الآخرين. لن تجد الأمان وسط الرعب، وإن خُيّل إليك أنك وجدته فاعلم أنه مؤقت، وستأتى عصا غليظة وتنقضّ عليه فى أى وقت. يمكنك التظاهر بالأمان. يمكنك مواصلة الحياة على الهامش متخيلا أن شيئا ما سيحميك: منصبك، قريب أو صديق، حسن سلوكك وبُعدك عن المشكلات، أو قلة أهميتك. لكن لا شىء من هذا يحميك حين تنزل عليك كف السلطان الظالم، على وجهك، أو مسرحك، أو فقاعتك التى صنعتَ لنفسك، أو على رأس مدينتك بكاملها، أو حتى على وجه ذلك الذى يسير بجوارك. عندها، حتى لو لم تُصِبْك الضربة مباشرة فتقتلك أو تجرحْك أو تقض على فقاعتك، فإنها ستصيب جارك، وسترى ذلك بعينيك، وينكمش فيك شىء، ينقبض فيك شىء، ينغلق فيك شىء، تتعظ، وتصير من هذا اليوم وصاعدا، ناقص الحرية، ناقص الإرادة، ناقص الشجاعة، ناقص الرجولة، ناقص الإنسانية.

لا ترضَ لنفسك بهذا المصير، أبدا.

لا مفر، حين يرتطم بك الظلم، من محاولة دفعه بيدك.

أعرف أنى أعظ، لكن هذا هو وقت الموعظة. لم يبقَ سوى ساعة وتهبط مروحيات البحرية الأمريكية وتُنهى هذا الخطاب الطويل. وأريد أن يطمئنّ قلبى أن كلمتى وصلت إليك كاملة إن أصابنى مكروه. فتَحمّل هذا القدر من الوعظ، واعلم أنى لم أقرأه فى كتاب، ولم يلقِنِّى إياه أب، بل تعلمته بالدم وبأرواح من أُحِبّ، ومن واجبى، على الأقل، إيداعه بين يديك، ولتفعل به ما شئت بعد ذلك.

لا مفر أمامك من دفع الظلم حين يأتيك، إن أردتَ البقاء إنسانا. لا أدعوك إلى تكريس حياتك لدفع الظلم، ولا أن تجوب الأرض بحثا عنه كالعنقاء كى تقتله. لكن عليك أن تكون مستعدا، فى كل لحظة، حين تنزل عصا الظلم عليك أو بجوارك، حين يرتطم بك أحد نيازك الظلم السيّارة، أن تتصدى له، مهما كان الثمن. ليس أمامك خيار آخر. فأنت إن قبلت الظلم انتهى أمرك .ولا تشغل بالك بنتيجة فِعْلك كثيرا، فلا أحد يعرف نتيجة فعله. لا يمكن لأحد أن يعرف النتيجة النهائية لفعله، لكن دفع الظلم واجب. دفع الظلم هو غاية ما أرى، لا تسعفنى عيناى برؤية أبعد من ذلك، وليس هذا ذنبى. هكذا خلقنا الله، فلِمَ نريد من أنفسنا صوابا يتجاوز قدرتنا؟

قد أكون موسى، الغرّ، المتعجّل، لكن سيدنا الخضر مات، ولا أنبياء بيننا ليخبرونا عن عواقب أفعالنا البعيدة: إن رأيت رجلا يقتل غلاما فامنعه، وإن رأيت أحدا يخرق سفينة فقِفْهُ، وإن رأيت ظالما يبنى سورا فلا تساعده. لا أحد غير الله يرى النعم المتنكرة فى صورة نقمات، فامنع النقمة، ودع البقية للخالق. ربما، إن تركتُ القطان يُلقِى بقنابله على الناس، يرسل الله قوما خيرا منهم، أو أسوأ. قد يثور الناجون فيقضون على بقية الاستبداد نهائيا، وقد يموتون ويستسلمون للظلم. لا أحد منا يعلم. لكن الأكيد أن قتل الناس دون جريرةٍ ذنبٌ، فلن أشارك فيه، وما دامت فُرضَت علىّ المشاركة أو المقاومة فسأفعل ما بوسعى كى أمنعه، وليحدث ما يحدث بعدها.

وهكذا، حين وصلت إلى بيتنا القديم فى شارع الطيران، كنت قد وجدت بقية الإجابات. وملأنى حبور واطمئنان لم أشعر بهما منذ زمن بعيد، وربما لم أشعر بهما قط. ركنت سيارتى فى موضعها القديم الذى وجدته شاغرا .وصعدت الدرَج قفزا وأنا أدندن بلحن قديم. زرت خديجة وأبناءها، وشعرت أنها تنظر إلىّ كأنها تفهم أنى عدت من غيبوبتى، وحكَت لى عن مخاوفها، ورغبتها التى تراودها فى السفر بأبنائها إلى إيطاليا والاستقرار نهائيا هناك. قلت لها أن لا تفعل ذلك، وأن تعطى الحياةَ فى مصر فرصةً أخرى، ربما عاما آخر، فلدىّ إحساس أن الأمور ستتحسن. استغربَت خديجة نغمتى المتفائلة، وابتسمت، وقالت إن هذا ما قاله لها عبده. ابتسمتُ بدورى، وسألتها ضاحكا ما الحكاية بالضبط، فاحمرت وجنتاها وأطرقت كأنها فى الثامنة عشرة. ربتُّ على كتفها، وقبّلتها على وجنتيها، وقلت لها أن تنظر إلى المستقبل ولا تخشى شيئا.

تركتُ خديجة وعدت إلى البيت. وجدت نور مستلقية أمام التليفزيون، ساهمة .أطفأتُ التليفزيون فنظرَت إلىّ مستفهمة، فأخذتها من يدها حتى منتصف الحديقة. أجلستُها، وكانت هناك لسعة برد خفيفة فالتصقتُ بها أُدفِئُها . التصقَت بى ولاح شبح ابتسامة على وجهها. جعلتُها تقسم أن لا تردّد ما سأقوله، تحت أى ظرف كان، دون موافقة صريحة منى. ثم حكيت لها كل شىء: أيام الريس بيومى، وحوادث غزة، وسلوك المنيسى وزملائه المريب، والبارجة، والاحتلال، والانقلاب، والمفاوضات، وشباب «معا»، حتى المشروع النووى. كنت أحكى وملامح وجهها تتغير: تُدهَش أحيانا وتُفجَع أحيانا وتضمُّنى كثيرا ودمع من عينيها يسيل من وقت إلى آخر ثم تمسحه. عندما أنهيت قصتى احتضنتنى مطوّلا وسألتنى عما سأفعله، فقلت لها إن هذه الجريمة فُرضت علىّ فرضا، وليس أمامى سوى المشاركة أو الفرار أو المقاومة. ونظرت إليها، فظلّت صامتة وعيناها تسائلاننى. قلت إنى لن أشارك فيها، ولن أفر منها، بل سأبقى وأدفعها. صمتَت طويلا، ثم قالت إنها تتفهم موقفى، لكنها غير مقتنعة به. ثم كررت علىّ الأسئلة التى كنت أسألها لنفسى. تناقشنا مطوّلا، وهى تتهكم على حماسى المفاجئ وشعورى بالواجب إزاء ناس لا يدافعون عن أنفسهم، ولا يحاولون إنصاف الآخرين حين يستطيعون. وكرّرَت على مسامعى موقفها العدمى من السياسة وأهلها، ورأيها فى طبيعة البشر.
وسألتنى: لمَ لا نرحل ونترك كل هذا الجنون؟ لمَ لا نذهب إلى فنزويلا نحن أيضا؟

كنت أنتظر رد الفعل هذا، عاقدًا العزم أن لا أتركها فى بحر اليأس الذى تسكنه. قلت لها أن لا خيار أمامنا إن أردنا أن لا نكون مثل من ننتقدهم، وإنى سآخذها معى، شاءت أم أبت. ابتسمَت، وسألتنى إن كنت سأخطفها فأومأتُ بالإيجاب. قالت أن لا داعىَ لذلك، وأنها ستأتى بإرادتها، لكنها تحذِّرنى من عاقبة أفعالى، فسيمزقنى الجميع إرْبا: هؤلاء الذين أقف ضدهم، وأولئك الذين أحاول مساعدتهم. سيتهموننى بالخيانة، وبأسوأ النعوت، ولن يقف بجانبى أحد. أجبتها أنى أتوقع ذلك، ولا أريد بجانبى أحدا سواها، وسألتها وعيناى فى عينيها إن كانت مستعدة لتضييع بضع سنوات من حياتها مع مترجم خائن .ابتسمَت، تلك التى تدّعى اليأس، وتَوهّج وجهها وصحصح جسمها واعتدل قوامها وجلست أمامى، ممتلئة بالحياة. تعانقنا واتفقنا: لن نذهب إلى فنزويلا، بل سنظل هنا ونواجه هذا الجنون النووى معا. قلت لها إننا سنعيد فتح المسرح بعد القضاء على القطان، وإن منعنا بيومى وخلفاؤه فسنقاومهم، فقالت لى متهكمة أن لا أبالغ فى أحلامى، وأجتهد فقط فى العودة سالما.

سألتنى ماذا سأفعل، وأجبتها أنى لا أعرف بعد. لكنى لن أفعل شيئا عقيما كمعارضته بالحجة ومحاولة إثبات فساد منطقه سواء له أو لأعوانه، فلا فائدة تُرجَى من هذا. ولن أحاول تأليب خصومه السياسيين عليه، فلن يُفضِى هذا إلى شيء. ولن أفعل شيئا صبيانيا كالتحدُث إلى الإعلام، فمن السهل على القطان وأعوانه مداراة الأمر وقلب المنضدة عليّ. المطلوب هو شيء ملموس، يوقف هذا المشروع الجنونى، ويفضح القطان ونياته ومن ثم يفضحه أمام الجميع ويسمح للشباب باستكمال العملية السياسية التى بدؤوها. قالت: «لا تفعل شيئا يعرّض حياتك للخطر»، وقلت إنى لن أعرضها للخطر عمدا، فلا نية لى فى الانتحار، ولديّ ابن أربّيه وامرأة أحبها وحياة نحياها. لكنى لن أستطيع فعل أى من هذا إن جبنت. سأقبل بعض المخاطرة، لكن دون حماقة ودون سعى للاستشهاد. قبّلَتنى موافِقة. وظللنا نقلب الأمر والاحتمالات طوال الليل ...ثم فجأة جاءَتنى الفكرة: سارة رمسدل!

الحلقة الثامنة والستون

سأُبلِغ الأمريكان بأمر الشحنة النووية.

لماذا، رغم كل ما حكيته لك، تنتابنى غُصّة لمجرّد التفكير فى ذلك؟ لماذا أتردد وأُعِيدُ النظر؟ قلت لن أشارك فى القتل الجماعى، فلِمَ أخاف الآن؟ ألِأَنّ الموضوع يمسُّ إسرائيل وأمريكا؟ هل أخاف أن تكون فعلتى هذه خيانة؟ أم أنى أخاف من اتهام الناس لى بالخيانة؟ هذه الشحنة ليست موجهة حقيقة ضدّ قوات الاحتلال، بل ضدنا نحن. لن يضرب بها القطان عدونا الذى يحتلُّ شرق سيناء بل سيضرب عدوّه هو، ذلك الذى يوشك على إزاحته وطغمته الحاكمة من سُدّة الحكم. وحين يضرب شرق سيناء بشحنته المشؤومة، لن يُنهى الاحتلال بل سيُوقِعُنا فى موت أكبر ودمار أشدّ. لماذا اختار ضرب إسرائيل تحديدا، هو الذى كان لهم صديقا وحليفا، إن لم يكن لإخافتنا ومنعنا من المعارضة؟ اختار إسرائيل، حين جرّها جرّا إلى شرق سيناء، لأنه يعرف أنها الطرف الذى لا يستطيع أحد معارضة من يواجهه. هى طوق نجاته. هو يعلم ذلك، وسَدَنَته يعلمون ذلك، وحامد يعلم ذلك، والريس بيومى وأعوانه يعلمون ذلك، وكلهم يكذبون، ويتظاهرون، ويتباكون كذبا؛ كلهم يستخدمون الاحتلال الإسرائيلى ليُخرِسُوا من يعارضهم، دون أن يفعلوا شيئا لإنهائه. وهذا الجنون المطبق، هذه القنابل النووية «الصغيرة»، لن تُنهى الاحتلال بل ستجرُنا نحو الهاوية وتتوّج القطان ومستبديه الصغار ملوكا إلى الأبد، وهو الهدف والمراد.

لا.

لست أنا الخائن.

لست أنا من أدخل الإسرائيليين إلى شرق سيناء.

لست أنا من دخل الرئاسة على جثث مواطنيه وأسِنَّة حِرَاب أعدائه.

لست أنا من افتعل حربا وخسرها كى يكسب صراعا مع خصومه السياسيين.

ملوك الطوائف هؤلاء هم الخونة، هم مَن خانوا عهد الأبرياء الذين بايعوهم على الطاعة مقابل الحماية والعدل، فلم يلقوا منهم لا هذا ولا ذاك، وانتهى بهم الأمر بين الموت والذلة.

ولن ألعب لعبتهم هذه بعد اليوم. لن أشارك فى مزيد من القتل الجماعى وإن تمّ بدعوى تحرير الوطن، ولن أفرّ تاركا الأبرياء يغرقون خلفى. فما البدائل المتاحة أمامى؟ سأقتل المشروع النووى الجنونى؛ سأوقف الشحنة فى عُرض البحر، قبل أن تصل إلى مياهنا، ولا أحد غير الأمريكيين يستطيع فعل ذلك. ليكُن. لست متأكدا من النتائج، لستُ سيدنا الخضر، ولا أعلم الغيب وما خفى، لكنى أعرف أن قتل آلاف الأبرياء جريمة وجنون، ولن أشارك فيه أو أتركه يمرّ من بين يدى.

قررت إبلاغ سارة بالفكرة العامة للموضوع، على أن تتولى هى الحديث مع أصدقائها فى قيادة هيئة الأركان المشتركة فى واشنطن وتبلغنى بموقفهم. وإن ارتحت إلى ما يقولونه فسنتفق على التفاصيل. سألتنى نور إن كنت أثق بالفتاة، وشرحت لها تاريخى معها، وتاريخها مع عزالدين، وما أخبرنى به توم رايلى، صديقها الذى جاء زائرا مع رئيس الأركان. لكن نور لم ترتَح تماما، وقالت إنها قد تكون خطئى التراجيدى الذى يُفشِل العملية كلها ويقودنى إلى نهايتى؛ ماذا لو فهمَت خطأً أو ترددت، أو غيَّرَت رأيها، أو حتى باعت القضية؟ وهكذا، لطمأنة امرأتى المتهكمة، وضعنا خطة احتياطية، ثم خطة ثالثة فى حالة فشل الثانية. لكن حتى لو فشلت الخطط الثلاث فستبقى أنتَ، وهذه الرسالة، طوق النجاة. دعنى أشرح لك.

أرسلت نور رسالة تعارُف وتذكرة منى إلى سارة على بريدها الإلكترونى الخاصّ، وهو بريد مشفّر كُنّا قد استخدمناه وقت البحث عنك أنت وأمك والقطان. وحين تَلقّت ردًا أرسلت إليها الرسالة الثانية التى أسألها فيها إن كانت على استعداد للمساعدة فى أمر سرى وخطير، وأطلب منها الرد على بريدى الإلكترونى برسالة تحية عادية إن كانت موافقة. وجاءنى هذا الرد منها على بريدى، رسالة عادية تسألنى عن أحوالى، وقد رددت على هذه الرسالة بأخرى بريئة مثلها. هكذا تطمئنّ سارة أن رسائل نور من طرفى فعلا .ثم أرسلت إليها عن طريق نور تطمينات أخرى: تفاصيل عملية البحث عن القطان والأكواد التى أعطتنى إياها للاتصال بكم وقتها. وبعد أن انتظمت قناة الاتصال غير المباشرة تلك، وأبدت سارة استعدادها للمساعدة فى الأمر الخطير الذى لا تعرفه، أخبرتها -عن طريق نور- أن الموضوع يتعلق بشحنة نووية غير قانونية يجرى شراؤها من قِبل أشخاص مهمِّين، وأنى أريد وقف الشحنة وهى فى الطريق، بشرط أخذ الشحنة إلى أمريكا لا إلى أى طرف آخر، والقبض على القائمين بالعملية وتسليمهم علانية للسلطات المصرية، وعدم استخدام أى عنف فى أثناء الوقف أو بعده إزاء من خَطّطوا وشاركوا فى العملية، وترك العقاب للسلطات المصرية. وبعد الاستغراب والتأكد من أن الموضوع ليس هزلا، وافقوا .ثم سألت سارة إن كنت أريد ملاذا آمنا بعد العملية فى سان فرانسيسكو. شكرتها وطلبت تسليمى مع الباقين للسلطات المصرية، علنا وأمام الكاميرات. ثم دخلنا فى تفاصيل أكثر: سألونى إن كنت أريد مالا فقلت لها إنى لا أريد سوى حق نشر هذه المراسلات واعترافهم بها، وطلبت تعهدا صريحا بذلك. قضينا يوما إضافيا فى هذا ثم أرسلَت إلىّ التعهُّد. وعندها أبلغتُها ببقية التفاصيل.

كنت قلقا. لا شىء مما تَعهّدَت به سارة يطمئننى تماما .ولست متأكدا مما سيفعلون بكل هذا الذى أخبرتهم به. ستبعث نور بنسخة من المراسلات إلى وكالات الأنباء إن لم يتم مهاجمة السفينة خلال أربع وعشرين ساعة من الموعد المتفَق عليه، أو إذا أخَلّ الأمريكان بأى من البنود المتفَق عليها .وستذهب نسخة احتياطية تلقائيا إلى وكالات الأنباء فى أول نوفمبر ما لم أوقفها.

وحين جاء موعد السفر مع المنيسى ودّعت خديجة وأبناءها، وهمست فى أذن عبده أنى لا أمانع فى زواجه بها، فاحتضننى ورأيت دمعا يترقرق فى عينيه لأول مرة منذ عرفته، ثم عاد للضحك والابتسام وشدّ على يدى، وأوصيته بالجميع. ودّعت نور، ووجدتها متوهجة وألقة، وهمسَت فى أذنى عند الرحيل أنها موافقة على عرضى القديم، وأن هذا أول ما ينبغى لنا فعله عندما أعود، وأرسلت إلىّ قبلة فى الهواء وأنا أمضى بالسيارة.

التقيت أنا والمنيسى مع القطان مرة أخيرة، ثم سافرنا، وأتممنا مهمتنا التعِسة خلال الأيام القليلة الماضية. مضى كل شىء بسلاسة :التقينا الوسيط الصينى، وأتممنا الإجراءات، وأعطانا موعدا لننضمّ إليه .تذكرت أيامى القديمة فى الصين، وتساءلت عما جرى لمن كنت أعرفهم هناك، وداومينج. وفى آخر يوم شاهدنا الحاسبات الآلية التمويهية واطمأنَنّا على شحنها، ثم تَعرّفنا إلى القبطان والطاقم قليل العدد وراجعنا الإجراءات، وصعدنا إلى السفينة، واطمأنّ المنيسى على مكان الشحنتين التمويهية والحقيقية. وتبادل الاتصال مع القطان من الميناء، وتَحرّكنا نحو البحر.

وها أنا ذا أكتب لك رسالتى.

ما زال عندى الكثير لأقوله لك؛ سيُتاح لنا الوقت فى ما بعد، أنا عازم على هذا. إذا هبطَت الطائرات بعد أقل من ساعة كما هو متفَق عليه، ولم تحدث كارثة، فسيُقبَض علينا جميعا ونرحل إلى قاعدة أمريكية قريبة ومنها نسلّم للسلطات المصرية أمام الكاميرات. إن خاننى الأمريكيون، فستنشر نور نَصّ المراسلات بينى وبين سارة فى الغد، وتمتلئ صحف العالم بخبر الشحنة النووية وهى لا تزال فى بحر الصين، وساعتها ستأتى أساطيل العالم كله لتوقفنا. أما إن أصابنى مكروه، هنا أو عند وصولى، فستكون تلك الرسالة بين يديك، وستكون صورة التعهدات والتفاهمات بينى وبين سارة متاحة بعد أيام قليلة. فى كل الأحوال سأفضح القطان ومن معه أمام الشعب كله، بعد أن أكون قد أزلت خطره النووى. سيتهموننى بالخيانة، وسأفضح خياناتهم المتعددة، ولنرَ من يصدِّقه الشعب.

لا شك أن البعض سيصدّقِهم، لكن الأغلبية ستميز الحق من مؤامراتهم الرخيصة. وحتى لو رأوا فى ما فعلت خيانة، ولم يفهموا أن القطان قد زجّ بإسرائيل فى الموضوع خصيصا ليُعطِى فعلته حصانة، فلن يهمّنى. المهم أن أوقف الكارثة التى يُعِدُّها وأنقذ هؤلاء الشباب من الحفرة التى يتأهب لدفنهم فيها.

لقد أخذ الأمر منا سنوات طويلة حتى وصلنا إلى هذه النقطة. وهؤلاء الشباب الذين لم يعلِّمهم أحد، ولم يدرِّبهم أحد، ولم يجدوا أحدا يقتدون به، نشئوا رغم ذلك راغبين فى الحق والخير والجمال وأطلقوا ثورة لم نرَ مثلها فى بلدنا من قبل. لكن العواجيز ضلّلوهم؛ تسع سنوات من التيه والفوضى والقتل. ورغم ذلك كله يوشكون الآن، وحدهم، على الخروج من هذا التيه. تَعلّموا من فشلهم وفشلنا، وراجَعوا أنفسهم، وأعادوا تنظيم صفوفهم بطريقة أخرى أفضل وأكثر نجاعة، ويتأهبون الآن لإزاحة هؤلاء العواجيز الخونة الذين يسدُّون الطريق والخروج. والقطان واقف عند المخرج كى يضلِّلهم ويعيدهم إلى المتاهة من جديد. لم أكن معهم فى البدايات، ولم يكن إسهامى مهما فى سنوات التيه، بل كنت شاهدا أخرس معظم الوقت. واليوم حانت ساعتى؛ هذه فرصتى كى أفعل شيئا مفيدا أعوّض به ما مضى. سأتصدى أنا لهؤلاء العواجيز القتلة. وإذا سقطنا معا فى صراعنا الدامى هذا فلا ضير، سأكون قد أسديت خدمة لا أحد غيرى يستطيع إسداءها إليك وإلى جيلك كله.

لا تقلق، لستُ أحسب نفسى موسى، ولم أتحول فجأة إلى متفائل ساذج. لا أظن أنى سأزيل بضربة واحدة كل العقبات، ولا أظن الشباب الآتى سيقيم المدينة الفاضلة. ستظل هناك مشكلات، إلى الأبد، لكنها ستكون مشكلات طبيعية كتلك التى يواجهها بقية البشر، لا مشكلات القرون الماضية التى يغرقنا بها القطان وأمثاله.

سأذهب الآن، وأريدك أن تنتبه لنفسك، ولأمك، ولزوجة عمك وأبنائها، وأن تنسى جدّك اللعين. ربما بعد أن يلقى جزاءه أو على الأقل يزاح عن فوهة المدفع الذى يجلس عليه، يمكنك عندها أن تذكر الجانب الإنسانى فيه؛ كجَدٍّ كان يحبك، بطريقته. لكن إن لم تستطع فلا تهتمّ، يغور هو وذكراه. نصيبك أن نكون أهلك؛ أن أكون أنا أباك ويكون القطان جَدّك ويكون هذا صراعنا .ونصيبك أنى وأمك لم نستطِع الحياة معا. عليك التخلص من كل هذه القصص؛ تذكرها كقصص أبويك وأجدادك، لا قصصك أنت. قصصك أنت ستبدأ، فلا تنظر خلفك كثيرا. وتَذكّر أن مكانك هنا، وسط هؤلاء الشباب الذين يشبهونك وتشبههم .فأينما ذهبت لا تنسَ أنهم هنا؛ يحتاجون إليك وتحتاج إليهم، ولو لم تدرك ذلك.

ليست هذه الكلمات للوداع، فلست أنوى الموت الآن. سأخوض هذه المواجهة الأخيرة مع قوى الشر، ثم أعود وأحيا حرا فخورا بأدائى واجبى دون جبن أو تراجع. واضح أنى أكرر ما أقوله، وأنى لا أعرف كيف أنهى خطابى الطويل لك .حسن، سأنهيه هنا، هكذا. الساعة الآن الثالثة والنصف صباحا، ولم يبقَ سوى نصف ساعة على وصول مروحيات سارة. سأقوم الآن لأُعِدّ لنفسى قهوة أخيرة على هذا المركب استعدادا لما هو آتٍ.

لا تذهب بعيدا، فأنا عائد إليك.

تمت بحمد الله